



العتبة العباسية المقدسة
فيتم الشؤون الفكرية والثقافية

الإمام محمد بن علي السليمان بقية العالم

تأليف

السيد زهير طالب الاعرجي

الكتاب الفائز في مسابقة أفضل مؤلف بحق الإمام الباقر

لعام ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م

شعبة الدراسات والبحوث والنشر



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

شعبة الدراسات والنشر

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف: ٢٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٢

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

الاعرجي، زهير طالب، 1954-
الإمام محمد بن علي عليه السلام باقر العلوم / تأليف السيد زهير طالب الاعرجي ؛
مراجعة شعبة الدراسات والنشر. -الطبعة الاولى-. كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة،
قسم الشؤون الفكرية والثقافية، 1438 هـ. = 2017.
640 صفحة : صور طبق الاصل ؛ 24 سم
المصادر : صفحة 614-632.
الكتاب فائز في مسابقة افضل مؤلف بحق الامام الباقر عليه السلام، 2016.
1. الباقر، محمد بن علي زين العابدين (عليه السلام)، الامام، 57-114 هجري--نقد
وتفسير 2. التاريخ الإسلامي--العصر الأموي. الف. العتبة العباسية المقدسة. قسم الشؤون
الفكرية والثقافية. شعبة الدراسات والنشر. ب. العنوان.
BP193.15.A3 A7 2017
مركز الفهرسة ونظم المعلومات

الكتاب: الإمام محمد بن علي عليه السلام باقر العلوم.

الكاتب: السيد زهير طالب الاعرجي.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشر.

التدقيق اللغوي: عمار كريم السلامي، موفق هاشم عبيد.

الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي، محمد قاسم النصراوي.

رقم التسجيل في دار الكتب والوثائق في بغداد: ٢٣٦٩ لعام ٢٠١٧.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

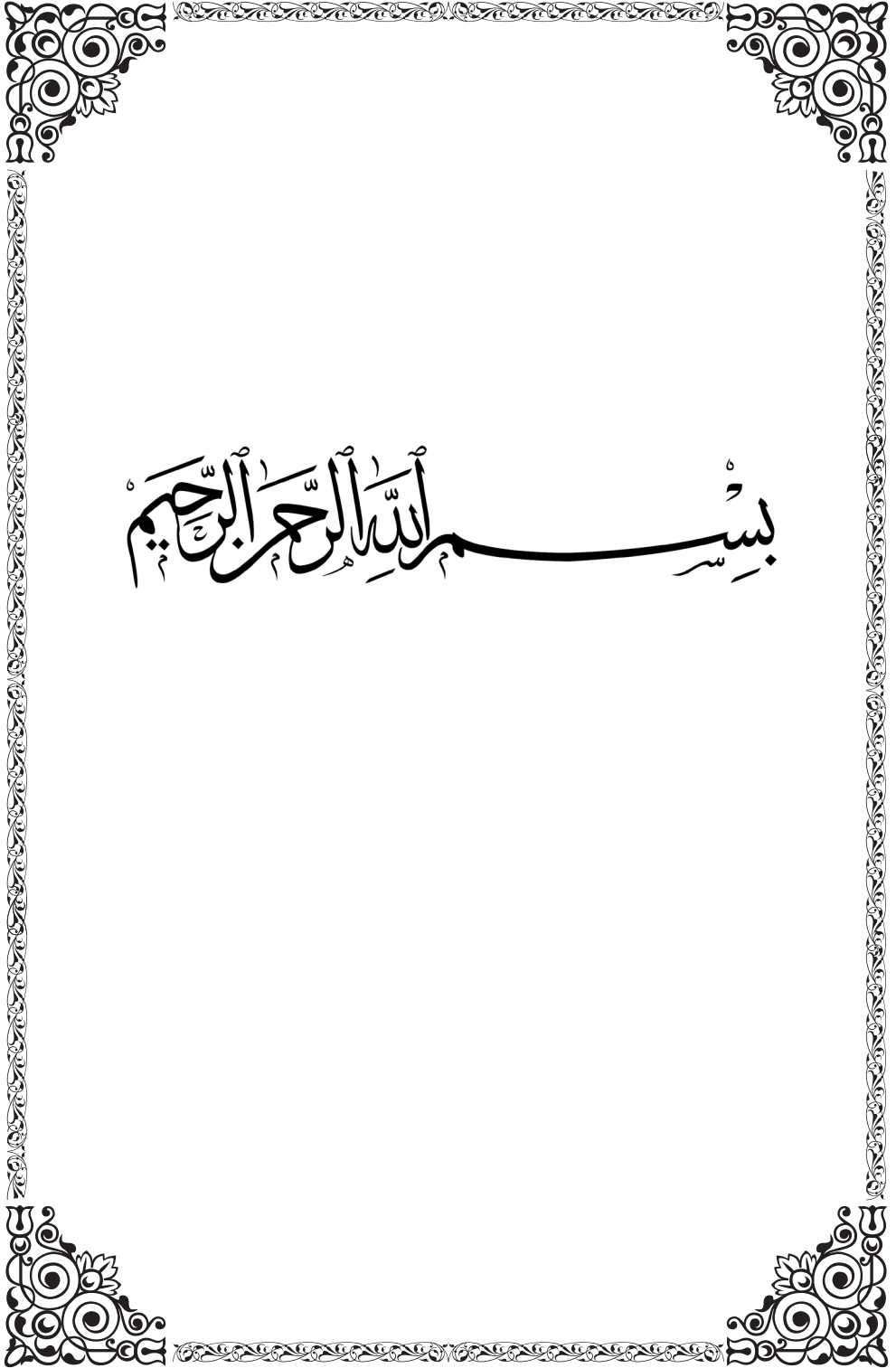
شعبان ١٤٣٨ هـ- ايار ٢٠١٧ م

مقدمة الناشر

دأبت العتبة العباسية المقدسة على الاهتمام الشديد بالشخصيات الاسلامية والرموز الدينية لاسيما اعمدة الدين الاسلامي من آل البيت النبوي الطاهر عليه السلام، لما في تاريخهم وشخصياتهم بشكل عام أثر كبير في توجيه المجتمع الاسلامي نحو الحق والكمال والمعرفة والادب، فان سيرتهم الطاهرة تخبرك انهم رجال افنوا حياتهم في اعلاء كلمة الحق وكلمة لا اله الا الله، من جانب آخر فانهم يمثلون الوجه الانساني والحضاري للإسلام، ولا يوجد رجال لدى المسلمين أعز وانبى وافضل منهم، من هنا جاء الاهتمام في رفد الواقع الفكري والمعرفي بدراسات جديدة تتناول فكر وسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقامت العتبة العباسية المقدسة بتأسيس مؤتمرات وندوات تهتم بهذا الجانب واجراء المسابقات المعرفية ذات المردود الثقافي الواعي وقد لاقت تلك الفعاليات رواجاً ونجاحاً واضحاً، كانت من ضمن تلك الفعاليات مسابقة (أفضل مؤلف بحق الامام الباقر عليه السلام) تخليداً للإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام في نفوس احبائه واوليائه ومعرفة بمنهج وعلمه وفكره؛ لتستنير الامة به ولتتقوى على محنها ومصائبها، وبفضل الجهود المبذولة من قبل الكوادر المجتهدة نجحت المسابقة السنوية بعد مرور ابحاثها بمراحل مختلفة من المتابعة والفحص فانتخبت الكتب الثلاثة الاوائل منها للطباعة والنشر رفاً للمكتبة الاسلامية وحفظاً لتلك الجهود المبذولة من قبل باحثيها وكتابها، وبذلك يواصل قسم الشؤون الفكرية والثقافية نجاحاته المتتالية في المضمار المعرفي والثقافي ليرسم اصالة مشروعه الهام في تأصيل المعرفة الدينية والهوية الايمانية لدى اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

العتبة العباسية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

قال رسول الله ﷺ للصحابي الجليل جابر الأنصاري:

«يا جابر يوشك أن تبقى حتى تلقى ولدًا لي من الحسين ﷺ يقال له محمد، يبقر علم الدين، فإذا لقيته فأقرأه مني السلام»^(٢).

قال الإمام محمد بن علي الباقر ﷺ:

«نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة...»^(٣).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ج ٤٦ / ص ٢٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ٢٤٥.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

لو تسنّى لرسول الله ﷺ أن يرى حفيده محمد بن علي الباقر عليه السلام وهو يُحيي الدين بعلمه الواسع بعد حوالي ثمانية عقود من وفاته عليه السلام، لكانت تلك أعظم سعادة تدخل على قلبه الواسع الرحيم عليه السلام، كان الباقر عليه السلام حقاً كلّ ما كان يتمناه رسول الله ﷺ في إحياء السنّة النبوية، وفي الحفاظ على كتاب الله المجيد مصوناً بين الدفتين.

ولذلك كان الباقر عليه السلام إماماً واجب الطاعة، نظريّةً ومصداقاً، بنص أحاديث رسول الله ﷺ التي تنبأت ببقره العلم بقرراً، وكانت وصية أبيه الإمام زين العابدين عليه السلام أكبر شاهدٍ على ذلك، حيث قال: «بني إني جعلتك خليفتي من بعدي، لا يدعي فيما بيني وبينك أحداً إلا قلده الله يوم القيامة طوقاً من نار»^(١).

وكان محمد بن علي عليه السلام على سرّ أبيه عليه السلام يعبد الله تعالى عبادة الأتقياء، ويعيش مع الناس عيشة الفقراء، ويسلك في المجتمع سلوك العارفين من أهل الكمال في العلم والمعرفة.

بل كانت عبادته عليه السلام لله تعالى منهج حياة، فقد أخذت تلك العبادة جميع جوارحه، ولم يعرف في حياته عليه السلام طريقاً غير طريق عبادة الخالق عزّ وجلّ عبادةً جامعةً مانعةً تمثل الحالة العقلية عند المعصوم عليه السلام، أي إنه كان يفكر بالله تعالى طول نهاره وليله كل يوم،

(١) كفاية الأثر - الخزاز: ص ١٩.

ويستثمر ذلك في مصاديق عملية كالصلاة، والصيام، والحج، والذكر الدائم.

وفي أيام الحج كانت عبادته لله تعالى تتجلى أمام الناس، فقد كان حجه عليه السلام: عبادةً، وتقوى، وعلمًا، وكان حجه عليه السلام اتصالاً بالخالق تعالى، وعبادةً خالصةً لله عزّ وجلّ، ومدرسةً يتعلم منها الناس شتى أصناف المعرفة، وأحكام الإسلام وأصوله وعقائده، ومثالاً يُتخذ في التواضع وتهذيب النفس، حيث كانت الحجيج تقتنص تلك اللحظات المباركة لتستمع إلى الإمام عليه السلام وهو يشرح مناسك الحج، ويتلو أحكام الإسلام، وتستمع إلى حكمه ومناظراته.

فقد كان عليه السلام يعالج مشاكل الأمة المستعصية بكلماتٍ قويةٍ محكمةٍ، قليلة في العدد، غنية في المفاهيم والأفكار، كقوله عليه السلام في قضية من قال بخلق القرآن: «لا خالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الخالق»^(١)، وفي قضية التجسيم: «إن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون...»^(٢)، وفي قضية الجبر والتفويض: «إن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها»^(٣).

وبكلمة، كان محمد بن علي الباقر عليه السلام في بداية القرن الثاني الهجري رجل المرحلة الزمنية تلك وإمامها، نافح عن الدين وعن شريعة سيد المرسلين عليه السلام من التحريف والتزوير، وكان الإمام المثل الأعلى في معاملة الناس بعطف وحكمة، ويعلمهم الدين والحكمة، ويسلك بهم طريق الهداية والرحمة الإلهية.

كان عليه السلام مصداقاً لقصائد الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦هـ) الذي كان يوصل الأفكار الدينية في التوحيد والنبوة والإمامة إلى الأمة بالألفاظ العذبة، والكلمات

(١) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٦.

(٢) الكافي: الشيخ الكليني: ج ١ / ص ٨٨.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ١٥٩.

الجميلة حين قال في أهل البيت عليهم السلام:

والمُصَيِّبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأَ النَّاسُ وَمُرْسِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ^(١)
فقد أرسى عليه السلام - بحق - قواعد الإسلام بعد أن ظهرت مظاهر الانحراف عن
الجادة في سلوك الخلفاء من بني أمية، وفي أفكار أصحاب المذاهب الجديدة من الإرجاء
والتفويض والتجسيم.

ولم يغب الإمام الباقر عليه السلام عن الساحة بل كان حاضراً في الساحة الاجتماعية
ينصح حكام زمانه، إذا كانوا أهلاً للنصيحة، ويحذرهم ويدينهم إذا كانوا محللاً للتحذير
والإدانة، فقد نصح عليه السلام عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) وقال عليه السلام له: «انظر إلى ما تحب
أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك»^(٢)، وقد أدان عليه السلام هشام بن عبد
الملك (ت ١٢٥هـ) ومن كان حوله بالقول: «أيها الناس، أين تذهبون؟ وأين يُراد بكم؟
بناهدى الله أولكم وبنا يختم آخركم»^(٣)، «أبصنو رسول الله صلى الله عليه وآله تستهزئون؟ أم بيعسوب
الدين تلمزون؟ وأي سبيل بعده تسلكون؟»^(٤).

أراد الإمام الباقر عليه السلام من مواليه وشيعته أن يكونوا مثال العلم والتقوى، فلم يقبل
منهم الوصف فقط، بل أراد منهم الوصف والعمل، أي أرادهم أن يكونوا أمة متعلمة
عالمة عابدة، ملتزمة بأهداب الدين، أخلاقية في سلوكها ومنهجها، فقال عليه السلام: «أيكفي
من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ والله ما شيعتنا إلا من أتقى الله وأطاعه،
وما كانوا يُعرفون إلا بالتواضع والتخشع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة،

(١) ديوان الكميت الأسدي: ص ٤٨٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) بحار الأنوار: ج ١١ / ص ٧٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

وبر الوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين، والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم»^(١).

ولم يتحرج الإمام عليه السلام من إيذاء جابر بن يزيد، عندما أراد توديعه بعد أن أمضى عنده ثمانين سنة تحصيلاً للمعرفة، بنقل كلامه عليه السلام إلى محبيه ومواليه بقوله: «... إعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله عزّ وجلّ، ولا يتقرب إليه تعالى إلا بالطاعة له، يا جابر من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حيناً»^(٢).

وتلك الوصايا والتعليقات الصادرة من محمد بن علي عليه السلام لشييعته لم تكن مجرد كلمات، بل أنها تعليقات صادرة عن ولي الأمر، فالباقر عليه السلام من ولاة الأمر الذين ذكرتهم الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٣)، الذين وصفهم عليه السلام بأنهم: «المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون الله، وهم المؤيدون الموفقون، المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء»^(٤).

وهم حفظة الدين الذين كلّفهم الله تعالى بحفظ دينه، كما شرح ذلك بلسانه عليه السلام حين قال: «إن الأرض لا تبقى إلا ومنا فيها من يعرف الحق، فإذا زاد الناس قال قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال قد نقصوا، ولولا أن ذلك كذلك لم يُعرف الحق من الباطل»^(٥).

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٧٤.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٣٠٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٤) علل الشرائع: الشيخ الصدوق ج ١ / ص ١٣٣.

(٥) علل الشرائع: ج ١ / ص ١٩٠.

وتلك المعرفة الدينية التي تسلَّح بها الإمام الباقر عليه السلام لها آليات وأدوات، منها: الشمولية في إدراك الموضوع الديني، وحسن إيصال الخطاب المعرفي الديني إلى المخاطبين، وفهم الموضوع الديني في الفقه والعقيدة بعلمه الموضوعية الواقعية.

وذلك العلم الواسع كان مستنداً إلى خصائص مهمة: كون علمه عليه السلام حقائق صادقة لم تخضع لتجربة أو اقتباس أو محاكاة، له تبرير عقلائي مقبول في كل زمان ومكان، وهو لا يخرج عن إطار معاني الإيوان والفضيلة، ولم يكن علماً تجزيئياً، بل علم تام شامل في كل ما يتعلق بالدين من أمور.

ولم يكن العلمُ الأمرَ الوحيدَ الذي ميّزه عليه السلام، وجعله يترك بصمةً أبدية في ضمير التاريخ، بل كان سلوكه الرفيع مسحة إضافية تزيد في جمال شخصيته عليه السلام وكما لها، فمع كرمه عليه السلام وإحسانه إلى الفقراء والمساكين، كان عليه السلام أفضل زهاد أهل زمانه، فقد أعرض عن الدنيا، وكان لباسه ومعيشته وطعامه مثال البساطة، فقد كان فراشه الحصير، وطعامه الخبز والزيت، كما ذكرت الروايات^(١)، وكان أخف الناس مؤونةً، ولا يشغله من الدنيا إلا ذكر الله تعالى، وحسن عبادته.

وفي كلامه عليه السلام جوانب بلاغية رائعة، ففي البيان كان يطرح المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه، ومنه فكرته في الطلب من الله تعالى بقوله: «اللهم عظم النور في قلبي، وصغر الدنيا في عيني، وأطلق لساني بذكرك، وأخرس نفسي من الشهوات، واكفني طلب ما قدرته لي عندك حتى استغني به عما في أيدي عبادك...»^(٢)، ثم يقوم بعد ذلك بطرحه بطرق متعددة غاية في الجمال، وغاية في الإتقان.

وفي المعاني كان يطرح اللفظ العربي بأحوال تطابق مقتضى حال الخطاب، كما في

(١) دعائم الإسلام: القاضي النعمان: ج ٢/ ص ١٥٨، والكافي: ج ٢/ ص ٤٨٧.

(٢) مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي: ص ٢٥٠.

قوله عليه السلام: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، واسئلك حسن عبادتك...»^(١).

وفي البديع كان عليه السلام ينطق بأحسن الكلام ويطبقه على مقتضى الحال، ومنه قوله عليه السلام في جماعة وعظهم، ولكن لحظ أنهم ساهون لاهون: «ألا يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنكم خشبٌ مسندة، وأصنامٌ مربدة، ألا تأخذون الذهب من الحجر، ألا تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر، خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها...»^(٢).

وبالإضافة إلى البلاغة والبيان كان له عليه السلام منهج تفسيري للقرآن الكريم استمده من علم رسول الله صلى الله عليه وآله وآبائه الطاهرين عليهم السلام، وقد اختص أهل البيت عليهم السلام بعلم القرآن، تفسيراً وتأويلاً، عرفوا المحكم من المتشابه، والناسخ من المنسوخ، والظاهر من الباطن، والمقيد من المطلق، والخاص من العام، ولم يملك هذا العلم الإلهي بعد النبي صلى الله عليه وآله غيرهم، فهم المخصوصون بعلم القرآن، وإلى ذلك أشار الإمام الباقر عليه السلام بقوله: «ما يستطيع أحدٌ أن يدعي أن عنده جميع [علم] القرآن ظاهره وباطنه غير الأوصياء»^(٣).

وأرجو من القارئ الكريم أن يستمتع بقراءة هذا الكتاب عن باقر العلوم عليه السلام، في علمه عليه السلام مكتبة زاخرة بالمعرفة، وجنة ناضرة بكل ما هو جميل ونضر، وبحر عميق كلما غصت فيه وجدت نفسك أكثر تعطشاً لجميل معارفهم عليهم السلام، وآثار بصماتهم على وجود الإنسان وهدايته.

وفي نهاية هذه المقدمة المختصرة لا بد من تسطير بعض النقاط التوضيحية حول

(١) مهج الدعوات: ابن طاووس: ص ١٦٩.

(٢) تحف العقول: ابن شعبة: ص ٢١١.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٢٢٨.

هذا البحث:

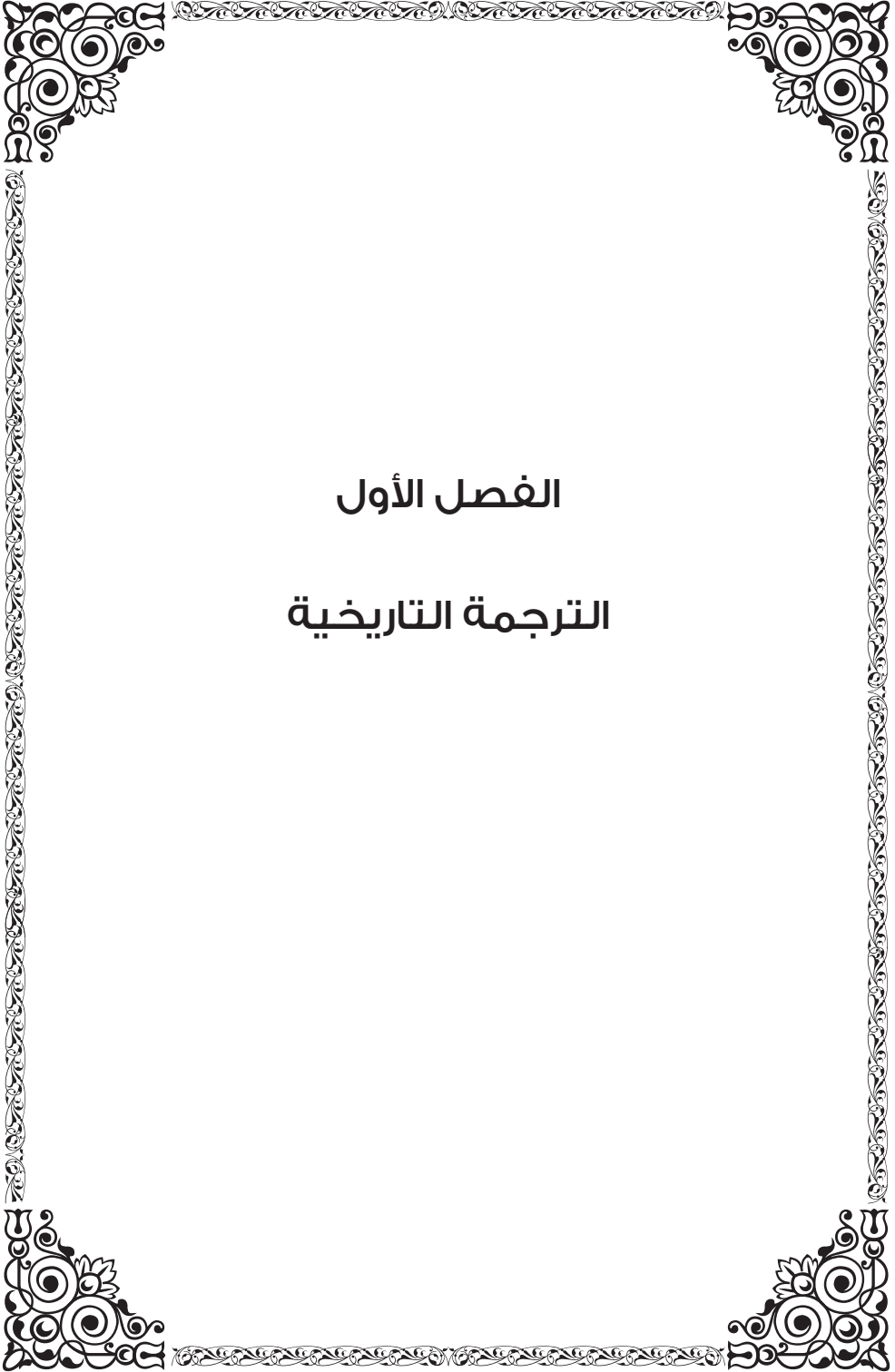
١ - إن هذا البحث كُتِبَ بروحٍ موضوعيةٍ، وكان منهجه البحث عن الحق، والكشف عن الحقيقة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وبالخصوص الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، فكان البحث عن المنهج العلمي للإمام عليه السلام، والبحث عن المناظرة العلمية، والمدرسة الفقهية التي شيد أركانها، هو بحثاً عن حقيقة علوم أهل البيت عليهم السلام، وفضائلهم، وتقواهم.

٢ - قد يلحظ القارئ أن بعض الأحاديث قد وردت أكثر من مرة في البحث، لاقتضاء البحث وتبديل العنوان، فنفس الحديث قد يُبحث في المناظرة العلمية تارةً، ويُبحث في المنهج العلمي للإمام عليه السلام تارةً أخرى، ولا أخال أن ذلك تكرار غير ذي جدوى، بل هو نظر للرواية الواحدة من زوايا متعددة.

اللهم إنك تعلم انني لم ابذل هذا الجهد إلا ابتغاء وجهك الكريم، ومرضاتك في الدارين، فاسألك يا ربي الكريم، ان تتقبله بقبولٍ حسنٍ، وان تجعله ذخراً لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من اتى الله بقلبٍ سليمٍ.

زهير بن السيد طالب علي الأعرجي

١ رجب ١٤٣٧ هـ - الحوزة العلمية



الفصل الأول
الترجمة التاريخية

ترجمة حياة الإمام الباقر عليه السلام من ولادته
(سنة ٥٧هـ) وحتى استشهاده (سنة ١١٤هـ)

(١)

الولادة

وُلِدَ محمد بن علي الباقر بن الإمام زين العابدين عليه السلام في المدينة المنورة غرة رجب سنة ٥٧ للهجرة النبوية^(١)، وكان من سنة النبي صلى الله عليه وآله أن يُقال للمولود عند ولادته: «اللهم اني أعيزه بك وولده من الشيطان الرجيم»^(٢)، ويؤذَن في أذنه اليمنى ويُقام في أذنه اليسرى، ويُسمَّى، ويُعقَّ عنه كبش في اليوم السابع، ويُجَلَّق رأسه ويتصدق بوزن شعره فضة، والمرجح أن الإمام زين العابدين عليه السلام عمِلَ ذلك عند ولادة ابنه محمد تيمناً بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢)

الأبوان الطاهران

كان المولود عليه السلام هديةً ربانيةً لأبوين كريمين هما: الإمام علي بن الحسين المعروف بزین العابدين عليه السلام، وفاطمة بنت الحسن بن علي عليه السلام، فأبوه ابن الإمام الحسين عليه السلام وأمه بنت الإمام الحسن عليه السلام، فهو من أبوين هاشميين علويين طاهرين.

كان أبوه الإمام زين العابدين عليه السلام سيد الساجدين والعابدين، لم ير مثله في العبادة

(١) دلائل الإمامة: محمد بن جرير: ص ٩٤.

(٢) كشف الغمة: الأربلي: ج ٢ / ص ١٤٨.

والورع والتقوى والدعاء، كان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة، وكانت دموعه تبلّ مصلاً وهو يتوسل إلى الله تعالى، كان ﷺ إماماً معصوماً من ذرية رسول الله ﷺ، عاصر واقعة الطف، ولم تزده إلا تعلقاً شديداً بالله تعالى، فقضى حياته ﷺ عبداً ساجداً لله، إماماً معصوماً لأمة محمد ﷺ.

وكانت فاطمة بنت الحسن المجتبي ﷺ صديقة، من سيدات بني هاشم، وكانت مثال أهل زمانها في التقوى والعبادة، نشأت في البيوت الطاهرة لآل المصطفى ﷺ.

(٣)

مَنْ تَبَأَ النَّبِيَّ ﷺ بِعَلْمِهِ ﷺ !

المشهور أن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري (ت ٥٧٠هـ) أتى رسول الله ﷺ والحسين ﷺ في حجره، فقال ﷺ: «يا جابر يولد له مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد، فإن أدركته يا جابر فاقرأه مني السلام»^(١).

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال له: «يا جابر يوشك أن تبقى حتى تلقى ولدًا لي من الحسين ﷺ يقال له محمد، يقر علم الدين، فإذا لقيته فاقرأه مني السلام»^(٢)، وكان جابر حريصاً على أن يفعل عين ذلك، فما أن لقي الباقر ﷺ وقرت عيناه برؤيته، حتى توفي بثلاثة أيام بعد ذلك^(٣).

و«كان جابر، وهو آخر من بقي على قيد الحياة من أصحاب رسول الله ﷺ، يقعد

(١) الصواعق المحرقة: ابن حجر: ص ١٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٢٢.

(٣) الفصول المهمة: ابن الصباغ: ص ٢١٥-٢١٦.

في مسجد رسول الله ﷺ وهو معتجر^(١) بعمامة سوداء، وكان ينادي: يا باقر العلم، يا باقر العلم، فكان أهل المدينة يقولون: جابر يهجر، فكان يقول: والله ما أهجر، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنك ستدرك رجلاً مني اسمه اسمي، وشمائله شمائي يبقر العلم بقرًا، فذاك الذي دعاني إلى ما أقول.

فبينما جابر يتردد ذات يوم في بعض طرق المدينة، رأى محمد بن علي، فلما نظر إليه قال: يا غلام أقبل فأقبل، ثم قال له: أدير فأدير، ثم قال: شمائل رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده، يا غلام ما اسمك؟ قال: اسمي محمد بن علي بن الحسين فجعل يقبل رأسه، ويقول: بأبي أنت وأمي أبوك رسول الله ﷺ يقرؤك السلام...^(٢)، فدمعت عينا الباقر ﷺ ثم قال: «يا جابر على أبي رسول الله ﷺ السلام ما دامت السموات والأرض، وعليك يا جابر بما بلغت السلام»^(٣).

وعندما سمع جابر كلام محمد بن علي ﷺ، وقد تبين له صدق نبوة رسول الله ﷺ، قال له: «يا باقر إنك قد أوتيت الحكم صبياً»^(٤)، كان الباقر ﷺ حينئذ صبياً لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره.

(٤)

الصبا

اختبر الباقر ﷺ أيام صباه أحداثاً حربية جسيمة مرت أمام عينيه ﷺ وهو لم يبلغ العقد الأول من عمره، وبالخصوص واقعة الطف (سنة ٦١هـ)، ثم وقائع أخرى مثل:

(١) المعتجر: الذي يضع العمامة على رأسه.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٤٦٩ - ٤٧٠، ورجال الكشي: الكشي ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٣٥٣.

(٤) علل الشرائع: ص ٢٣٤.

واقعة الحرة (سنة ٦٣هـ)، وحركة التوابين (سنة ٦٥هـ)، وحركة المختار الثقفي (سنة ٦٦هـ)، ولو قُدِّر له أن يكون محارباً لكان؛ لأن المحاربين يولدون من بطون الحروب والمعارك، لكن المشيئة الالهية أرادت له أن يكون محارباً على جبهة أخرى، وهي جبهة الفكر، وأرادت له أن يكون إماماً في العلم بيقر العلم بقرراً، ويرشد الأمة إلى صلاحها، كما تنبأ له ذلك جده رسول الله ﷺ.

(٥)

الصبا: أ- واقعة الطف

كانت الطف أول ما شهد الإمام الباقر ﷺ في حياته من أحداث وهو طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من سنه، وحُمل أسيراً مع أسرى أهل البيت ﷺ إلى الكوفة ثم إلى الشام، يقول ﷺ: «قُتل جدي الحسين ولي أربع سنين، وأني لأذكر مقتله، وما نالنا في ذلك الوقت»^(١).

وكان محمد بن علي ﷺ في الطف أحد الأطفال الذين كانوا في كنف^(٢) العقيلة زينب ؓ تبذل ما في وسعها لحمايتهم من بطش الخيول الهائجة، وحمايتهم من المحاربين الذين انتزعت من قلوبهم الرحمة!

وفي المسجد الأموي في الشام شاهد الباقر ﷺ والده الإمام زين العابدين ﷺ وهو ينافح أمام يزيد بن معاوية دفاعاً عن أئمة أهل البيت ﷺ، ويناصر الدين الذي ما بقي بين الناس إلا اسمه، ويستشهد بالقرآن الذي ما بقي إلا رسمه.

سَمِعَ أباه السجاد ﷺ وهو يقول: «أيها الناس أعطينا سبعا، وفُضِّلنا بسبع، أعطينا: العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبة في قلوب المؤمنين،

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٦١.

(٢) الكَنَفُ: الظِّلُّ، وعاش في كنفه أي في رعايته.

وَفُضِّلْنَا: بِأَنَّ مَنَا النَّبِيَّ الْمُخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَمَنَا الصَّدِيقَ، وَمَنَا الطَّيَّارَ، وَمَنَا أَسَدَ اللَّهِ، وَأَسَدَ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَنَا سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ فَاطِمَةَ الْبَتُولَ ﷺ، وَمَنَا سَبْطَا هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَسَيِّدَا شَبَابِ الْجَنَّةِ»^(١).

وَسَمِعَ الْعَقِيلَةَ زَيْنَبَ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ: «أَمِنَ الْعَدْلُ يَا بَنَ الْطَلْقَاءِ تَحْدِيرِكَ حَرَائِرِكَ وَإِمَاءَكَ، وَسَوَقَكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبَايَا، قَدْ هُتِّكَتِ سَتُورَهُنَّ، وَأَبْدِيَتْ وَجُوهَهُنَّ، تَحْدُو بَيْنَ الْأَعْدَاءِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَيَسْتَشْرَفُهُنَّ أَهْلُ الْمَنَاهِلِ وَالْمَعَاقِلِ، وَيَتَصَفَّحْنَ وَجُوهَهُنَّ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ، وَالِدِنِي وَالشَّرِيفَ، لَيْسَ مَعَهُنَّ مِنْ حَمَاتِهِنَّ حَمِيٌّ، وَلَا مِنْ رَجَالِهِنَّ وَلِيٌّ»^(٢).

وعندما يتقدم الإمام الباقر عليه السلام في عمره المديد كُتِبَ له ثلاث زيارات إلى دمشق لأسباب متباينة، كما سنقرأ لاحقاً بإذنه تعالى.

(٦)

الصبا: ب- الأحداث الحربية البارزة

غَطَّتْ صَفْحَاتِ الْعَقْدِ السَّادِسِ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْمَهْجَرِيِّ دَمَاءً شَرِيفَةً، ابْتِدَاءً مِنْ وَاقِعَةِ الطِّفْلِ سَنَةِ ٦١ هـ، ثُمَّ وَاقِعَةِ الْحَرَةِ سَنَةِ ٦٣ هـ، ثُمَّ حَرَكَةِ التَّوَايِينِ سَنَةِ ٦٥ هـ، ثُمَّ حَرَكَةِ الْمُخْتَارِ سَنَةِ ٦٦ هـ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَحْدَاثُ تَخْصُّ الْإِمَامَ الْبَاقِرَ عليه السلام بِصُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ، بِالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِ سَنَّتِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَوْجَّهَةً إِمَّا إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ عليهم السلام مَبَاشَرَةً، أَوْ إِلَى مَدِينَتِهِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ.

١ - وَاقِعَةُ الْحَرَةِ (سَنَةِ ٦٣ هـ): كَانَ الْإِمَامُ عليه السلام فِي السَّادِسَةِ مِنْ عَمْرِهِ، وَهُوَ شَاهِدٌ عَلَى نَقْضِ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ بَيْعَةِ يَزِيدٍ، وَمَا تَلَاهَا مِنْ إِبَاحَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ مِنْ قِبَلِ

(١) مقتل الحسين عليه السلام: الخوارزمي: ج ٢ / ص ٦٩ - ٧١.

(٢) الملهوف في قتلى الطفوف: ابن طاووس: ص ٧٠.

جيش يزيد بن معاوية ثلاثة أيام يقتلون أهلها، وينهبون أموالهم، ويهتكون أعراضهم^(١).
 خرج «أهل المدينة على يزيد بعد مقتل الحسين عليه السلام سنة اثنتين وستين، أي بعد
 مقتله بسنة واحدة»^(٢)، وكان والي المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان قد أرسل وفداً
 من وجهائها إلى يزيد بن معاوية، فيهم: عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن أبي عمرو،
 والمنذر بن الزبير وغيرهم، وكان هدفه من ذلك تثبيت ميولهم نحو الخلافة الأموية عبر
 النيل من هدايا السلطان، إلا أنهم رجعوا رغم هداياه وهم ناقمون على يزيد لما شاهدوا
 من فسقه ومجونه، وقالوا: «قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب
 بالطناير، وتعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الحراب»^(٣)»^(٤).

قال عبد الله بن حنظلة: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة
 من السماء، إنه رجلٌ ينكح الأمهات والبنات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، والله لو لم
 يكن معي أحد من الناس لأبليت فيه بلاءً حسناً»^(٥)، وقال المنذر بن الزبير: «إن يزيد
 قد أجازني بهائة ألف، ولا يمنعني ما صنع بي، أن أخبركم خبره: والله إنه ليشرب الخمر،
 والله أنه ليسكر حتى يدع الصلاة»^(٦).

وأخيراً تبين لوفد المدينة فسق يزيد، وما كان قتل الحسين عليه السلام وأصحابه في عاشوراء
 سنة ٦١ هـ ليحرك مشاعرهم، إلا أن رحلة واحدة إلى الشام أطلعتهم على فجور يزيد
 وفسقه! فخلعوا بيعته بعد رجوعهم، وولّوا عليهم عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير: ج ٤ / ص ١١٣.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي: ص ١١٥.

(٣) الحراب: للصوص.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٥ / ص ٤٨٠.

(٥) الطبقات الكبرى: ابن سعد: ج ٥ / ص ٦٦.

(٦) تاريخ الطبري: ج ٤ / ص ٣٦٨.

مطيع، وطرردوا عامل يزيد على المدينة.

فبعث يزيد جيشاً قوياً في العدة والعدد بقيادة مسلم بن عقبة المري، فالتقى الفريقان في (الحرّة) واقتتلا في حربٍ طاحنة، وقُتل عبد الله بن حنظلة مع أولاده، وانتصر جيش الشام على جيش المدينة، بعد أن قتل من أبناء الأنصار والمهاجرين ما لا يحصى.

٢ - حركة التوابين (سنة ٦٥هـ): ندم أهل الكوفة على عدم نصره الحسين عليه السلام وهم الذين دعوه إليهم في بداية الأمر، وقد أظهروا ندمهم بعد واقعة الطف سنة ٦١هـ مباشرة، وأرادوا التكفير عن ذنبهم عبر الخروج على بني أمية، فبدؤوا فترة إعداد استمرت أربع سنوات، وانتخبوا سليمان بن صرد الخزاعي زعيماً لحركتهم، فاجتمع للحركة عدد من المقاتلين قدر بأربعة آلاف رجل مع سلاح وعدة حرب.

وقرروا زيارة قبر الحسين عليه السلام وهم يتلون قوله تعالى: ﴿... فَتَوْبُوا إِلَيَّ يَا بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ...﴾^(١)، وكان تأويلهم للآية أن توبتهم لا تُقبل إلا بقتال عدوهم والموت من أجل إظهار الحق، وأطلق على هؤلاء اسم التوابين.

وعسكر هؤلاء المقاتلون، الذين كان شعارهم المطالبة بدم الحسين عليه السلام، بالنخيلة قرب كربلاء، ثم ساروا حتى انتهوا إلى قرقيسيا من شاطئ الفرات، ومنها إلى عين الوردة، بينما توجه الجيش الأموي الذي كُلف بمقاتلتهم بقيادة عبيد الله بن زياد في ثلاثين ألفاً إلى نفس المنطقة، والتقى الطرفان في ربيع الأول من سنة ٦٥هـ في معركة دامية غير متكافئة في عين الوردة، وظل القتال مستمراً أياماً، حتى قُتل معظم التوابين، ولحق من بقي منهم بأمصارهم.

٣ - حركة المختار الثقفي (سنة ٦٦هـ): خرج المختار بن أبي عبيدة الثقفي سنة

(١) سورة البقرة: الآية ٥٤.

ست وستين من الهجرة في الكوفة، داعياً الناس للطلب بثارات الحسين عليه السلام، فقام بثلاثة أمور:

الأول: كاتب المختار الإمام السجاد عليه السلام ومحمد بن الحنفية، وهو عم السجاد عليه السلام، بشأن التحرك ضد بني أمية، ولم يصرح السجاد عليه السلام تأييده للمختار بشكل علني، أما محمد بن الحنفية، فقال لوفد الكوفة المرسل من قبل المختار: «أما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا، فو الله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه»^(١)، ففهم الوفد تأييد ابن الحنفية لحركة المختار.

وفي رواية المجلسي (ت ١١١١هـ): «إن محمد بن الحنفية عندما دخل عليه وفد الكوفة، قال لهم: قوموا بنا إلى إمامي وإمامكم علي بن الحسين، فلما دخلوا عليه وأخبروه خبرهم الذي جاؤوا لأجله، قال عليه السلام لمحمد بن الحنفية: «يا عم، لو أن عبداً زنجياً تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس مؤازرته، وقد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت»، فخرجوا وهم يقولون: قد أذن لنا زين العابدين ومحمد بن الحنفية»^(٢).

الثاني: طرد المختار والي عبد الله بن الزبير على الكوفة، وكان عبد الله بن الزبير قد صعد حملته ضد الشام بعد موت يزيد بن معاوية، ودعا أهل الحجاز لمبايعته كخليفة فاستجابوا لذلك، فعين والياً له على الكوفة.

الثالث: قتل المختار أغلب قتلة الحسين عليه السلام عبر تتبعهم في الكوفة وما حولها، وكان نداؤه: من أعلق بابه فهو آمن، إلا من اشترك في قتال آل محمد عليهم السلام.

فقتل عمر بن سعد، ذلك الرجس الخائن الذي ظن أنه بقتله الحسين عليه السلام وأهل بيته

(١) تاريخ الطبري: ج ٦ / ص ١٢ - ١٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٥ / ص ٣٦٥.

الأطهار التنعم بملك الري، وقتلَ حرملة بن كاهل الذي ذبح عبد الله الرضيع في حجر أبيه الحسين عليه السلام، فدعا عليه علي بن الحسين عليه السلام: «اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر النار»^(١)، فكان العقاب الإلهي المحتوم بانتظاره.

وأرسل المختار جيشاً بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر لمقاتلة جيش بني أمية وقائده عبيد الله بن زياد، فالتقيا في الثامن من ذي الحجة سنة ست وستين بالقرب من الموصل في معركة دامية، وقتلَ عبيد الله بن زياد في العاشر من محرم سنة سبع وستين على يد إبراهيم بن مالك الأشتر، وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى المختار، ولم يمتد نزول العقاب الإلهي على قتلة الحسين عليه السلام أكثر من ست سنوات، بل كان في واقع الأمر ست سنوات كاملة، فقد قطعوا رأس الحسين الشهيد عليه السلام في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ، وقطعت رؤوسهم في العاشر من محرم سنة ٦٧ هـ، فقال السجاد عليه السلام: «الحمد لله الذي لم يمّتي حتى أنجز ما وعد، وأدرك ثأري من عدوي»^(٢).

ولكن حكم المختار الثقفي لم يدم طويلاً، فقد قضى عبد الله بن الزبير، الذي سيطر على الحجاز مدة تسع سنين، على المختار الثقفي، إلا أن آل مروان جيّشوا الجيوش للقضاء على آل الزبير، وكان لهم ذلك وعادوا للسيطرة على الحجاز مرة أخرى، وبسط عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) سلطته على الحجاز والعراق، وولى الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥ هـ)؛ ليبتقم من شيعة آل البيت عليهم السلام شر انتقام.

(٧)

مع والده الإمام زين العابدين عليه السلام

رافق الإمام الباقر عليه السلام والده الإمام زين العابدين عليه السلام ثماني وثلاثين سنة، وكان قبلها

(١) كشف الغمة: ج ٢ / ص ٢١٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ٢٦٤.

قد عاش مع جده الإمام الحسين عليه السلام أربع سنين، وكان الإمام السجاد عليه السلام ألقه أهل زمانه و«أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم»^(١)، وكان «سراج الدنيا وجمال الإسلام»^(٢)، وعاصر عليه السلام حكم معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، ومروان ابن الحكم، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك.

وكان الإمام السجاد عليه السلام يدعو الله تعالى ليحفظ له أبناءه ويقوِّمهم على الطاعة والأدب وحسن التجمل، فيقول عليه السلام: «اللهم ومُنَّ عليَّ ببقاء ولدي، وبإصلاحهم لي، وبإمتاعي بهم، إلهي، أمدد لي في أعمارهم، وزد في آجالهم، وربِّ لي صغيرهم، وقوِّ لي ضعيفهم، وأصح لي في أبدانهم وأخلاقهم، وعافهم في أنفسهم وفي جوارحهم وفي كل ما عنيت به من أمرهم، وأدرر لي وعلى يدي أرزاقهم، وأجعلهم أبراراً أتقياء، بصراء سامعين مطيعين، لك ولأوليائك محيين مناصحين، ولجميع أعدائك معاندين ومبغضين آمين.

اللهم أشدد بهم عضدي، وأقم بهم أودي، وكثر بهم عددي، وزين بهم محضري، وأحيي بهم ذكري، وأكفني بهم في غيبيتي، وأعني بهم على حاجتي، واجعلهم لي محبين، وعلى حدي مقبلين، مستقيمين لي مطيعين غير عاصين، ولا عاقين ولا مخالفين، ولا خاطئين، وأعني على تربيتهم وتأديبهم، وهب لي من لدنك معهم أولاداً ذكوراً، واجعل ذلك خيراً لي، واجعلهم لي عوناً على ما سألتك، وأعزني وذريتي من الشيطان الرجيم...»^(٣).

ولما دخل الباقر عليه السلام على أبيه الإمام زين العابدين عليه السلام فإذا هو قد بلغ من العبادة ما

(١) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ١٠٤، قاله الواقدي.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٤٨، قاله عمر بن عبد العزيز.

(٣) الصحيفة السجادية، دعاء رقم ٦٤: ص ١٢٨.

لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفرَّ لونه من السَّهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة، قال عليه السلام: «فلم أملك حين رأيتك بتلك الحالة من البكاء، فبكيتُ رحمةً له، وكان يفكرُ فالتفت إليّ بعد هنيئة من دخولي، فقال: يا بنيّ أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة عليّ عليه السلام فأعطيته، فقرأ فيها يسيراً، ثم تركها من يده تهجّراً، وقال: من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

لم ينقل لنا التاريخ الكثير من صحبة محمد الباقر عليه السلام لوالده السجاد عليه السلام خلال ثمان وثلاثين سنة، وربما يعود ذلك لسببين:

الأول: إن الإمام السجاد عليه السلام كان مشغولاً في العبادة والذكر، وكان جلّ وقته مستوعباً في الصلاة والدعاء، لكننا نستطيع التخمين بأنه عليه السلام كان يستمع إلى أدعية والده عليه السلام، ويرى تهجده في الليل والنهار، وانصرافه عن الدنيا بالزهد، فقد كانا يعيشان في بيت واحد، ويصليان في نفس المسجد، وهو مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثاني: بقي الإمام السجاد عليه السلام في المدينة المنورة كل تلك الفترة، فلم يكن هناك نشاط اجتماعي يُذكر، خصوصاً أن تلك الفترة كانت فترة إرهاب سياسي ورعب، وكانت السلطة يتداولها بنو أمية، فما أن يُقبر لص فاجر حتى يتسلّمها حمار ماكر، وكانوا يسوقون الناس بالظلم والجبروت.

(٨)

وصايا والده السجاد عليه السلام له عليه السلام

وكان من سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يوصوا أبناءهم بوصايا الحكمة والإمامة، وكانت تلك سنةً متبّعة يعملها السابق باللاحق، ومن ذلك أن الإمام السجاد عليه السلام

(١) مكارم الأخلاق: الطبرسي: ص ٣٦٨.

أوصى ابنه الباقر عليه السلام قائلاً له: «يا بُنيّ [أفعل الخير إلى كل من طلبه منك، فإن كان أهلاً فقد أصبت موضعه، وإن لم يكن بأهل كنت أنت أهله، وإن شتمك رجل عن يمينك ثم تحول إلى يسارك واعتذر إليك فاقبل عذره»^(١)، و«اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل؛ لأن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير»^(٢)، و«يا بُنيّ العقل رائد»^(٣) الروح، والعلم رائد العقل، والعقل ترجمان العلم، واعلم أن العقل أبقى، واللسان أكثر هذراً، وإن إصلاح الدنيا بحذافيرها^(٤) في كلمتين بهما إصلاح شأن المعاش: ملء مكتالٍ: ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل^(٥)، لأن الإنسان لا يتغافل عن شيء قد عرفه ففطن له، واعلم أن الساعات تذهب عمرك، وأنت لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، وإياك والأمل الطويل، فكم من أمل لا يبلغه، وجامع مال لا يأكله، ومانع مال سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حقّ منعه، أصابه حراماً وورثه، واحتمل أصره، وباء بوزره، وذلك هو الخسران المبين»^(٦).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «لما حضرت علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ضمّني إلى صدره، ثم قال: يا بُنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي عليه السلام حين حضرته الوفاة، وبها ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بُنيّ إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلا الله»^(٧).

(١) تحف العقول: ابن شعبة: ص ٢٨٢.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٣٣٨.

(٣) الرائد: الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلاً ومساقط الغيث.

(٤) بحذافيرها: بأسرها أو بجوانبها.

(٥) يقصد عليه السلام أن الحياة كالسلة المملوءة بالثمر ثلثاها فطنة وذكاء، وثلث تغافل أو عدم ذكاء، وتعبير آخر أن الحياة كالسلة ثلثاها ثمر صالح طيب وثلث فاسد، وإصلاح الدنيا بإصلاح الثلث الفاسد.

(٦) كفاية الأثر: ص ٣١٩.

(٧) الكافي: ج ٢ / ص ٣٣١.

ثم أوصاه بوصايا أخرى تتعلق بناقته، وبجهازه بعد الموت.

ففيما يخص ناقته، قال عليه السلام له: «إني حجبْتُ على ناقتي هذه عشرين حجة فلم أفرعها بسوط، فإذا نفقت فادفنها، لا تأكل لحمها السباع، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما من بعير يوقف عليه موقف عرفة سبع حجج إلا جعله الله من نعم الجنة، وبارك في نسله»^(١).

وفيما يخص تجهيزه، عهد عليه السلام إليه ان يتولى غسله وتكفينه^(٢) ودفنه.

(٩)

التص بالإمامة

ثم عهد الإمام السجاد عليه السلام لابنه الباقر عليه السلام بالإمامة، وإلى ذلك يقول الزهري (ت ١٢٤هـ) بعدما دخل لعيادته عليه السلام في مرضه يسأله: «إن وقع من أمر الله ما لا بد منه، فألى من نختلف بعدك؟» قال عليه السلام: «إلى ابني هذا - وأشار إلى ولده الباقر - فإنه وصيي ووارثي وعيبة علمي»^(٣)، هو معدن العلم وباقره، سأله الزهري: هلا أوصيت إلى أكبر ولدك؟ فقال عليه السلام: «يا أبا عبد الله ليست الإمامة بالكبر والصغر، هكذا عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وهكذا وجدناه مكتوباً في اللوح والصحيفة...»^(٤).

ودخل عليه جماعة من أعلام شيعته فدلّهم على إمامة الباقر عليه السلام، ثم دفع إليه سفظاً^(٥) وصندوقاً فيه مواريث الأنبياء، وكان فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبه^(٦).

(١) المحاسن: البرقي: ج ٢ / ص ٦٣٥.

(٢) الخرايج والجرايح: الراوندي ص ٢٠.

(٣) عيبة علمي: معنى العيبة هو ما يجعل فيه الثياب، ووعاء من أدم يكون فيه المتاع (تاج العروس: الزبيدي، مادة: عيب)، فيكون المعنى وعاء علمي.

(٤) إثبات الهداة: الحر العاملي: ج ٥ / ص ٢٦٤.

(٥) السَّفَطُ: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه.

(٦) بصائر الدرجات: الصفار: ص ١٤٦، وإثبات الهداة: ج ٥ / ص ٢٦٨.

وفي رواية أن زين العابدين عليه السلام أوصى ابنه محمد بن علي عليه السلام فقال: «بني إني جعلتك خليفتي من بعدي، لا يدعي فيما بيني وبينك أحد إلا قلده الله يوم القيامة طوقاً من نار، فاحمد الله على ذلك واشكره، يا بني أشكر لمن أنعم عليك، وانعم على من شكرك، فإنه لا نزول نعمة إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت، والشاكر بشكره أسعد منه بالنعمة التي وجب عليه بها الشكر»^(١)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٢).

وكتبَ للباقر عليه السلام أن يتحمل مسؤولية الإمامة الشرعية لمدة تسع عشرة سنة^(٣)، أي من سنة ٩٥هـ وإلى سنة ١١٤هـ، وكان في أيام إمامته عليه السلام بقية ملك الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، حيث توفي عليه السلام مسموماً في ملكه^(٤).

قال الإمام الباقر عليه السلام في الإمامة وهي الشجرة الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء: «نحن جنب الله»^(٥)، ونحن صفوة الله، ونحن خيرة الله، ونحن مستودع موارث الأنبياء، ونحن أمناء الله، ونحن حجة الله، ونحن أركان الإيمان، ونحن دعائم الإسلام، ونحن من رحمة الله على خلقه، ونحن الذين بنا يفتح وبنا يختم، ونحن أئمة الهدى، ونحن مصابيح الدجى، ونحن السابقون، ونحن الآخرون، ونحن العلم المرفوع

(١) كفاية الأثر: ص ٣١٩.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٣) إعلام الوري بأعلام الهدى: الطبرسي ص ٢٦٥.

(٤) إعلام الوري: ص ٢٥٩.

(٥) جنب الله: طاعة الله، قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ سورة الزمر: الآية ٥٦، أي إن طاعتنا في أحكام الدين هي طاعة لله تعالى.

للخلق، ونحن من تمسك بنا لحق، ومن تخلف عنا غرق، ونحن قادة الغر المحجلين^(١)، ونحن خيرة الله، ونحن الطريق والصراط المستقيم إلى الله، ونحن نعمة الله على خلقه، ونحن المنهاج، ونحن معدن النبوة، ونحن موضع الرسالة، ونحن الذين إلينا مختلف الملائكة، ونحن السراج لمن استضاء بنا، ونحن السبيل لمن اقتدى بنا، ونحن الهداة إلى الجنة، ونحن غر الإسلام، ونحن المحشونون^(٢)، والقناطر من مضى عليها لم يسبق ومن تخلف عنها حُجِّق، ونحن السنم الأعظم^(٣)، ونحن الذين بنا تُنزَل الرحمة، وبنا تُسقون الغيث، ونحن الذين بنا يُصَرَّف عنكم العذاب، فمن عرفنا وأبصرنا وعرف حقنا وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا^(٤).

وقريبٌ من ذلك رواية الإمام الصادق عليه السلام، قال: «دخل الناس على أبي [الباقر] عليه السلام فقالوا: ما حد الإمام^(٥)؟ قال عليه السلام: «حدّه عظيم، إذا دخلتم عليه فوقروه، وعظّموه، وآمنوا به، وبما جاء به من شيء، وعليه أن يهديكم، وفيه خصلة إذا دخلتم عليه لم يقدر أحد أن يملأ عينه منه إجلالاً وهيبَةً؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك كان، وكذلك يكون الإمام...»^(٦).

(١) الغرّ المحجلين: الغرّ جمع الأغرّ من الغرّة، وهي في الأصل البياض الذي يكون في وجه الفرس، والمحجل من الخيل هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد، ويجاوز الأرساغ، ولا يجاوز الركبتين، ثم استعير اللفظ لذوي الشرف من الناس في العلم، والعمل، والصلاح، وكرم الذات (شرح أصول الكافي: ج ٧ / ص ١٥٥).

(٢) المحشونون: من حشا وهو الملء، يُقال: حشا الجندي سلاحه: أي ملأه بالذخيرة، وهم عليهم السلام المحشونون علماً.

(٣) السنم الأعظم: السنم من كلّ شيء: أعلاه، ومن القوم: شريفهم.

(٤) فرائد السمطين: الجويني: ج ٢ / ص ٢٥٣.

(٥) حدّ الإمام: الحدّ هو الحاجز بين شيئين، وحدّ الإمام عليه السلام هو بأسه ونفاذه.

(٦) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٤٤.

سأل عمر بن الإمام السجاد عليه السلام أباه عن سر اهتمامه بالباقر عليه السلام فأجابه بقوله: «إن الإمامة في ولده إلى أن يقوم قائمنا عليه السلام فيملأها قسطاً وعدلاً، وأنه الإمام أبو الأئمة...»^(١).
وعن الحسين ابن الإمام السجاد عليه السلام انه قال: سألت رجلاً أبي عليه السلام عن الأئمة، فقال:
«إثنا عشر، سبعة من صلب هذا، ووضع يده على كتف أخي محمد»^(٢).

الدلالات:

نستقي من الروايات التي ذكرناها معرفةً جمّةً حول الإمام عليه السلام والإمامة، نعرضها في النقاط التالية:

١ - من سنة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا يوصون بالإمامة ويعلمونها بكل وسيلة متاحة لهم، كالوصية الشفوية أمام الناس، والكتابة، والخطابة، والموعظة الأخلاقية، وكانت الوصية واضحة باللفظ والمعنى، وليس فيها أي غموض أو تأويل.

٢ - احتوت الوصية، وبقدر وضوحها، على الكثير من الصرامة «... لا يدعي فيما بيني وبينك أحدٌ إلا قلّده الله يوم القيامة طوقاً من النار»، وهذا التحذير موجهٌ لكل من يطمح بتقلد الإمامة رغبةً في الدنيا، من خارج أسرته أو من داخلها، وهذا يعني أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يدرك إن هناك من سيطمح لتقمص ذلك المنصب الالهي بدون حق، ولذلك كانت وصيته عليه السلام واضحة المعنى، قاطعة القرار في تشخيص الإمام عليه السلام من بعده.

٣ - إن حديث الإمام الباقر عليه السلام في الإمامة يمنحنا إدراكاً مهماً، وهو أن الإمام عليه السلام هو الإنسان الذائب في الله تعالى، الذي لا يرى الحياة إلا من زاوية العبودية والخضوع

(١) كفاية الأثر: ص ٢٣٧.

(٢) كفاية الأثر: ص ٢٣٩.

المطلق لله تعالى، وما الإمام إلا إنسانٌ متميزٌ بالعبودية لله تعالى، والتقوى، والعلم الشامل بالدين، وإنسانٌ بتلك المواصفات له شأنٌ عنده تعالى، فبه ﷺ تُنزل الرحمة، وبه ﷺ تُسقى الغيث، وبه ﷺ يَصرف الله عنا العذاب.

٤ - يذكر الإمام الباقر ﷺ في كلامه عن إمامة أهل البيت ﷺ أموراً في غاية الأهمية:

أولاً: إمامة أهل البيت ﷺ هو عهدٌ عهدُهُ رسول الله ﷺ إليهم، وذلك أمرٌ خطيرٌ؛ لأن العهد ينبغي أن يُراعى، خصوصاً وهو مع سيد الخلق أجمعين وخاتم الأنبياء ﷺ، ولأنهم أعلمُ الناس بالدين وأتقاهم، ألزم رسول الله ﷺ الأمة برعاية هؤلاء الأطهار ﷺ، فكان المفترض بها أن تقوم بذلك بأفضل الصور وأكملها.

ثانياً: لا ترتبط الإمامة بعمر الإمام ﷺ أو كونه الابن البكر، ذلك أن الإمامة علمٌ إلهامِيٌّ، ونورٌ ربانيٌّ يقع في قلب الإمام ﷺ، وهو علمٌ مستمدٌ من علم رسول الله ﷺ، فمن التصميم الإلهي للخلق والحياة اصطفاء الإمام المؤهل لإرشاد الناس إلى طريق الهداية والخير.

ثالثاً: من المصاديق الخاصة في الإمامة إن هناك ميراثاً علمياً ومادياً من رسول الله ﷺ، وفيه كتبه وسلاحه ﷺ يُسلم من الإمام السابق إلى الإمام اللاحق ﷺ، تسمى مواريث الأنبياء ﷺ، وهو دليل مادي على الإمامة، ولكن الدليل الأقوى هو الدليل العلمي، فالإمام ﷺ يُمتحن مراراً ومرات من قبل الناس عبر الأسئلة والمناظرات والمواقف من أجل اكتشاف صدقه، ومقدار علمه، ولا يُفلح في ذلك إلا المعصوم ﷺ، وهكذا كان أئمة أهل البيت ﷺ.

(١٠)

استشهاد والده السجاد

توفي الإمام زين العابدين عليه السلام في ٢٥ محرم الحرام سنة ٩٥ هـ أثر سُم سُقي له من قبل عامل الوليد بن عبد الملك على المدينة^(١)، أُغمي على الإمام عليه السلام مراتٍ عدّة، وكان يقرأ سورة الواقعة وسورة الفتح كلما أفاق، ثم يقول: «الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الجنة نتبوا منها حيث نشاء فنعم أجر العاملين»^(٢).

عند وفاة والده السجاد عليه السلام، كان الإمام الباقر قد بلغ التاسعة والثلاثين سنة من عمره الحافل بالعلم والعطاء.

(١١)

في الأسرة

نشأ الإمام الباقر عليه السلام في أسرة متماسكة يجب بعضها بعضاً، فبالإضافة إلى والديه الرحيمين به، كان له أربعة أخوة.

أخوة الباقر عليه السلام:

وهم: عبد الله الباهر، وعمر الأشرف، وزيد الشهيد، والحسين الأصغر، يقول عليه السلام فيهم: «أما عبد الله فيدي التي أبطش بها»^(٣)، وأما عمر فبصري الذي أبصر به، وأما زيد فلساني الذي أنطق به، وأما الحسين فحلیم يمشي على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً»^(٤).

(١) الصواعق المحرقة: ص ٥٣.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٤٦٨.

(٣) وهو أخو الباقر عليه السلام من أمه وأبيه.

(٤) الإرشاد: الشيخ المفيد: ص ٣٠٠.

١- عبد الله الباهر: كان من فقهاء أهل البيت عليهم السلام، روى عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أخباراً كثيرة، وحدث الناس، وحملوا عنه الآثار^(١)، ولُقِّبَ بالباهر لجماله وحسنه وهيبته، فما جلس مجلساً إلا بَصُرَ جماله^(٢).

روى مرسلاً عن جده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وعن جده لأمه الإمام الحسن عليه السلام، وروى عنه عمارة بن غزية، وموسى بن عقبة، وعيسى بن دينار، ويزيد بن أبي زياد، وعدّه ابن حبان في الثقات، وصحح الترمذي والحاكم حديثه^(٣)، وتولى صدقات النبي صلى الله عليه وآله وصدقات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام^(٤).

٢- عمر الأشرف: كان عالماً فاضلاً عدّه الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) من أصحاب أخيه الإمام الباقر عليه السلام، وقد روى عن أبيه، وروى عنه فطر بن خليفة^(٥).

ولُقِّبَ بالأشرف وذلك لشرف انتسابه لجده الحسين عليه السلام من طرف فاطمة الزهراء عليها السلام، بينما لُقِّبَ عمر - عم أبيه - بالأطرف؛ لأنه نال الشرف من طرف أبيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، قال السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ): «هو أشرف من الأطراف بحسبه وفضله وورعه أيضاً»^(٦).

٣- زيد بن علي: أصغر من أخيه الإمام الباقر عليه السلام بإحدى وعشرين سنة، وُلِدَ سنة ٧٨هـ، كان ناسكاً، عالماً، وكان يعرف عند أهل المدينة بحليف القرآن^(٧)، وقد أثر

(١) الإرشاد: ص ٣٠٠.

(٢) عمدة الطالب: ابن عنبه: ج ٢ / ص ١٢٧.

(٣) تهذيب التهذيب - ابن حجر ج ٥ / ص ٣٢٤.

(٤) الإرشاد: ص ٣٠٠.

(٥) معجم رجال الحديث: السيد الخوئي: ج ١٣ / ص ٥٤.

(٦) معجم رجال الحديث: ج ١٣ / ص ٥٤.

(٧) مقاتل الطالبين - أبو الفرج الأصفهاني ص ١٣٠.

السجود على جبهته لكثرة صلاته طوال الليل^(١).

وقد عدّه علماء الرجال من أصحاب الإمام الباقر^(٢)، وكان من علماء عصره في الحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، وعلم الكلام، تعلّم من أخيه الباقر^(٣)، وكان الإمام الباقر^(٤) يثني على علمه ويقول^(٥): «هذا سيد بني هاشم إذا دعاكم فأجيبوه، وإذا استنصركم فانصروه»^(٦).

خرج زيد في الكوفة ضد الأمويين سنة ١٢٢ هـ، وقُتل في معركة في ليلة شديدة البرد في ٢٣ محرم، وكان الإمام الباقر^(٧) قد استشهد بسبع سنين قبل استشهاد أخيه زيد بن علي.

٤- الحسين الأصغر: كان ورعاً، تقياً، شديد الخوف من الله، يقول سعيد صاحب الحسن بن صالح^(٨): «لم أرَ أحداً أخوف من الله من الحسن بن صالح (ت ١٦٩ هـ) حتى قدمت المدينة فرأيتُ الحسين بن علي بن الحسين، فلم أرَ أشدَّ خوفاً منه، كأنها أدخل النار ثم أخرج منها لشدة خوفه»^(٩).

وروى أحمد بن عيسى عن أبيه قال: «كنتُ أرى الحسين بن علي بن الحسين يدعو، فكنتُ أقول: لا يضع يده حتى يستجاب له في الخلق أجمعين»^(١٠).

(١) الخرائج والجرائح: ص ٣٢٨.

(٢) معجم رجال الحديث: ج ٨ / ص ٣٥٧.

(٣) عمدة الطالب: ج ٢ / ص ١٢٧.

(٤) الحسن بن صالح بن حيّ الهمداني: إليه تنسب الصالحية، وهو من أصحاب الباقر^(٥) (نقد الرجال: التفريحي: ج ٢ / ص ٢٩ - ٣٠)، وفي التهذيب في باب المياه: أنه زيدي بتري، متروك العمل بما يختص بروايته (تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٤٠٨).

(٥) الإرشاد: ص ٣٠٢.

(٦) عمدة الطالب: ج ٢ / ص ٢٩.

زوجاته وأولاده عليه السلام :

تزوج الباقر عليه السلام أربع زوجات، وكان عرف ذلك الزمان الجمع بين الأربع، لتشريعه في الإسلام، ولكثرة من يُقتل في الحروب من الرجال، وهن:

١ - أم حكيم بنت أسيد بن المغيرة بن الأحنس الثقفي^(١)، ولدت له إبراهيم، وعبد الله الذي توفي في حياة أبيه عليه السلام.

٢ - أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر^(٢)، ولدت له عبد الله، وجعفر الصادق عليه السلام.

٣ - أم ولد^(٣)، ولدت له زينب، وعلياً.

٤ - أم ولد، ولدت له أم سلمة^(٤).

وبالإجمال «أولاد الباقر عليه السلام ستة، وقيل سبعة^(٥)، وهم: جعفر الصادق عليه السلام، وكان يكنى به، وعبد الله وأمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وإبراهيم وعبد الله درجا في حياته وأمهما أم حكيم بنت أسد بن المغيرة الثقفية، وعلي وزينب لأم ولد، ولم يعتقد أحد في ولد أبي جعفر الإمامة إلا في جعفر الصادق عليه السلام، وكان أخوه عبد الله يشار إليه بالفضل والصلاح»^(٦).

(١) الطبقات الكبرى: ج ٥ / ص ٣٢٠.

(٢) الإرشاد: ص ٣٠٣.

(٣) أم الولد: هي الأمة التي تلد من سيدها، والمشهور أن الولد يعتق الأم.

(٤) الطبقات الكبرى: ج ٥ / ص ٢٣٠.

(٥) السابع: بنت اسمها أم سلمة وأمها أم ولد.

(٦) الفصول المهمة: ص ٢٠٧ - ٢١٨.

(١٢)

في صفاته الشخصية ﷺ

كان للإمام الباقر ﷺ من الهيبة والوقار ما جعل قتادة بن دعامة (ت ١١٨ هـ) فقيه البصرة يقول له وهو جالس بين يديه يطلب علماً: «لقد جلستُ بين يدي الفقهاء وأمام ابن عباس، فما اضطرب قلبي من أي أحد منهم مثل ما اضطرب قلبي منك»^(١).

كان ﷺ «أصدق الناس لهجةً، وأحسنهم بهجةً، وأبذلهم مهجةً»^(٢)، وكانت له ﷺ ملامح رسول الله ﷺ وشماله^(٣)، وكان معتدل القامة أسمر اللون^(٤)؛ اسمه محمداً، وكنيته أبا جعفر لا غير، ولقبه باقر العلم^(٥).

عُرِفَ الإمام محمد بن علي ﷺ بصفة الباقر، وهي صفة تعني معنيين:

١ - بقر العلم: «لأنه بقر العلم، وعرف أصله، واستنبط فرعه، وتوسع فيه»^(٦)، ولأنه تبقر في العلم أي توسع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقرَ العلمِ لأهلِ التقى وخيرَ من لبيّ على الأَجْبِلِ^(٧)

٢ - بقر الأرض: «سمي الباقر ﷺ بذلك لأنه من بقر الأرض، أي شقّها، وإثارةً مخبّاتها، ومكامنّها، فكذلك هو أظهرَ مخبّاتها كنوز المعارف، وحقائق الأحكام، والحكم

(١) إثبات الهداة: ج ٥ / ص ١٧٦.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب ج ٣ / ص ٣٣٨.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٤٦٩.

(٤) أخبار الدول: القرماني: ص ١١١، الفصول المهمة: ص ١٩٧.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣٣٩.

(٦) لسان العرب: ابن منظور: ج ٤ / ص ٧٤.

(٧) وفيات الأعيان: ابن خلكان: ج ٤ / ص ١٧٤، والأجبل: جمع جبل، ولعل المراد: خير من

لبي على جبال مكة في الحج.

واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة، أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل فيه: هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه»^(١).

يقول الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) في (القاموس المحيط): «بَقْرَهُ كَمَنْعَهُ: شَقَّةٌ وَوَسَعَهُ...، والباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره في العلم»^(٢).

و«كان ذاكراً خاشعاً صابراً، وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب، عالي الحسب، وكان عارفاً بالخطرات»^(٣)، كثير البكاء والعبرات، معرضاً عن الجدل والخصومات»^(٤)، وبالإجمال «كان الباقر عالماً سيداً كبيراً»^(٥).

يصفه ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) بهذا الوصف: «صفا قلبه، وزكا علمه وعمله، وطهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلل عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف...»^(٦).

أقام الإمام عليه السلام طيلة حياته في المدينة المنورة، وكان فيها الرائد الأعظم للحركة العلمية في بلاد المسلمين، والإمام الذي كان يلتقي تحت منبره التلاميذ والعلماء والفقهاء على حدٍ سواء.

وبكلمة، فإن أهم صفات الإمام الباقر عليه السلام: العلم والتقوى، وتلك من أخطر خصائص عصمة الإمام عليه السلام.

(١) الصواعق المحرقة: ص ٢٠١.

(٢) القاموس المحيط: الفيروزآبادي ج ١ / ص ٣٥٣.

(٣) الخطرات: ربما من «الخطير»: وهو الهاجس، والجمع: الخواطر، قال الزمخشري: الخواطر: ما يتحرك بالقلب من رأي أو معنى «تاج العروس، مادة: خطر».

(٤) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ٣٠٩.

(٥) وفيات الأعيان: ج ٤ / ص ١٧٤.

(٦) الصواعق المحرقة: ص ٣٠١.

(١٣)

مع الناس

لو مضى بك الزمن إلى عهد الإمام الباقر عليه السلام لرأيتَه متواضعاً في طبعه، بسيطاً في حياته، معلماً في سلوكه، يرشد الناس إلى ما هو صالحٌ لهم، وينهاهم بما نهاهم الله عزَّ وجلَّ، كان يعيش مع الناس حياة الفقراء، ويعبد الله تعالى عبادة الأتقياء، ويسلك مع الناس سلوك العارفين من أهل الكمال في المعرفة والعلم.

كانت بساطة حياته عليه السلام وتواضعه وزهده توحى للغريب الذي لا يعرفه صورة مغايرة لواقعه، ومن ذلك ما ورد عن محمد بن المنكدر (ت ١٣٠هـ) ^(١) قال: «أردتُ أن أعظه فوعظني، خرجتُ في نواحي المدينة فرأيتُ شيخاً في طلب الدنيا وقد تصبب عرقاً، فقلتُ: أصلحك الله، شيخٌ من أشياخ قريش في هذه الساعة، على هذه الحال، في طلب الدنيا، لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال..، قال عليه السلام: «لو جاءني والله الموت وأنا في هذه الحال جاءني وأنا في طاعةٍ من طاعات الله تعالى أكفُّ بها نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنتُ أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله»، فقلتُ: يرحمك الله أردتُ أن أعظك فوعظتني» ^(٢).

كانت وسائل النقل في ذلك الزمان محدودة بالدواب، ولكن لركوب الدابة، أيّاً كان نوعها، أخلاقٌ دينيةٌ أيضاً، فكان عليه السلام إذا ركب الدابة يقول: «... الحمد لله الذي هدانا بالإسلام، وعلمنا القرآن، ومنَّ علينا بمحمدٍ عليه السلام، والحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، والحمد لله رب العالمين» ^(٣).

(١) محمد بن المنكدر من أقطاب التصوف، وعده أصحاب الطبقات من الطبقة الثالثة من التابعين.

(٢) الإرشاد: ص ٢٨٤.

(٣) الكافي: ج ٨ / ص ٢٧٦.

وكان ﷺ من عاداته الجميلة مصافحة الناس خصوصاً عندما يقدمون عليه ليسألونه في مسألة شرعية أو عقائدية، ف قيل له في ذلك، فقال ﷺ: «أما علمت ما في المصافحة، إن المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه، فما تزال الذنوب تتحات عنهما كما يتحات الورق عن الشجر والله ينظر إليهما حتى يفترقان»^(١).

وكان عندما يهيم بإعانات إنسان، فإنه يكمل عمله حتى النهاية، بمعنى أنه لا يتر عمل الخير أو يتوقف عنه في الوسط، دليل ذلك ما رواه زرارة بن أعين (ت ١٤٨ هـ)، قال: «حضر أبو جعفر ﷺ جنازة رجل من قريش وأنا معه، وكان فيها عطاء، فصرخت صارخة^(٢)، فقال عطاء: لتسكتن أو لنرجعن؟ قال: فلم تسكت، فرجع عطاء.

قال: فقلت لأبي جعفر ﷺ إن عطاء قد رجع، قال: ولم؟ قلت: صرخت هذه الصارخة، فقال لها: لتسكتن أو لنرجعن، فلم تسكت فرجع، فقال: «أمض بنا فلو أنه إذا رأينا شيئاً من الباطل مع الحق تركنا له الحق، لم نقض حق مسلم»، قال: فلما صلى على الجنازة، قال وليها لأبي جعفر ﷺ: «إرجع مأجوراً رحمك الله، فإنك لا تقوى على المشي»، فأبى أن يرجع، قال: فقلت له: قد أذن لك في الرجوع ولي حاجة أريد أن أسألك عنها، فقال ﷺ: «أمض، فليس بإذنه جئنا ولا بإذنه نرجع، إنما هو فضل وأجر طلبناه، فبقدر ما يتبع الرجل الجنازة يؤجر على ذلك»^(٣).

كان ﷺ يوصي بمساعدة الناس لإخوانهم، فالتعاون بين الإخوان أمر أخلاقي، ولا يستغني المؤمن عن مساعدة أخيه، وقد قال تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ

(١) الكافي: ج ٢ / ص ١٧٩.

(٢) صارخة: مؤنث صارخ، والصارخة صوت الإستغاثة، صرخت صارخة: أي صاحت امرأة من ذوي المتوفى جزعاً، وربما كانت من ذوي عطاء.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ١٧١.

وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ... ﴿١﴾، ولذلك فعندما قال أحدهم عنده يوماً: اللهم أغننا عن جميع خلقك، أشار عليه الإمام عليه السلام: «لا تقل هكذا، ولكن قل: اللهم أغننا عن شرار خلقك، فإن المؤمن لا يستغني عن أخيه» (٢).

وكان عليه السلام يسبك حِكْمَهُ ومواعظهُ الثمينة سبكاً منتظماً للناس، كما تُسبِك قِلادة اللؤلؤ وتتنظّم على جيد الفتاة، فيقول عليه السلام: «ما من عبد يمتنع من معونة أخيه المسلم والسعي له في حاجته، قضيت أو لم تقض إلا أبتلي بالسعي في حاجة من يؤثم عليه ولا يؤجر، وما من عبد يبخل بنفقة ينفقها فيما يرضي الله إلا أبتلي بأن ينفق أضعافها فيما أسخط الله» (٣)، و«الصواعق تصيب المؤمن وغيره، ولا تصيب ذاكر الله عز وجل، ليس في الدنيا شيء أعون من الإحسان إلى الأخوان» (٤).

وعندما قيل للإمام عليه السلام إن محمد بن مسلم (ت ١٥٠ هـ) وجع، أسرع عليه السلام بإرسال الدواء إليه، فكان ذلك الدواء سبباً في شفائه، فجاءه يبكي، وقبّل يده ورأسه، فقال الإمام عليه السلام: «ما يبكيك يا محمد؟»، قال: على اغترابي، وبُعد الشقة، وقلة المقدرة على المقام عندك والنظر إليك، فقال عليه السلام: «أما قلة المقدرة فكذلك جعل الله أولياءنا وأهل مودتنا، وجعل البلاء إليهم سريعاً، وأما ما ذكرت من الاغتراب، فلك بأبي عبد الله عليه السلام (٥) أسوة بأرض ناء عنا بالفرات صلى الله عليه، وأما ما ذكرت من بُعد الشقة فإن المؤمن في هذه الدار غريب، وفي هذا الخلق منكوس، حتى يخرج من هذه الدار إلى رحمة الله، وأما ما ذكرت من حبك قربنا والنظر إلينا وأنك لا تقدر على ذلك، فلك ما في قلبك وجزاؤك

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

(٢) تحف العقول: ص ٢٩٢.

(٣) تحف العقول: ص ٢٩٢.

(٤) إسعاف الراغبين: الصبان: ص ٢٥٠.

(٥) يقصد الإمام الحسين عليه السلام.

عليك»^(١).

وكان ﷺ يرشد الناس إلى أسلوب الطلب من الله تعالى، فيقول ﷺ: «إذا أردت أمراً تسأله ربك، فتوضأً أحسن الوضوء، ثم صلّ ركعتين، وعظّم الله وصلّ على النبي ﷺ، وقل بعد التسليم: «اللهم إني أسألك - بأنك ملك، وأنك على كل شيء قدير مقتدر، وبأنك ما تشاء من أمر يكون - اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ، يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى الله ربك وربي لينجح لي طلبتي، اللهم بنبيك أنجح لي طلبتي بمحمد ﷺ، ثم سل حاجتك»^(٢).

يقول الإمام ﷺ، كما أورد عنه ابن كثير (ت ٧٧٤هـ): «وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله، وينهى الناس عما لا يستطيع أن يتحول عنه، وأن يؤذي جلسه بما لا يعنيه»، هذه كلمات جوامع موانع لا ينبغي لعاقل أن يغفلها^(٣).

(١٤)

عبادته ﷺ

عُرِفَ عن الإمام الباقر ﷺ أنه كان كثير الصلاة، فكان يصلي، على ما ذكره ابن عساکر (ت ٥٧١هـ) في اليوم واللييلة مائة وخمسين ركعة^(٤)، وكان إذا أقبل على الصلاة أصفر لونه^(٥)، وفيها دلالة عظيمة على الخشوع والمعرفة والإيمان الراسخ، وكان من عبادته ﷺ: الدعاء، فقد كان ﷺ يدعو الله تعالى في كل مناسبة، في الليل والنهار.

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣١٦.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٣٧٨.

(٣) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ٣٠٩ - ٣١٢.

(٤) تاريخ دمشق: ابن عساکر: ج ٥١ / ص ٤٤، وتذكرة الحفاظ: الذهبي: ج ١ / ص ١٢٥.

(٥) تاريخ دمشق: ج ٥١ / ص ٤٤.

روى الإمام الصادق عليه السلام قائلاً: «كان أبي يقول في جوف الليل في تضرعه: أمرتني فلم أئتمر، ونهيتني فلم أنزجر، فما أنا ذا عبدك بين يديك ولا أعتذر»^(١).

وروى عليه السلام أيضاً: «كان أبي [الباقر عليه السلام] يصلي في جوف الليل، فيسجد السجدة فيطيل حتى يُقال أنه راقد، فما نفجاً منه إلا وهو يقول: لا إله إلا الله حقاً حقاً، سجدتُ لك ياربَّ تعبداً ورقاً، وإيماناً وتصديقاً، وإخلاصاً، يا عظيمُ يا عظيمُ إن عملي ضعيفٌ فضاعفه لي، فإنك جوادٌ كريمٌ، يا حنان اغفر لي ذنوبي وجرمي، وتقبل مني عملي، يا جبار يا كريم، اللهم إني أعوذُ بك أن أجيب [ظالماً] أو أعمل ظالماً»^(٢).

وقال عليه السلام: «فَقَدَّ أَبِي بَغْلَةَ لَهُ فَقَالَ: لئن ردها الله تعالى لأحمدنّه بمحامد يرضاهها، فما لبث أن أتى بها بسرجهما ولجامهما، فلما استوى عليها وضمَّ إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله، فلم يزد، ثم قال: ما تركتُ ولا أبقيتُ شيئاً، جعلتُ كل أنواع المحامد لله عز وجل، فما من حميدٍ إلا هو داخلٌ فيما قلت»^(٣).

وكان لسانه عليه السلام دائماً على التضرع^(٤) إلى الله تعالى، فعند خروجه من الدار كان يدعو: «أعوذُ بما عادت به ملائكة الله من شر هذا اليوم الجديد، الذي إن غابت شمسُه لم تعد، من شر نفسي، ومن شر غيري، ومن شر الشيطان، ومن شر من نصَّب لأولياء الله، ومن شر الجن والأنس، ومن شر السباع والهوام، ومن شر ركوب المحارم كلها، أجير نفسي بالله من كل سوء»^(٥).

(١) كشف الغمة: ج ٢ / ص ٣١٩.

(٢) قرب الإسناد: الحميري: ص ٤.

(٣) كشف الغمة: ج ٢ / ص ٣١٩، وحلية الأولياء ج ٣ / ص ١٨٦.

(٤) التضرع: هو التذلل والخضوع لله تعالى، وأيضاً التشفع والابتهاج.

(٥) مرآة العقول: المجلسي: ج ١٢ / ص ٣٢٤.

وكان يحافظ على قراءة هذا الدعاء، ويوصي أصحابه بأن يحفظوا عليه كما يحفظون على عيونهم وهو: «سبحان الله، ولا إله إلا الله، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌ من الذل، وكبره تكبيراً»^(١).

وبعد إتمام تناول الطعام كان ﷺ يقول: «الحمد لله الذي أشبعنا في جائعين، وأروانا في ظامئين، وآوانا في ضاحين»^(٢)، وحملنا في راجلين، وآمننا في خائفين، وأخدمنا في عانين»^(٣)»^(٤).

وعند نومه ﷺ كان يقول: «بسم الله، اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووجهتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، وتوكلتُ عليك، رهبةً منك، ورغبةً إليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت»^(٥)، ثم يسبح تسبيحة الزهراء ﷺ.

وفي جوف الليل يقول: «أمرتني فلم آتمر، وزجرتني فلم أزدجر، ها أنا ذا عبدك بين يديك ولا أعتذر!»^(٦)، وكان ﷺ يكرر: «اللهم أعني على الدنيا بالغنى، وعلى الآخرة بالعفو»^(٧).

(١) مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي: ص ٢٥٢.

(٢) من صَحِيحِي الشَّخْص: برز وظهر في مكان مكشوف، والمعنى أنه سترنا بمأوى ليلاً حتى طلوع الشمس وزوال الظلام.

(٣) عني: مصدر اعنتى، وكان محل اعتناء واهتمام، فيكون المعنى: وضعنا في محل الاعتناء والخدمة.

(٤) وسائل الشيعة - الحر العاملي ج ٢٤ / ص ٣٥٧.

(٥) مستدرک الوسائل - المحدث النوري ج ٥ / ص ٤٤، ويرويه البخاري في صحيحه وينسبه إلى

البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ (البخاري حديث رقم ٦٣١١).

(٦) الصحيفة السجادية ص ٣٣١.

(٧) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ١ / ص ٥١٥.

وعندما يكرهه أمر، ويضيق عليه السلطان الظالم، كان ﷺ يتضرع إلى الله بالقول: «يا كائناً قبل كل شيء، ويا مكوّن كل شيء، ويا باقياً بعد كل شيء صلّ على محمدٍ وأهل بيته»، ثم يذكر مظلمته^(١).

ولم تكن العبادة مجرد كلمات تتحرك على شفاه الإنسان، بل كانت العبادة الحقيقية عنده ﷺ هي عبادة الله بالجوارح الظاهرة والباطنة، أي إن لبّ العبادة هو الالتزام بما أمر به المعبود من أوامر، والانتهاز عما نهاه من نواهٍ، فالعفة في البطن والفرج تُعدُّ عبادةً، وعدم التعرض للناس بسوء تُعدُّ عبادةً، وذكر الله عبادةً، فالعبادة الحقيقية هي الحالة العقلية للإنسان التي تأمره بأن يرقب الله تعالى في جميع تصرفاته.

يقول ﷺ: «ما من عبادةٍ عند الله تعالى أفضل من عفة بطنٍ أو فرجٍ، وما من شيءٍ أحب إلى الله تعالى من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلا الدعاء، وإن أسرع الخير ثواباً البر والعدل، وأسرع الشر عقوبةً البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما تعمى عنه نفسه، وأن يأمرهم بما لا يستطيع التحول عنه، وأن يؤذي جلسه بما لا يعنيه»^(٢).

قال العلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ) متحدثاً عن عبادة الإمام الباقر ﷺ: «إنَّ السجودَ قد بقر جبهته أي شقها»^(٣)، لكن ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) نفى ذلك قائلاً: «..» وقيل إنما سمي الباقر لأنه بقر العلم، لا لأجل بقر السجود جبهته»^(٤)، وفي ذلك النفي غرابة، وإلا فيمكن الجمع بين العلم والعبادة، لا سيما أن الشواهد أكثر من أن تحصي على عبادته وصلاته في الليل والنهار، وفي الوقت نفسه على علمه الغزير الذي استفاد من

(١) مهج الدعوات: ابن طاووس: ص ٢١٥.

(٢) تذكرة الخواص: سبط ابن الجوزي: ص ١٩١.

(٣) منهاج الكرامة: العلامة الحلي: ص ٥٥.

(٤) منهاج السنّة النبوية: ج ٤ ص ٥٠.

نميره معاصروه من مختلف المذاهب والمدارس الفكرية! وليس هناك تقاطع بين العلم والعبادة!

(١٥)

مع القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب الله الهادي للحق، المتكفل بإسعاد البشرية، وصفه الله تعالى بالقول: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١)، و﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾^(٢)، والإمام الباقر عليه السلام كان شغوفاً بتلاوة كتاب الله المجيد، والتدبر في معانيه، وبث علوم القرآن بين الناس، فالقرآن الكريم كتاب الله المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يقول عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣)، «لا يأتيه الباطل من قبل التوراة، ولا من قبل الأنجيل والزيور، ولا من خلفه - أي لا يأتيه من بعده كتاب يبطله، وليس في أخباره عما مضى باطل، ولا في أخباره عما يكون في المستقبل باطل»^(٤).

ولكالمالية الكتب السماوية عموماً، والقرآن الكريم بالخصوص، وكونها وحياً من قبل الله تعالى، توعد الله الذين يحرفون الكتاب السماوي، ويأولون معانيه تأويلاً بعيداً عن الحقيقة، فأدان اليهود بتحريفهم الكتاب بقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٣) سورة فصلت: الآية ٤١ - ٤٢.

(٤) مجمع البيان: الطبرسي: ج ٩ / ص ٢٧.

(٥) سورة النساء: الآية ٤٦.

وأدان بعض المسلمين ممن حاول إحداث حكم أو افتراء على الله، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١)، وليس هناك من شك أن محاولات استحدثت لشغل أذهان الناس عن القرآن الكريم، بالإشتغال في صراع الأفكار القائلة بالإرجاء، والجبر والتفويض، وتفسير القرآن بالرأي، أدان الإمام عليه السلام الذين يحرفون الكتاب بالقول: «وكان من نبيهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرفوا حدوده، فهم يرونه ولا يعرفونه، والجهال يُعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يُجزئهم تركهم للرعاية»^(٢).

الإمام الباقر عليه السلام والقرآن الكريم في المجتمع:

أصبح الوضع الاجتماعي والسياسي في القرن الثاني الهجري يشجع الناس على العزوف عن قراءة القرآن الكريم والتدبر في معانيه، بسبب الصراعات السياسية بين السلاطين، وعدم اهتمامهم بتعليم الناس أمور دينهم، وبسبب مظاهر الطبقية وربطها بمفاهيم الجبر والتفويض، أصبح الغني من المجبّرة يزعم بأن الله تعالى صمم له حياته وأجبره عليها، أي إن الثروة جاءت سائرة بإقدامها إلى الأغنياء من أهل السلطة، وقد قضى الله تعالى لهم في ذلك وأمضاه، فما عساهم أن يفعلوا!! فهم غير مخيرين في الأمر!! ولاشك أن استفحال الوضع الطبقي في المجتمع جعل الناس لا يتدبرون القرآن الكريم؛ لأن الطرفين: الغني والفقير مشغولون بدنياهما، فالغني مشغول بثروته الجديدة أين سيضعها، والفقير مشغول بفقره وحرمانه، يبحث عن رزق لا يجده، وهذا مصداق قوله عليه السلام: «وكان من نبيهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرفوا حدوده...»^(٣).

(١) سورة يونس: الآية ٥٩.

(٢) الكافي: ج ٨ ص ٥٢.

(٣) الكافي: ج ٨ ص ٥٢.

يصف الإمام الباقر عليه السلام قراء القرآن في زمانه، ويوصلهم إلى ثلاثة أصناف، فيقول عليه السلام: «قراء القرآن ثلاثة:

رجلٌ قرأ القرآن فاتحذه بضاعةً، واستدرّ به الملوك، واستطال به على الناس.

ورجلٌ قرأ القرآن فحفظ حروفه، وضيع حدوده، وأقامه إقامة القدح، فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن.

ورجلٌ قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فأسهر به ليله، وأظمأ به نهاره، وقام به في مساجده، وتجافى به عن فراشه، فأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وأولئك يديل الله عز وجلّ من الأعداء، وأولئك ينزل الله عز وجلّ الغيث من السماء، فوالله هؤلاء في قراء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر»^(١).

وعن الباقر عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معاشر قراء القرآن اتقوا الله عز وجلّ فيما حملكم من كتابه، فإني مسؤول وإنكم مسؤولون، أي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأما أنتم فتسألون عما حملتم من كتاب الله وسنتي»^(٢).

في قضايا القرآن:

وعلى الصعيد الاجتماعي، كان على الإمام عليه السلام أن يحث الناس على تلاوة القرآن المجيد والتدبر في معانيه، وكانت وظيفته عليه السلام تعليم الناس الأصول الصحيحة في التدبر في كتاب الله، وفي أحكام التلاوة أيضاً، وفي ذلك جزئيات تخص القرآن الكريم، منها:

١ - التدبر في معاني القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٦٢٧، وأمالى الشيخ الصدوق: ص ١٢١.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٦٠٦.

أَقْفَالُهَا^(١)، فأشار عليه السلام عليهم بقوله: «إياكم والخصومة [في القرآن] فإنها تحبط العمل، وتمحق الدين، وإن أحدكم لينزع بالآية يقع فيها أبعد من السماء»^(٢)، و«ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر»^(٣).

٢ - أفضلية النظر إلى المصحف: وفي النظر إلى المصحف الشريف وقراءته، كان لابد من تداول المصاحف الشريفة بالقراءة والتدبر، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بأفضلية النظر إلى المصحف عند القراءة، أنه قال عليه السلام: «من قرأ القرآن في المصحف مُتَّعَ ببصره، وحُفِّفَ عن والديه، وإن كانا كافرين»^(٤)، والثقافة الإلهية المحفوظة في صحف أحفظ لها من المادة المقروءة التي قد تكون عرضة للتغيير والتبديل.

٣ - عدد الآيات المقروءة: نُقِلَ عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قرأ عشر آيات في ليلة لم يُكْتَبْ من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كُتِبَ من الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كُتِبَ من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كُتِبَ من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كُتِبَ من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كُتِبَ من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كُتِبَ له قنطار من تبر»^(٥)^(٦).

٤ - الترتيل بالصوت الحسن: سأل أبو بصير الإمام عليه السلام عن رفع الصوت بقراءة القرآن، فقال عليه السلام: «أن يتوسط في القراءة بين الإخفات والصياح بأن يُسمع أهل بيته..»

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١٨.

(٣) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق ص ١٩٠.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٥٧٧.

(٥) التبر: الذهب.

(٦) الكافي: ج ٢ / ص ٦١٢.

ورجّع بالقرآن صوتك، فإن الله يحب الصوت الحسن يُرَجَّع فيه ترجيعاً^(١)، فما هو الترجيع؟

قال ابن حجر (ت ٨٥٢هـ): «إن الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في القراءة وأصله التردد، وترجيع الصوت ترديده في الحلق»^(٢)، وفسره بأنه «همزة مفتوحة، بعدها ألف ساكنة، ثم همزة أخرى (أأأ)»^(٣)، والمقصود بالترجيع هنا هو تحسين الصوت بشرط عدم التغني بالقرآن الكريم، قال في «فتح الباري»: «معنى الترجيع: تحسين التلاوة، لا ترجيع الغناء؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة»^(٤)، وهو مطابق للمتعارف عند أهل البيت عليهم السلام؛ لأن الأصل في التلاوة ذكر الله تعالى بحالة الخشوع، وترسيخ مشاهد القيامة في ذهن القارئ المتدبر.

٥ - عدم إهمال البسملة في القراءة: آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي جزء من سور القرآن الكريم، كما أكد أئمة أهل البيت عليهم السلام، ذلك وسأله أحدهم: هل يجوز أن يقرأ السورة بدون البسملة في الصلاة؟ فأجابه عليه السلام كتابةً: «يعيدها، يعيدها على رغم أنفه»^(٥)، أي رغم أنف ذلك الذي يفتي بعدم البأس بترك البسملة من السورة.

وانتشرت فكرة بين المفسرين في ذلك الزمان مفادها أن القرآن نزل على سبعة أحرف، واستندوا في ذلك إلى رواية وردت في كتب الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ما تيسر منه^(٦)، وقيل إن المراد بالأحرف سبع لغات

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٦١٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر: ج ٩ / ص ٩٢.

(٣) فتح الباري: ج ٩ / ص ٩٢.

(٤) فتح الباري: ج ٩ / ص ٩٢.

(٥) الكافي: ج ٣ / ص ٣١٣.

(٦) صحيح البخاري ج ٦ / ص ٢٢٧.

متفرقة: لغة قريش، ولغة هذيل، ولغة هوازن، ولغة اليمن ونحوها^(١).

صحح الإمام الباقر عليه السلام ذلك المفهوم الخاطيء، وقال عليه السلام: «أن القرآن واحد نزل من عند واحد، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة»^(٢).

وهذا الموضوع في غاية الأهمية، وجواب الإمام عليه السلام يمنحنا الإطمئنان بأن القرآن الكريم نزل بقول واحد، وإنما اختلفت اللهجات في ذلك، وقد ورد ما يؤيد ذلك حينما أشكل على ابن عباس معنى (فاطر) حين اختصم إليه إعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها.

واشتبه عليهم أيضاً معنى (افتح) في قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٣)، حتى سمعوا إعرابية تقول لزوجها: تعال أفاتحك، أي أحاكمك^(٤).

يقول زرارة: سألت الإمام الباقر عليه السلام عن [خلق] القرآن، فقال عليه السلام: «لا خالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الخالق»^(٥)، هكذا أجاب الإمام عليه السلام عن فكرة خلق القرآن، وما أشمله من جواب وما أكمله.

(١٦)

علمه عليه السلام

كان الباقر عليه السلام بلسماً لجراح أمة محمد صلى الله عليه وآله، فقد عاش في زمن انتشرت فيه ألوان

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي: ج ١ / ص ٢٦٩.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٦٣٠.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٤) تفسير القرطبي: ج ١ / ص ٥٤.

(٥) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٦.

البدع، والانحرافات الفكرية، والزندقة، والأفكار الجديدة البعيدة عن روح الإسلام، وأفكار التصوف والابتعاد عن الحياة، وكان سلاحه في محاربة تلك الأفكار المضادة هو العلم الديني، والمنطق، والعقل، وكان من ميزة علمه الجم هو قطع حجة الخصم، وإرجاع الفروع إلى أصولها، حتى قيل في علمه عليه السلام: «لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام في علم الدين والآثار والسنة وفنون الآداب ما ظهر من أبي جعفر الباقر عليه السلام»^(١).

و«روي عنه معالم الدين بقية الصحابة ووجوه التابعين وفقهاء المسلمين، وسارت بذكر كلامه الأخبار، وأنشدت في مدائحه الأشعار...»^(٢).

فمن «الصحابة نحو جابر بن عبد الله الأنصاري.

ومن التابعين نحو جابر بن يزيد الجعفي، وكيسان السختياني صاحب الصوفية.

ومن الفقهاء نحو: ابن المبارك، والزهري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وزیاد بن المنذر النهدي.

ومن المصنفين نحو الطبري، والبلاذري، والслаمي والخطيب في تواريخهم، وفي الموطأ، وشرف المصطفى، والإبانة، وحلية الأولياء، وسنن أبي داود، والألكاني، ومسندي أبي حنيفة والمروزي، وترغيب الأصفهاني، وبسيط الواحدي، وتفسير النقاش والزمخشري، ومعرفة أصول الحديث، ورسالة السمعي فيقولون: قال محمد بن علي، وربما قالوا: قال محمد الباقر، ولذلك لقبه رسول الله صلى الله عليه وآله بباقر العلم، وحديث جابر مشهور معروف رواه فقهاء المدينة والعراق كلهم...»^(٣).

(١) الإرشاد: ص ٢٦٢.

(٢) الإرشاد: ص ٢٦١.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

كان عليه السلام - حسب ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) - «من الطبقة الثالثة من التابعين في المدينة، وكان عالماً عابداً ثقة، وروى عنه أئمة المذاهب أبو حنيفة وغيره»^(١)، سأل أبو يوسف (ت ١٨٢هـ) استاذه أبا حنيفة (ت ١٥٠هـ): ألقيت محمد بن علي الباقر؟ فقال: نعم وسألته يوماً فقلتُ له: أراد الله المعاصي؟ فقال عليه السلام: «أفيعصى قهراً؟» قال أبو حنيفة: فما رأيتُ جواباً أفحم منه^(٢)، وقال عطاء: «ما رأيتُ العلماءَ عند أحدٍ اصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيتُ الحكم بن عيينة - وكان عالماً فاضلاً في زمانه - عنده كأنه مغلوب»^(٣). وما يُثير الإستغراب هو أنه لو كان الأمر كذلك وهو إذعانهم لعلمه عليه السلام، فلماذا لم يدعنا لإمامته وعصمته عليه السلام!؟

وكانوا يرجعون إليه عليه السلام، وهو في صغره، ويستفيدون من علمه عليه السلام، ومن ذلك أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن مسألة فلم يقف على جوابها، فقال للرجل: «إذهب إلى ذلك الغلام - يقصد الباقر عليه السلام - فاسأله، وأعلمني بما يُجيبك»^(٤)، وتلك الرواية تُعني عن الإسهاب، فهم «أهل بيتٍ مفهّمون»^(٥).

قال محمد بن مسلم (ت ١٥٠هـ): سألته عن ثلاثين ألف حديث^(٦)، خلال السنوات الأربع التي قضاها معه عليه السلام، ومن المؤكد أنه لم يصلنا هذا الكم الهائل من الأحاديث، إما لضيق قسم كبير منها خلال الأزمان الغابرة، وإما لظروف القهر والتسلط بحيث كانت تُدفن المخطوطات تحت الأرض اتقاء القتل، وبذلك ضاعت ثروة عظيمة، لو

(١) الطبقات الكبرى: ج ١ / ص ٣٢٢.

(٢) تذكرة الخواص: ص ٣٠٢.

(٣) تذكرة الخواص: ص ٣٣٦.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ١٤٧.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ١٤٧.

(٦) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ١٤٧.

فُدِّر الاستفادة منها، لكانت خيراً على البشرية جميعاً.

ولو أخذنا نموذجاً من علمه عليه السلام، لرأينا كيف يعرض عليه السلام مختصراً للفكر الإسلامي في جمل قصيرة تُثري المعنى، وتوصل مفاهيم القرآن الكريم، يقول عليه السلام: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى آدم عليه السلام: يا آدم إني أجمع لك الخير في أربع كلمات: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس.

فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً.

وأما التي لك فجازيك بعملك أحوج ما تكون إليه.

وأما التي بيني وبينك فعليك بالدعاء وعليّ الإجابة.

وأما التي فيما بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك»^(١).

(١٧)

حجه عليه السلام

لا نعلم عدد المرات التي ذهب بها الإمام عليه السلام إلى الحج، لكننا نعلم أن الناس كانت تعرف إمامها عليه السلام، فما إن يذهب لأداء الفريضة، حتى يجتمع إليه الحجيج يسألونه عن أمور عقيدتهم، وأحكام دينهم.

وكان عليه السلام قبل سفره يعلم أصحابه الصلاة والدعاء المخصوص بذلك، فيتوضأ ويصلي ركعتين، يقرأ في الأولى: الحمد وسورة الرحمن، والثانية: الحمد وسورة الواقعة أو تبارك، ثم يدعو بهذا الدعاء الجميل:

«اللهم إني خرجتُ في سفري هذا بلا ثقة مني بغيرك، ولا رجاء يأوي إلا إليك،

(١) معاني الأخبار: ص ١٢٧.

ولا قوة أتكلّ عليها، ولا حيلة أجد إليها إلا طلب فضلك، وابتغاء رزقك، وتعرضاً لرحمتك، وسكوناً إلى حسن عبادتك، وأنت يا إلهي أعلم بما سبق لي في سفري هذا مما أحبُّ وأكره، ولما أوقعت عليّ فيه قدرك، ومحمود بلائك، فأنت يا إلهي تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

اللهم صلّ على محمد وآل محمد، واصرف عني في سفري هذا كل مقدور من البلاء، وادفع عني كل محذور، وأسبل عليّ منه كنف عزّك، ولطف عفوك ورحمتك، وحقيقة حفظك، وسعة رزقك، وتمام نعمتك، وافتح لي فيه جميع أبواب فضلك، وعطائك وإحسانك، واغلق عني أبواب المخاوف كلها، وجميع ما أكره وأحذر وأخاف على نفسي وأهلي وذريتي، وافتح لي أبواب الأمن كلها، واصرف عني الملعع والجزع.

وارزقني الصبر والقوة والمحمدة لك، والنجاة من كل محذور ومقدور بما أنت أعلم به مني، واجعل ذلك خيرة لي في آخري ودنياي، وأسألك يا ربّ أن تحفظني فيما خلّفت ورائي من أهلي ومالي ومعيشتي وصنوف حوائجي، يا من ليس فوقه خالق يُرجى، يا من ليس دونه ربُّ يناجى، يا من ليس غيره إلهٌ يدعى، يا من ليس له وزير يؤتى، يا من ليس له حاجبٌ يغشى، يا من ليس له بوابٌ يُرشى، يا من ليس له كاتبٌ يدارى، يا من ليس له ترجمان ينادى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا كرمًا وجوداً، صلّ على محمد واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وارزقني في سفري هذا الأمن من المخاوف كلها، والغنيمة والظفر بكل غرض، وبلّغني جميع أملي ومقصودي.

اللهم وكل من قضيت عليّ ببقائه من أحدٍ من خلقك الذين جعلت لي إليهم حاجةً وشغلاً فسخره لي، واعطف بقلبه عليّ، ووفقه لما أريده وأبتغيه، وآمله واحرسه عن قصدي، والوقوف في حاجتي، وامنعه عن ظلمي وأذاي برحمتك يا أرحم الراحمين»^(١).

ثم يقول ﷺ مخاطباً من كان معه: «ثم اسجد، وادعُ بما أحببت، ثم ارفع رأسك، وقل: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم فاطر السموات والأرض صلِّ على محمدٍ وآل محمدِ وافعل بي ما أنت أهله، وأدخلني في كل خيرٍ أدخلت فيه محمداً وآل محمد، واخرجني من كل سوء أخرجت منه محمداً وآل محمد، وامنعي من أن يوصل إليّ سوء أبداً، ولا تغير ما أنعمت عليّ أبداً يا أرحم الراحمين»^(١).

ولما كان الحج عبادة ينقطع فيها الإنسان إلى ربه كبقية العبادات، كانت تظهر عليه ﷺ آثار الخشوع بأجلى صورها في أداء المناسك، فعندما يدخل المسجد الحرام يعلو صوته بالبكاء، ويقول: «....أني أرفع صوتي بالبكاء لعل الله ينظر إليّ برحمته فأفوز بها غداً»^(٢)، وعندما يصلي خلف مقام النبي إبراهيم ﷺ، لا يترك موضع سجوده إلا وقد ابتل من دموع عينيه^(٣).

وكانت النخبة من الحجيج تحفّ بالإمام الباقر ﷺ إلى درجة أن أحدهم وصفه بهذا الوصف: «إلا أن هذا باقر علم الرسل، وهذا ميين السبل، وهذا خير من رسخ في أصلاب أصحاب السفينة، هذا ابن فاطمة الغراء، العذراء الزهراء، هذا بقية الله في أرضه، هذا ناموس الدهر، هذا ابن محمد وخديجة وعلي وفاطمة، هذا منار الدين القائمة»^(٤).

وفي خبر أبي حمزة الثمالي (ت ١٥٠هـ)، لما كانت السنة التي حج فيها الإمام الباقر ﷺ

(١) بحار الأنوار: ج ٧٦ / ص ٢٦٢.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٤٤.

(٣) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٤٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ١٨٣.

ولقيه هشام بن عبد الملك، أقبل الناس ينثالون^(١) عليه، فقال عكرمة: من هذا عليه سياء زهرة العلم^(٢)؟ لأجربنه، فلما مثَّل بين يديه ارتعدت فرائصه، قال: يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره، فما أدركني أنفأ، فقال له الإمام عليه السلام: «ويلك يا عبید أهل الشام إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه»^(٣).

وفي تلك السنة رافق الصادق عليه السلام أباه الإمام الباقر عليه السلام في الحج، فينقل لنا دعاء أبيه عليه السلام: «الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً، وأكرمنا به فنحن صفوة الله على خلقه، وخيرته من عباده وخلفاؤه، فالسعيد من اتبعنا والشقي من عادانا وخالفنا...»^(٤).

وعن حبابة الوالبية (قيل إن وفاتها سنة ٢٠٤هـ)^(٥) قالت: «رأيت رجلاً بمكة، أصيلاً^(٦)، في الملتزم^(٧)، أو بين الباب والحجر، على صعدة من الأرض، وقد حزم وسطه على المتزر بعمامة خز، والغزاة^(٨) تحال على قلل الجبال كالعمائم على قمم الرجال^(٩)، وقد صاعد كفه وطرفه نحو السماء ويدعو، فلما انثال الناس عليه يستفتونه عن العضلات،

(١) ينثالون: انثال: انصبَّ عليه القول أي تتابع وكثر.

(٢) زهرة العلم: بهجة العلم ونضارته وحسنه.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣١٧.

(٤) الأمان من أخطار الأسفار والزمان: ابن طاووس: ص ٥٢.

(٥) المشهور أن وفاتها كانت بعد وفاة الإمام الرضا عليه السلام بتسعة أشهر.

(٦) الأصيل: وقت العصر وبعده.

(٧) الملتزم: هو مكان بين الحجر الأسود وباب الكعبة وطوله أربعة أذرع، عن ابن عباس: أن الملتزم ما بين الركن والباب، وهو موضع إجابة الدعاء، وكان الإمام الصادق عليه السلام إذا انتهى إلى الملتزم قال لمواليه: «أميطوا عني حتى أقرّ لربي بذنوبي في هذا المكان...» الكافي: ج ٤ / ص ٤١٠ باب الملتزم والدعاء عنده، حديث ٤.

(٨) الغزاة: الشمس.

(٩) القمم: جمع قمة بالكسر، وهي أعلى الرأس، أي كانت الشمس في رؤوس الجبال، وكأنها عمامة على رأس رجل لإتصالها برؤوسها وقرب أفولها.

ويستفتحون حل المشكلات، فلم يرم حتى أفتاهم في ألف مسألة، ثم نهض يريد رحله، ومنادٍ ينادي بصوت صهل^(١): «ألا إن هذا النور الأبلج^(٢) المسرج^(٣)، والنسيم الأرج^(٤)، والحق المُرَج^(٥)، وآخرون يقولون من هذا؟ فقيل: محمد بن علي الباقر، علّم العلم، والناطق عن الفهم، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٦).

وفي رواية أن رجلاً أوصى بألف درهم للكعبة، فجاء الوصي إلى مكة وسأل، فدلوه إلى بني شيبه فأتاهم فأخبرهم الخبر، فقالوا له: برئت ذمتك ادفعه إلينا! فقال الناس: سل أبا جعفر الباقر عليه السلام، فسأله، فقال عليه السلام: «إن الكعبة غنية عن هذا، انظر إلى من زار هذا البيت ففُطِعَ به، أو ذهب نفقته أو ضلّت راحلته، أو عجز أن يرجع إلى أهله فادفعها إلى هؤلاء»^(٧).

وعن أبي عبيدة (ت ١٥٠هـ)، أنه قال: «زاملت أبا جعفر عليه السلام فيما بين مكة والمدينة، فلما انتهى إلى الحرم اغتسل وأخذ نعليه بيديه، ثم مشى في الحرم»^(٨)، أي بتلك البساطة، بدون خادمٍ يخدمه، أو حارسٍ يجرسه، أو حاشيةٍ تحيط به، وكان عرف ذلك الزمان وجود الخدم والحاشية.

وكان عليه السلام يتصدق بلحوم الأضاحي بثلثٍ على جيرانه، وثلثٍ على السائل الفقير،

(١) الصهل: حدة الصوت مع بحح.

(٢) الأبلج: الواضح المضيء.

(٣) المسرج: المضيء، من إيقاد السراج.

(٤) الأرج: انبعاث ريح الطيب.

(٥) الحق المُرَج: ربما من التحرك والاهتزاز لتحركه بين الناس.

(٦) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣١٧.

(٧) الكافي: ج ٤ / ص ٢٤١.

(٨) الكافي: ج ٤ / ص ٣٩٨.

وثلاثٍ يمسكه لأهل البيت عليهم السلام ^(١).

وتلك كانت طبيعة حج الإمام الباقر عليه السلام: عبادة، وتقوى، وعلماً، كان حجه عليه السلام إتصلاً بالخالق، وعبادةً خالصةً لله تعالى، ومدرسةً يتعلم منها الناس شتى أحكام الإسلام وأصوله وعقائده، ومثالاً يُحتذى في البساطة وتهذيب النفس.

(١٨)

ملوك زمانه عليه السلام

عاصر عليه السلام خمسة من خلفاء بني أمية، وهم: الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

في كتاب (عيون المعجزات) المنسوب إلى السيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) مرفوعاً، عن جابر قال: «لما أفضت الخلافة إلى بني أمية سفكوا في أيامهم الدم الحرام، ولعنوا أمير المؤمنين عليه السلام على منابرهم ألف شهر، واغتالوا شيعته في البلدان وقتلوهم واستأصلوا شأفتهم، ومالاهم على ذلك علماء السوء رغبةً في حطام الدنيا وصارت محتتهم على الشيعة لعن أمير المؤمنين عليه السلام، فمن لم يلعنه قتلوه، فلما فشى ذلك في الشيعة وكثر وطال، اشتكت الشيعة إلى الإمام زين العابدين عليه السلام وقالوا له: يا بن رسول الله أجلسنا عن البلدان، وأفنونا بالقتل الذريع، وقد أعلنوا لعن أمير المؤمنين عليه السلام في البلدان وفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى منبره، ولا ينكر عليهم منكر، ولا يغير عليهم مغير، فإن أنكر واحد منا على لعنه قالوا: هذا ترابي ورفع ذلك إلى سلطانهم وكتب إليه أن هذا ذكر أبا تراب بخير حتى ضرب وحُبس ثم قُتل، فلما سمع عليه السلام ذلك نظر إلى السماء وقال: سبحانك ما أعظم شأنك إنك أهملت عبادك حتى ظنوا أنك أهملتهم، وهذا كله بعينك، إذ لا يغلب

قضاؤك ولا يرد تدبير محتوم أمرك، فهو كيف شئت وأنى شئت لما أنت أعلم به منا»^(١).

عاصر الإمام الباقر عليه السلام من خلفاء بني أمية من هو أكثرهم قسوةً وأشدهم بطشاً، وأشدهم تمسكاً بأهداب السلطة، كهشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ)، ومن الولاة كالحجاج الثقفي (ت ٩٥هـ)، وعلى مدى أربعين عاماً عاش الإمام عليه السلام ظرفاً استثنائياً أتسم فيه أصحاب القرار السياسي بصفتين مذمومتين: البخل، والقسوة.

فعلى نطاق البخل كانت الرعاية تعاني الويلات، فالبخيل إنما بخيلٌ على الناس بهاله، فما بالك ببخيلٍ على الناسٍ بهالٍ غيره، كالخليفة الأموي، وكان منهم: عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) الذي كان يسمى بـ(رشح الحجارة) لشدة بخله، وسليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الذي كان يجلب الدرّ حتى ينقطع، ويجلب الدم حتى ينصرم^(٢)، وهشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) الذي كان شعاره: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً^(٣)، وهكذا ببخلهم، حرّموا الفقراء من عطاء بيت المال ومساعدة أهل الحاجة والعوز، وأثقلوا على الناس بالضرائب والغرامات.

وعلى نطاق القسوة، والظلم والقتل، فقد كان مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ)، وعبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، والوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ)، ويزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ)، وهشام بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ) من الظلمة القسوة الذين قتلوا وأسرفوا في القتل، خصوصاً عندما ولي عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) على العراق، فأذاق الناس طعم السيف للشبهة والتهمة، وكانت أكبر جريمة يعاقبون عليها الولاء لعلي بن أبي طالب عليه السلام، فكانت عقوبتها القتل صبراً مع

(١) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٨٠.

(٣) البخلاء: الجاحظ: ص ١٥٠.

التعذيب والإحراق ونحوه.

ولم تقتصر صفات خلفاء بني أمية على البخل، والقسوة والظلم، بل تعدت إلى تشجيع أهل الأفكار العقائدية الجديدة كالجبر والتفويض، والإرجاء، والتجسيم، وشجعوا أيضاً الأفكار الفقهية الجديدة كالقياس، والاجتهاد بالرأي والمصالح المرسلة ونحوها.

فكان الإمام الباقر عليه السلام رجلَ المرحلة وإمامها، فقد نافح عن الدين وعن شريعة سيد المرسلين عليه السلام من التحريف والتزوير، وكان المثل الأعلى الذي يعدل بين الناس، ويعلمهم الدين والحكمة، ويسلك بهم طريق الهداية والرحمة الإلهية.

(١٩)

مع شاعر أهل البيت عليهم السلام الكميت الأسدي

كان الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦هـ) من أهل الكوفة، شاعراً، عالماً بأداب العربية وأخبارها وأنسابها، منحازاً إلى الحق، مدافعاً عن بني هاشم، كثير المدح لهم، عاصر الإمام الباقر عليه السلام وأسمعه شعراً جميلاً، قُتِلَ وهو يدافع عن أهل البيت عليهم السلام بالشعر الجميل والقول الجزيل، قال أبو عكرمة الضبي (ت ٢٥٠هـ): «لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان»^(١)، و«لا للبيان لسان»^(٢).

كان في الكميت «عشر خصال لم تكن في شاعر: كان خطيب بني أسد، وفقهه الشيعة فهو أول من ناظر في التشيع، حافظ القرآن الكريم، ثبت الجنان، كاتباً حسن الخط، نساباً، جزلاً، رامياً لم يكن في بني أسد أرمى منه، فارساً شجاعاً، ديناً، وكان

(١) الأعلام: الزركلي: ج ٥ / ص ٢٣٣.

(٢) روضات الجنات: الخونساري: ج ٦ / ص ٥٩.

مشهوراً في التشيع مجاهراً في ذلك»^(١).

لكنه (رضوان الله عليه) دفع ثمن ولائه لأهل البيت عليهم السلام بدمه وتاريخه، فقتل شر قتلة من قبل بني أمية، وحاولوا دفن تراثه الشعري.

ولم يكن في شعره أي ميلٍ للدعابة أو المجون، بل وجه شعره إلى مآثر بني هاشم، وأخذ يذيع فضائلهم بأروع الشعر العربي، وبأجمل اللوحات الفنية التي تعكس الفكر والدين والفن.

قصائد الكميت بمحضر الإمام الباقر عليه السلام :

كان الكميت يبذل من جهده وماله لحضور مجلس الإمام عليه السلام حتى يُسمعه شعراً جميلاً يعرض فضائلهم عليهم السلام ومنازلهم، ومن قصائده التي أنشدها بمحضر الإمام الباقر عليه السلام، نماذج متخبات:

١ - في (الهاشميات) :

طربت وما شوقاً إلى البيضِ أطربتُ	ولا لعباً مني أذو الشيبِ يلعبُ
ولم يُلهنني دارٌ ولا رسمٌ منزلٍ	ولم يتطربني بنانٌ مُحضَّبُ
ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيةً	أمراً سليمُ القرنِ أمراً أعضبُ
ولكن إلى أهل الفضائلِ والنهي	وخيرِ بني حواءَ والخيرِ يُطلبُ
إلى نفرِ البيضِ الذين بحبِّهم	إلى الله فيما نابني أتقربُ
بني هاشمٍ رهطِ النبيِّ فإنني	بهم وهُم أَرْضِي مراراً وأغضبُ
خَفَضْتُ لهم مني جناحي مودةً	إلى كنفِ عطفاهُ أهلٌ ومرحِبُ ^(٢)

(١) خزنة الأدب: البغدادي: ج ١ / ص ٩٩.

(٢) ديوان الكميت بن زيد الأسدي: ص ٥١٢ - ٥١٥.

قرأ الكميت شعره هذا على الفرزدق (ت ١١٠هـ)، فأجابه: «يا بن أخي أذع، ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى، وأشعر من بقي»^(١).

وقرأ شعره على الإمام الباقر عليه السلام، فقال عليه السلام: «اللهم أرحم الكميت واغفر له»^(٢)، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحسان بن ثابت: «ما زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت»^(٣)، وفي ثانية قال عليه السلام: «والله يا كميت لو كان عندنا مال لأعطيناك منه، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحسان بن ثابت: لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنا»^(٤).

٢ - الميمية من (الهاشميات):

من لقلبٍ مُتيمٍ مُستهم	غير ما صَبُوَّةٍ ولا أحلام
طارقاتٍ ولا ادِّكارِ غوان	واضحاتِ الحدودِ كالآرامِ
بل هَوَايَ الذي أُجِنُّ وأبدي	لبني هاشمٍ فروعِ الأنامِ
للقريين من ندى والبعيدي	ن من الجورِ في عرى الأحكامِ
والمُصيينَ بابَ ما أخطأ الناسُ	ومُرسي قواعِدِ الإسلامِ
والحمأة الكفأة في الحربِ إن	لفَّ ضراماً وقودها بضرامِ
والغُيوثِ الذينَ إن أحملَ النا	سُ فمأوى حواضنِ الأيتامِ
والولاةِ الكفأةِ للأمرِ إن طرَّ	ق يتناً بمُجهَضٍ أو تمامِ
والأساةِ الشفأةِ للداءِ ذي الريبةِ	والمدرِّكينَ بالأوغامِ
والرَّوايا التي بها يحملُ النا	سُ وسُوقَ المُطَبَّعاتِ العظامِ

(١) الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني ج ١٥ / ص ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣٢٩.

(٣) قصص العرب ج ٢ / ص ٢٦٩، ومروج الذهب: المسعودي: ج ٢ / ص ١٩٥.

(٤) الكافي: ج ٨ / ص ١٠٢.

والبحور التي بها تُكشَفُ الحرَّةُ
لكثيرينَ طيبينَ من الناسِ
واضحِي أوجهِ كريمي جدودِ
قتلوا يومَ ذاكِ إذ قتلوه
والدءُ من غليلِ الأوامِ
وبرينَ صادقينَ كرامِ
واسطي نسبةٍ لهامِ فهمِ
حَكماً لا كغابرِ الحُكَّامِ
هـُ وفقدُ المُسيمِ هُلكِ السَّوامِ
بعد نهجِ السبيلِ ذي الآرامِ
رِ على حينِ دِرَّةٍ من صرامِ
في مُريدِنَ مخطئينَ هُدى اللدِ

٣ - فيما حلَّ بأهل البيت عليهم السلام :

ألا هل عمَّ في رأيه متأملُ
وهل مُدبرٌ بعدَ الإساءةِ مقبلُ
وهل أمةٌ مستيقظونَ لرشدِهِم
فيكشفُ عنه النعسةَ المتزملُ
فقد طالَ هذا النومُ واستخرجَ الكرى
مساويهم لو أنَّ ذا الميلِ يعدلُ
وعَطَّلتَ الأحكامُ حتى كأننا
على ملَّةٍ غيرِ التي نتنحلُ
كلامُ النبيينَ الهداةِ كلامنا
وأفعالُ أهلِ الجاهليةِ نفعلُ

كأن حسيناً والبهايلَ حوله
 لأسيافهم ما يختلي المتبقل
 يُخْضَنَ بهم من آلِ أحمدَ في الوغى
 دَمًا ظَلَّ منهم كالبهيمِ المُحَجَّلِ
 وغابَ نبيُّ اللهِ عنهم وفقدُهُ
 على الناسِ رُزْءٌ ما هناكَ مجلَّلُ
 يصيبُ به الرامُونَ عن قوسِ غيرهم
 فيا آخرًا سدَى له الغيِّ أولُ^(١)

٤ - العينية من (الهاشميات) :

نفي عن عينك الأرق الهجوعا	وهمٌ يمتري منها الدموعا
دخيلٌ في الفؤادِ يبيحُ سُقْمًا	وحُزنًا كان من جدلٍ مُنوعا
لُفقدانِ الخصارمِ من قريشٍ	وخيرِ الشافعينَ معاً شفيعا
لدى الرحمنِ يصدعُ بالمثاني	وكانَ له أبو حسنٍ مُطيعا
وأصفاهُ النبيُّ على اختيارٍ	بما أعيى الرُفوضَ له المذيعا
ويومَ الدَّوحِ دوحِ غدِيرِ حُمِّ	أبانَ له الولايةَ لو أُطيعا
ولكنَّ الرجالَ تبايعُوها	فلم أرَ مثلها خَطراً مبيعا
فلم أبلغْ بهالعنا ولكن	أساءَ بذاك أولهُم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لِعَدلٍ	إلى جورٍ وأحفظهُم مَضيعا
أضاعوا أمرَ قائدهم فضلُوا	وأقومهم لدى الحدِثانِ ريعا
فقل لبني أميةٍ حيثُ حلُّوا	وإن خفتَ المهندَ والقطيعا

(١) ديوان الكميّت الأسيدي ص ٥٨٧ - ٦٠٣.

ألا أفٍّ لدهرٍ كنتُ فيه هداًنا طائِعاً لكم مُطيعاً
 أجاجَ اللهُ من أشبعتُمُوهُ وأشبعَ منْ بجوركم أُجيعاً
 وليثاً في المشاهدِ غيرِ نكسٍ لتقويمِ البريةِ مستطيعاً
 يُقيمُ أمورَها ويذبُّ عنها ويتركُ جدَّها أبداً مريعاً^(١)

وبالإجمال، فإن الإمام الباقر عليه السلام وجد في شعر الكميت ما يوصل الفكرة الدينية في التوحيد والنبوة والإمامة إلى الأمة بالألفاظ العذبة، والكلمات الجميلة، ولذلك دعا الله عز وجل أن يغفر له، ويرحمه، ويسدد رميته التي أراد بها وجه الله تعالى، وشفاعة رسوله عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام.

(٢٠)

الحرب الفكرية: العقائد الباطلة

شجعت الدولة الأموية، بطريقة أو بأخرى، إنشاء عقائد باطلة مخالفة لأصول الإسلام وتعاليمه: كالجبر والتفويض، والإرجاء خدمةً لمصالحهم في السلطة.

وكانت منهجية الإمام عليه السلام في محاربة العقائد الباطلة تتم من خلال طريقتين:

الأول: رد الشبهات بطريقة علمي مُحكم: فهو عليه السلام يستند إلى فهمٍ شاملٍ لآيات القرآن الكريم، واستيعابٍ كاملٍ لسنة رسول الله عليه السلام، وقدرةٍ عقليةٍ هائلة، فيخاطب أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ) عندما يسأله: أراد الله المعاصي؟ فيجيبه عليه السلام: «أفيعصى قهراً؟»^(٢).

ويُجيب طاووس اليماني (ت ١٠٦هـ) على أسئلته عن آدم، وإبليس، والجن، والمنافقين، وطور سيناء، وطالوت ونحوها^(٣).

(١) ديوان الكميت الأسدي: ص ٦٢٢ - ٦٢٥.

(٢) تذكرة الخواص: ص ٣٠٢.

(٣) الاحتجاج: الطبرسي: ج ٢ / ص ٣٢٨ - ٣٣٠.

ويُجيب على أسئلة عمرو بن عبيد المعتزلي في الرتق والفتق والغضب^(١)، كما سيأتي. فكان عليه السلام يردُّ على الشبهات بأسلوب علمي محكم، يستند فيه على آيات القرآن الكريم، وسنة نبيه عليه السلام، ودليل العقل.

الثاني: إرجاع الناس إلى أهل البيت عليهم السلام، ومن ذلك كان يخاطب رؤوس المذاهب المستحدثة ويحاول إرشادهم، فهذا قتادة بن دعامة البصري فقيه أهل البصرة (ت ١١٨ هـ) يخاطبه قائلاً: «ويحك يا قتادة أن الله جلّ وعزّ خلق خلقاً من خلقه، فجعلهم حججاً على خلقه، فهم أوتادٌ في أرضه، قوائمٌ بأمره، نجباءٌ في علمه، اصطفاهم قبل خلقه، أظلةٌ عن يمين عرشه»^(٢).

ويجيب أبي الجارود (توفي بين ١٥٠ - ١٦٠ هـ) عندما يسأله عن دينه الذي به يُدين، وكان قبلها يعتذر إليه بأنه مكفوف البصر، قليل المشي، ولا يستطيع زيارته عليه السلام كل حين، فيقول عليه السلام: «... والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عزّ وجلّ به: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله عليه السلام، والإقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لولينا، والبراءة من أعدائنا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا، والاجتهاد والورع»^(٣).

كانت الأفكار الجديدة تدور حول أسئلة مهمة، وهي: هل إن اعتقاد الإنسان بقلبه كافٍ للدخول في مرضاة الله دون عمل من صلاةٍ وصيامٍ؟ وهل إن الخالق عزّ وجلّ جسمٌ له أبعادٌ ثلاثة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟ وهل أننا نستطيع تطويع أحكام الدين السماوي بالقياس المنطقي؟ أسئلة صعبة، وأجوبتها أصعب علينا، لكن الإمام المعصوم عليه السلام كان قادراً على تذليل السؤال والإجابة عليه إجابة مُحكمة.

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٩.

(٢) الكافي: ج ٦ / ص ٢٥٦.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٢٢.

فقد فند الإمام السجاد عليه السلام فكرة القياس، وقال: «أن دين الله لا يُصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة»^(١)، وحذر الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة بالقول: «لا تقس، فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار، لعرف فضل ما بين النورين»^(٢).

ومن ثمرة أقوال الصادقين عليهم السلام في عدم شرعية القياس في الدين، أن من قال بالقياس عدلٌ لاحقاً شروط القياس، وجعل له ضوابط جديدة منها: أن يكون الحكم الأولي قد ورد فيه نص في الأصل^(٣)، وأن تكون العلة وصفاً جامعاً بين الأصل والفرع، وبذلك قلّت مضار القياس في الاستنباط الديني إلى أدنى حد، ولكن أصل الفكرة لا يزال خروجاً على تعاليم خاتم الأنبياء محمد عليه السلام.

وفي زمن الإمام الباقر عليه السلام احتدم الصراع بين فكرتين هما: الجبر والتفويض، وقد حارت الناس بينها، ولم تهتد إلى أيهما أصح لولا توضيح الإمام الباقر عليه السلام.

فقد زعمت فكرة الجبر بأن الإنسان لا يملك إرادة الفعل، والأفعال كلها أفعال الله تعالى، وأنكرت اختيار الإنسان لفعله، وأستدلّت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

وزعمت فكرة التفويض بأن أفعال الإنسان أفعالاً حقيقية اختارها بنفسه دون أن يكون لله تعالى عليه جبر أو إرادة فيها، وأستدلّت بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ

(١) كمال الدين: الصدوق: ص ٣٢٤.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٥٨.

(٣) المستصفى: الغزالي: ج ٢ / ص ٥٤.

(٤) سورة الصافات: الآية ٩٦.

فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ... ﴿١﴾.

استثمرت السلطة الأموية فكرة الجبر، وروجتها لأسباب سياسية وهي أن حكم الناس من قبل بني أمية هي قضية مخلوقة من قبل الله تعالى، ولا خيار للأفراد في تفويضها، خصوصاً وأن الخليفة الأموي هو خليفة الله في الأرض!

قال أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه «لا جبرٌ ولا تفويضٌ، ولكن أمرٌ بين أمرين»^(٢)، وقال الإمام الباقر عليه السلام بالخصوص: «إن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها، والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون»^(٣).

وكما أطنب الأمويون بمدح فكرة الجبر، هللوا أيضاً لفكرة الإرجاء، باعتبار أن الإيذان قولٌ بلا عمل، فإذا كنت مؤمناً بالقلب، فلا تضرّ المعصية، ولا يضرّ الفساد، ولا الظلم، وقف الإمام الباقر عليه السلام موقفاً قوياً ضد الإرجاء، وقال عليه السلام مخاطباً المسلمين جميعاً: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»^(٤).

وقد آمن المجسمة بأن الله تعالى جسماً من طول وعرض وارتفاع تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقد أولوا الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر الأعضاء كالوجه، والساق، واليد، وجعلوها صفةً لله عزّ وجلّ، فقالوا أن الخالق عزّ وجلّ يضع رجله بالنار يوم القيامة تأويلاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٥)، وهي تعني جدّة الأمر يوم القيامة ولا علاقة لها بالساق، وزعموا بأن

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١٥٩.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ١٥٩.

(٤) الكافي: ج ٦ / ص ٤٧.

(٥) سورة القلم: الآية ٤٢.

وجه الله تعالى هو ذاته، في قوله تعالى: ﴿وَيَقِيْ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١)، ووجه الله يعني دينه كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام^(٢)، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٣)، إن الكرسي والعرش هما موضع قدم الله تعالى الله عن ذلك، بينما معنى الكرسي والعرش هو التدبير الإلهي للكون والموجودات.

ردّ الإمام الباقر عليه السلام على المجسمة بأقوال كثيرة، منها: «أن الله تبارك وتعالى خلو من خلقه، وخلقه خلوه منه»^(٤)، و«أن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون...»^(٥)، و«أن الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيهه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلّ عن أوهام المتوهمين»^(٦).

ووضح عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَزَهُقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ...﴾^(٧)، بأن هؤلاء هم أهل البدع، والشبهات، والشهوات يسود الله وجوههم، ثم يلقونه، يقول تعالى: ﴿...كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا...﴾^(٨) يسود الله وجوههم يوم القيامة، ويلبسهم الذل والصغار،

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٢) الدمعة الساكبة: البهبهاني: ج ٧ / ص ١٥٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٤) التوحيد - الصدوق ص ١٠٥.

(٥) الكافي: ج ١ / ص ٨٨.

(٦) التوحيد ص ١٧٩.

(٧) سورة يونس: الآية ٢٧.

(٨) سورة يونس: الآية ٢٧.

يقول الله تعالى: ﴿... أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)،^(٢).

(٢١)

في دمشق

من استقراء النصوص التاريخية نستنتج ظاهراً أن الإمام الباقر عليه السلام سافر إلى دمشق ثلاث مرات:

الأولى: كانت في زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، فتكون الزيارة بين سنة ٧٥ - ٨٦هـ، حسبنا نستقرئه من عمر الإمام عليه السلام، فقد ولي عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ، ولا يمكن للإمام عليه السلام أن يذهب قبل سنة ٧٥هـ؛ لأنه بالكاد قد بلغ الثامنة عشرة من عمره سنة ٧٥هـ.

وعلى أية حال فقد بعث عبد الملك بن مروان إلى واليه بالمدينة المنورة بأشخاص الإمام الباقر عليه السلام لإيجاد حل لمشكلة النقد بين المسلمين؛ لأن النقيدين الروماني والفرسي كانا سائدين في بلاد المسلمين، والمرجح أن ذلك حدث في السنوات الأخيرة من خلافة عبد الملك بن مروان، حيث كان الإمام الباقر في منتصف العشرينات من عمره، وكان ذلك في حياة أبيه الإمام السجاد عليه السلام، وسوف نتناول هذه القضية مرة أخرى في موضوع الإمام الباقر عليه السلام والنقد الإسلامي، بإذنه تعالى.

الثانية: كانت في زمن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ)، فتكون الزيارة بين سنة ٩٩ - ١٠١هـ، أي بعد وفاة الإمام السجاد عليه السلام بعدة سنوات، فيكون الإمام الباقر عليه السلام معروفاً بإمامته العامة للمسلمين.

(١) سورة يونس: الآية ٢٧.

(٢) تفسير القمي: ج ١/ ص ٣١١.

وللزيرة الثانية دلالات خاصة؛ لأنها تمت وفي علم عمر بن عبد العزيز أن الإمام الباقر عليه السلام إمامٌ معصومٌ واجبُ الطاعة، وهو من أشرف آل بيت النبي المصطفى عليه السلام، سيدٌ كريمٌ، متميزٌ بالعلم والتقوى، فكان لحضوره عليه السلام وقع في نفوس الناس.

وعلى أية حال، فإن الإمام الباقر عليه السلام كان يقوم بدوره الشرعي في إرشاد الحاكم، ونصحه، وتوصيته بوصايا الحكمة، وبالخصوص تقوى الله، والعدل بين الناس، فقال عليه السلام له: «أوصيك بتقوى الله، واتخاذ الكبير أباً، والصغير ولداً، والرجل أخاً...»^(١)، بمعنى أن الإمام عليه السلام أوصاه باحترام كيان الإنسان في المجتمع، وحرّم عليه انتهاك حقوقه في مبدأ الإنسانية التي أوصى بها الله تعالى.

وكان الإمام الباقر عليه السلام يعطي كل خليفة مقداره من النصح أو الإدانة أو التكريظ، يقول عليه السلام: «إن سليمان كان جباراً كتبتُ إليه ما يُكتب إلى الجبارين، وإن صاحبك [يعني عمر بن عبد العزيز] أظهر أمراً، وكتبتُ إليه بما شاكله»^(٢).

ومع أن سياسة عمر بن عبد العزيز الشخصية قد تغيرت بمقدار ملحوظ مع أهل البيت عليهم السلام، إلا أن سياسته العامة كانت امتداداً لسياسة الأمويين من أسلافه، فقد كان ولاته في الأمصار يظلمون الناس ويبتزون أموالهم، بل أمر بزيادة عطاء أهل الشام دون بقية الأمصار عشرة دنائير^(٣)، فكان العطاء في الدولة الأموية على أساس الولاء السياسي لا على أساس حاجة الناس والعدل بينهم، كما كانت في زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

الثالثة: كانت في زمن هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ)، فتكون الزيارة بين سنة

(١) تاريخ دمشق: ج ٥٤ / ص ٢٧٠.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٤٨.

(٣) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٤٨.

١٠٥ - ١١٤ هـ، فقد أمر هشام عامله على المدينة المنورة بحمل الإمام عليه السلام إلى دمشق، ولما أدخلوا الإمام عليه السلام قصر هشام بن عبد الملك، سلّم على القوم، ولم يسلم عليه بالخلافة، فانبرى هشام قائلاً: «يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم...»، ثم سكت، وجعل حاشيته تنال من الإمام عليه السلام، وعندما انتهوا من كلامهم، تكلم الإمام عليه السلام فقال: «أيها الناس: أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملكٌ معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك؛ لأننا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين...»^(١).

وبعد خروجه من هشام سنحت له عليه السلام الفرصة لوعظ أهل الشام، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «[أيها الناس] اجتنبوا أهل الشقاق، وذرية النفاق، وحشو النار، وحصب جهنم عن البدر الزاهر، والبحر الزاخر، والشهاب الثاقب، وشهاب المؤمنين، والصراط المستقيم، من قبل أن نطمس وجوهاً فتردها على أدبارها، أو يلعنوا كما لعن أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولاً...»^(٢).

ثم قال عليه السلام مدافعاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومبرزاً فضله: «أبصنو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تستهزئون؟ أم بيعسوب^(٤) الدين تلمزون؟ وأي سبيل بعده تسلكون؟ وأي حزن بعده تدفعون؟ هيهات برز والله بالسبق وفاز بالخصل^(٥)، واستولى على الغاية،

(١) بحار الأنوار: ج ١١ / ص ٧٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٣) صنو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يعني الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٤) اليعسوب: ملكة النحل، ويعسوب القوم: رئيسهم وكبيرهم، ويعسوب الدين: زعيم الدين وسيدهم بعد خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(٥) الخصل: الهدف.

وأحرز على الختار^(١) فأنحسرت عنه الأبصار، وخضعت دونه الرقاب، وفرع الذروة العليا، فكذب من رام من نفسه السعي، وأعياه الطلب، فأنى لهم التناوش^(٢) من مكان بعيد؟!

فأنى يسدّ ثلثة أخي رسول الله ﷺ إذ شفّعوا، وشقيقه إذ نسبوا، ونديده^(٣) إذ قتلوا، وذو قربي^(٤) كنزها إذ فتحوا، ومصلي القبلتين إذ تحرفوا، والمشهود له بالإيمان إذ كفروا، والمدعي لنبذ عهد المشركين إذ نكلوا، والخليفة على المهاد ليلة الحصار إذ جزعوا، والمستودع الأسرار ساعة الوداع...»^(٥).

سُجن الإمام ﷺ بعد تلك الخطبة في أحد سجون دمشق، لكنه بدأ ﷺ ببث علومه بين السجناء، فخاف هشام من ذلك، فأمر بإطلاق سراحه وحمله إلى المدينة^(٦).

وفي رواية ثانية^(٧) إن هشاماً أمر عامله على المدينة المنورة بحمل الإمام الباقر ﷺ وابنه الصادق ﷺ إلى دمشق (في الرحلة الثالثة التي أشرنا إليها آنفاً)، وأشار على الباقر ﷺ بالرمي، فأصاب في رمية إصابة دقيقة، والذي يهمنّا من الرواية: المناظرة التي جرت بينهما، كما سيأتي ذكرها في الفصل الرابع بإذنه تعالى.

(١) الختار: الغدر.

(٢) التناوش: التناول.

(٣) نديده: كلمة نِدْ: صفة مشبهة تدلّ على الثبوت، فيكون معناها: ساعده الثابت في ولائه حتى النهاية.

(٤) ذي قرين: معنى القرين: الصاحب والملازم، والقرين هو المقرون به.

(٥) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٦) بحار الأنوار: ج ١١ / ص ٧٥.

(٧) دلائل الإمامة: ص ١٠٤ - ١٠٦.

الدلالات:

زيارات الإمام الباقر عليه السلام إلى دمشق خلال ثلاثة عقود، لإسباب متباينة، وأغراض مختلفة لها دلالات، نبحثها فيما يلي:

١ - حملت تلك الزيارات الثلاث في طياتها ثلاثة معانٍ:

ففي الزيارة الأولى كانت الحاجة إلى الإمام عليه السلام قبل إمامته تعكس ضمور الساحة العلمية في الشام وعدم قدرتها على التعامل مع مشكلة أساسية من قبيل مشكلة النقد الإسلامي، ولم تكن مشكلة النقد الإسلامي مشكلة فقهية، وإنما كانت مشكلة سياسية واقتصادية، وكان بإمكان عبد الملك بن مروان بعث رسالة إلى الإمام السجاد عليه السلام يستفسر منه الحكم الشرعي فيما لو كانت مسألة شرعية، إلا أن القضية ربما كانت أبعد من ذلك! كما سنبحثها بإذنه تعالى، ومن المؤكد أن الباقر عليه السلام استأذن والده الإمام السجاد عليه السلام قبل الشخوص الاجباري إلى دمشق.

أما الزيارة الثانية، فقد كانت للنصيحة وإسداء الرأي، ولاشك أنها كانت مبادرة من عمر بن عبد العزيز؛ لأن الإمام الباقر عليه السلام ليس من رواد مجالس هؤلاء الحكام، وكانت تلك الزيارة زيارة الإمام المعصوم المستنصح.

والزيارة الثالثة، كانت محاولة من هشام بن عبد الملك للتقليل من منزلة الإمام عليه السلام واستفزازه بشتى الطرق، ولكن الإمام عليه السلام كما عهدناه من سلوكه الحكيم طرح الحقائق التي كان لابد من طرحها في تثبيت أسس الإسلام، والولاية الحققة لأهل بيت النبوة عليهم السلام.

وكان عليه السلام شجاعاً مقداماً، لا يخاف في الله لومة لائم، وهو الذي واجههم بالقول مدافعاً عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أبصنو رسول الله صلى الله عليه وآله تستهزئون؟ أم بيعسوب الدين

تلمزون؟ وأي سبيل بعده تسلكون؟ وأي حزنٍ بعده تدفعون؟»^(١).

٢ - تلاحظ أن الفارق بين الزيارتين الأولى والثالثة للإمام عليه السلام إلى دمشق هو أن الإمام عليه السلام ذهب في الأولى بصفته الشخصية كابنٍ للإمام السجاد عليه السلام، وفي الزيارة الثالثة قد أُشخص كإمام معصوم عليه السلام لأمة، وإذا لحظت الفرق في تعاملهم معه في الزيارتين، عرفت مدى خشيتهم من الإمامة الشرعية المتمثلة بأهل البيت عليهم السلام، فهو وإن كان الحاكم في الأولى عبد الملك بن مروان وفي الثالثة هشام بن عبد الملك، إلا أن هاجس الخلافة الأموية من إمامة أهل البيت عليهم السلام كان واضحاً، وهي بالتأكيد إمامة تُضجُّ مضاجعهم، وتسلب من أعينهم النوم الرغيد.

٣ - ومع أن النهج الأموي في سياسة الدولة كان سائداً آنذاك، إلا أن الإمام عليه السلام في الزيارة الثانية قام ناصحاً عمر بن عبد العزيز، وهذا يؤكد على أن وظيفة أئمة أهل البيت عليهم السلام هي توجيه المجتمع وإصلاحه وربطه بالإسلام مهما كانت الظروف.

(٢٢)

مع عمر بن عبد العزيز

اختلفت سياسة عمر بن عبد العزيز في خلافته التي بدأت سنة ٩٩ هـ عن أسلافه من بني أمية - كما ذكرنا آنفاً - فقد منع سب الإمام علي عليه السلام من على المنابر والمآذن، ثم وصّل بني هاشم بالعتاء بعد أن قُطع عنهم منذ أمد بعيد، ثم أرجع فداً لأهلها، وسلّمها إلى الإمام الباقر عليه السلام.

وعندما زار المدينة المنورة، وأمر مناديه أن ينادي: من كانت له مظلمة أو ظلمة فليحضر، لمَح الإمام الباقر عليه السلام تغييراً في سياسة الدولة وأسلوب الخليفة، فقصدته

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٣.

الإمام عليه السلام، وقال له ضمن ما قال ناصحاً: «إنما الدنيا سوق من الأسواق يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرهم، وكم من قوم ابتاعوا ما ضرهم، فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت، فخرجوا من الدنيا ملومين لما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة، فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم.

فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها، فكفّ عنها واثق الله، واجعل في نفسك اثنتين: انظر إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك، وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذا قدمت على ربك فارمه وراءك، ولا ترغبين في سلعةٍ بارت على من كان قبلك، فترجو أن يجوز عنك، وافتح الأبواب، وسهّل الحجاب، وانصف المظلوم، وردّ الظالم.

ثلاثة من كنّ فيه استكمل: الإيمان بالله من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومن إذا غضب لم يخرج غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له...»^(١).

الدلالات:

١ - دخل الإمام الباقر عليه السلام على عمر بن عبد العزيز طالباً للإصلاح في أمة محمد عليه السلام، ناصحاً من تولى حكم الناس، ولم يطلب لنفسه شيئاً منه، وإيثار آل محمد عليهم السلام معروف مشهور بين المسلمين على مر العصور.

٢ - عطر الإمام عليه السلام الأجواء في كل مكان حلّ فيه بذكر الله تعالى، والدعوة إلى العمل الصالح، والتذكير بمراجعة الإنسان لنفسه كي يكون عادلاً مع الناس، نزيهاً في حياته وسلوكه، حاكماً كان أم محكوماً، وكان ذلك فحوى كلامه مع الخليفة الجديد.

٣ - منع عمر بن عبد العزيز سب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على المآذن والمنابر،

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

وإذا افترضنا أن علياً عليه السلام كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، فبنو أمية هم أول من لعن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله علناً لمدة قرن من الزمان، ذلك بإدخالهم البراءة من علي عليه السلام وسبّه في الأذان!

(٢٣)

الإمام الباقر عليه السلام والنقد الإسلامي

طالما كانت قضية النقد والمال قضية مهمة في المجتمع كان لابد لنا أن نقف منها وقفة المتأمل خصوصاً في مسألة الإمام الباقر عليه السلام والنقد الإسلامي، فكيف أذعن عبد الملك بن مروان لدعوة محمد بن علي الباقر عليه السلام وهو في العشرينات من عمره، في كنف والده الإمام السجاد عليه السلام، من المدينة إلى دمشق لحل مشكلة النقد الإسلامي؟ سؤال تصعب الإجابة عليه؛ لأنك لا تكاد تعثر على حقيقة تاريخية صادقة إلا وقد لوثها المتملقون للسلطان، من فقهاء البلاط ومؤرخي الدول والملوك! لكننا سوف نبحث النقد في اللغة والإصلاح، والدرهم الشرعي وتاريخه، وتعريف الموازين من درهم، ودينار، ودانق، وقيراط، ونحاول أن نفهم دور الإمام عليه السلام في النقد الإسلامي.

النقود: في اللغة

«النقدُ خلاف النَّسيئة، والنقدُ والتنقاد: تمييزُ الدراهم وإخراجُ الزيف منها..، والنقدُ مصدر نقدته دراهمه، ونقدته الدراهم»^(١).

النقود: في الاصطلاح

يعتبر النقد وسيطاً للتبادل، ومقياساً لقيمة السلعة أو الخدمة، ومستودعاً للقيمة. والذهب والفضة أثمان، وما سواهما من الأموال ليست نقوداً، بل أثمان باعتبار ما

(١) لسان العرب، مادة: نقد، ج ٣/ ص ٤٢٥.

يقابلها من المثمن.

بقي التعامل بالنقود المتداولة في زمن النبي ﷺ كالدرهم والدنانير المصنوعة في بلاد الروم أو بلاد فارس لحد العقد الثامن من القرن الأول الهجري، ولم يبلغ القرآن الكريم شكل تلك النقود ولا مادة صنعها، بل ذكرها من الناحية الاقتصادية، وحرّم كنزها، وأوجب إنفاقها، وحرّم الربا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١)، ﴿... وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٢)، وبخصوص يوسف ﷺ: ﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾^(٣)، وبخصوص التجارة وحرمة الربا: ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...﴾^(٤).

وفي السنة النبوية أمضى النبي ﷺ التعامل بتلك النقود بحدود شرعية مثل اشتراط قبض البديلين في مجلس الصرف، كما روي أن «رسول الله ﷺ نهى عن بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، إلّا سواءً بسواء، عيناً بعين، فمن زاد أو ازداد فقد أربى»^(٥).

وكان المسلمون يدفعون زكاتهم بالنقود المتداولة، وكان زواج فاطمة بنت محمد ﷺ من علي بن أبي طالب ﷺ أصدق مصاديق ذلك، فعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ حين زوج علياً فاطمة، قال: يا علي، لا تدخل على أهلِكَ حتى تقدم لهم

(١) سورة التوبة: الآية ٣٤.

(٢) سورة الحديد: الآية ٧.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

(٥) صحيح مسلم: ج ٣ / ص ١٢١٠، رقم ١٥٨٤، وجواهر الكلام: النجفي: ج ٢٤ / ص ٦.

شيئاً، فقال: ما لي شيء يا رسول الله، فقال: أعطها درعك الحطمية^(١)، قال ابن أبي داود: قال أبي: فقومت الدرع أربعمائة وثمانين درهماً^(٢).

وربما أضيفت بعض العبارات العربية الإسلامية في عهد خلفاء بني أمية، مثل: باسم الله ربي، أو الله ربي ونحوها، حتى خلافة عبد الملك بن مروان، حيث تم تعريب النقود في حدود سنة ٧٤ - ٧٧ هـ^(٣).

يذكر المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ) قصة التعريب فيقول: «لما صدر عبد الملك بن مروان كتبه إلى ملك الروم جُستينان الثاني بسورة الإخلاص، وذكر النبي ﷺ، كتب إليه ملك الروم: أنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه، وإلا أتاكم في دنائيرنا من ذكّر نبيكم ما تكرهون، فعظم ذلك على عبد الملك...»^(٤).

عندها دعا عبد الملك بن مروان محمد بن علي الباقر ﷺ إلى دمشق؛ لأنه كان يعلم أنه من أهل بيت النبوة ﷺ من الذين ألهمهم الله تعالى العلم والحكمة، وعرض عليه الأمر، فقال الإمام ﷺ: «لا يعظم هذا عليك فإنه ليس بشيء من جهتين: إحداهما: أن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله ﷺ، والأخرى: وجود الحيلة فيه».

فقال: ما هي؟

قال ﷺ: «تدعو في هذه الساعة بصنّاع فيضربون بين يديك سككاً للدراهم

(١) الحطمية نسبة إلى حطمة بن محارب، صانع الدروع، وتنسب إليه الحطميات (القاموس المحيط، مادة: حطم، ص ١٠٩٥).

(٢) المعجم الأوسط - الطبراني ج ٣ / ص ١٨٤.

(٣) تعريب النقود - حسان علي ص ٢٩.

(٤) إغاثة الأمة - المقرئزي ص ٧٨.

والدنانير، وتجعل النقش: صورة التوحيد، وذكر رسول الله ﷺ، أحدهما في وجه الدرهم، والآخر في الوجه الثاني.

وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه، والسنة التي يضرب فيها.

وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة، للعشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وعشرة منها وزن ستة مثاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فيكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً، فتجزئها من الثلاثين فإصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل.

وتصبّ صنجات من قوارير^(١) لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان، فتضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل...»^(٢).

وأمره بضرب السكة على هذا اللون في جميع مناطق الدولة، وأن يكون التعامل بها، وتلغى السكة الأولى، ويعاقب بأشد العقوبة من يتعامل بها، وترجع القديمة إلى معامل الصهر لتصب ثانياً على الوجه الإسلامي^(٣).

ولما كان ديدن بني أمية أن لا يتركوا فضيلةً لأئمة أهل البيت ﷺ، فقد قاموا بتزوير الرواية، يقول المقرئ (ت ٨٤٥هـ): «...وأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية أن يترك دنانير الروم، وينهى عن العمل بها، ويضرب للناس دراهم ودنانير فيها ذكر

(١) صنجات من قوارير: الصنجات جمع صنجة، وهي ما يوزن به من معادن ونحوها، والقوارير جمع قارورة وهي وعاء من الزجاج تحفظ فيه السوائل.

(٢) حياة الحيوان الكبرى - الدميري: ج ١ ص ٦٣ - ٦٤.

(٣) حياة الحيوان الكبرى: ج ١ ص ٦٣ - ٦٤، والمحاسن والأضداد: البيهقي: ج ١ ص ٣١.

الله، ففعل ذلك»^(١)، ولكن الرواية رويت في كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري (ت ٨٠٨هـ) وهو على مذهب الشافعي، أحد المذاهب الأربعة، فكيف يفوت المقرئ ذلك، وهما (أي المقرئ والدميري) متعاصران؟!

الدلالات:

في زيارة الإمام الباقر عليه السلام الأولى إلى دمشق أسئلة تحتاج إلى أجوبة في سبب الدعوة، ومغزاها، وآثارها، ومن ذلك:

١ - لماذا دعا عبد الملك بن مروان محمد بن علي الباقر عليه السلام ولم يدع الإمام السجاد عليه السلام إلى حل مشكلة النقد؟ خصوصاً أن السجاد عليه السلام كان أكبر خبرة، وأطول عمراً، وهو سيد بني هاشم في الإمامة الشرعية، هناك ثلاثة احتمالات، نحتملها هي:

الاحتمال الأول: إنه أراد أن يحرم الإمام زين العابدين عليه السلام من فضيلة حل مشكلة النقد الإسلامي، وهي مشكلة لو استفحلت لقوضت المجتمع، فكيف يتعامل الناس بمسكوكات مضروبة بعلامة الكفر بالله عز وجلّ والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله.

الاحتمال الثاني: إن الإمام السجاد عليه السلام هو الذي أشار على ابنه الباقر عليه السلام بالذهاب إلى دمشق؛ لأنه عليه السلام أراد أن يتجنب بلاد الشام والمكان الذي شهد فيه أسر آل بيت النبي صلى الله عليه وآله زمن يزيد بن معاوية بعد واقعة الطف سنة ٦١هـ.

وربما يزيد هذا الاحتمال ما ذكره ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) فقال إن الذي قام بتصميم النقد هو الإمام زين العابدين عليه السلام^(٢)، وكذا قال الشهيد الأول (ت ٧٨٦هـ)^(٣)، ولكن

(١) النقود الإسلامية: المقرئ: ص ١٠.

(٢) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ٦٨.

(٣) البيان: الشهيد الأول: ص ١٨٥.

عدم التفصيل في تصميم الإمام زين العابدين عليه السلام، يُرجع هذا الاحتمال إلى نقطة الصفر. الاحتمال الثالث: إن الإمام الباقر عليه السلام تبرع بالذهاب إلى دمشق حفاظاً على حياة أبيه عليه السلام من مكائد بني أمية.

وليس هناك ترجيح نرجحه على آخر، لفقدان الأدلة التاريخية التي تشرح ذلك.

٢ - إذا ثبت أن تعريب النقود وأسلمتها تم بين سنة ٧٤ وسنة ٧٧هـ، فإن الإمام الباقر عليه السلام كان عمره عشرين سنة أو أقل من ذلك، ولا بد من التنبيه على أن بعض المصادر ذكرت أن الإمام علياً عليه السلام هو أول من قام بضرب النقود في البصرة، وربما كان ذلك أمراً محدوداً، وإلا لإحتج الإمام الباقر عليه السلام بذلك، ولقال لعبد الملك إقتف أثر نقود البصرة التي أمر بضربها علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن ذلك لم يحصل، فالمرجح أن نقود البصرة كانت محدودة جداً، أو ربما لم يكن لها وجود.

٣ - إن تفصيل الطريقة التي عرضها الإمام الباقر عليه السلام على عبد الملك بن مروان تكشف جانباً من علوم الإمام عليه السلام خصوصاً إذا كانت القضية قضية كبيرة بحجم النقد الإسلامي، فكانت قضية متعلقة بالاقتصاد، وبالرياضيات كحساب المثقال ونحوه، وبالتصميم النقدي.

وسوف نعود إلى موضوع النقد الإسلامي في الفصل السابع بإذنه تعالى.

(٢٤)

في المجتمع: معالجة لوضع جديد

انتشر الانحراف الاجتماعي في زمن الأمويين كما أشرنا إلى ذلك، وكان من مظاهره انتشار الفسق والمجون في الطبقة الحاكمة، وانتشار الفقر والظلم بين عامة المسلمين، وشيوع العقائد الباطلة بين الناس عموماً، فكان «مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) فاحشاً

بذيئاً، كما كان أولاده وأحفاده على شاكلته»^(١)، وكان حمزة بن عمار البربري زنديقاً كافراً^(٢)، وكان بيان بن سمرعان النهدي كاذباً مفترياً على الله ورسوله ﷺ^(٣)، والمغيرة بن سعيد البجلي الكوفي كان صاحب بدع وأحداث في الإسلام^(٤).

وما استطاع الإمام ﷺ أن يفعله هو نصحه للمسلمين عموماً ولشيئته بالخصوص، فكان ﷺ يخشى عليهم من الانجراف في التيار الذي أحدثه الفكر الجديد المناهض لمبادئ الإسلام، فأكد عليهم الالتزام بالثوابت الدينية التي جاء بها الإسلام، وهي: الورع، والتقوى، والتواضع، والخشوع، والأمانة، وكثرة الصلاة والصيام، وبر الوالدين، بالإضافة إلى الإيمان بالتوحيد، والنبوة، والولاية الشرعية لأهل البيت ﷺ، فبمجموعها يتم تثبيت الإسلام الحقيقي في العقول والنفوس.

والظاهر أن التيار الجديد الذي أراد إبعاد الناس عن الدين بدأ يظهر حتى بين من وإلى أهل البيت ﷺ، وتلك مسألة طبيعية لأنهم هم أول المستهدفين من قبل القوى التي كانت تعادي أئمة الهدى ﷺ، ولذلك حث الإمام الباقر ﷺ شيئته على التمسك بمبادئ الإسلام، والالتزام بمنهجه الحياتي الأخلاقي.

فقال ﷺ عن شيئته وهو يوصي أحد محبيه: «...إنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بالعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع، وإن أشد الناس حسرة يوم القيامة مَنْ وصفَ عدلاً ثم خالفه إلى غيره»^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة: ج ٩ / ص ١٣٨.

(٢) فرق الشيعة: ص ٢٥.

(٣) لسان الميزان: ج ٢ / ص ٦٩، ورجال الكشي: ص ٢٢٣.

(٤) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ٢٣٠، وميزان الاعتدال ج ٤ / ص ١٦٢.

(٥) الكافي: ج ٢ / ص ١٧٦.

وفي مناسبة أخرى يوصي عليه السلام شيعته قائلاً: «أيكفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون إلا بالتواضع والتخشع والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، وبر الوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين^(١)، والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائهم»^(٢).

وعندما اجتمع عنده ناس من بني هاشم، ابتدرهم عليه السلام بالقول: «يا معشر الشيعة شيعة آل محمد كونوا النمركة الوسطى^(٣) يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي»، فقال له رجل من الانصار يقال له سعد: جعلت فداك ما الغالي؟ قال: «قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس اولئك منا ولسنا منهم»، قال: فما التالي، قال عليه السلام: «المرتاد يريد الخير، يبلغه الخير يوجر عليه ثم أقبل علينا، والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة ولا لنا على الله حجة ولا تقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولا يتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولا يتنا، ويحكم لا تغتروا، ويحكم لا تغتروا»^(٤).

وكان عليه السلام يعتبر أفضل العبادة الكفّ عن المحارم والابتعاد عن المعاصي في المجتمع، فيقول عليه السلام: «ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج، وما من شيء أحب إلى الله من أن يُسأل، ولا يدفع القضاء إلا الدعاء، فإنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وأسرع الشر عقوبة البغي، كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، وأن يأمر الناس ما لا

(١) الغارمون: الذين ركبهم الديون.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٧٤.

(٣) النمركة: الوسادة الصغيرة التي يُتكأ عليها.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٧٥.

يفعله، وأن ينهى الناس بما لا يستطيع التحول عنه، وأن يؤدي جلسه بما لا يعنيه»^(١).
 وكان ﷺ يحثُّ المؤمنين على التآخي والتواصل إلى درجة أنه ﷺ سأهم: «أيدخلُ
 أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ ما يريد؟ قلنا: لا، قال: فلستم إخواناً كما تزعمون»^(٢).

والإسلام، على لسان الإمام الباقر ﷺ، يحمل المؤمن على جناحين:

الأول: جناح الأخوة والإنسانية في التعامل والتعاون.

الثاني: جناح التعفف عن الطمع في الدنيا، والقناعة بالقليل من العيش مع عبادة
 وعلم، وما الدنيا إلا حلمٌ يعيشه ثم نستيقظ على حقيقة أمرنا في الوجود.

يقول ﷺ في وعظه الناس: «أيها الناس أنكم في هذه الدنيا أغراض تنتضل^(٣) فيكم
 المنايا، لن يستقبل أحد منكم يوماً جديداً من عمره إلا بانقضاء آخر من أجله، فأية
 أكلة ليس فيها غصص؟! أم أي شربة ليس فيها شرق؟! استصلحوا ما تقدمون عليه
 بما تظعنون عنه، فإن اليوم غنيمة وغداً لا تدري لمن هو، أهل الدنيا في سفرٍ يحلّون عقد
 رحالهم في غيرها، قد خلت منا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد أصله؟ أين
 الذين كانوا أطول أعماراً منكم وأبعد آمالاً؟ أتيتك يابن آدم ما لا ترده، وذهب عنك ما لا
 يعود، فلا تعدن عيشاً منصرفاً، عيشاً ما لك منه إلا لذة تردلك إلى حِمَامِك^(٤)، وتقربك
 من أجلك، فكأنك قد صرت الحبيب المفقود، والسواد المخترم، فعليك بذات نفسك،

(١) الفصول المهمة: ص ٢٠٩.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ابن الجوزي: ج ٧ / ص ١٦١ و ١٦٢.

(٣) أغراضٌ تنتضل: الأغراض جمع غَرَض هو ما يُنصب هدفاً للترامي، تنتضل فيكم: أي تترامى
 إليكم، والمنايا جمع منية وهو الموت.

(٤) الحِمَام: الموت.

ودع ما سواها، واستعن بالله يعنيك»^(١).

ويقول عليه السلام أيضاً: «من صنّع مثلما صنّع إليه فقد كافأ، ومن أضعف^(٢) كان شكوراً، ومن شكر كان كريماً، ومن علم أن ما صنع، كان إلى نفسه لم يستبطئ الناس في شكرهم، ولم يستردهم في مودتهم، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت به إلى نفسك، ووقيت به عرضك، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك، فاکرم وجهك عن رده»^(٣).

وليس بواحدٍ من أقرّ للإمام عليه السلام بدقة كلامه وعمقه، فأبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) مثلاً في كتاب (البيان والتبيين) أقرّ وقال: «جمع محمد بن علي الباقر صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين، فقال: «صلاح شأن المعاش والتعاشر ملء مكيا: ثلثان فطنة، وثلث تغافل»»^(٤).

الدلالات:

١ - أوصى عليه السلام شيعته بالاعتدال والوسطية وسماها: النمرقة الوسطى، أو الوسادة الوسطية التي تصدر المجلس، فلا يريد منهم أن يقولوا في أهل البيت عليهم السلام ما لم يقولوه في أنفسهم عليهم السلام، ولا يريد منهم أن يعادوهم ويفتعلوا المذاهب الجديدة باعتقاد إضرارهم وتهديم إمامتهم عليهم السلام.

كان يريد منهم أن يطيعوا الله تعالى ورسوله عليه السلام، ويتعدوا عن المعاصي، ويجبوا أولياء الله عليهم السلام ويقتدوا بهم، وبذلك يكون تشيعهم لأهل البيت عليهم السلام صحيحاً.

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥ / ص ١٧٩.

(٢) أضعف: أي ضاعف.

(٣) تحف العقول: ص ٢٩٢.

(٤) البيان والتبيين: الجاحظ: ج ١ / ص ٨٨.

٢ - طمَح الإمام عليه السلام في أن يرى شيعته أمة متعلمة وعالمة، ملتزمة بأهداب الدين، أخلاقية في سلوكها، متعاونة فيما بينها بحيث يدخل الرجل يده في جيب أخيه؛ ليأخذ ما يحتاج إليه من الأموال.

وذلك هو الدين الحقيقي الذي يحقق أهداف الأنبياء والرسل عليهم السلام في تحقيق الأخوة والمحبة بين الناس.

٣ - قد يتصور المسلم أن أفضل العبادات هي الصلاة أو الصيام، ولكن الإمام عليه السلام يقول أن أفضل العبادات هي عفة البطن والفرج، أي إن العمل الشاق من أجل لقمة العيش عبادة، وأن العفة والتعفف عن المحارم والمعاصي عبادة، إذن فإن الأخلاق الاجتماعية الفاضلة هي عبادة الله تعالى، بالإضافة إلى كونها ذوقاً راقياً في التعامل الإنساني، وعفة البطن والفرج تدفع الإنسان نحو الصلاة والصيام، وبذلك تكون من أفضل العبادات.

(٢٥)

المدرسة العلمية للإمام الباقر عليه السلام

مثل الإمام الباقر عليه السلام مدرسة فقهية متميزة قائمة بالقرآن الكريم، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، كان مصدرها اليقين، والعلم القطعي، والشمولية، والإحاطة.

ففي مدرسته الفقهية نظام علمي، وتصنيف لمواضيع الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والخمس، والحج، ونحوها، يبين لنا الإمام عليه السلام أن علاقات الأحكام الشرعية متوازية بعضها مع بعض، وليست متقاطعة، ولا متضاربة، بل تسير على نسقٍ واحدٍ، وأنَّ للزمن معنى خاصاً في العبادات كشروق الشمس وزوالها وغروبها، ومثلها دقة ضبط شهر للصيام والحج والمناسبات الدينية، وأن اليقين هو الأصل في الاعتقادات

والأحكام، وكل شك يرد إلى ذهن الإنسان لا بد من معالجته معالجة قطعية حاسمة.

وبكلمة، فإن المدرسة الفقهية للإمام الباقر عليه السلام مدرسة عبادية علمية قائمة على فهم معاني الأحكام الشرعية فهماً صحيحاً، وعلى ميزانٍ للحكم على مواضيع الحياة البشرية وارتباطها بالأحكام الشرعية، وعلى حسنٍ تعليلٍ لإظهار التكليف الشرعي، فالإستحباب مثلاً لا يتقدم الوجوب، والمسنون المستحب لا ينقض الفريضة الواجبة.

ربى الإمام عليه السلام مجموعة من أصحابه على تلقي العلم واستيعابه بطريقة يمكن تسميتها بمدرسة الإمام الباقر عليه السلام، وكان من تلامذته من هو عالمٌ فقيهٌ أمثال: أبان بن تغلب، ومحمد بن مسلم، وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضل بن يسار، ومعروف بن خربوذ، وزرارة بن أعين، وهؤلاء الأعلام ممن أجمع فقهاء أهل البيت عليهم السلام على تصديقهم والإقرار لهم بالفقه، وإليهم يرجع الفضل في تدوين أحاديث أهل البيت عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، وكان عليه السلام يشيد بأحدهم وهو أبان بن تغلب بهذه الطريقة: «أجلس في مسجد المدينة، وأفت الناس فأني أحب أن يرى في شعيتي مثلك»^(١).

تخرجت في مدرسته عليه السلام مجموعة من العلماء وأهل المعرفة في التفسير والحديث.

الدلالات:

- ١ - إنه عليه السلام كان واثقاً من صحة استنباطات أبان بن تغلب الى درجة أنه عليه السلام أمره بالجلوس في مسجد المدينة وإفتاء الناس.
- ٢ - وضع عليه السلام لهم منهجاً لتعليمهم مباني استنباط الأحكام الشرعية، وما أن اطمأن إلى استيعابهم المطالب الشرعية حتى نقلهم إلى مستوى الخروج إلى الناس وإفادتهم.
- ٣ - أحبَّ الإمام عليه السلام أن تكون أمته أمة عالمة تستخدم المباني الشرعية والعقلية في

(١) رجال النجاشي: ص ٢٨، ترجمة أبان.

الحياة، فالموالون لأئمة أهل البيت عليهم السلام هم الوجه المشرق من تلك الأمة العالمة المؤمنة.

تشجيعه المؤمنين على طلب العلم:

وعندما دخلت عليه مجموعة من الموالين بعد أداء مناسكهم في الحج، وطلبت منه النصيحة ووصايا الحكمة، قال عليه السلام: «ليعن قويكم ضعيفكم، وليعطف غنيكم على فقيركم، ولينصح الرجل أخاه كنصحه لنفسه، واكنموا أسرارنا، ولا تحملوا الناس على أعناقنا، وانظروا أمرنا وما جاءكم عنا، فإن وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به، وإن لم تجدوه موافقاً فردّوه، وإن اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردّوه إلينا حتى نشرح لكم من ذلك ما شرح لنا، فإذا كنتم كما أوصيناكم لم تعدوا إلى غيره، فمن مات منكم قبل أن يخرج قائمنا كان شهيداً، وإن أدرك قائمنا فقتل معه كان له أجر عشرين شهيداً...»^(١).

وفي وصية له عليه السلام لشيخته في الحث على طلب العلم: «تعلموا العلم، فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، والمذاكرة له تسييح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، والعلم ثمار الجنة، وأنس في الوحشة، وصاحب في الغربة، ورفيق في الخلوة، ودليل على السراء، وعاون على الضراء، ودين عند الأخلاء، وسلاح عند الأعداء، يرفع الله به قوماً فيجعلهم في الخير سادة، وللناس أئمة يقتدى بفعالهم، ويقتص آثارهم، ويصلي عليهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه»^(٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: من لم يُقنَّط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يرخص لهم من معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبةً عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٢٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٥ / ص ١٩٠.

فيه تفهّم، ألا لا خير في قراءةٍ ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادةٍ ليس فيها تفقّه»^(١).

(٢٦)

مناظراته

ازدادت الشبهات الفكرية والعقائدية في زمن الإمام الباقر^(ع)؛ بسبب تهميش السلطة الأموية لفكرة الإمامة الشرعية واستبدالها بفكرة الخلافة الوراثية الأموية، وتشجيعها على نشر أفكار الجبر، والتفويض، والإرجاء، والتفسير بالرأي، وكانت الساحة الفكرية الإسلامية بحاجة إلى إمام محيط بالفكر، قادرٍ على الرد العلمي المحكم للشبهات، ذي أعلمية تفوق علم جميع معاصريه، وتدعن لها الأمة.

فكان الإمام الباقر^(ع) هو ذلك الإمام المسلّح بالعلم والتقوى، أو العصمة بتعبير أهل البيت^(ع)، وطالما كانت الإشكالات تُثار على شكل أسئلة وأجوبة، أصبحت المناظرات طريقاً لرد المخالفات، وطريقاً لتعليم الناس أحكام دينهم في العقائد والعبادات والمعاملات، وقد أفردنا فصلاً كاملاً في مناظراته، وهو الفصل الرابع من هذا الكتاب، واستقرنا نظريات الإمام^(ع)، فكانت خمس نظريات في المناظرة العلمية، منها: المناظرة بأسلوب الوسائط، والمناظرة بأسلوب إعادة التوجيه والاستدلال، والمناظرة بالإجابة السريعة الخاطفة، والمناظرة بالاستدلال التفصيلي، والمناظرة بأسلوب الأخذ والرد من المناظر نفسه.

ولنعرضاً نموذجاً من مناظراته^(ع) مع من آمن بالتجسيم، قال له: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟ قال^(ع): «الله»، قال: رأيت؟ قال^(ع): «بلى»، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبهه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالدلالات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا

(١) مكارم الأخلاق: ص ٢٢٦.

الله»^(١).

إنموذجاً آخر، حيث يسأله ﷺ رجل: في قول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ بِمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ...﴾^(٢)، كم أحل له من النساء؟

قال ﷺ: «ما شاء من شيء».

قلت: قوله عز وجل: ﴿... وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٣)؟

قال ﷺ: «لا تحل الهبة إلا لرسول الله ﷺ، وأما لغير رسول الله ﷺ فلا يصح نكاح إلا بمهر».

قلت: أرايت قول الله عز وجل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ...﴾^(٤)؟

قال ﷺ: «إنما عنى به لا يحل لك النساء التي حرم الله في هذه الآية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ...﴾^(٥)، ولو كان الأمر كما تقولون، كان قد أحل لكم ما لم يحل له؛ إن أحدكم يستبدل كلما أراد،

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٥٢.

(٥) سورة النساء: الآية ٢٣.

ولكن ليس الأمر كما يقولون: إن الله عزّ وجلّ أحلّ لنبيه ﷺ أن ينكح من النساء ما أراد إلا ما حرّم عليه في هذه الآية في سورة النساء»^(١).

وإنموذجاً ثالثاً عنه ﷺ، أقرب إلى المناظرة، ينقله عن رسول الله ﷺ: «قال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله: يا جابر هذا شهر رمضان من صام نهاره، وقام ورداً من ليله، وعفّ بطنه وفرجه، وكفّ لسانه خرج من ذنوبه كخروجه من الشهر.

فقال جابر: يا رسول الله ما أحسن هذا الحديث؟

فقال رسول الله ﷺ: يا جابر وما أشقّ هذه الشروط»^(٢).

(٢٧)

صفاته العلمية ﷺ من العين الاجتماعية

إذا أردت أن تعرف علم الإنسان وصفاته الفاضلة فلا بد أن تقرأ ما رأته العين الاجتماعية، وأقصد بالعين الاجتماعية أولئك الذين لهم مساس بحياته، ودرسه، وعلمه، يرونه من زاوية علومهم ونظرتهم إلى الحياة، أو زاوية من تأثر بأثارهم وأفكارهم.

وامتلاً عصر الإمام الباقر ﷺ بعلماء وفقهاء من مختلف المشارب والمذاهب، إلا أن الجميع أذعن لأعلميته ﷺ، وسعة إحاطته بالعلوم والأفكار، فهذا عبد الله بن عطاء يقول: «ما رأيت العلماء عند أحدٍ أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي لتواضعهم له، ومعرفتهم بحقه وعلمه، واقتباسهم منه، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة على جلالته وسنه، وهو بين يديه يتعلم منه، ويأخذ عنه كالصبي بين يدي المتعلم»^(٣)، وفي موطن

(١) الكافي: ج ٥ / ص ٣٨٩.

(٢) الكافي: ج ٤ / ص ٨٧.

(٣) حلية الأولياء: أبو نعيم: ج ٣ / ص ١٨٦، عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ١٤.

آخر يقول: «رأيت الحكم عنده كأنه عصفور مغلوب على أمره»^(١).

وفي تلك دلالة على أعلمية الإمام الباقر عليه السلام وفضله على بقية العلماء من عصره، وإلا فالحكم بن عتبية كان يُعدُّ من كبار فقهاءهم، وكان إذا قدم المدينة أدخلوا له سارية النبي صلى الله عليه وآله يصلي إليها^(٢).

وإذا انتزعنا هذه الجملة: «ومعرفتهم بحقه...» ودرسناها، لتساءلنا: ما هو الحق المنسوب إليه الذي عرفوه؟ لكنهم لم يرتبوا أثراً على معرفته الجواب واضح وضح الشمس في رابعة النهار، وهو: الإمامة الشرعية، فهو حقٌّ منحه له رسول الله صلى الله عليه وآله لمواهب وملكات كان يملكها دون غيره.

قال محمد بن كعب القُرظي (ت ٩٠هـ):

يا باقرَ العلمِ لأهلِ التقى وخيرَ مَنْ لَبَّى على الأَجْبَلِ^(٣)
وبعد استشهاده عليه السلام، بقي أثر الإمام الباقر عليه السلام حياً في نفوس العلماء والفقهاء من مختلف المذاهب والأمصار:

قال مالك بن أعين الجُهني^(٤) (ت ١٤٨هـ):

إذا طلب الناس علم القرآن كانت قريش عليه عيالا

(١) تهذيب التهذيب: ج ٢ / ص ١٣٣.

(٢) تهذيب التهذيب: ج ٢ / ص ١٣٤.

(٣) الإرشاد: ص ٢٦١.

(٤) مالك بن أعين شاعر من الحجاز سكن الكوفة، له أبيات في مدح الإمام الباقر عليه السلام، ومثلها في رثاء الإمام الصادق عليه السلام (الأعلام - الزركلي ج ٥ / ص ٢٥٧)، وعده الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام (رجال الشيخ الطوسي ص ١٤٥)، قال عنه في (لسان الميزان) ترجمة رقم ٦٢٦٣ أنه مجهول، والظاهر أن مجهوليته كانت ثمناً لولائه لأهل البيت عليهم السلام.

وإن قيل: أين ابن بنت النبي نلتَ بذاك فروعاً طوالاً
 نجومٌ تهلّل للمدجّين جبالٌ تورّث علماً جبّالاً^(١)
 وأبو نعيم الإصبهاني (ت ٤١٢ هـ) عن الإمام الباقر عليه السلام: «الحاضر الذاكر، الخاشع الصابر، أبو جعفر محمد بن علي الباقر، كان من سلالة النبوة، ومن جمع حسب الدين والأبوة، تكلم في العوارض والخطرات، وسفح الدموع والعبرات، ونهى عن المراء والخصومات»^(٢).

وقال الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ): «كان الباقر أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام من بين إخوته خليفة أبيه علي بن الحسين عليه السلام ووصيه والقائم بالإمامة من بعده، وبرز على جماعتهم بالفضل في العلم والزهد والسؤدد، وكان أنبهم ذكراً وأجلهم في العامة والخاصة، وأعظمهم قدراً، ولم يظهر عن أحدٍ من ولد الحسن والحسين عليه السلام من علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيرة وفنون الآداب ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام، وروى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين، وصار بالفضل علماً لأهله، تُضرب به الأمثال، وتسير بوصفه الآثار والأشعار»^(٣).

وقال الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ): «وقد اشتهر في العالم تميزه على الخلق في العلم والزهد والشرف ما لم يؤثر عن أحدٍ من أولاد الرسول صلى الله عليه وآله قبله من علم القرآن والآثار والسنن، وأنواع العلوم والحكم والآداب مما أثر عنه، واختلف إليه كبار الصحابة ووجوه التابعين، وفقهاء المسلمين، وعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله بباقر العلم على ما رواه نقلة الآثار»^(٤).

(١) الإرشاد ج: ٢ / ص ١٥٧.

(٢) حلية الأولياء: ج ٣ / ص ١٨٠.

(٣) الإرشاد: ج ٢ / ص ١٧٢.

(٤) إعلام الوري: ج ١ / ص ٥٠٥.

وقال ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ): كان عليه السلام «سيد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه»^(١).

وقال محيي الدين النووي (ت ٦٧٦هـ): «محمد بن علي بن الحسين القرشي الهاشمي المعروف بالباقر، سمي بذلك لأنه بقر العلم أي شقه فعرف أصله وخباياه، وهو تابعي جليل، وإمام بارع، مجمع على جلالته، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم سمع جابراً وأنساً وجماعات من كبار التابعين، وروى عنه أبو اسحاق السبيعي، وعطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار الأعرج، والزهري، وربيعه الرأي، وجماعة آخرون من كبار أئمة الحديث»^(٢).

وقال ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) يترجم للإمام الباقر عليه السلام: «هو تابعي جليل القدر كثيراً، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادةً وشرفاً... سمي الباقر لقبه العلوم، واستنباطه الحكم، وكان ذاكرةً خاشعاً، صابراً، وكان من سلالة النبوة، رفيع النسب، عالي الحسب، وكان عارفاً بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضاً عن الجدل والخصومات»^(٣).

وقال ابن الصباغ المالكي (ت ٨٥٥هـ): «وكان محمد بن علي بن الحسين عليه السلام مع ما هو عليه من العلم والفضل والسؤدد والرياسة والإمامة ظاهر الجود في الخاصة والعامة»^(٤).

وقال القرماني (ت ١٠١٩هـ): «إنما سمي الباقر لأنه بقر العلم... وكان خليفة أبيه

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٥ / ص ٢٢٧.

(٢) مرآة الجنان: اليافعي: ج ١ / ص ٢٤٧.

(٣) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ٣٠٩.

(٤) الفصول المهمة: ص ٢١٢.

من بين أخوته ووصيه، والقائم بالإمامة من بعده، ولم يظهر عن أحد من أولاد الحسن والحسين من علم الدين والسنن وعلم القرآن، والسير وفنون الآداب ما ظهر عن أبي جعفر، روى عنه معالم الدين بقايا الصحابة، ووجوه التابعين»^(١).

وقال الشبراوي (ت ١١٧١هـ): «حكمة الإمام الباقر عليه السلام: «سلاح اللثام قبيح الكلام» نظمها الشاعر شعراً فقال:

لقد صدق الباقر المرتضى سليل الإمام عليه السلام
بما قال في بعض ألفاظه: قبيح الكلام سلاح اللثام^(٢)
وقال النبهاني (ت ١٣٥٠هـ): «محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين أحد أئمة ساداتنا آل البيت الكرام، وأحد أعيان العلماء الأعلام»^(٣).

وبالإجمال، فقد رُوي عنه عليه السلام «أخبار المبتدأ، وأخبار الأنبياء، وكُتب عنه المغازي، وأثروا عنه السنن، واعتمدوا عليه في مناسك الحج التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكتبوا عنه تفسير القرآن، وروت عنه الخاصة والعامة الأخبار، وناظر من كان يرُدُّ عليه من أهل الأراء، وحفظ عنه الناس كثيراً من علم الكلام»^(٤).

الدلالات:

١ - تلحظ أن مدح الأعداء أحياناً فيه كثيرٌ من الذم، فهم يقولون أنه كان من العلماء، فهو وإن كان في ظاهره مدحاً، إلا أنه بحق الإمام المعصوم عليه السلام لا يعتبر مدحاً، فهم يساوونه ببقية علمائهم، وكأن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في الأئمة الاثني عشر من

(١) أخبار الدول: ص ١١١.

(٢) الإتحاف بحب الأشراف، الشبراوي: ص ١٤٦.

(٣) جامع كرامات الأولياء النبهاني: ج ١ / ص ٩٧.

(٤) الإرشاد: ص ٢٤٨.

بعده لم يدخل المسامع، حيث يضعون أئمة أهل البيت عليهم السلام دون منزلتهم العالية التي وضعها الله لهم، ورسوله صلى الله عليه وآله.

٢ - أجمع الموالمون لأهل البيت عليهم السلام على عصمة الإمام عليه السلام في العلم والتقوى، وتلك صفتان متلازمتان في هؤلاء الأطهار عليهم السلام، بينما حاول الآخرون ممن لا يضمرون الولاء لهم عليهم السلام على الإقرار باستحياء بأعلميته، ولكن من زاوية كونه مجرد فقيه عالم، لا إماماً واجب الطاعة بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣ - عرضنا كلماتهم فيه عليه السلام من باب إظهار ما كانت تراه العين الاجتماعية فيه عليه السلام، وإلا فلا يهمننا تقييمهم له عليه السلام، بقدر ما يهمننا أننا على يقين من عصمته، وأعلميته المذكورة من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله.

من قدح في أعلميته:

ومع هذا الكيل من الثناء والتقييم من قبل العلماء، من محبيهم ومن غيرهم، إلا إن هناك من وضع الشوك بين الورود، وحاول أن يقضي حاجة في نفس يعقوب.

فالذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في (سير أعلام النبلاء) يقول: «كان الباقر أحد من جمع بين العلم والعمل، والسؤدد والشرف، والثقة والرزانة، وكان أهلاً للخلافة... وشهر أبو جعفر الباقر، من بقر العلم، أي شقّه فعرف أصله وخفيه، ولقد كان أبو جعفر إماماً مجتهداً، تالياً لكتاب الله، كبير الشأن»^(١)، ثم يقدر في أعلميته قدحته التاريخية الأولى فيقول: «... وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية، وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين، فلا عصمة إلا للملائكة والنبين، وكل أحد

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٤ / ص ٤٠١ - ٤٠٩، ترجمة ١٥٨.

يصيب ويخطئ، ويؤخذ من قوله ويترك سوى النبي ﷺ فإنه معصوم، مؤيد بالوحي»^(١).

ثم يقدح قدحته التاريخية الثانية، ويقول: «...ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد وربيعه، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب»^(٢)، وبحديثه هذا فقد كذب رواية جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله ﷺ وهو يصفه باقر العلم ﷺ، مع أنها مدرجة في كتب مدرسة الحديث والرأي.

ثم قال عنه في كتابه الثاني وهو (تاريخ الإسلام): «وهو أحد الاثني عشر الذين تعتقد الشيعة عصمتهم، ولا عصمة إلا لنبي إذا أخطأ لا يقرب على الزلة، بل يعاتب بالوحي على هفوة إن ندر وقوعها منه، ويتوب إلى الله تعالى، كما جاء في سجده ﷺ أنها توبة نبي، وأما قولهم الباقر، فهو من بقر العلم أي شقّه فعرف أصله وخفيّه»^(٣).

الدلالات:

١ - لو رجعنا إلى أقوال الإمام الباقر ﷺ في وصف أئمة أهل البيت ﷺ: «... نحن صفوة الله، ونحن خيرة الله، ونحن مستودع موارث الأنبياء، ونحن أمناء الله، ونحن حجة الله... ونحن العلم المرفوع للخلق»^(٤)، لرأينا أنه ادعاء أثبتوا صحته بسلوكتهم ومعرفتهم لله تعالى، ولو كان الأمر خلاف ذلك لظهر للناس، خصوصاً أن الناس، من الموالين والأعداء على حدٍ سواء، أجمعوا على علمهم وطهارتهم من الذنوب، ومن شدّد في ذلك فإنما يخالف سنة رسول الله ﷺ القاضية باتباعهم ﷺ، وإذا تيقنا بأن

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٤ / ص ٤٠١ - ٤٠٩

(٢) سير أعلام النبلاء: ج ٤ / ص ٤٠١ - ٤٠٩.

(٣) تاريخ الإسلام: الذهبي: ج ٧ ص ٤٦٢ - ٤٦٤، حوادث ووفيات سنة ١٠١ - ١٢٠ هـ.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ٢٤٨.

علمهم ﷺ نابعٌ من علم رسول الله ﷺ، فكيف لا يبلغ الإمام ﷺ في القرآن، والفقهاء، والحفظ والسنن، درجة من طلب العلم اكتساباً.

٢- إن العصمة هي علمٌ وتقوى، والعلم: اكتسابي وإلهامي، بينما التقوى هي اتقاء معصية الله تعالى، والعصمة أمرٌ عظيمٌ من الله تعالى، كما نلاحظ من الروايات التالية:

عن الإمام الباقر ﷺ أنه قال: «أصبح إبراهيم ﷺ فرأى في لحيته شعرة بيضاء، فقال: الحمد لله رب العالمين الذي بلغني هذا المبلغ لم اعص الله طرفة عين»^(١).

وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذ إبراهيم خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له الأشياء وقبض يده قال له: يا إبراهيم ﴿...إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٢)، فمن عظمها في عين إبراهيم ﷺ قال: يارب ﴿...وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣)»^(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «إن أيوب ﷺ ابتلي من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون؛ لأنهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون، ولا يزيغون، ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً...»

إنما ابتلاه الله عز وجل بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمته متى شاهدوه، ليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلا

(١) الكافي: ج ٨ / ص ٣٩١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) الاختصاص، الشيخ المفيد: ص ٢٣.

يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنه يُسقم من يشاء، ويُشفى من يشاء، متى شاء، كيف شاء، بأي سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمن يشاء، وشقاوة لمن يشاء، وسعادة لمن يشاء، وهو في جميع ذلك عدلٌ في قضائه، وحكيم في أفعاله، لا يفعل بعباده إلاّ الأصلح لهم، ولا قوة لهم إلاّ به»^(١).

سُئِلَ ﷺ عن علة حاجة الناس إلى نبي أو إمام، أجاب ﷺ: «لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن الله عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾^(٢)، وقال النبي ﷺ: «النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون»، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عزّ وجلّ طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٣)، وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون الله، وهم المؤيدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض، وبهم يمهل أهل المعاصي، ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، ولا تفارقهم روح القدس، ولا يفارقونه، لا يفارقون القرآن، ولا يفارقهم صلوات الله عليهم أجمعين»^(٤).

(٢٨)

حكيمه ومواعظه ﷺ

تميزت حياة الإمام ﷺ بالعلم والمعرفة، وكانت كلماته الحكيمة تنتشر بين الناس،

(١) الخصال: الصدوق: ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٤) تفسير نور الثقلين: ج ١ / ص ٥٠١.

فكما كانت تتناول قضايا التوحيد والنبوة والإمامة، كانت تحثّ الناس على الأخلاق الفاضلة، وعلى حسن التعامل مع الناس، وعلى بناء الإنسان الفاضل المتحلي بأخلاق النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام.

ومن ذلك قوله ﷺ في التوحيد: «ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن الله تعالى لا يقدره شيء، ولا يشركه في الأمر أحد»^(١)، وفي المؤمن، قال ﷺ: «مَنْ صَدَقَ لسانه زكاه عمله، وحَسُنَتْ نيته، وزُيِّدَ في رزقه، ومَنْ حَسَنَ بُرَّهُ بأهله زُيِّدَ في عمره»^(٢)، وفي مكارم الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك»^(٣)، وفي الفضائل، قال ﷺ: «إن استطعت ألاّ تعامل أحداً إلاّ ولك الفضل عليه فافعل»^(٤)، وفي تربية النفس، قال ﷺ: «إن أشدّ الناس حسرةً يوم القيامة عبداً وصفَ عدلاً ثم خالفه إلى غيره»^(٥)، وقال ﷺ: «مَنْ لم يجعل الله له من نفسه واعظاً فإنّ مواعظ الناس لن تُغني عنه شيئاً»^(٦).

وفي العلم قال ﷺ يرسله عن النبي ﷺ: «نعم وزير الإيمان العلم، ونعم وزير العلم الحلم، ونعم وزير الحلم الرفق، ونعم وزير الرفق اللين»^(٧)، وقال ﷺ ينقله عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: من أدمن الاختلاف إلى المساجد أصاب أخاً مستفاداً في الله عزّ وجلّ، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدلّه على هدى، أو

(١) التوحيد: ص ١٩.

(٢) تحف العقول: ص ٢٩٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٧٣.

(٤) تحف العقول: ص ٢٩٢.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ٧٠.

(٧) قرب الإسناد: ص ٣٢.

أخرى تصرفه عن الردى، أو رحمةً منتظرةً، أو ترك الذنب حياءً وخشيةً»^(١)، وقال عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، للعالم أجران وللمتعلم أجر، ولا خير في سوى ذلك»^(٢).

وبكلمة، كان الإمام الباقر عليه السلام مصدراً من مصادر العلم والمعرفة في المجتمع الإسلامي، وكان الناس يطلبون علمه في كل مكان، وكان مقصدهم مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله ليستمعوا إلى عذيب كلامه عليه السلام، ويستفيدوا من غزارة علمه، ومن جميل سلوكه.

(٢٩)

تلامذته عليه السلام

علمٌ بمقدار علم الإمام الباقر عليه السلام لا بد أن يجد له طريقاً إلى عقول الجيل الجديد، فكان له تلامذة، ومريدون، وموالون يصطوح عليهم بأصحاب الباقر عليه السلام، وكان من أبرز تلامذته عليه السلام:

١ - جابر بن يزيد الجعفي (ت ١٢٨ أو ١٣٢ هـ): كان من كبار العلماء، ومن أبرز المستفيدين من علمه عليه السلام، أمره الإمام الباقر عليه السلام بافتعال الجنون لتخليصه من القتل من بني أمية، بعد ملاحقة هشام بن عبد الملك أصحاب الإمام عليه السلام وقتلهم، وتلك سابقة لم تحصل من قبل، روى الحديث عنه، وكان إذا حدث عنه قال: «حدثني وصي الأوصياء، ووارث علم الأنبياء»^(٣).

يحدثنا جابر بن يزيد عن نفسه فيقول: «خدمتُ سيدنا الإمام أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام ثمانين سنة، فلما أردتُ الخروج ودعته، وقلتُ: أفدني، فقال عليه السلام: «بعد ثمانين

(١) الخصال: ج ٢ ص ٤٠.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٤.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ ص / ١٨٠.

عشرة سنة يا جابر»، قلت: نعم، إنكم بحرٌّ لا ينزف، ولا يُبلغ قعره.

فقال عليه السلام: «يا جابر بلغ شيعتي عني السلام، وأعلمهم أنه لا قرابةَ بيننا وبين الله عزَّ وجلَّ، ولا يتقربُ إليه إلا بالطاعة له، يا جابر من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا، يا جابر، من هذا الذي يسأل الله فلم يعطه؟ أو توكل عليه فلم يكفه؟ أو وثق به فلم ينجه؟ يا جابر، أنزل الدنيا كمنزل نزلته، تريد التحويل عنه، وهل الدنيا إلا دابة ركبها في منامك فاستيقظت، وأنت على فراشك غير راكب ولا آخذ بعنانها؟ أو كثوبٍ لبسته؟ أو كجاريةٍ وطئتها؟

يا جابر، الدنيا عند ذوي الألباب كفيء الظلال، لا إله إلا الله إعزازٌ لأهل دعوته، الصلاة تثبيت الإخلاص، وتنزيه الكبر، والزكاة تزيد في الرزق، والصيام والحج تسكين القلوب، والقصاص والحدود حقن الدماء، وحبنا أهل البيت نظام الدين، وجعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون»^(١).

٢ - محمد بن مسلم (ت ١٥٠ هـ): من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، فقيه من فقهاء أصحاب أهل البيت عليهم السلام، عدّه الإمام الصادق عليه السلام من جملة الرجال الأربعة الذين حفظوا آثار النبوة، كان محمد بن مسلم رجلاً شريفاً موسراً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «تواضع يا محمد!»، فلما انصرف إلى الكوفة أخذ قوصرة^(٢) من تمر مع الميزان، وجلس على باب المسجد الجامع، وجعل ينادي عليه، فأتاه قومه فانكروا عليه، فقال: إن مولاي أمرني بأمرٍ فلن أخالفه، ولن أبرح حتى أفرغ من بيع ما في هذه القوصرة^(٣).

وفي الرواية إن محمد بن مسلم أقام أربع سنين في المدينة يدخل على الإمام الباقر عليه السلام

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٣٠٢.

(٢) القوصرة: وعاءٌ للتمر من قصب.

(٣) الاختصاص: ص ٥١.

يسأله، ثم كان يدخل بعده على الإمام الصادق عليه السلام يسأله، قال ابن أبي عمير: سمعتُ عبد الرحمن بن الحجاج، وحماد بن عثمان، يقولان: ما كان أحدٌ من الشيعة أفقه من محمد بن مسلم^(١).

٣ - زرارة بن أعين: من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، ومن فقهاء الشيعة، وهو أحد الأربعة الذين حفظوا آثار النبوة مع بُريد بن معاوية العجلي، وأبي بصير ليث المرادي، ومحمد بن مسلم، كان زرارة عالماً في الفقه والكلام والأدب.

قال النجاشي (بعد سنة ٤٦٣ هـ) يصف زرارة: «شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم، وكان قارئاً فقيهاً متكلماً، شاعراً أديباً، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقاً فيما يرويه»^(٢)، وقال الكشي (ت ٣٥٠ هـ): «أجمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر وأصحاب أبي عبد الله عليهما السلام، وانقادوا لهم بالفقه»^(٣)، وكان زرارة أولهم. والمامقاني (ت ١٣٥١ هـ) وصفه بالقول: «وثقه كل من صنّف في الرجال، وإن اختلفت في حاله الأخبار، فالأصحاب متفقون على أن هذا الرجل بلغ من الجلالة، والعظم، ورفعة الشأن، وسمو المكان إلى ما فوق الوثاقة المطلوبة للقبول والاعتماد، وتضافرت الروايات بذلك، بل تواترت معني»^(٤).

٤ - أبان بن تغلب: من أصحاب الأئمة الثلاثة: السجاد، والباقر، والصادق عليهم السلام، وكانت له عندهم منزلة وقدم، وذكره البلاذري (ت ٢٩٧ هـ) قال: «روى أبان عن عطية العوفي، قال له أبو جعفر عليه السلام: «أجلس في مسجد المدينة وافت الناس، فإني أحبُّ أن يُرى

(١) الاختصاص: ص ٢٠٣.

(٢) رجال النجاشي: ص ١٧٥.

(٣) رجال الكشي ج ٢ ص ٥٠٧.

(٤) تنقيح المقال، المامقاني: ج ٢٨ / ص ٩٣.

في شيعتي مثلك»، وقال الإمام الصادق عليه السلام لما أتاه نعيه: «أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان»، وكان قارئاً من وجوه القراء، فقيهاً لغويًا، سمع من العرب وحكى عنهم^(١).

وكان للباقر عليه السلام تلامذة وأصحاب عديدون، قال ابن شهر آشوب (ت ٥٥٨هـ): «من أصحابه عليه السلام: حمران بن أعين الشيباني وأخوته بكر وعبد الملك وعبد الرحمن، ومحمد بن إسماعيل بن بزيغ، وعبد الله بن ميمون القداح، ومحمد بن مروان الكوفي من ولد أبي الأسود، وإسماعيل بن الفضل الهاشمي من ولد نوفل بن الحارث، وأبو هارون المكفوف، وظريف بن ناصح بياع الأكفان، وسعيد بن طريف الاسكافي، وإسماعيل ابن جابر الخثعمي الكوفي، وعقبة بن بشير الأسدي، وأسلم المكي مولى ابن الحنفية، وأبو بصير ليث بن البختري المرادي، والكميت بن زيد الأسدي، وناجية بن عمارة الصيداوي، ومعاذ بن مسلم الفراء، وبشير الرحال.

ومن رواية النص عليه عن أبيه: إسماعيل بن محمد، وعبد الله بن علي بن الحسين عليهما السلام، وزيد بن علي، وعيسى والحسين بن أبي العلاء، وبابه جابر بن يزيد الجعفي، وأجمعت العصابة أن أئمة الأولين ستة، وهم أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام وهم: زرارة بن أعين، ومعروف بن خربوذ، وأبو بصير الأسدي، والفضل بن يسار، ومحمد بن مسلم، ويزيد بن معاوية العجلي^(٢).

وكان أبو جعفر إذا دخل عليه الفضل بن يسار، يقول عليه السلام: «بخ بخ بشر المختين، مرحباً بمن تأنس به الأرض»^(٣).

قال سعيد الإسكافي للإمام الباقر عليه السلام: إني أجلس فأقصّ، وأذكر حقكم وفضلكم،

(١) رجال النجاشي: ص ٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٢ / ص ٢٩٥.

(٣) رجال الكشي: ص ١٨٦.

قال عليه السلام: «وددتُ أن علي كل ثلاثين قاصّاً مثلك»^(١).

(٣٠)

وصاياہ عليه السلام

مرّض الإمام الباقر عليه السلام بعد تعرضه لسُمّ دُسّ في طعامه، قال عليه السلام خلال احتضاره: «إذا أنا مت فاحفروا لي، وشقوا لي شقاً، فإن قيل لكم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لحّد له، فقد صدقوا»^(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «إن أبي عليه السلام قال لي ذات يوم في مرضه: يا بني أدخل أناساً من قريش من أهل المدينة، حتى أشهدهم، قال: فأدخلتُ عليه أناساً منهم، فقال: يا جعفر إذا أنا مت فغسلني وكفني، وأرفع قبري أربع أصابع، ورشّه بالماء، فلما خرجوا قلت: يا أبت لو أمرتني بهذا صنعته، ولم ترد أن أدخل عليك يوماً تشهدهم، فقال: يا بني أردتُ أن لا تُنزع»^(٣).

من علامات الإمامة: الوصية بالتغسيل والتكفين من قبل الوصي للموصى إليه.
وكان عليه السلام قد أوصى بثمانمائة درهم لمأتمه عليه السلام، وكان يرى ذلك من السنّة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «اتخذوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا»^(٤).

و«...أوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه»^(٥)، وعن الصادق عليه السلام أنه

(١) رجال الكشي: ص ١٨٧.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ١٦٦.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٢٠٠.

(٤) الكافي: ج ٣ / ص ٢١٧.

(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ج ٧ / ص ١٦١ - ١٦٢، ترجمة ٦١٢، الطبقات الكبرى:

ج ٥ / ص ٢٣٧.

قال: «كتب أبي في وصيته أن أكفنه في ثلاثة أثواب: أحدها رداء له حبرة كان يصلي فيه يوم الجمعة، وثوبٌ آخر، وقميص»^(١).

(٣١)

استشهاده

سمّه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، فأستشهد يوم السابع من ذي الحجة، سنة أربع عشرة ومائة هجرية، وله سبع وخمسون^(٢)، ودُفن في بقيع الغرقد^(٣)، في «القبة التي فيها العباس في القبر الذي دفن فيه أبوه السجاد»، وعم أبيه الحسن^(٤)، فسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يُبعث حياً.

(١) الكافي: ج ٣ / ص ١٤٤.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٤٦٩.

(٣) الغرقد: شجر عظام، أو هي العوسج إذا عظم، واحده غرقدة، وبها سموا بقيع الغرقد مقبرة المدينة؛ لأنه كان منبتها (القاموس المحيط ج ١ ص ٣٢٠).

(٤) نزهة الجليس ومنية الأنيس: ج ٢ / ص ٢٣.

الفصل الثاني

الخصائص الشخصية

(١) خصائص العصمة

(١) مقدمة (٢) الإمامة (٣) الأفضلية.

(٤) الأفضلية في العلم (٥) الأفضلية في التقوى.

خصائص العصمة

(١)

مقدمة

الإمامة الشرعية من أهم خصائص محمد بن علي الباقر عليه السلام، فهو إمام معصوم: بالتحديد من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالصفات المتميزة التي تحلّى بها خصوصاً في العلم والتقوى، إذن فلنبدأ بحثنا بسؤال عن ماهية الإمامة؟

عندما يُفتح لنا باب الجواب، نقول: إن الإمام في اللغة هو من يُقتدى به، ويؤتمن على الدين والدنيا، وهو إما إمامٌ حقٌّ وهدايةً، كما يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾^(١)، وإما إمامٌ باطلٍ، كما يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾^(٢).

والإمامة التي أوصانا رسول الله صلى الله عليه وآله باتباعها هي إمامة الأَطهار من أهل بيت النبوة عليهم السلام، فهي رئاسة عامة عن طريق الإحاطة الشاملة بالعلم الإلهي، وعدم ارتكاب المعصية بل عدم التفكير بها مع القدرة التامة عليها، والأمران يجتمعان تحت مصطلح اسمه (العصمة) في الدين، كما ذكرنا ذلك أكثر من مرة، وربما سيتكرر ذلك كلما اقتضى البحث ذلك.

وقصة الخلق تتلخص بأن الله تعالى بعث إلى الناس ﴿... رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٢) سورة القصص: الآية ٤١.

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ... ﴿١﴾، ﴿... وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ ﴿٢﴾، فالنبي ﷺ بُعِثَ مُتَحَلِّياً بِأَعْظَمِ الْفَضَائِلِ الْأَخْلَاقِيَّةِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣﴾، ﴿... وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ ﴿٤﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥﴾، وهو ﴿... بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٦﴾.

بُعث النبي ﷺ وهو يحمل على كتفيه وظيفتين:

الأولى: تبليغ رسالة ربه في التوحيد، والحساب يوم القيامة وما يتبعه من ثواب أو عقاب، وإبلاغ العباد بوظائفهم تجاه خالقهم، فهو ﷺ البشير النذير، الناطق بلغة قومه، الصادق بالحق، الصادق الأمين.

الثانية: أن يكون قدوة للناس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٧﴾، كان رسول الله ﷺ نبياً معصوماً، واجب الطاعة، أكمل خلق الله تعالى، وخاتم الرسل والأنبياء ﷺ.

وبعد وفاته ﷺ كانت هناك ضرورة عقلية وشرعية لخليفة له يقوم مقامه، ويحمل صفاته، فلا يخلو الزمان من إمام في كل الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سورة القلم: الآية ٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٦) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٧) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١﴾، ﴿... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾ ﴿٢﴾، فلا بد من مصداقٍ يتحرك بين الناس، يحمل جناح العلم عن يمينه وجناح التقوى عن يساره، ويبين لهم بصدقٍ عقائد وأحكام آخر دينٍ سهاوي على وجه الأرض، ويذكرهم بنبي الرحمة ﷺ في العلم والزهد والجود والشجاعة، ويكون عليهم حجةً أمام الله تعالى يوم الورد.

والإمامة ليست مسألة هيئنة تُمدُّ لها الأعناق، وقد قال الباقر عليه السلام: «إِنْ خَبَرْنَا صَعْبٌ مُسْتَصَعَّبٌ، لَا يَحْتَمِلُهُ إِلَّا مَلَكٌ، أَوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، أَوْ عَبْدٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ» ﴿٣﴾.

والمسلمون وإن اتفقوا على مبدأ الإمامة، لكنهم اختلفوا في شروطها ومصايقها، يقول الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ): «إِنْ كُلُّ جَمْعٍ وَقَرْنٍ يَحْصُلُ فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَحْصُلَ فِيهِمْ وَاحِدٌ يَكُونُ شَهِيداً عَلَيْهِمْ، أَمَا الشَّهِيدُ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾» ﴿٤﴾، وثبت أيضاً أنه لا بد في كل زمان بعد زمان الرسول ﷺ من الشهيد، فحصل من هذا أن عصرًا من العصور لا يخلو من شهيد على الناس، وذلك الشهيد لا بُدَّ وأن يكون غير جائز الخطأ، وإلا لافتقر إلى شهيدٍ آخر، ويمتد ذلك إلى ما لا نهاية وذلك باطل، فثبت أنه لا بُدَّ في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم» ﴿٥﴾.

ويقصد بالشهيد في هذا النص: شهيد الأعمال، لا الشهيد المقتول في المعركة، وهو

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٢ / ص ٢٩٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٥) التفسير الكبير، الفخر الرازي ج ٥ / ص ٥٠٦.

وإن لم يصرح بالمصاديق، إلا أنّ المبدأ الذي ذكره الفخر الرازي في الإمامة هو نفس مبدأ أهل البيت عليهم السلام الذي وصلنا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وآله.

ويسانده الخبر المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله من الطرفين: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما»^(١)، و«عليّ مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٢)، و«أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^(٣).

وقول النبي صلى الله عليه وآله ملزمٌ للمسلمين، وقوله وفعله وتقريره قانون شرعي لنا بعد القرآن الكريم، وبكلمة، فالنبي صلى الله عليه وآله تجب طاعته ويلزم الاقتداء به في جميع المسائل، ومنها مسألة الإمامة.

(٢)

الإمامة

في قضية الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أمران:

الأول: إن استخلاف النبي صلى الله عليه وآله لا يتم إلا بانتخاب واصطفاء من الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...﴾^(٤)، ﴿...اللَّهُ يُجْتَنِبُ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٥).

(١) سنن الترمذي: ج ٥ / ص ٣٢٩.

(٢) المستدرک، الحاكم: ج ٣ / ص ١٢٤.

(٣) المستدرک: ج ٣ / ص ١٢٧.

(٤) سورة القصص: الآية ٦٨.

(٥) سورة الشورى: الآية ١٣.

فالإمام الذي يُخلف النبي ﷺ على أمته ينبغي أن يكون عالماً عالماً تاماً بالرسالة، طاهراً من الذنوب، قريباً منه تعالى بحيث يكون رهن إشارته تعالى، متعلقاً قلبه بالآخرة، ولا يريد من الدنيا شيئاً.

وإلى ذلك قال الإمام الباقر عليه السلام في صفة أئمة أهل البيت عليهم السلام: «... قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾^(١)، وقال النبي ﷺ: «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون»، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٢)، وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون الله، وهم المؤيدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمّر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض، وبهم يمهل أهل المعاصي، ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، ولا تفارقهم روح القدس، ولا يفارقونه، لا يفارقون القرآن، ولا يفارقهم صلوات الله عليهم أجمعين»^(٣).

الثاني: لا بد أن يكون الإمام عليه السلام بعد النبي ﷺ أفضل الناس في زمانه، معصوماً عن الجهل وبعيداً عن المعصية، وقد قال تعالى في فضله على العبد الصالح: ﴿... وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(٤)، وفي فضله على غيره قال تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٥). أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه «وصيي ووزيري وخليفتي ومنجز

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٣) علل الشرائع: ج ١ / ص ١٣٣.

(٤) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٧٤.

وعدي»^(١)، ثم الأئمة من بعده من ذريته عليه السلام الذين ذُكرت أسماؤهم وأوصى لهم من سبق إلى من لحق إلى يوم الحساب.

وإلى ذلك وصف الباقر عليه السلام أهل البيت عليهم السلام بأجمل صفات الفضائل، وقال: «نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن عهد الله، فمن وفي بدمتنا فقد وفي بدمة الله، ومن وفي بعهدنا فقد وفي بعهد الله، ومن خفرنا^(٢) فقد خفر ذمّة الله»^(٣).

قضية الأفضلية:

واجهت قضية الامامة الشرعية عقبات جمّة من بداياتها في قضية الأفضلية، ومع أن أهل البيت عليهم السلام قالوا: أن الإمام ينبغي أن يكون أفضل أهل زمانه علماً وتقوى وشجاعةً وبلاغةً وكرماً، إلا أن مدرسة الحديث والرأي لم تشترط أفضلية الإمام وأعلميته، بل أقرّ العديد من علمائها على صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل!

قال التفتازاني (ت ٧٩٢هـ): «وأن لا يكون الإمام أفضل أهل زمانه؛ لأنّ المساوي له في الفضيلة بل المفضول الأقل علماً وعملاً ربياً كان أعرف بمصالح الإمامة ومفاسدها، ولهذا جعل عمر الإمامة شورى بين ستة مع القطع بأن بعضهم أفضل من بعض»^(٤)، فأصبح، بموجب هذا الرأي الغريب، المفضول إماماً للمسلمين مع وجود الفاضل التقى الورع العالم في نفس الزمان والمكان.

(١) المناقب، الخوارزمي: ص ٦٧.

(٢) خفرنا: أي حمانا، من خَفَرَهُ أي أجاره وحمّاه.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٢٢٣.

(٤) شرح العقائد، التفتازاني، ص ١٣٣.

وقال الشوكاني (ت ١٢١١هـ): «صحت إمامة الفاسق والظالم؛ لأن الصحابة كانوا يصلّون خلف أمراء بني أمية، وكانت الدولة إذ ذاك لبني أمية، وحالهم وحال أمرائهم لا يخفى»^(١).

فكان هدف من قال بإمامة المفضول مع وجود الفاضل هو الإنتظام مع السلطة، حتى لو كانت ظالمة، على الانتظام مع الخلافة الالهية الحقّة، وإن كانت مظلومة، وفيها مخالفة صريحة للقرآن الكريم الذي تضافرت نصوصه الشريفة على صفة الحاكم، فقال تعالى مخاطباً إبراهيم ﷺ: ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، وعلى أهداف الإمامة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣).

ولكن الردّ على إمامة المفضول بوجود الفاضل جاء من نفس المدرسة، مناهضاً ومناقضاً لما ورد على ألسنة روادها، فكان الردّ من شخصيات أمثال: الطبري (ت ٣١٠هـ)، والنيشابوري (ت ٤٠٥هـ)، والزخشي (ت ٥٣٨هـ)، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، والبيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، والحازن الشيعي (ت ٧٤١هـ):

فقد نفى الطبري، والنيشابوري، والزخشي، وابن تيمية إمكانية جعل الظالم إماماً، قال ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿... قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤): «قال أبو جعفر: هذا خبرٌ من الله جلّ ثناؤه عن أن الظالم لا يكون إماماً يقتدي به أهل الخير»^(٥)، وفي تفسيره، قال النيشابوري (ت ٤٠٥هـ) بعد ذكر

(١) نيل الأوطار، الشوكاني: ج ٣ / ص ٤١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٥) تفسير الطبري: ج ٣ / ص ٢٠.

عدم جواز عقد الإمامة للفاسق عند جمهور الفقهاء والمتكلمين قال: «وإذ خرج الظالم تعين الصالح بطريق برهاني»^(١)، وفي تفسير الكشاف، قال الزمخشري (ت ٥٣٨هـ): «عن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة، فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه، فقد جاء المثل السائر: مَنْ اسْتَرَعَى الذُّبَّ ظَلَمَ»^(٢)، وقال ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) في منهاج السنّة النبوية: «فإنه تعالى لا يأمر بالاعتداء بالظالم، فإن الظالم لا يكون قدوة يؤتم به بدليل قوله تعالى: ﴿... لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾»^(٣)»^(٤).

وألمح الفخر الرازي، والبيضاوي، والشيخ إلى عصمة الإمام عن المعاصي، ولم يصرحوا بها، فقال الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في التفسير الكبير: «قوله تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾»^(٥) إنه ﷺ كان معصوماً عن الذنوب؛ لأن الإمام هو الذي يؤتم به، ويقتدى، فلو صدرت المعصية منه لوجب علينا الاقتداء به في ذلك، فيلزم أنه يجب علينا فعل المعصية، وذلك محال»^(٦)، وقال البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) في تفسيره: «إنها أمانة من الله وعهد، والظالم لا يصلح لهما، وإنهما يناههما البررة والأتقياء منه، والفاسق لا يصلح للإمامة»^(٧)، وقال الخازن (ت ٧٢٥هـ) في تفسيره: «والمعنى لا ينال ما عهدتُ إليك من النبوة والإمامة مَنْ كان ظالماً لذريتك وولذك»^(٨).

(١) تفسير النيشابوري: ج ١ / ص ٣٨٨.

(٢) تفسير الكشاف: ج ١ / ص ٣١٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) منهاج السنّة: ج ٢ / ص ٥٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٦) التفسير الكبير: ج ١ / ص ٣١.

(٧) تفسير البيضاوي: ج ٢ / ص ٢٠٨.

(٨) لباب التأويل، علاء الدين الخازن: ج ١ / ص ١٠٢.

والنتيجة، أن طبيعة الإنسان وفطرته لا تسمح للظالم بأن يكون إماماً، ولو سمح الدين السماوي للظالم بتقلد الإمامة لفسد العالم، ولكن الله تعالى أعلم بشؤون عباده فهو خالقهم ومدبرهم، فأمر أن لا يتولى الإمامة إلا العالم، الطاهر من الذنوب، العارف بالله، المضحّي، والمؤثر آخرته الباقية على دنياه الفانية.

الإمامة : الدليل العقلي

يملك الإمام بالدليل العقلي الخصائص التالية:

الأولى: أن يكون انموذجاً عقلياً وسلوكياً للناس، وله قدرة فائقة على تعليم الناس أمور دينهم، على مر العصور، وفي ذلك روايات في الانموذجين السلوكي والعقلي:

أ - الانموذج السلوكي: أن يكون أفضل الناس سلوكاً ومنهجاً، ولو قرأنا الرواية التالية المروية عن الإمام الباقر عليه السلام كانموذج، لعرفنا كيف كان يعلم أمته السلوك الفاضل مع الله تعالى عبر العبادة والدعاء.

عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إذا قمت بالليل من منامك، فقل: الحمد لله الذي ردّ عليّ روعي لأحمده وأعبده، فإذا سمعت صوت الديوك، فقل: سبّوح قدوس ربّ الملائكة والروح سبقت رحمتك غضبك، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي وارحمني، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فإذا قمت فانظر في آفاق السماء، وقل: اللهم إنه لا يوارى عنك ليل ساج^(١)، ولا سماء ذات أبراج، ولا أرض ذات مهاد، ولا ظلمات بعضها فوق بعض، ولا بحر لجّي تدلّج بين يدي المدلّج^(٢) من خلقك، تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، غارت

(١) ليلٌ ساج: ليلٌ ساكن.

(٢) تدلّج بين يدي المدلّج: أي السائر في الليل، أدلج القوم: ساروا أول الليل، أو في أية ساعة من

النجوم، ونامت العيون، وأنت الحي القيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، سبحان رب العالمين، وإله المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ثم اقرأ الخمس الآيات من آخر آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ^(١)، ثم إستك، وتوضأ، فإذا وضعت يدك في الماء فقل: بسم الله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين.

فإذا فرغت فقل: الحمد لله رب العالمين، فإذا قمت إلى صلاتك فقل: بسم الله، وبالله، وإلى الله، ومن الله، وما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اجعلني من زوار بيتك، وعمار مساجدك، وافتح لي باب توبتك، واغلق عني باب معصيتك وكل معصية، الحمد لله الذي جعلني ممن ينجيه، اللهم أقبل عليّ بوجهك جلّ ثناؤك، ثم افتتح الصلاة بالتكبير^(٢).

وعنه عليه السلام في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في التمسك بالدين وبإمامة أهل البيت عليهم السلام: «فإنهم لا يدخلونكم في باب ضلال، ولا يخرجونكم من باب هدى، فلا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم، وأني سألت ربي ألا يفرق بينهم وبين الكتاب حتى يردا عليّ الحوض

ساعاته، وكان العربي إذا أدلج جعل النجوم دليلاً في الاتجاهات.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٠ - ١٩٤.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٤٤٥.

هكذا - ضمّ بين أصبعيه - وعرضه ما بين صنعاء إلى أيلة، فيه قدحان فضة وذهب عدد النجوم»^(١).

ومن تلك الروايات وغيرها نعلم أن للإمام عليه السلام القدرة الكاملة على تعليم الناس أمور دينهم.

ب - الانموذج العقلي: وهو أن يكون الإمام عليه السلام عقلاً متحركاً بين الناس، يعلم الناس حدود الدين، فإذا أضافوا باطلاً نهى عنه، وإذا أنقصوا شيئاً من واجباتهم أمرهم بتكليفهم الشرعي، ومن ذلك:

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «والله ما ترك الأرض منذ قبض الله آدم إلا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، وهو حجة الله على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة الله يُهتدى به إلى الله»^(٢).

وعنه عليه السلام: «أن الأرض لا تبقى إلا ومنا فيها من يعرف الحق، فإذا زاد الناس قال قد زادوا، وإذا نقصوا منه قال قد نقصوا، ولولا أن ذلك كذلك لم يعرف الحق من الباطل»^(٣).

وعنه عليه السلام عن آبائه: «أن النبي صلى الله عليه وآله قال: في كل خلفٍ من أمتي عدلاً من أهل بيتي ينفي عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهل، وإن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدوا في دينكم وصلواتكم»^(٤).

ومن تلك الروايات نعلم أن الإمام عليه السلام كان يقوم بوظيفة المنظم العقلي للأمة في

(١) الكافي: ج ١ / ص ٢٠٩.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٤٨٥.

(٣) علل الشرائع: ج ١ / ص ١٩٠.

(٤) قرب الإسناد: ص ٣٧.

قضية الدين، حفاظاً على سنة رسول الله ﷺ، فإذا أضاف الناس شيئاً جديداً على الدين، قام بوظيفته ﷺ في تعديل المسار، وتصحيح الطريق.

الثانية: أن يكون له منهج حياة في التضحية: أي إن جميع مراحل حياته شظفَ عيش، أو معاناة مع ظالم، أو ابتلاء مع الناس ونحوها، وفي ذلك شواهد منها:

أولاً: إذ جاء رجلٌ إلى الإمام الباقر ﷺ، وسأله: كيف أنتم؟ قال ﷺ: «أو ما آن لكم أن تعلموا كيف نحن، إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يُذبح أبناءهم وتُستحي نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبّحون أبناءنا ويستحيون نساءنا! زعمت العرب أن لهم فضلاً على العجم، فقالت العجم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منّا عربياً، قالوا لهم: صدقتم! وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمدٌ قرشياً، قالوا لهم: صدقتم! فإن كان القوم صدقوا، فلنا فضلٌ على الناس لأننا ذرية محمد ﷺ، وأهل بيته خاصة وعترته، لا يشر كنا في ذلك غيرنا»، فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت، قال ﷺ: «فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله أنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم، وبنا يبدو الرّخاء ثم بكم»^(١).

ثانياً: يقول الباقر ﷺ وكان عنده أناسٌ من أصحابه: «عجبتُ من قوم يتولوننا، ويجعلوننا أئمةً، ويصفون أن طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله ثم يكسرون حجتهم، ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصونا حقنا، ويعييون ذلك على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا، والتسليم لأمرنا، أترون أن الله تبارك وتعالى افترض طاعة أوليائه على عباده، ثم يُخفي عنهم أخبار السموات والأرض، ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم؟!».

فقال له حمران: جعلتُ فداك أ رأيت ما كان من أمر قيام علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهما السلام، وخروجهم، وقيامهم بدين الله عزّ ذكره، وما أصيبوا من قتل الطواغيت إياهم والظفر بهم حتى قتلوا وغلّبوا؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا حمران إن الله تبارك وتعالى قد كان قدّر ذلك عليهم، وقضاه، وأمضاه، وحنمه على سبيل الاختيار، ثم أجره، فبتقدم علم إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله قام علي، والحسن، والحسين عليهم السلام، وبعلم صمت من صمت منا، ولو أنهم يا حمران حيث نزل بهم ما نزل من أمر الله عزّ وجلّ، وإظهار الطواغيت عليهم سألوا الله عزّ وجلّ أن يدفع عنهم ذلك، وألحوا عليه في طلب إزالة ملك الطواغيت، وذهاب ملكهم إذن لأجابهم ودفع ذلك عنهم، ثم كان انقضاء مدة الطواغيت، وذهاب ملكهم أسرع من سلك منظوم انقطع فتبدّد، وما كان ذلك الذي أصابهم يا حمران لذنّب اقترفوه، ولا لعقوبة معصية خالفوا الله فيها، ولكن لمنازل، وكرامة من الله أراد أن يبلغوها، فلا تذهبن بك المذاهب فيهم»^(١).

ثالثاً: عن الباقر عليه السلام قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه بمنى، فقال صلى الله عليه وآله: يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، ثم قال صلى الله عليه وآله: «يا أيها الناس إني تارك فيكم حرّات الله: كتاب الله، وعترتي، والكعبة البيت الحرام»، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «أما كتاب الله فحرّفوا، وأما الكعبة فهدموا، وأما العترة فقتلوا، وكلّ ودائع الله فقد تبرّوا»^(٢).

رابعاً: عن أبان قال: قال لي أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ما لقينا أهل البيت من ظلم قريش، وتظاهرهم علينا، وقتلهم إيانا، وما لقيت شيعتنا ومحبّونا من الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وقد قام بحقنا، وأمر بطاعتنا، وفرض ولايتنا ومودّتنا، وأخبرهم بأننا أولى

(١) الكافي: ج ١ / ص ٢٦٢.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٤١٣.

الناس بهم من أنفسهم، وأمر أن يبلغ الشاهد الغائب، فتظاهروا على علي عليه السلام فاحتج عليهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وما سمعت العامة، فقالوا صدقتَ قد قال رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن قد نسخته، فقال إنا أهل بيتٍ أكرمنا الله عزّ وجلّ واصطفانا...^(١)، ثم يذكر ما حصل لهم عليه السلام حتى مقتل أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ثم قال عليه السلام: «ثم بايعوا الحسن بن علي عليه السلام، بعد أبيه وعاهدوه، ثم غدروا به وأسلموه ووثبوا به حتى طعنوه بخنجر في فخذه، وانتهبوا عسكره، وعالجوا خلاخيل أمهات الأولاد، فصالح معاوية حقن دمه، ودم أهل بيته وشيعته، وهم قليل حين لا يجد أعواناً.

ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، ثم غدروا به، ثم خرجوا إليه فقاتلوه حتى قُتل.

ثم لم نزل أهل البيت منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله نُذِلَّ، ونُقِصَى، ونُحْرِمَ، ونُطْرَدَ، ونُخَافَ على دماننا وكل من يحبنا، ووجد الكاذبون لكذبهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاتهم وعاملهم في كل بلدة، يحدثون عدونا وولاتهم الماضين بالأحاديث الكاذبة الباطلة، ويروون عنا ما لم نقل تهجيناً منهم لنا، وكذباً منهم علينا، وتقرباً إلى وولاتهم وقضاتهم بالزور والكذب.

وكان عظم ذلك وكثرته في زمن معاوية بعد موت الحسن، فقُتِلَتِ الشيعة في كل بلدة، وقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على التهمة والظنة من ذكر حينا والانقطاع إلينا، ثم لم يزل البلاء يشدد ويزداد إلى زمان ابن زياد، بعد قتل الحسين عليه السلام.

ثم جاء الحجاج فقتلهم بكل قتلة، وبكل ظنة، وبكل تهمة، حتى أن الرجل يقال له

(١) كتاب سليم بن قيس: ص ١٠٨.

زنديق أو مجوسي كان أحب إليه من أن يُشار إليه من أنه من شيعة الحسين عليه السلام، وبما رأيت الرجل الذي يُذكر بالخير، ولعله يكون ورعاً صدوقاً، يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد مضى من الولاية لم يخلق الله منها شيئاً قطّ، وهو يحسب أنها حق لكثرة من قد سمعها منه ممن لا يُعرف بكذبٍ، ولا بقلة ورع^(١).

الثالثة: أن لا يكون للمعصية مكاناً في حياته، فحياته قائمة تماماً على التكامل، والطاعة المطلقة لله تعالى، هنا لا بد أن نذكر أن الناس على ثلاثة أنماط:

الأول: هو من يذنب ثم يستغفر الله تعالى، فيتوب عليه، وفي ذلك روايات، منها:

١ - عن أبي بصير، قال: كنتُ عند أبي جعفر عليه السلام، فقال له رجل: أصلحك الله إن بالكوفة قوماً يقولون مقالةً ينسبونها إليك! قال عليه السلام: وما هي؟ قال: يقولون: إن الإيمان غير الإسلام، فقال أبو جعفر عليه السلام: نعم، فقال له الرجل: صفه لي. قال عليه السلام: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وأقرّب بما جاء من عند الله فهو مسلم»، قال: فالإيمان؟ قال عليه السلام: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقرّب بما جاء من عند الله، وأقام الصلاة، وأتى الزكاة، وصام شهر رمضان، وحج البيت، ولم يلق الله بذنب أُوعد عليه النار فهو مؤمن»، قال أبو بصير: جعلتُ فداك، وأينا لم يلق الله بذنبٍ أُوعد عليه النار؟ فقال عليه السلام: «ليس هو حيث تذهب، إنما هو من لم يلق الله بذنبٍ أُوعد عليه النار ولم يتب عنه»^(٢).

٢ - عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان»، قلتُ: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟ قال عليه السلام: «يا محمد

(١) كتاب سليم بن قيس: ص ١٠٨.

(٢) معاني الأخبار: ص ٣٨١.

ابن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه، ويستغفر منه، ويتوب، ثم لا يقبل الله توبته؟»، قلت: فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب، ويستغفر الله، فقال ﷺ: «كلمة عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، إن الله غفورٌ رحيمٌ، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله»^(١).

٣ - قال الباقر ﷺ: «ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات»^(٢).

٤ - عن أبي جعفر ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣)، قال ﷺ: «الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار»^(٤).

الثاني: من يذنب ويتوب، ولكن عليه أن يؤدي إلى كل ذي حقٍ حقه، وفي ذلك رواية مهمة:

عن شيخٍ من النخع قال: قلت للإمام الباقر ﷺ: إني لم أزل والياً منذ زمن الحجاج إلى يومي هذا، فهل لي من توبة؟ قال: فسكت، ثم أعدت عليه، فقال ﷺ: «لا حتى تؤدي إلى كل ذي حقٍ حقه»^(٥).

فكيف يتوب القاتل، والسارق، والغاصب وهو لم يؤدِّ حق المجنى عليه؟ إذن

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٤٣٤.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٤٥٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٥.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٢٨٨.

(٥) الكافي: ج ٢ / ص ٣٣١.

التوبة في هذا القسم على مرحلتين، الأولى: أداء حق المظلوم أو المغدور كاملاً، والثانية: التوبة إلى الله تعالى، وبهذا الطريق يتحقق العدل الالهي بين الناس.

الثالث: الأنبياء والرسل وأئمة الهدى عليهم السلام من أهل العصمة، وهؤلاء بعيدون عن ارتكاب الذنوب، وفيها روايات ذكرت سابقاً، نعيدها هنا محلها من البحث:

عن الإمام الباقر عليه السلام انه قال: «أصبح إبراهيم عليه السلام فرأى في لحيته شعرة بيضاء، فقال: الحمد لله رب العالمين الذي بلغني هذا المبلغ لم اعص الله طرفة عين»^(١).

وعنه عليه السلام انه قال: «إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذ إبراهيم خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له الأشياء وقبض يده قال له: يا إبراهيم ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾^(٢)، فمن عظمها في عين إبراهيم عليه السلام قال: يارب ﴿... قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣)»^(٤).

وعنه عليه السلام انه قال: «إن أيوب ابتلي من غير ذنب، وإن الأنبياء لا يذنبون؛ لأنهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون، ولا يزيغون، ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً...»

إنما ابتلاه الله عز وجل بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس، لئلا يدعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمته متى شاهدوه، ليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله تعالى ذكره على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلا

(١) الكافي: ج ٨ / ص ٣٩١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) الاختصاص، الشيخ المفيد: ص ٢٣.

يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنه يُسقم من يشاء، ويُشفى من يشاء، متى شاء، كيف شاء، بأي سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمن يشاء، وشقاوة لمن يشاء، وسعادة لمن يشاء، وهو في جميع ذلك عدلٌ في قضائه، وحكيم في أفعاله، لا يفعل لعباده إلاّ الأصلح لهم، ولا قوة لهم إلاّ به»^(١).

والمستفاد من تلك الروايات أن الله عزّ وجلّ اصطفى مجموعة من الأبطال روضوا أنفسهم على عدم ارتكاب المعصية، فهم معصومون، مطهرون، لا يذنبون، وقد قال الله تعالى بشأنهم: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢)، وبشأن الأنبياء ﷺ قال تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾^(٣)، ﴿... قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

الرابعة: ليس هناك من يوازيه في العلم والتقوى في زمانه، فهو أفضل الناس في العلم والتقوى، والأفضل في بقية الفضائل، وفي ذلك قول الباقر ﷺ في أئمة الهدى ﷺ:

«هم ولادة أمر الله، وخزان وحى الله، وورثة كتاب الله، وهم المصطفون بسرّ الله، والامناء على وحى الله، هؤلاء أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، والمستأنسون بخفق أجنحة الملائكة، من كان يغدوهم جبرئيل من الملك الجليل، بخبر التنزيل وبرهان التأويل، هؤلاء أهل بيت أكرمهم الله بسرّه، وشرفهم بكرامته، وأعزهم بالهدى، وثبتهم بالوحي، وجعلهم أئمة هدى، ونوراً في الظلم للنجاة، واختصهم لدينه، وفضلهم بعلمه، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، وجعلهم عماداً لدينه، ومستودعاً لمكنون

(١) الخصال، الصدوق: ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

سرّه، وأمناء على وحيه، ونجباء من خلقه، وشهداء على بريته.

اختارهم الله، وحباهم، وخصّهم، واصطفاهم، وفضّلهم، وارفضاهم، وانتجبهم، وانتقاهم، وجعلهم للبلاد والعباد عمّاراً، وأدلاء للأمة على الصراط، فهم أئمة الهدى، والدعاة إلى التقوى، وكلمة الله العليا، وحيته العظمى، وهم النجاة والزلفى، هم الخيرة الكرام، الأصفياء الحكّام، هم النجوم الأعلام، هم الصراط المستقيم، هم السبيل الأقوم الراغب عنهم مارق، والمقصر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق، نور الله في قلوب المؤمنين، والبحار السائغة للشاربين، أمنٌ لمن التجأ إليهم، وأمانٌ لمن تمسك بهم، إلى الله يدعون، وله يسلمون، وبأمره يعملون، وبكتابه يحكمون...»^(١).

وقوله ﷺ أيضاً: «نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن عهد الله، فمن وفي بدمتنا فقد وفي بذمة الله، ومن وفي بعهدنا وفي بعهد الله، ومن خفرنا فقد خفر ذمة الله وعهده»^(٢).

وتلك صفاتٌ مذهلةٌ لا يوازيهم فيها شخصٌ آخر من عموم الناس، فهم من سلالة النبوة، وصفاتهم تحكي كمالية سلوكهم، ودقة دورهم في الوجود.

الخامسة: أن لا يكون الإمام إماماً بالصدفة أو الحظ أو الوراثية، بل لا بد أن يكون هناك تصميم إلهي لشخصية الإمام ﷺ وغرض معلوم لفكرة الإمامة ذاتها، وفي ذلك قولٌ مهمٌ للإمام الباقر ﷺ.

(١) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) بصائر الدرجات: ص ١٨٢.

قال عليه السلام: «لن تخلو الأرض إلا وفيها رجلٌ منا يعرف الحق، فإذا زاد الناس فيه، قال: قد زادوا، وإذا نقصوا منه، قال: قد نقصوا، وإذا جاؤوا به صدقهم، ولو لم يكن ذلك لم يُعرف الحق من الباطل»^(١).

وعنه عليه السلام أيضاً، أنه قال: «إن الله لم يدع شيئاً يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، ويئنه لرسوله صلى الله عليه وآله، وجعل لكل شيءٍ حداً، وجعل عليه دليلاً يدلُّ عليه»^(٢).

وقال عليه السلام: «ما كانت الأرض إلا وفيها عالم»^(٣)، و«إن العلم الذي هبط مع آدم عليه السلام لم يُرفع، والعلم يتوارث، وأنه لم يمّت عالمٌ إلا خلفَ من بعده من يعلم مثله، أو ما شاء الله»^(٤).

لاحظ التصميم الالهي في نبوة عيسى، وزكريا، ويحيى عليهم السلام، ففي الرواية التالية أن الإمام الباقر عليه السلام سُئل: «كان عيسى بن مريم عليهما السلام حين تكلم في المهد حجةً لله على أهل زمانه؟ فقال عليه السلام: «كان يؤمّذ نبيّاً حجةً لله غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾»^(٥).

قلتُ: فكان يؤمّذ حجةً لله على زكريا عليه السلام في تلك الحالة وهو في المهد؟

فقال عليه السلام: «كان عيسى في تلك الحال آيةً للناس ورحمةً من الله لمريم عليها السلام، حين تكلم فعبّر عنها، وكان نبيّاً حجةً على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم

(١) كمال الدين، الشيخ الصدوق: ص ٢٢٢.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٦.

(٣) المحاسن: ص ٢٣٤.

(٤) المحاسن: ص ٢٣٥.

(٥) سورة مريم: الآية ٣٠ - ٣١.

يتكلم حتى مضت له سنتان، وكان زكريا حجة الله عزّ وجلّ على الناس بعد صمت عيسى بسنتين، ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة، وهو صبي صغير، أما تسمع لقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^(١)، فلما بلغ عيسى ﷺ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين أوحى الله تعالى إليه، فكان عيسى الحجة على يحيى، وعلى الناس أجمعين، ولا تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم ﷺ وأسكنه الأرض^(٢).

يكون للإمام ﷺ ذلك التأثير الحاسم على الناس؛ لأن في شخصيته ﷺ تجتمع خمس خصائص ذكرناها للتو، وهي: النموذج العقلي والسلوكي الفاضل، ومنهج حياة في التضحية والإيثار، ولا مكاناً للمعصية في حياته، وليس هناك من يوازيه في العلم والتقوى وبقية الفضائل في زمانه، وهناك تصميم إلهي للإمامة بحيث لا يكون إماماً بالصدفة، أو الحظ.

وباجتماع تلك الخصائص في فكرة عقائدية واحدة، أو حكم شرعي واحد، يكون لكلام الإمام ﷺ ذلك التأثير الحاسم على مجرى فكر المسلمين وتاريخهم.

الإمامة: الدليل الشرعي

كان الباقر ﷺ أفضل أهل زمانه علماً، وعبادةً، وزهداً، وشجاعةً، وتواضعاً، ومعرفةً بالله، وهذا ما شهد به أعداؤه فضلاً عن محبيه وأتباعه ﷺ، والإمامة، على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة، لا تكون إلا للأفضل دون المفضول، بتضافر الأدلة النقلية والعقلية.

(١) سورة مريم: الآية ١٢.

(٢) الكافي: ج ١، ص ٣٨٢.

روى عنه عليه السلام معالم الدين من بقي من الصحابة ووجوه التابعين وفقهاء المسلمين، فقد اعتمدوا عليه في جميع أبواب العبادات والمعاملات، من الطهارة والصلاة الى مناسك الحج التي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ونقلوا عنه تفسير القرآن، وصار عليه السلام علماً تُشدُّ إليه الرحال، كما وردت الإشارة إلى ذلك سابقاً.

النص على إمامة محمد الباقر عليه السلام :

تواترت النصوص الخاصة على إمامة الباقر عليه السلام من طرق النبي صلى الله عليه وآله، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام زين العابدين عليه السلام، وتلك الطرق أغلبها مشهورة بالتواتر أولاً، وإنها قد تم ذكرها في كتب الفريقين ثانياً، فلا أدل على إمامة الباقر عليه السلام من تلك الروايات:

أ - المروي عن النبي صلى الله عليه وآله :

اهتم النبي صلى الله عليه وآله بشكل استثنائي بخلفائه من بعده، فذكر عددهم، وعدد صفاتهم، وأوصى المسلمين بطاعتهم والأخذ منهم، وسأهم بأولي الأمر من أهل بيته عليهم السلام، وفي ذلك روايات:

١ - روى الصحابي الجليل سلمان الفارسي (ت ٣٦هـ)، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله والحسين بن علي عليهما السلام على فخذة إذ تفرس في وجهه وقال صلى الله عليه وآله له: «يا أبا عبد الله أنت سيد من ساداتنا، وأنت إمام ابن إمام أخو إمام، وأبو أئمة تسعة، تاسعهم قائمهم»^(١).

٢ - خبر اللوح المروي عن جابر بن عبد الله (ت ٧٨هـ) الذي هبط به جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله، فأعطاه فاطمة عليها السلام وفيه أسماء الأئمة من بعده، وكان فيه: محمد ابن علي الإمام بعد أبيه^(٢)، كما رواه الإمام الباقر عليه السلام نفسه عن أبيه عن جده عن فاطمة

(١) بحار الأنوار: ج ٣٦ / ص ٢٩١.

(٢) الإرشاد ج ٢ / ص ١٥٩.

بنت رسول الله ﷺ^(١).

٣ - روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قضى الحسين ﷺ قام بالأمر بعده عليّ ابنه ﷺ وهو الحجة والإمام، ويُخرج الله من صلب عليّ ولدًا سمي وأشبهه الناس بي، علمه علمي، وحكمه حكمي، وهو الإمام والحجة بعد أبيه»^(٢).

٤ - روى عبد الله بن عمر قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلفي اثنا عشر خليفة»^(٣).

٥ - سأل جابر بن عبد الله الأنصاري (ت ٧٨هـ) سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله وَمَنْ مِنَ الْأئِمَّةِ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالَ ﷺ: «الحسن والحسين سيديا شباب أهل الجنة، ثم سيد الصابرين في زمانه علي بن الحسين، ثم الباقر محمد بن علي، وستدركه يا جابر، فإذا أدركته فأقرئه عني السلام»^(٤).

٦ - عن جابر بن يزيد الجعفي (ت ١٢٨ أو ١٣٢هـ)، قال: سمعتُ جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: لما أنزل الله عزّ وجلّ على نبيه محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٥)، قلتُ: يا رسول الله عرفنا الله ورسوله، فمَنْ أُولُو الْأَمْرِ الَّذِينَ قَرَنَ اللَّهُ طَاعَتَهُمْ بِطَاعَتِكَ؟ فقال ﷺ: «هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمد بن علي...»^(٦).

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ، الشيخ الصدوق: ج ١ / ص ٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٣٦ / ص ١٩٠.

(٣) تاريخ دمشق: ج ٣٩ / ص ١٩٣.

(٤) إكمال الدين: ص ٢٥٣.

(٥) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٦) ينابيع المودة، القندوزي: ص ٣٦٠.

ب - المروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام :

في وصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام للحسن عليه السلام أنه قال: «يا بُني إنه أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله أن أوصي إليك وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضر كالموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين»، ثم أقبل على ابنه الحسين عليه السلام، فقال: «وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تدفعها إلى ابنك هذا، ثم أخذ بيد علي ابن الحسين عليه السلام، وقال: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي، فأقرئه من رسول الله ومني السلام»^(١).

ج - المروي عن الإمام السجاد عليه السلام :

١ - خبر عثمان بن خالد، قال: «مرض علي بن الحسين عليه السلام مرضه الذي توفي فيه، فجمع أولاده محمداً، والحسن، وعبد الله، وعمر، وزيداً، والحسين، وأوصى إلى ابنه محمد عليه السلام وكنّاه الباقر، وجعل أمرهم إليه»^(٢).

٢ - خبر الزهري (ت ١٢٤ هـ) أنه دخل على علي بن الحسين عليه السلام في مرضه الذي توفي فيه، ثم دخل عليه محمد ابنه فحدثه بالسر فسمعتة عليه السلام يقول: «عليك بحسن الخلق»، فقلت: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله إن وقع من أمر الله مما لا بد منه - ووقع في نفسي أنه صلى الله عليه وآله قد نعى نفسه - فإلى من نختلف بعدك؟ فقال: «يا أبا عبد الله إلى ابني هذا - وأشار إلى ابنه محمد الباقر عليه السلام - فإنه وصيي ووارثي وعيبة علمي»^(٣) ومعدن الحكم وباقر العلم، ثم قال عليه السلام: سوف يختلف^(٤) إليه خلاص شيعتي ويقر العلم عليهم بقراً».

(١) إعلام الوري: ص ٢٠٧.

(٢) مجموعة وفيات الأئمة عليهم السلام، مجموعة من العلماء: ص ١٨٦.

(٣) عيبة علمي: وعاء علمي.

(٤) يُختلف إليه: أي يجتمع حوله.

قال: ثم أرسل ابنه محمداً ﷺ في حاجة له إلى السوق، فلما جاء قلت: يا بن رسول الله هلا أوصيت إلى أكبر أولادك؟ قال: «يا أبا عبد الله ليست الإمامة بالكبر والصغر، هكذا عهد إلينا رسول الله ﷺ، وهكذا وجدناه في اللوح^(١) والصحيفة^(٢)».

قلت: يا بن رسول الله ﷺ فكم عهد إليكم نبيكم أن يكون الأوصياء من بعده؟ قال: «وجدناه في الصحيفة واللوحة اثنا عشر أسامي مكتوبة بإمامتهم وأسامي آبائهم وأمهاتهم، ثم قال: يخرج من صلب ابني محمد سبعة من الأولياء فيهم المهدي عجل الله فرجه»^(٣).

٣ - عن الإمام الصادق ﷺ قال: «لما حضرت علي بن الحسين ﷺ الوفاة أخرج سفظاً أو صندوقاً عنده، فقال: يا محمد إحمل هذا الصندوق، قال: فحمل بين أربعة، فلما توفي جاء إخوته يدعون في الصندوق سهماً، قال: والله ما لكم فيه شيء، ولو كان لكم فيه شيء ما دفعه إلي، وكان في الصندوق سلاح رسول الله ﷺ وكتبه»^(٤).

٤ - عن مالك بن أعين الجهني (ت ١٤٨ هـ)، قال: «أوصى علي بن الحسين ﷺ ابنه محمد بن علي ﷺ فقال: «بني إني جعلتك خليفتي من بعدي لا يدعي فيما بيني وبينك أحداً إلا قلده الله يوم القيامة طوقاً من نار، فاحمد الله على ذلك واشكره، يا بني اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا نزول نعمة إذا شُكرت، ولا بقاء لها إذا كُفرت، والشاكر بشكره أسعد منه بالنعمة التي وجب عليه بها الشكر»، ثم تلا: ﴿وَإِذْ

(١) اللوح: كتابٌ فيه أسماء أهل البيت ﷺ، هدية الساء إلى رسول الله ﷺ، وأهداه ﷺ إلى فاطمة الزهراء ﷺ.

(٢) الصحيفة: صحيفةٌ فيها أسماء أم النبي ﷺ وأمّهات أئمة أهل البيت ﷺ، كانت عند فاطمة الزهراء ﷺ أيضاً.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٣٢ حديث ٩.

(٤) إعلام الوري: ص ٢٦٥.

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿١﴾ «(٢)» .

٥ - عن أبي بصير (ت ١٥٠هـ)، قال أبو جعفر عليه السلام: «كان فيما أوصى أبي إلي أن قال: يا بُنَيَّ إذا أنا متُ فلا يلي غسلِي أحدٌ غيرك، فإن الإمام لا يغسله إلا إمام...» (٣).

الدلالات:

نستقري من الروايات المذكورة أنفاً جملة من الدلالات:

١ - جميع روايات أهل البيت عليهم السلام من النبي عليه السلام وحتى الإمام السجاد عليه السلام، مروراً بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام متضافرة ومتوازية ولا تتقاطع في مضامينها ولا في مفاهيمها، وفي تلك دلالة على صحة متونها، ولو كانت غير ذلك لوجدت فيها اختلافاً وتناقضاً في المضامين، ولكنك لا تجد ذلك أبداً.

٢ - كانت لأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين أوصى بهم رسول الله عليه السلام، وبسبب اصطفتائهم من قبل الله تعالى وإلهامهم العلم، صلاحية ولاية الأمر الذي قالت به الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (٤)، فولاية الأمر بعد النبي عليه السلام ولاية عظيمة لا تُمنح إلا لمن استحقها، وإلى من كان قادراً على أداء حقها.

٣ - ذكر النبي عليه السلام أمرين مهمين للغاية في التنبؤ الصادق بولاية الأمر وهما:

أ- عددهم بعدد صحيح لا لیس فيه، فهم اثنا عشر خليفة (٥).

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٣١ ح ٨.

(٣) كشف الغمة: ج ٢ / ص ٣٥١.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٥) تأريخ دمشق ج ٣٩ / ص ١٩٣.

ب - ذكرهم بأسمائهم^(١)، وهم: علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد ابن علي، وعلي بن محمد، والحسن العسكري، ومحمد المهدي عليه السلام جميعاً، فهؤلاء أئمة أهل البيت عليهم السلام، بعددهم وأسمائهم.

وفي ذلك حجة قاطعة لمن اعترض عليهم، ولم يستطع أعداء أهل البيت عليهم السلام تكذيب الحديث؛ لأنه ورد في مصادر الطرفين، ولم يستطيعوا تزوير أسمائهم أو تبديلها في روايات ملفقة، وقد فاتهم أن يسمّوا خلفاءهم بأسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين ذكرهم النبي صلى الله عليه وآله قبل ولادتهم، لكن الجموح نحو السلطة الدنيوية، والحروب التي خاضها آل سفيان وآل مروان والعباسيون فيما بينهم أسقطت حساباتهم.

فكان لهم الحل الأخير وهو محاربة أئمة أهل البيت عليهم السلام بأشخاصهم الحقيقية، وقتلهم بالسيف أو بالسم، وهذا عين ما حصل.

٤ - إن من دلائل الإمامة الشرعية، بالإضافة إلى الوصية وغسل الإمام من قبل إمام آخر، هو سلوك الإمام عليه السلام العلمي والعبادي، فقد كانوا عليهم السلام أهل علم ودين، وأفضل الناس في زمانهم عليهم السلام، ولا يزالون كذلك بعد انقضاء زمانهم، والإمامة مستمرة في شخص الإمام المهدي عليه السلام، لكننا وبعد أربعة عشر قرناً نعدّهم جميعاً القدوة والمثل الأعلى في العلم والعبادة والتقوى.

٥ - يقول الإمام عليه السلام حول أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله: «وجدناه في الصحيفة واللوحة...»، فما هي الصحيفة؟ وما هو اللوح؟ الذي يشير إليه الإمام عليه السلام، مضمون الصحيفة واللوحة أقرب إلى الأحاديث القدسية بين رب العالمين سبحانه وتعالى وخاتم

الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ عبر جبرئيل عليه السلام، وفيها آيات من الحكمة والعلم، ومنازل النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام في الدين والوجود.

اللوح: كتابٌ فيه أسماء أهل البيت عليه السلام، وهو هديةٌ من رب العالمين إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ عبر جبرئيل عليه السلام، أهداه ﷺ إلى فاطمة الزهراء عليها السلام، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد ﷺ نبيه، ونوره، وسفيره، وحجابه، ودليله، نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين، عظم يا محمد اسمائي، واشكر نعمائي، ولا تجحد آلائي، إني أنا الله لا إله إلا أنا، فمن رجا غير فضلي، أو خاف غير عدلي، عذبتُه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فإياي فاعبد، وعليّ فتوكل، إني لم أبعث نبياً فأكملت أيامه، وانقضت مدته إلا جعلتُ له وصياً، وإني فضلتك على الأنبياء، وفضلتُ وصيك على الأوصياء، وأكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين.

فجعلتُ حسناً معدن علمي، بعد انقضاء مدة أبيه، وجعلتُ حسيناً خازن وحيي، وأكرمتُه بالشهادة، وختمتُ له بالسعادة، فهو أفضل من استشهد، وأرفع الشهداء درجةً، جعلتُ كلمتي التامة معه، وحجتي البالغة عنده، بعترته أثيب وأعاقب، أولهم علي سيد العابدين، وزين أوليائي الماضين، وابنه شبه جده المحمود محمد، الباقر علمي، والمعدن لحكمتي...»^(١) ثم يذكر أئمة أهل البيت جميعاً باسمائهم.

الصحيفة: وهي صحيفة فيها أسماء أمهات النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام، كانت الصحيفة عند فاطمة عليها السلام، وفيها: «أبو القاسم محمد بن عبد المصطفى أمه: آمنة بنت وهب. أبو الحسن علي بن أبي طالب المرتضى أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أبو محمد الحسن بن علي البر، أبو عبد الله الحسين بن علي التقي أمهما: فاطمة بنت محمد، أبو محمد علي بن الحسين العدل: أمه شهربانو بنت يزيدجر، أبو جعفر محمد

ابن علي الباقر أمه: أم عبد الله بنت الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، أبو عبد الله جعفر ابن محمد الصادق أمه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. أبو إبراهيم موسى بن جعفر أمه: جارية اسمها حميدة المصفاة، أبو الحسن علي بن موسى الرضا أمه: جارية اسمها نجمة، أبو جعفر محمد بن علي الزكي أمه: جارية اسمها خيزران، أبو الحسن علي ابن محمد الأمين أمه: جارية اسمها سوسن، أو محمد الحسن بن علي الرفيق أمه: جارية اسمها سمانه وتكنى أم الحسن، أبو القاسم محمد بن الحسن هو حجة الله القائم أمه: جارية اسمها نرجس صلوات الله عليهم أجمعين»^(١).

(٣)

الأفضلية

بحثنا هذا الموضوع في كتابٍ منفصل، ونزيد هنا ونقول بأن الأفضلية هي مجموعة الخصائص الشخصية التي تجعل المشار إليه أفضل الناس في زمانه، فهذا بناءً من أربعة أسس:

الأول: الحكم العقلي بأنه أفضل الناس في زمانه، وهذا الحكم مستندٌ على تقييم شخصيته من قبل مجموعة كبيرة من العقلاء، وقد ذكرنا في الفصل الأول صفاته العلمية عليه السلام من زاوية العين الاجتماعية، ونعرض في هذا الفصل مجموعة أخرى مما قيل في تقييم شخصيته من قبل أهل العلم:

ابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) قال عنه: كان عليه السلام «سيد فقهاء الحجاز، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه»^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ١ / ص ٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٥ / ص ٢٢٧.

محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٥٢هـ) قال عنه: «هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، ومنمّق درّه وواضعه، صفا قلبه، وزكا علمه، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله أوقاته، ورسخت في مقام التقوى قدمه، وظهرت عليه سمات الازدلاف، وطهارة الاجتباء»^(١).

وابن حجر الهيثمي (ت ٨٥٢هـ) قال عنه: «أبو جعفر محمد الباقر، سمي بذلك مِنْ بَقَرِ الأَرْضِ أي شقها، وأنار مَخْبَأَتِهَا ومكامنها، فلذلك هو أظهر من مَخْبَأَتِ كَنُوزِ المعارف، وحقائق الأحكام والحكم واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة، أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل فيه هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه، وزكا علمه وعمله، وطهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلّم عنه ألسنة الواصفين، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحملها هذه العجالة»^(٢).

وإدريس عماد الدين القرشي (ت ٨٧٢هـ) قال عنه: «هو أول من حاز شرف الأصيلين، واجتمعت له ولادة الحسن والحسين، ونشأ على الفضل والطهارة، والرياسة والسيادة والعلم، واحتذى سيرة آبائه الطاهرين، ولم يزل في درجات الفضائل منتقلاً، وللمفاخر السامية متوغلاً»^(٣).

الثاني: يجب أن يكون الأفضل أفضل الناس طول حياته، بحيث لو نازعه شخص آخر في مقامه، سقط المنازع، وبقي الأصل في موضعه الصحيح.

وقد نازعه الكثير من أصحاب المذاهب الفكرية والسياسية، كل على طريقته

(١) مطالب السؤول، محمد بن طلحة: ص ٨٠.

(٢) الصواعق المحرقة: ص ١٢٠.

(٣) عيون الأخبار و فنون الآثار، إدريس القرشي: ص ٢١٨.

وشاكلته، إلا أنه ﷺ نفى عن هذا الدين تحريف المغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجهّال، وكان ﷺ وقد أمته إلى الله تعالى في دينهم وصلاتهم، وإذا كان «العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم»^(١)، كما قال رسول الله ﷺ، أفلا يحق للإمام الباقر ﷺ أن يكون وريثاً ووصياً لمحمد خاتم الأنبياء ﷺ؟

قال الباقر ﷺ: «إن الحكم بن عتيبة، وسلمة، وكثير بن النوا، وأبا المقدام، والتهمار - يعني سالماً - أضلوا كثيراً ممن ضلّ من هؤلاء الناس، وإنهم ممن قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، وإنهم ممن قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)»^(٤).

كان الإمام ﷺ أفضل الناس طول حياته، وسقط المنازعون وبقي الأصل في موضعه، ناظرهم الإمام ﷺ وكشف عدم صحة معتقداتهم، كما سنقرأ في الفصول القادمة بإذنه تعالى، وبقي الإمام الباقر ﷺ الأفضل في الفكر والسلوك طول حياته.

الثالث: ينبغي أن تكون هناك خيارات أخرى يختار منها الإنسان المكلف من هو أفضل، أي لا يمكن أن يلعب الإكراه دوراً في الاختيار، كان زمن الإمام الباقر ﷺ مزدحماً بالعديد من علماء مدرسة الحديث والرأي أمثال: عطاء بن أبي رباح، وعمرو بن دينار، والأوزاعي، وأبو حنيفة، وابن جريج، والحسن البصري ونحوهم، وكذلك عبيد ابن أبي رافع، ونافع، والزهري، وابن المنكدر، والأبرش الكلبي، وعبد الله بن عطاء

(١) بصائر الدرجات: ص ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

(٤) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣٢٦.

المكي، وعبد الله بن نافع الأزرق، ونحوهم.

فكان للإنسان - في ذلك الزمان - مطلق الاختيار، ولكن الناس من الموالين اختاروا الإمام الباقر عليه السلام لأنه يمتلك صفات الإمامة الشرعية.

الرابع: أن يقترن سلوك الأفضل بالكمال بكل ما للحياة الإنسانية من معانٍ على مستوى العلم، والتقوى، والأخلاق، وطاعة الله عزّ وجلّ، فالأفضلية تلهمنا معاني الكمال في الأفكار والأعمال.

كان الباقر عليه السلام عبداً شكوراً، اقتدى بجده رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالأنبيا السابقين عليهم السلام، فكان لسانه لهجاً بذكر الله تعالى، وكان لسان حاله يقول إذا أصبح وأمسى: «اللهم أني أشهدك أنه ما أمسي وأصبح بي من نعمةٍ أو عافيةٍ في دينٍ أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها عليّ حتى ترضى، وبعد الرضا الهنا»^(١)، و«اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك إني عملتُ سوءاً، وظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنك أنت التواب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين»^(٢)، «اللهم لك الحمد كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لك أن تُحمد، وكما ينبغي لكرم وجهك، وعزّ جلالك»^(٣).

ويأتيه أحد محبيه عليه السلام من مسافة بعيدة، وقد ورمت رجلاه من المشي، قائلاً: جعلتُ فداك، جئتُ على نصولي^(٤) عامة الطريق، وما حملني على ذلك إلا حبي لكم، وشوقي

(١) علل الشرائع: ج ١ / ص ٢٨، عنه عليه السلام فيما قاله نوح عليه السلام.

(٢) قصص الأنبياء عليهم السلام - الراوندي: ص ٥٣، عنه عليه السلام في الكلمات التي قال بهن آدم عليه السلام ربه فتاب عليه.

(٣) قصص الأنبياء: ص ٢٧٨، عنه عليه السلام أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام حمد الله بهذه المحامد.

(٤) نصولي من النَّصْل وهي حديدة الرمح والسهم، أي جئتكم أمشي على أصابع قدمي.

إليكم، ثم أطرق ملياً، ثم قال: جعلتُ فداك إني ربما خلوت فأتاني الشيطان فيذكرني ما قد سلف من الذنوب والمعاصي، فكأنه لي آيس، ثم اذكر حبي لكم وانقطاعي.

قال عليه السلام: «يا فلان وهل الدين إلا الحب والبغض»، ثم تلا هذه الآيات الثلاث كأنها في كفه: ﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ...^(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٣)، أتى رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أني أحب الصوامين ولم أصم، وأحب المصلين ولا أصلي^(٤)، ولم لا أحب المتصدقين وما أتصدق، فقال صلى الله عليه وآله: أنت مع من أحببت، ولك ما اكتسبت^(٥).

ونبحث في هذا الفصل: الأفضلية في العلم، والأفضلية في التقوى.

(٤)

الأفضلية في العلم

العلم هو السلطة النهائية للأنبياء والرسل صلى الله عليه وآله ومن إصطفاهم الله تعالى للإمامة، ولا يمكن فصل صفة العلم والمعرفة عن شخصية الإمام صلى الله عليه وآله، فالعلم يعدُّ أهم خصائص الإمامة الشرعية.

(١) سورة الحجرات: الآية ٧ - ٨.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٤) المراد بها النوافل في الصلاة والصيام، والله أعلم.

(٥) الكافي: ج ٨ / ص ٨٠.

الإمامة والعلم:

يقول الباقر عليه السلام: «نحن ولاة أمر الله، وخزان علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله...»^(١)، ويقول عليه السلام أيضاً: «نحن خزان علم الله، ونحن تراجمه وحي الله، ونحن الحججة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض»^(٢)، فما هو ذلك العلم الذي كانوا يحملونه عليهم السلام؟

العلم: هو فهمٌ للأشياء كالحقائق، والصفات، والمهارات، والمعلومات، ويتم عبر: التعلم، أو الاكتشاف، أو الإدراك.

وإذا كانت تلك وسائل المعرفة لا غير، فمن أين جاء علم الإمام عليه السلام في أمور الدين؟ والجواب على ذلك هو أنه إذا لم يكن للإمام عليه السلام أستاذٌ ينهل منه المعرفة، والدين لا يختبر قضايا الاكتشاف، وليس فيه إبداعٌ فلسفي كما هو شأن علم الفلسفة، أصبح لزاماً أن يكون جلّ علمه عليه السلام علماً إلهامياً، وإكتسابياً عن آباءه الطاهرين عليهم السلام ينقلونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فالعلم الجَمّ المختص به عليه السلام الذي ستقرؤه في ثنايا هذا الكتاب يدفعك للاعتقاد بأن هذا العلم إنما هو نورٌ أوقعه الله تعالى في قلبه عليه السلام، كما ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «... ليس العلم بالتعلم، إنما هو نورٌ يقع في قلب من يُريد الله تبارك وتعالى أن يهديه، فإذا أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك»^(٣).

نعم، أخذ الباقر عليه السلام من أبيه الإمام السجاد عليه السلام علوم الدين، ونقل رواياته عن رسول الله صلى الله عليه وآله، لكن فهمه للقضايا الدينية والعقائدية كان فهماً إستثنائياً، وهو فهم

(١) الكافي: ج ١ / ص ١٧٥.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١٩٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ١ / ص ٢٢٦.

ينطبق على فهم المعصوم عليه السلام فقط، وإلا فإن هناك الكثير من الرواة الذين نقلوا عن النبي صلى الله عليه وآله أحاديث كثيرة، إلا أن فهمهم لم يرتقِ إلى فهم الإمام الباقر عليه السلام الشامل أبداً.

آلية المعرفة عند الإمام عليه السلام :

وللمعرفة آلية ينبغي أن يدركها العارف إدراكاً تاماً، فلو مثلنا المعرفة بالماء الكثير في خزان طبيعي ضخم، فتكون الآلية هو طبيعة نقل الماء إلى من إحتاج إليه، مع فهم مسبق لطبيعة المياه ومنشئها وطريقة استخراجها، ونحوه، والمعرفة أعقد من ذلك بكثير، والأمثلة إنها نسوقها من أجل تقريب الموضوع، وعلى أية حال فالمعرفة التي كان يتمتع عليه السلام بها في علوم الدين كانت تشمل ثلاث ركائز:

الأولى: الشمولية في إدراك الموضوع، وهذا يتطلب معرفة تفصيلية بدقائق كل جزئية في قضايا الدين من عقائد، وأحكام شرعية، وأخلاق، وهذا بحرٌ واسعٌ في المعرفة يعجز عن إدراكه معظم الناس، إلا من اصطفاه الله تعالى لذلك الدور الشاق.

في المثال التالي نلاحظ كيفية إدراك الإمام عليه السلام مسألة فقهية واحدة وهي غسل الوجه في الوضوء، فيذكر بدقة حدود الوجه، وحدود مسح الرأس والقدمين:

قال زرارة بن أعين لأبي جعفر الباقر عليه السلام: أخبرني عن حدّ الوجه الذي ينبغي أن يتوضأ، الذي قاله الله عزّ وجلّ؟ فقال عليه السلام: «الوجه الذي قال الله وأمر الله عزّ وجلّ بغسله الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه - إن زاد عليه لم يؤجر وإن نقص منه أثم - ما دارت عليه الوسطى والإبهام من قصاص شعر الرأس إلى الذقن وما جرت عليه الأصبعان مستديراً فهو من الوجه وما سوى ذلك فليس من الوجه».

فقال له: الصدغ^(١) من الوجه؟ فقال: لا، قال له زرارة: رأيت ما أحاط به الشعر؟

(١) الصّدغ: منطقة في الوجه تقع خلف العين وأمام الأذن في كل جانب، والصدغ في اللغة: «ما

فقال: كلما أحاط به من الشعر فليس على العباد أن يطلبوه ولا يبحثوا عنه ولكن يجري عليه الماء، وحدّ غسل اليدين من المرفق إلى أطراف الأصابع، وحدّ مسح الرأس أن تمسح بثلاث أصابع مضمومة من مقدّم الرأس.

وحدّ مسح الرجلين أن تضع كفيك على أطراف أصابع رجليك وتمدّهما إلى الكعبين، فتبدأ بالرجل اليمنى في المسح قبل اليسرى ويكون ذلك بما بقي في اليدين من الندوة من غير أن تجدد له ماء، ولا تردّ الشعر في غسل اليدين ولا في مسح الرأس والقدمين^(١).

يحدد الإمام عليه السلام في هذا النص حدود غسل الرأس، ومسح الرأس والقدمين، تلحظ من خلال قراءة حكم الوضوء هذا أن الإمام عليه السلام واثق من علمه، مدركٌ لجزئيات الموضوع إدراكاً تاماً، خصوصاً عندما سأله عن شمول الصدغ لغسل الوجه فأجاب عليه السلام بالنفي، وهذا يورث المكلف إطمئناناً بصحة المنبع الفقهي والعقائدي الذي أخذ منه حكمه الشرعي.

الثانية: طبيعة الإيصال، أي إيصال العلم إلى المخاطبين بطريقة دقيقة متقنة، فإذا اكتمل العلم، فلا بد من إيصاله إلى المكلفين جميعاً بطريقة تبين أن المخاطب مدركٌ للموضوع تمام الإدراك، وهدفه إيصال تلك المادة بلغة واضحة لا لبس فيها، ولا غموض، ولا مجاز، بل حقيقة ناصعة هدفها الإفهام والتفهم.

ولنلاحظ المثال التالي لنرى كيفية إستثمار الإمام عليه السلام علمه المودّع فيه في شرح طبيعة

بين خط العين إلى أصل الأذن، يقال: صدغْتَ الرجل، إذا حاذيتْ صُدغَهُ بصُدغِكَ في المشي» (معجم مقاييس اللغة - ابن فارس، جذر: ص دغ)، وفي تلك المنطقة عظمٌ على كل جانب يدعى العظم الصدغي من عظام الجمجمة.

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٤.

حركات الجسم في الصلاة:

عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا قمتَ في الصلاة فلا تلتصق قدمك بالأخرى، ودع بينهما فصلاً أصبغاً أقل ذلك إلى شبرٍ أكثره، وأسدل منكبيك، وأرسل يديك ولا تشبك أصابعك، ولتكونا على فخذيك قبالة ركبتك، وليكن نظرك إلى موضع سجودك.

فإذا ركعتَ فصفّ في ركوعك بين قدميك، تجعل بينهما قدر شبر، ومُكِّن راحتيك من ركبتك، وتضع يدك اليمنى على ركبتك اليمنى قبل اليسرى، وبلِّغ بأطراف أصابعك عين الركبة، وفرِّج أصابعك إذا وضعتها على ركبتك.

فإن وصلت أطراف أصابعك في ركوعك إلى ركبتك أجزاءك ذلك، وأحبّ إليّ أن تمكِّن كفيك من ركبتك فتجعل أصابعك في عين الركبة وتفرج بينهما، وأقم صلبك، ومدّ عنقك، وليكن نظرك إلى ما بين قدميك.

فإذا أردت أن تسجد فارفع يديك بالتكبير، وخرّ ساجداً، وأبدأ بيديك فضعهما على الأرض قبل ركبتك تضمهما معاً، ولا تفرش ذراعيك إفتراش السبع ذراعيه، ولا تضعن ذراعيك على ركبتك وفخذيك، ولكن تجنب بمرفقيك، ولا تلتزق كفيك بركبتيك، ولا تدنهما من وجهك، بين ذلك حيال منكبيك، ولا تجعلهما بين يدي ركبتك ولكن تحرفهما عن ذلك شيئاً، وابسطهما على الأرض بسطاً، واقبضهما إليك قبضاً وإن كان تحتها ثوب، فلا يضرك، وإن أفضيت بهما إلى الأرض، فهو أفضل، ولا تفرجهن بين أصابعك في سجودك ولكن أضمهن جميعاً.

فإذا قعدت في تشهدك، فألصق ركبتك بالأرض وفرِّج بينهما شيئاً، وليكن ظاهر قدمك اليسرى على الأرض، وظاهر قدمك اليمنى على باطن قدم اليسرى، وأليّتاك على الأرض، وطرف إبهامك اليمنى على الأرض، وإياك والقعود على قدميك فتتأذى

بذلك، ولا تكون قاعداً على الأرض فتكون إنما قعد بعضك على بعض فلا تصبر للشهد والدعاء»^(١).

هذه اللغة التفصيلية الواضحة الرائعة تعرض أدق التفاصيل المتعلقة بطبيعة حركات الجسم في الصلاة: في الوقوف، والركوع، والسجود، والتشهد، وهدف عرض تلك التفاصيل بلغة سلسة عميقة هو إيصال العلم الديني للمكلف حتى ينجز التكليف بصورة صحيحة، وتلك وظيفة من وظائف الإمام عليه السلام في تعليم الناس أحكام دينهم.

الثالثة: فهم العلل الموضوعية، أي فهم الموضوع بعلمه الواقعية، وهنا بيت القصيد، فقد يحفظ الإنسان العلم حفظاً عن ظهر قلب، وقد يكون آلة لتخزين المعلومات، ولكن الحفظ لوحده لا يؤدي وظيفة الإمام عليه السلام الدينية، بل لابد للإمام المعصوم عليه السلام من فهم علل الأحكام فهماً واقعياً حتى يستطيع الرد على جميع الإشكالات والشبهات والاستفسارات التي ترد حول الأحكام والعقائد، وهذا الفهم هو الذي يميّز «خزان علم الله تعالى»^(٢)، و«حملة كتاب الله»^(٣)، و«تراجمة وحي الله»^(٤) عن غيرهم.

فكان الإمام عليه السلام يُسأل عن علل بعض الأحكام الشرعية، وكان عليه السلام يجيب، كما في الأمثلة التالية:

١ - عن زرارة ومحمد بن مسلم، قالوا: قلنا للإمام الباقر عليه السلام: الحائض والجنب يدخلان المسجد أم لا؟ قال عليه السلام: «الحائض والجنب لا يدخلان المسجد إلاّ مجتازين، إن

(١) تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ٨٣.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١٩٢.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ١٧٥.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ١٩٢.

الله تبارك وتعالى يقول: ﴿... وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا...﴾^(١) ويأخذان من المسجد ولا يضعان فيه شيئاً، قال زرارة: فما بهما يأخذان منه ولا يضعان فيه؟ قال ﷺ: «لأنهما لا يقدران على أخذ ما فيه إلا منه، ويقدران على وضع ما بيدهما في غيره»، قلت: فهل يقرآن من القرآن شيئاً؟ قال: «نعم ما شاء إلا السجدة ويذكران الله على كل حال»^(٢).

بيان: يشرح الإمام ﷺ حرمة مكث الحائض والجُنْب في المسجد، مستدلاً بآية من القرآن الكريم، هنا يستطيعان أداء عملين، لكنهما لا يستطيعان أداء عملين آخرين. فباستطاعتها عمل أمرين:

الأول: إجتياز المسجد والخروج من بابٍ آخر.

الثاني: أخذ شيء من المسجد فقط، كحاجة نسيها أو نحو ذلك.

والعلة في ذلك لأن الشيء المطلوب أخذه موجودٌ في المسجد، فيجوز أخذه منه.

ولا يستطيعان عمل أمرين:

الأول: المكث في المسجد كما ذكرنا، فلا يجوز لهما المكث في المسجد.

الثاني: عدم وضع شيء في المسجد وهما على تلك الحالة، فيقدران وضع ما بيدهما مثلاً في مكان آخر غير المسجد، حتى يغتسلا.

٢ - يُشير زرارة إلى أنه استفهم من الإمام الباقر ﷺ عن صحة صلاة أمير المؤمنين ﷺ حيث صلى أربع ركعات بعد الجمعة لم يفصل بينهن بتسليم؟ فقال: «يا زرارة إن أمير المؤمنين ﷺ صلى خلف فاسق، فلما سلم وانصرف قام أمير المؤمنين ﷺ

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٢) علل الشرائع: ج ١ / ص ٢٧٢.

فصلى أربع ركعات لم يفصل بينهن بتسليم، فقال له رجل إلى جنبه: يا أبا الحسن صلّيت أربع ركعات لم تفصل بينهن؟ فقال: إنها أربع ركعات مشبهات، وسكت، فوالله ما عقل ما قال له^(١).

بيان: أنه لما صلى خلف الفاسق إمامة صلاة الجمعة بركعتين، أعاد الصلاة وهي صلاة الظهر، وأراد إفهام الرجل ببطان الصلاة خلف الإمام الفاسق، لكنه لم يستوعب ما أراه الإمام! وصلاة الإمام علي خلف الفاسق ربما كانت لتقية، أو ربما أقيمت الصلاة وهو في المسجد فكان لا بد له من أدائها في تلك الحالة، ثم أعاد صلاة الظهر منفرداً.

٣ - قال أبو بصير سمعتُ الباقر يقول: «اتقوا المحقرات من الذنوب، فإن لها طالباً، يقول أحدكم: أذنب وأستغفر، إن الله عز وجل يقول: ﴿... وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، وقال عز وجل: ﴿... إِنَّهَا إِنَّ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٣)»^(٤).

٤ - عنه: «ثلاثٌ من أشد ما عمل العباد: إنصاف المؤمن من نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كل حال، وهو أن يذكر الله عز وجل عند المعصية بهم، فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٣٧٤.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

(٣) سورة لقمان: الآية ١٦.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٢٧٠.

مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١١﴾ (٢).

٥ - عن محمد بن مسلم قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام، عن قول الله تعالى: ﴿... فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾ (٣)، قال عليه السلام: «يا محمد إن الله اشترط على الناس شرطاً، وشرط لهم شرطاً، فمن وفى لله وفى الله له»، قلت: فما الذي اشترط عليهم، وما الذي شرط لهم؟ قال عليه السلام: «أما الذي اشترط عليهم، فإنه قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (٤)، وأما ما شرط لهم فإنه قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ (٥)، قال: يرجع لا ذنب له» (٦).

٦ - قال الباقر عليه السلام: «أما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٧)، فإنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام حين بذل نفسه لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة اضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما طلبته كفار قريش» (٨).

٧ - عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا ينبغي لمن أعطى الله شيئاً أن يرجع فيه، وما لم يعط الله وفي الله، فله أن يرجع فيه، نحلة كانت أو هبة، جيزت أو لم تجز، ولا يرجع الرجل فيما يهب لامرأته، ولا المرأة فيما تهب لزوجها، جيزت أو لم تجز، أليس الله يقول:

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

(٢) الخصال - الشيخ الصدوق: ص ١٣١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٠٣.

(٦) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٩٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

(٨) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١٠١.

﴿... وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا...﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾^(٢) «(٣)».

٨ - عن أبي بصير قال: سألت الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَاتَمَتْهَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾^(٤)، قال عليه السلام: «من استخرجها من الكفر إلى الإيمان»^(٥).

٩ - عن أحد أصحابه عليه السلام قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(٦)، قال: «هي الفريضة»، قلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^(٧)، قال: «هي النافلة»^(٨).

١٠ - عن الباقر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله والإستغفار حصنين لكم من العذاب، فمضى أكبر الحصنين، وبقي الإستغفار، فاكثروا منه فإنه منجاة للذنوب، وإن شئتم فاقرأوا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٩)»^(١٠).

١١ - عنه عليه السلام قال: في قول الله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٤.

(٣) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١١٧.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٥) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣١٣.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ٩.

(٧) سورة المعارج: الآية ٢٣.

(٨) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٢٤٠.

(٩) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(١٠) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ٥٤.

الله... ﴿١﴾، قال: «والله ما صلّوا لهم ولا صاموا، ولكن أطاعوهم في معصية الله» ﴿٢﴾.

١٢ - عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ...﴾ ﴿٣﴾؟ قال عليه السلام: «تبدل خبزة نقية يأكل الناس منها، حتى يفرغ من الحساب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٤﴾» ﴿٥﴾.

١٣ - في الرواية، قال له الأبرش الكلبي: بلغني أنك قلت في قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ...﴾ ﴿٦﴾، أنها تبدل خبزة؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «صدقوا تبدل الأرض خبزة نقية في الموقف يأكلون منها»، فضحك الأبرش، وقال: أما لهم شغلٌ بها هم فيه عن أكل الخبزة؟ فقال عليه السلام: «ويحك في أي المنزلتين هم أشدّ شغلاً وأساء حالاً، إذا هم في الموقف أو في النار يعذبون؟»، فقال: لا في النار، فقال عليه السلام: «ويحك وإن الله يقول: ﴿لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ * فَالْثُّونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ ﴿٧﴾، قال: فسكت» ﴿٨﴾.

كان الإمام الباقر عليه السلام على إدراك تام بالعلل المتعلقة بالمواضيع المطروحة في الأمثلة التي ذكرناها، بل في كل موضوع ديني كان يُطرح عليه عليه السلام، وفهم العلل الموضوعية هو الذي يميّزه عليه السلام عن بقية الرواة من الذين لا يفقهون علل الأحكام الشرعية أو

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٢٠٨.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٨.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ٢٣٧.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

(٧) سورة الواقعة: الآية ٥٢ - ٥٥.

(٨) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ٢٣٧.

العقائدية، وفهم علل الأحكام ليس متاحاً لأي إنسان، بل هي خصوصية لترجمان وحي الله ﷺ الذي يترجم لنا معاني الأحكام، والعقائد في الدين.

خصائص علم الإمام الباقر ﷺ :

كانت كل معلومة دينية يقدمها الإمام ﷺ للناس تتضمن الخصائص الرئيسية الأربع للمعرفة:

الأولى: كونها حقيقة صادقة، وأقصد بكونها حقيقة صادقة أنها ليست محاكاة لأفكار معلم آخر، ولا إقتباساً لمفكر أو فيلسوف، بل هي حقائق صادقة صادرة عن رسول الله ﷺ، وأنها ليست معارف خاضعة للتجربة، أي لا نستطيع أن نضع الحقائق الدينية في المختبر ونفحصها كما نفحص المادة، وبذلك ينبغي أن تكون المعرفة الدينية معرفة قطعية صادرة إبتداءً من مصدر موثوق غاية الوثوق.

ويشير قول الباقر ﷺ الى هاجس النبوة حول ذلك، فيقول: «قرأت في كتاب لعليّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: سيكذب عليّ كاذبٌ، كما كُذِبَ علي من كان قبلي، فما جاءكم عني من حديث وافق كتاب الله فهو حديثي، وما خالف كتاب الله فليس من حديثي»^(١).

ولنضرب على ذلك مثلاً: سأل رجلُ الإمام ﷺ عن صلاة الضحى؟ فقال الإمام الباقر ﷺ: «أول من صلاها قومك إنهم كانوا من الغافلين فيصلّونها ولم يصلّها رسول الله ﷺ، إن علياً ﷺ مرَّ على رجلٍ وهو يصلّيها، فقال علي ﷺ: ما هذه الصلاة؟ فقال: أدعها يا أمير المؤمنين؟ فقال ﷺ: أكون أنهي عبداً إذا صلى»^(٢).

بيان ذلك: أن صلاة الضحى لم يشرعها الإسلام، ولم يصلّها رسول الله ﷺ،

(١) قرب الإسناد: ص ٤٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق: ج ١ / ص ٥٦٦.

ومفهومها أن وقت الضحى للعمل وكسب الرزق، والعمل عبادة أيضاً، ولكن عبادة من نوع آخر، وتلك حقيقة صادقة عن رسول الله ﷺ، وعندما استفسر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، مستنكراً، عن ذلك الذي كان يصلي صلاةً ابتدعها وقت الضحى، أجابه المصلي: هل أترك الصلاة؟ فأجابه الإمام عليه السلام جواباً محكماً وضع فيه خطأً واضحاً بين المطلق والمقيّد، فالإطلاق هو أن لا تنهى عبداً إذا صلى، والتقييد هو أن رسول الله ﷺ لم يشرع صلاةً وقت الضحى، ولم يصلها ﷺ، وبمعنى ثالث كان على المكلف هنا أن يأخذ بالمقيّد وأن لا يستحدث صلاةً لم يأمر بها رسول الله ﷺ.

الثانية: لها تبرير عقلائي، فهي ليست من باب الوهم أو الأسطورة، يقيناً أن الأحكام الشرعية والعقائد الصحيحة متطابقة تماماً مع العقل الإنساني السليم، فقد خلق الله تعالى العقل وجعله أداةً للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، وأغلب الأحكام التي جاءت بها الشريعة مفهومة لدى أغلب الناس، ما لم يتمكن الشك والوهم من السريان إليها، والإسلام حارب الشك في أمرين: العقيدة، والعبادة، ووضع الضوابط الشرعية في التعامل مع الشك في كليهما.

أ - عدم الشك في العقيدة: أن النهي عن الكلام في ذات الله تعالى له تبرير عقلائي، وهو عدم إستيعاب الإنسان لعالم ما وراء عالم الغيب، وعدم الإستيعاب العقلي ذلك يورث الشك، وفي ذلك روايات مهمة، منها:

١ - قال الباقر عليه السلام: «يا فلان إياك والخصومات، فإنها تورث الشك، وتُحبط العمل، وتردي صاحبها، وعسى أن يتكلم بالشيء لا يغفر له، يا فلان إنه كان فيما مضى قوم تركوا علم ما وكتّلوا به، وطلبوا علم ما كفوه، حتى انتهى الكلام بهم إلى الله فتحيروا، فإن كان الرجل ليدعى من بين يديه، فيجيب من خلفه، ومن يدعى من خلفه فيجيب

من بين يديه»^(١).

٢ - قال ﷺ: «تكلّموا فيما دون العرش ولا تكلّموا فيما فوق العرش، فإن قوماً تكلّموا في الله فتاهوا، حتى كان الرجل ينادى من بين يديه فيجيب من خلفه»^(٢)، و«تكلّموا في خلق الله، ولا تتكلّموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلاّ تحيراً»^(٣)، و«إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه»^(٤)، و«تكلّموا في كل شيءٍ ولا تكلّموا في الله»^(٥)، و«اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكروا ذاته، فإنكم لا تذكرون منه شيئاً إلاّ وهو أعظم منه»^(٦).

٣ - سئل أبو جعفر ﷺ: «أيجوز أن يقال لله «أنه موجود»؟ قال ﷺ: «نعم، تخرجه من الحدّين: حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه»^(٧).

٤ - وقال ﷺ أيضاً: «دعوا التفكر في الله، فإن التفكر في الله لا يزيد إلاّ تيهاً؛ لأن الله تعالى لا تدركه الأبصار، ولا تبلغه الأخبار»^(٨)، و«كان الله عزّ وجلّ ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بها كونه، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه»^(٩).

وبالإجمال، فإن النهي عن التكلم في ذات الله متطابق مع العقل الإنساني؛ لأن

(١) المحاسن ص ٢٣٨.

(٢) المحاسن ص ٢٣٨.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٩٢.

(٤) الكافي: ج ١ ص ٩٣.

(٥) التوحيد - الصدوق: ص ٤٥٥.

(٦) التوحيد: ص ٤٥٥.

(٧) المحاسن: ص ٢٣٨.

(٨) التوحيد: ص ٤٥٧.

(٩) الكافي: ج ١ / ص ١٠٧.

البحث في موضوع كهذا لا يُزيد الإنسان إلا تيهًا وحيرةً وضلالاً، وهذا ما لا يريده الدين، بل ما يُريده الدين هو الإيمان والقطع واليقين بوجود الله تعالى، وبصفاته التي وصفها لنا، وهي وجوهٌ لمباني العقل في الإسلام.

ب - عدم الشك في العبادة: فإذا كثر الشك مثلاً في مفردات الأحكام الشرعية والعقائد تزعزع المبدأ، وانهرز البنيان، ولذلك حارب الإسلام الشك والوهم بكل قوة؛ لأن الأصل في الإيمان والعبادة، هو الإطمئنان القلبي، ومن أمثلة محاربة الإمام (ع) للشك في العبادة المثال التالي:

عن الإمام الباقر (ع) قال: «إذا كثر عليك السهو، فامض في صلاتك فإنه يوشك أن يدعك إنما هو من الشيطان»^(١)، فكثرة الشك والسهو من الشيطان، يُريد أن يوقع المصلي في مطبات عدم الإطمئنان في العبادة، وهذا الأمر يقوله الدين ويمضيه العقل بالمطابقة.

الثالثة: فيها معلّمٌ من معالم الإيمان بها، ولم يكن علمُ الإمام الباقر (ع) ليخرج عن إطار معاني الإيمان أبداً، بل كان هدفه من العلم والتعليم، والمعرفة والتعريف، والبلاغ والتبليغ هو دفع الإنسان نحو طريق الفضائل في معرفة ربه، وطاعته، وعبادته آناء الليل، وأطراف النهار، وإدبار النجوم، وإدبار السجود، مثال ذلك:

عن زرارة، قلتُ لأبي جعفر (ع): [ما معنى] ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(٢)؟ قال: «يعني صلاة الليل»، قلت له: ﴿... وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾^(٣)؟ قال: «يعني تطوعُ بالنهار»، قلت له: ﴿وَمِنْ

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٣٥٩.

(٢) سورة الزمر: الآية ٩.

(٣) سورة طه: الآية ١٣٠.

اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ»^(١)؟ قال: «ركعتان قبل الصبح»، قلت: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾^(٢)؟ قال: «ركعتان بعد المغرب»^(٣).

ففي هذا المثال يلخص الإمام عليه السلام طبيعة النوافل اليومية، وهي: صلاة الليل، ونوافل النهار، ونافلة الصبح، ونافلة المغرب، ومفهوماً يحثهم على التواصل مع الله تعالى عبر أداء صلاة التطوع أو أداء النوافل، وبهذا الأسلوب نفهم أن الإمام عليه السلام كان يعلم الناس أرقى معالم الإيمان بالله.

وعنه عليه السلام في حديثٍ عن آدم عليه السلام يقول تعالى له بعد خلقه: «... وإنما خلقت الجن والإنس ليعبدوني، وخلقْتُ الجنة لمن عبدني وأطاعني منهم واتبع رسلي ولا أبالي، وخلقْتُ النار لمن عصاني ولم يتبع رسلي ولا أبالي، وخلقْتُك وخلقْتُ ذريتك من غير فاقة بي إليك وإليهم، وإنما خلقتك وخلقْتهم لأبلوك وأبلوهم أيكم أحسن عملاً في دار الدنيا، في حياتكم وقبل مماتكم.

كذلك خلقت الدنيا والآخرة، والحياة والموت، والطاعة والمعصية، والجنة والنار، وكذلك أردتُ في تقديري وتدبيرِي، وبعلمي النافذ فيهم، خالفتُ بين صورهم، وأجسامهم، وأعمارهم، وأرزاقهم، وطاعتهم، ومعصيتهم، فجعلتُ منهم: السعيد، والشقي، والبصير، والأعمى، والقصير، والطويل، والجميل، والقبيح، والعالم، والجاهل، والغني، والفقير، والمطيع، والعاصي، والصحيح، والسقيم، ومن به الزمانة، ومن لا علةَ به فينظر الصحيح إلى ذوي العاهة فيحمدني على ما عافيته، وينظر الذي به العاهة إلى الصحيح فيدعوني، ويسألني العافية، أو يصبر على بلائي، فأتيته جزيل

(١) سورة الطور: الآية ٤٩.

(٢) سورة ق: الآية ٤٠.

(٣) الكافي: ج ٣/ ص ٤٤٤.

عطائي، وينظر الغني إلى الفقير فيحمدني ويشكرني، وينظر الفقير إلى الغني فيدعوني ويسألني، وينظر المؤمن إلى الكافر فيحمدني على ما هديته، فلذلك خلقتهم لأبلوهم في السَّراء والضَّراء، وفيما عافيتهم، وفيما ابتليتهم وفيما أعطيتهم، وفيما منعتهم.

وأنا الله الملك القادر، ولي أن أمضي جميع ما قدّرت على ما دبرت، ولي أن أغيّر من ذلك ما شئت إلى ما شئت، وأقدّم من ذلك ما أخرت وأؤخر من ذلك ما قدّمت، وأنا الله الفعّال لما أريد، لا أسأل عما أفعل، وأنا أسأل خلقي عما هم فاعلون^(١).

وفي كل هذا العلم الجَمَّ معالمٌ للإيمان، فهي ثقافة دينية موجهة لعبادة الخالق عزّ وجلّ، وهداية الإنسان نحو طريق التفكير بالوجود وخالقه.

الرابعة: ليست علماً تجزيئياً، فلا ينبغي أن يكون علمُ الإمام ﷺ علماً تجزيئياً، أي إنه يعلم في شيء ولا يعلم في شيء آخر، فلا بد أن يكون علمه ﷺ علماً عاماً في كل ما يتعلق بالدين من أمور، وتلك من أهم خصائص الإمامة الشرعية الحقّة.

ذلك أن الإنسان جُبلَ على تعلم العلم بصورة تجزيئية تدريجية، ولذلك نلاحظ أن علماء الطبيعة متجزئون في العلم، أي لديهم إختصاصات معينة، وعلمهم ليس علماً كلياً تاماً، مثلاً إستحدث الإنسان إختصاصات في علم الطب كالباطنية، والجراحة، والكسور ونحوها، واستحدث إختصاصات في الهندسة كالهندسة المدنية، والميكانيكية، والمعمارية ونحوها، وحاول بناء إختصاصات في العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التربية، ونحوها.

بينما يكون علم الإمام ﷺ علماً شاملاً جامعاً معارف الدين كلها من عقائد، وأحكام، وأخلاق، ومنهج حياة، ولا سبيل إلى التوسع في إختصاص وترك إختصاص

(١) الإختصاص - الشيخ المفيد: ص ٣٣٢.

آخر في علوم الدين، بل لا بد من الإحاطة بعلم ديني شامل لجميع الجزئيات والمصاديق. وإذا كانوا «الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض»^(١)، فلا بد أن تكون علومهم ﷺ علوماً تامةً كاملةً، وليست علوماً تجزئيةً تخصصيةً في أمر دون آخر.

لاحظ الشمولية والعمق في قول الإمام الباقر ﷺ عندما سُئل عن الزهد، فقال ﷺ: «الزهد عشرة أشياء: فأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإن الزهد في آية من كتاب الله عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾»^(٢)»^(٣).

فقد ربط ﷺ هنا بين الزهد، والورع، واليقين، والرضا ضمن درجات متفاوتة، ثم أجمال الزهد في آية واحدة، وهي: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾^(٤)، وهو الزهد العقلي عن الحياة، أي أننا نفهم أنه ﷺ أراد أن يقول أن الزهد الحقيقي هو زهد العقل الإنساني لزينة الدنيا وزخارفها، وإذا رفض العقل المؤمن زينة الدنيا وشهواتها، فإنه قد فتح الباب للورع واليقين والرضا، وعندها يُهدَّب سلوك الإنسان، وتلك شمولية في فهم الدين من قبل الإمام ﷺ.

ولاشك أن العلم الواقعي هو أمضى سلاح بيد الإمام المعصوم ﷺ، ولذلك منحه الله تعالى تلك الملكة في إستيعاب العلم، وحسن بثه بين الناس، وفضيلة تطبيقه على نفسه بدايةً، وقد قال ﷺ: «نحن خزنة علم الله، ونحن ولاة أمر الله، بنا فُتِحَ الإسلام، بنا

(١) شرح أصول الكافي: ج ٥ / ص ١٧١.

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٣) معاني الأخبار: ص ٢٥٢.

(٤) سورة الحديد: الآية ٢٣.

يختمه، ومنا تعلموا، فوالله الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما علم الله في أحد إلا فينا، وما يدرك ما عند الله إلا بنا...»^(١).

حتى أن الله تعالى سلبه ﷺ في بعض الأحيان السلاح المادي، وحفظ له السلاح العلمي؛ لأن العلم أقوى سلطة على الأرض، ولم يوفق أبو تمام الشاعر حينها قال:

السيفُ أصدقُ انباءً من الكتبِ في حده الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ
مع أن قوله فُسِّرَ بأن النصر الذي ظفر به العرب في عمورية سنة ٢٢٣هـ يشهد بأن السيف أصدق من كتب المنجمين، إلا أن إطلاق لفظ الكتب يدلُّ على العلم والمعرفة، وليست بالضرورة علم التنجيم الذي حرّمه الإسلام، وعلى أية حال، فإنَّ قوله كان يمثل نصف الحقيقة، وليست الحقيقة كلها، فالحقيقة أن كلمات الإمام ﷺ وهي مسطورة في كتب العلم والمعرفة تبقى في العقول والقلوب على مدى الدهور والأجيال، ولا يعمل السيف بالإنسان عمل الكلمات التامات، ولو وصلت كلمات الإمام الباقر ﷺ - إفتراضاً - إلى عمورية في ذلك الوقت قبل وصول السيف، لبقى الإسلام وبقيت الكلمات لحد اليوم، ولكنك ترى أن لفعل السيف أمداً محدوداً، وزمناً منقوصاً، ولكن لا حدَّ زمنيٍّ يُنهي الكلمات التامات للأطهار من بيت النبي ﷺ.

مصاديق علم الإمام ﷺ :

تكشف القطع التالية ألواناً جمّة من العلم الديني والمعرفة السبوية التي كان يتحلّى بها الباقر ﷺ، فمع بلاغته ﷺ ودقة تصويره للمراد نلحظ عمق المعاني التي حملتها تلك النصوص، في قضايا الأخلاق، والطاعة، وحسن التعامل مع الناس، والولاية، والتمسك بكتاب الله، والنفس الإنسانية، وفيها يخاطب الإمام الباقر ﷺ أحد تلامذته

(١) بصائر الدرجات: ص ٨٢.

وهو جابر بن يزيد الجعفي، ويقول:

١ - «... أوصيك بخمسة: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كذبت فلا تغضب، وإن مدحت فلا تفرح، وإن دُمت فلا تجزع، وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك، فسقوطك من عين الله جلّ وعزّ عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك، فثوابٌ اكتسبته من غير أن يتعب بدنك.

واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً: حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوءٍ لم يزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن إعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فاثبت وأبشر، فإنه لا يضرّك ما قيل فيك، وإن كنت مبائناً للقرآن فإذا الذي يغرك من نفسك: إن المؤمن معنيٌّ بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرةً يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله، ومرةً تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعهه الله، ويقيل الله عشرته فيتذكر، ويفزع إلى التوبة والخافة، فيزداد بصيرةً ومعرفةً لما زُيد فيه من الخوف، وذلك بأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١).

استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفيّ التزيّن بحاضر الحياة، وتوقّ مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة التقوى باسترشاد العلم، واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

عظيم الحرص بإيثار القناعة.

واستجلب حلاوة الزّهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسدّ سبيل العُجب بمعرفة النفس، وتخلّص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب^(١)، وتخلّص إلى إجمام القلب بقلّة الخطأ، وتعرّض لرقّة القلب بكثرة الدّكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن، وتحزّز من إبليس بالخوف الصادق، وإيّاك والرّجاء الكاذب، فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزيّن لله عزّ وجلّ بالصدق في الأعمال، وتحبّب إليه بتعجيل الإنتقال.

وإيّاك والتسوية فإنه بحرٌّ يغرق فيه المهلكى، وإيّاك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب، وإيّاك والتواني فيما لا عذر لك فيه، فالإيه يلجأ النادمون، واسترجع سالف الذنوب بشدّة التّدم، وكثرة الاستغفار، وتعرّض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء والمناجاة في الظلم، وتخلّص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم، واطلب بقاء العزّ بإماتة الطمع، وادفع ذل الطمع بعزّ اليأس، واستجلب عزّ اليأس بعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البُغية عند إمكان الفرصة ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان، وإيّاك والثقة بغير المأمون فإن للشر ضراوةً كضراوة الغذاء.

واعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء معين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك

(١) إجمام القلب: ترويح القلب، وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «أجمأوا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان» ربيع الأبرار - الزمخشري ج ١ ص ١.

الدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالخزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الخزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنب، ورضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد، ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كردّ الغضب، ولا معصية كحب البقاء، ولا ذلّ كذلّ الطمع، وإياك والتفريط عند إمكان الفرصة، فإنه ميدانٌ يجري لأهله بالخسران»^(١).

٢ - وكان من علمه ﷺ ما كان يقوله في قنوته من صفاتٍ لله عزّ وجلّ وحسن تدبيره للخلق، ومع كونه دعاءً في قنوت، إلا أنه يحمل مضامين علمية عميقة، كان ﷺ يقول في القنوت: «بمّتك وكرمك يا من يعلم هواجس السرائر ومكامن الضمائر، وحقائق الخواطر، يا من هو لكلّ غيبٍ حاضر، ولكلّ منسيٍّ ذاكر، وعلى كلّ شيءٍ قادر، وإلى الكلّ ناظر، بَعْدَ الْمَهْلِ^(٢) وَقُرْبِ الْأَجْلِ، وَضَعْفِ الْعَمَلِ، وَأَرْبِ الْأَمَلِ^(٣)، وَأَنْتَ يَا اللَّهُ الْآخِرَ كَمَا أَنْتَ الْأَوَّلُ، مَبِيدَ مَا أَنْشَأْتَ، وَمَصِيرَهُمْ إِلَى الْبَلَى، وَتَقْلِدَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَمَحْمَلَهَا ظُهُورَهُمْ إِلَى وَقْتِ نَشُورِهِمْ مِنْ بَعَثَةِ قُبُورِهِمْ، عِنْدَ نَفْخَةِ الصُّورِ، وَانْشِقَاقِ السَّمَاءِ بِالنُّورِ، وَالخُرُوجِ بِالنُّشْرِ إِلَى سَاحَةِ الْمَحْشَرِ، لَا تَرْتَدِ إِلَيْهِمْ أَبْصَارُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءَ، مَرَاتِمِينَ فِي غَمَّةٍ مِمَّا أَسْلَفُوا، وَمَطَالِبِينَ بِمَا احْتَقَبُوا، وَمَحَاسِبِينَ هُنَاكَ عَلَى مَا

(١) تحف العقول: ص ٢٨٤ - ٢٨٦.

(٢) الْمَهْلُ: التقدّم في الخير، ومعنى بَعْدَ الْمَهْلِ أي قربت فرصة عمل الخير من الانتهاء، وسوف يبدأ الحساب قريباً.

(٣) أَرْبِ الْأَمَلِ: الأرب: الحاجة الشديدة، والمعنى: اشتدت الحاجة إلى الأمل.

ارتكبوا، الصحائف في الأعناق منشورة، والأوزار على الظهر مأزورة^(١)، لا انفكاك ولا مناص ولا محيص عن القصاص، قد أقحمتهم الحجة، وحلّوا في حيرة المحجّة^(٢)، وهمس الضجة^(٣)، معدول بهم عن المحجة، إلا من سبقت له من الله الحسنى، فنجنا من هول المشهد وعظيم المورد، ولم يكن ممن في الدنيا تمرد، ولا على أولياء الله تعند، ولهم استعبد، وعنهم بحقوقهم تفرّد.

اللهم فإنّ القلوب قد بلغت الحناجر، والنفوس قد علت التراقي، والأعمار قد نفدت بالانتظار لا عن نقص إستبصار، ولا عن إتهام مقدار، ولكن لما تعاني من ركوب معاصيك، والخلاف عليك في أوامرك ونواهيك، والتلعب بأوليائك، ومظاهرة أعدائك، اللهم فقرب ما قد قرب، وأورد ما قد دنا، وحقق ظنون الموقنين، وبلغ المؤمنين تأميلهم من إقامة حقتك، ونصر دينك، وإظهار حجتك^(٤).

الدلالات:

ما ذكّر هي نماذج من علم الإمام الباقر^(ع)، وهي نماذج تعرض - بلا شك - مقداراً يسيراً من علمه^(ع)، وتكشف نظرتة نحو الحياة، والإنسان، والخالق عزّ وجلّ، وطلب الحاجة منه وحده تعالى.

١ - في الحديث الأول يوصي الإمام^(ع) أحد أصحابه وصايا أخلاقية في أمور ثلاثة متعلّقة بالإنسان، وهي: النفس، والعقل، والجسد.

فعلى صعيد النفس الإنسانية يدعو إلى مجاهدة نفسه، ومخالفة هواه، ويدعوه إلى

(١) مأزورة: محمولة.

(٢) حيرة المحجّة: المحجة هي الغاية والمقصد، والمعنى تحيرهم في إبتغاء الطريق.

(٣) همس الضجة: الضجة هي الجلبة والضوضاء، وكأن همساتهم تحدّث ضجيجاً.

(٤) مهج الدعوات: ص ٥٢.

الاعتدال في طلب الرزق، والإكثار من طاعة الله تعالى، والمداومة على الندم، وعلى كثرة الإستغفار، ويلخصه بمفهوم جامع مانع، وهو: غنى النفس.

وعلى صعيد العقل يدعو إلى تحكيم كتاب الله تعالى، وإلى سلوك هديه، وإلى عدم الإنزلاق في الهوى، وإلى تقليل فرص الخطأ، وإلى عدم التسويف والغفلة، وعدم الثقة بغير المأمون، والاجتهاد بأن يكون له نور عقلي يمثله بنور اليقين في الله تعالى.

وعلى صعيد الجسد، يدعو إلى طلب راحة البدن بترويح القلب، ودفع ذل الطمع في الدنيا، واستثمار صحة البدن وقت الشباب بالإشتغال بطاعة الله تعالى.

٢ - وفي الحديث الثاني يذكر الإمام عليه السلام - وهو في قنوته وخشوعه لله تعالى - بعضاً من صفاته عز وجل، فهو الله الذي يعلم ما في سريرة الإنسان، وما في خاطره، وهو الحاضر في كل غيب، والقادر على كل شيء، وهو الأول والآخر، وهو الباقي في الأزل والأبد، لا يحده زمان ولا مكان، فهو قبل كل شيء وبعد كل شيء، وهو وحده القادر على محاسبة الظالمين وعقابهم، ثم يعرض شيئاً من ظلم حكام زمانه عليه السلام، ويستنجد بالله تعالى في لإظهار دينه، ونصر حجته.

وبالإجمال، فإن في هذين الحديثين منابع من الحكمة والموعظة ما لا يخفى على العارفين بأحاديثهم عليه السلام.

(٥)

الأفضلية في التقوى

التقوى هي تجنب المعاصي وأداء الفرائض، والمتقي يقي نفسه عذاب الله تعالى، قال عز وجل: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١)، فلا بد - وقبل البحث

(١) سورة المائدة: الآية ٧.

في تقوى الإمام (عليه السلام) - من بحث التقوى في اللغة والقرآن والعقل، ولا شك أن التقوى صفة أساسية من صفات الإمام (عليه السلام)؛ لأن الناس تقتدي به أولاً، ولأن التقوى تكشف عن قربته من الله تعالى، وصدقه فيما يدعيه ثانياً.

التقوى: لو قلنا أن الإمام الباقر (عليه السلام) كان في زمانه أكرم الناس عند الله تعالى، لكان كلامنا هذا صادقاً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١)، فما هي التقوى التي عدّها القرآن الكريم من أهم ميزات الكرامة عنده؟

التقوى في اللغة :

في «لسان العرب»: «توقى واتقى بمعنى واحد، وقد توقّيتُ واتقيت الشيء وتقيته وأتقيه وتقاء: حذرته، والأسمُ التقوى، يقول تعالى: ﴿... هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٢) أي هو سبحانه وتعالى أهل أن يتقى عقابه، وأهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته»^(٣).

ويقال في اللغة: كان رجلاً ورعاً شديداً التقوى: أي شديد التنسك والعبادة ومخافة الله، وقد ورد في المأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله): «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى»^(٤)، والتقوى: الخشية والخوف، وتقوى الله: خشيته وإمثال أمره وإجتنابه نهيه.

وطالما كان معنى التقوى في الإسلام هو خشية الله وإمثال أوامره والانتهاز عن نواهيه، عندها وَضَعَ المتقي حاجباً بينه وبين ما يُغضب الله تعالى، بحيث أن الله يراه حيث

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة المدثر: الآية ٥٦.

(٣) لسان العرب: ج ١٥ / ص ٤٠٢.

(٤) نيل الأوطار: ج ٥ / ص ١٦٤.

أمره في الطاعة، ولا يراه حيث نهاه في المعصية، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١)، قوله عليه السلام: «هو الذنب يهيم به العبد فيتذكر [الله] فيدعه»^(٢).

التقوى في القرآن الكريم:

عرض القرآن الكريم الكثير من صفات المتقين، وقد أمر المؤمنين بالتقوى في جميع الأحوال، بمعنى أنه أراد أن تكون التقوى منهج حياة الإنسان في عدم معصية الله، وفي أداء طاعته تعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ...﴾^(٣) أي أطيعوه ولا تعصوه، في كل مورد من موارد الحياة، وفي كل لحظة من لحظات الزمان، ثم فصل النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام في ذلك.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «المتقون سادة، والفقهاء قادة، والجلوس إليهم عبادة»^(٤).

وعن الإمام علي عليه السلام قال: «اتقوا الله بعض التقى وإن قل، واجعل بينك وبين الله سترًا وإن رُقَّ»^(٥).

وعن الصادق عليه السلام قال: «ما نقل الله عز وجل عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٧ / ص ٢٨٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٢٢٩.

(٥) بحار الأنوار: ج ٦٧ / ص ٢٨٤.

إلا أغناه من غير مال، وأعزه من غير عشيرة، وآنسه من غير بشر»^(١)، سئل الامام الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...﴾^(٢)، قال عليه السلام: «يُطَاعُ فَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرُ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرُ فَلَا يُكْفَرُ»^(٣).

أجمل الله تعالى طلبه بعدم المعصية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤)، أي اتقوا غضب الله وسخطه، وهو أعظم ما يتقيه الإنسان في حياته الدنيوية.

وللتقوى ثمرات دنيوية وأخروية أهمها رعاية الخالق عز وجل لهؤلاء المتقين، وإثابتهم بأحسن الثواب في الآخرة، فهو تعالى لا يتركهم لوحدهم: ﴿... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥)، ويحبهم: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٦)، ويكفر سيئاتهم: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾^(٧)، ويمنحهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكْفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ...﴾^(٨)، ويمنح لهم الأمان: ﴿... فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٧٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٣) معاني الأخبار: ص ٢٤٠.

(٤) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

(٦) سورة آل عمران: الآية ٧٦.

(٧) سورة الطلاق: الآية ٥.

(٨) سورة الطلاق: الآية ٢-٣.

(٩) سورة الأنفال: الآية ٢٩.

يَخْزَنُونَ ﴿١﴾، ويشبههم بالجنة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢﴾، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٣﴾.

الخوف من الله تعالى: المبدأ

ترتبط التقوى بالخوف من عقاب الله إذا عصي، وإذا كانت التقوى هي إتقاء غضب الله عز وجل أو عقابه، فلم يخاف المؤمن الله وهو لا يعصيه؟

في الجواب على ذلك نقول بأن الله تعالى وضع لعباده طريقاً واضحاً نمثل له بميزان دقيق ذي كفتين، في أحدهما: الأمل برحمة الله ومغفرته، وفي الثاني: الخوف من عقابه حتى لو كان يقوم الليل والنهار ولا يعصي الله أبداً، وأدعية أهل البيت عليهم السلام، خصوصاً الإمام السجاد عليه السلام تُقيم هذا التوازن بين الخوف والرجاء، وأعظم مثال على ذلك هو مناجاة الخائفين ومناجاة الراجين، ولو قرأتها معاً لرأيت الإمام عليه السلام متعلقاً بالأمل والخوف معاً.

يقول الإمام السجاد عليه السلام في مناجاة الخائفين: «إلهي أتراك بعد الإيمان بك تعدّبي، أم بعد حبي إياك تُبعدني، أم مع رجائي برحمتك وصفحك تحرمني، أم مع استجارتي بعفوك تُسلمني؟ حاشا لوجهك الكريم أن تُخينني، ليت شعري، أالشقاء ولدني أمي، أم للنعاء ربّني؟ فليتها لم تلدني ولم تُربني، وليتني علمتُ أمن أهل السعادة جعلتني؟ وبقربك وجوارك خصصتني؟ فتقرّ بذلك عيني، وتطمئن له نفسي.

إلهي هل تُسوّد وجوهاً خرّت ساجدة لعظمتك؟ أو تُخرسُ ألسنةً نطقت بالثناء على

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٣) سورة الذاريات: الآية ١٥.

مجديك وجلالتك؟ أو تطبع على قلوب انطوت على محبتك؟...»^(١).

ويقول عليه السلام في مناجاة الراجين: «يا من إذا سأله عبدٌ أعطاه، وإذا أمّل ما عنده بلغه مُنّاه، وإذا أقبل عليه قرّبه وأذناه، وإذا جاهره بالعصيان سترَ على ذنبه وغطّاه، وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه.

إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قرئته؟ ومن الذي أناح ببابك مُرتجياً نذاك فما أوليته؟..، إلهي بذيل كرمك أعلقتُ يدي، ولنيل عطايك بسطتُ أجلي، فأخلصني بخالصة توحيدك، واجعلني من صفوة عبيدك، يا من كلُّ هاربٍ إليه يلتجئ، وكلُّ طالبٍ إياه يرتجئ، يا خيرَ مرجوٍّ، ويا أكرمَ مدعوٍّ، ويا من لا يُردُّ سائله، ولا يخيّبُ أمّله، يا مَنْ بأبه مفتوحٌ لداعيه، وحجابُه مرفوعٌ لراجيه، أسألك بكرمك أن تمنّ عليّ من عطائك بما تقرُّ به عيني»^(٢).

الخوف من الله تعالى: الخصائص

لاشك أن للخشية من الله تعالى خصائص تتعامل معها النفس الإنسانية، ومن تلك الخصائص:

أولاً: بين الخوف والرجاء: أن العلاقة بين الخالق والمخلوق مبنية على طريقين، الأول: الرجاء، أو الأمل بمغفرة الله تعالى، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، وهو الغفور الرحيم.

الثاني: الخوف من عقابه إذا عصاه الإنسان، فالخوف أمرٌ طبيعي في تكوين الإنسان الضعيف مع خالقه العظيم، الجبار، المتكبر.

وبهذا الطريق جعل الإسلام قضية التقوى حالة عقلية يفكر بها الإنسان دائماً

(١) الصحيفة السجادية: المناجاة الثالثة، ص ٤٠٤.

(٢) الصحيفة السجادية: المناجاة الرابعة، ص ٤٠٦.

ويمثل بها بدنه، وهي حالة الموازنة بين الخوف والرجاء، كما قرأنا للتوّ دعاء الإمام السجاد (عليه السلام)، وإذا تمت تلك الحالة العقلية فإنها تحفظ للإنسان المؤمن طريقه الإيماني النظيف، وتحفظ للخالق عزّ وجلّ حقه في الطاعة والخالقية، وبذلك تكاملت العلاقة الذهنية بين الخالق والمخلوق في هذه الحياة: حق الطاعة للخالق المدبر، المتكبر القاهر، وحق الرحمة للعبد المطيع الضعيف.

وبذلك أصبح للإنسان وجود متزن في الكون والحياة، فهو - في علاقته مع خالقه عزّ وجلّ - ما بين الخوف والرجاء.

ثانياً: لولا الخوف من الله تعالى لفقد الإنسان معنى وجوده في الحياة، فالخوف من الله كالقيد في الوجود يمنح الإنسان من تصور أنه قاب قوسين أو أدنى من منزلة الخالق عزّ شأنه، ولو لم يكن هناك خوفٌ من الله تعالى لأصبح الإنسان طاغيةً متجبراً يرمق السماء ويطمح إلى ما هو أكبر من حجمه وقدرته.

وقد تجاوز طموح فرعون طاقة الإنسان المحدود فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١)، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُّوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢)، ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٣)، و﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهُ غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٤)، فجمع الله عليه خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

فكان فرعون مثلاً تاريخياً لتمرد المخلوق على خالقه، لكن الخشية والخوف من الله

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٨.

(٣) سورة غافر: الآية ٢٩.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

تعالى في كل الأحوال - والتي افتقدها فرعون لغروره وتكبره - تجعل الإنسان يحس بحجمه الطبيعي الصغير في وجودٍ واسعٍ لا حدود له.

ثالثاً: إن الخوف من الله تعالى ربما يكون قضية إرادية ترجع إلى إرادة الإنسان ذاته، فهناك مَنْ يخاف الله عند المعصية، وهناك مَنْ العصاة مَنْ لا يتقي الله ولا يخافه، إلا أن الخوف من الله تعالى عن طريق التقوى مقترنٌ بخوفٍ آخر حتميٌّ لا إراديٌّ وهو الخوف من الموت، والمطيع والعاصي يواجهان مصيرهما المحتوم بالموت، إلا أن التقوى تسهّل على الإنسان التعامل مع الخوف من الموت، فالمتقي يخاف الله في حياته، فيسهّل الله تعالى عليه براحةٍ عند سكرات الموت، ذلك أن الخوف من الله تعالى في الدنيا بوابةٌ عقليةٌ للدخول إلى العالم الآخر بنفسٍ مطمئنةٍ راضيةٍ.

إذن تعطي التقوى الحياة الإنسانية عند المؤمن معنىً جديداً يختلف عن المعنى التقليدي، فالخوف من الله تعالى، وإتقاء غضبه يصبُّ في النهاية لصالح الإنسان نفسه، ولا تُرهِق عقله، بل تهيئه إلى الدخول - في نهاية المطاف - في بوابة حتمية وهي بوابة سكرات الموت.

رابعاً: الخوف في حياة الإنسان يحصل غالباً من عدم الإطمئنان أو عدم القطع من الأشياء، مثلاً: يخاف الإنسان من شبحٍ يظنه حيواناً مفترساً، ولكن إذا تبين أنه مجرد دمية، فإن خوفه سيزول.

إلا أن الخوف من الله تعالى يختلف رتبةً ومنهجاً، ذلك أن الله تعالى يطمئن عباده على أن التقوى، أو الخشية منه تعالى، هي مفتاح الأمان للحياة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾^(١)، أما في الدنيا فقد أشار الإمام الباقر عليه السلام إلى: «أن أهل

(١) سورة الذاريات: الآية ١٥.

التقوى هم الأغنياء، أغناهم القليل من الدنيا، فمؤونتهم يسيرة»^(١).

فالخوف من الله تعالى في الدنيا ما هو إلا طمأنينة في ضمير الإنسان؛ والخوف منه تعالى يقترن مع إطمئنان بنيل رحمته ورضوانه.

خامساً: لو كانت حياة الإنسان مبنية على الخوف من جميع الأشياء لأصبحت تلك الحياة مستحيلة على الإنسان، لكن الخوف من الله تعالى له أثرٌ في تهذيب الحياة الإنسانية، وجعلها أكثر شفافيةً، وتواضعاً، ومحبةً بين الناس، فإن ما يخافه الإنسان هو آثار المعصية، فإن اجتنب عمل المعاصي تحلّى بالتقوى، وعندها أصبحت الحياة أكثر عدلاً، وأعظم أخلاقيةً، وأكثر أماناً للمستقبل المجهول.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «... أن أبناء الآخرة هم المؤمنون العاملون الزاهدون أهل العلم والفقه، وأهل فكرة واعتبار وإختبار، لا يملّون ذكر الله...»^(٢).

وقال عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال، وهو على منبره: والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قطّ خير الدنيا والآخرة، إلا بحسن ظنّه بالله، ورجائه له، وحسن خلقه، والكفّ عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعدّب الله مؤمناً بعد التوبة والإستغفار، إلا بسوء ظنّه بالله، وتقصيره من رجائه، وسوء خلقه، واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله، إلا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن؛ لأنّ الله كريم، بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن، ثم يخلف ظنّه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظنّ وارغبوا إليه»^(٣).

(١) الكافي: ج ٢ / ص ١٣٣.

(٢) تحف العقول: ص ٢٨٤.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٧١.

وقال ﷺ أيضاً: «خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال: يا أيها الناس، والله ما من شيء يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار، إلا وقد أمرتكم به. وما من شيء يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة، إلا وقد نهيتكم عنه. ألا وإن روح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحمل أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حلّه، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته»^(١).

نستنتج من ذلك أن الخوف من الله تعالى له خصائص خمس، وهي: ميزانٌ عادلٌ بين الخوف والرجاء، وتهذيب طموح الإنسان، والخوف كمقدمة لمواجهة الخوف النهائي في الموت، والخوف المتجذر بالطمأنينة لرحمة الله، والخوف من آثار المعصية، تلك الخصائص تبني حياة المؤمن في نظام دنيوي، له معانٍ وأهداف، أهمها توجيه الإنسان نحو الإنقياد والإستسلام لإرادة الله تعالى، وحسن عبادته.

الخوف من الله تعالى: بين النفس والعقل

هل أن الخوف أو الخشية من الله عزّ وجلّ يمثل صراعاً بين النفس والعقل؟ وإذا أمّنّا بأن النفس مركزٌ لنشوء الخوف، وأن العقل مركزٌ للرحمة الالهية، فكيف نستطيع التوفيق بينهما؟

في الجواب على ذلك نسطرّ النقاط التالية:

أولاً: رحمةُ الخالق بعباده: يقول العقل بأن الخالق عزّ وجلّ رؤوفٌ بمن خلق، رحيمٌ بعباده، مدبرٌ لامورهم، وإذا كان الأمر كذلك، فلمَ الخشية من الرؤوف الرحيم؟ يجيب الإسلام على ذلك بالقول بأن الرحمة لا تعني الظلم، فالله تعالى يريد من العباد أن يطيعوه؛ لأن في طاعتهم إياه تعالى خيرهم وحسن مصلحتهم، وفي معصيتهم أوامره

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٧٤.

تعالى نشرٌ للشرِّ، والظلم، والباطل فيما بينهم.

فالمتقي الذي يخاف الله عزَّ وجلَّ يتعامل مع الناس بالعدل ولا يظلم أحداً، ويتعد بنفسه عن الطمع والشهوة والغضب، التي هي من أخصِّ رذائل الحياة الدنيا.

والتقوى تخلق انسجاماً بين النفس والعقل، فالخوف من الله تعالى يتبعه ثواب كبير، ونعمة دائمة في حياة أبدية تتوفر فيها جميع مقتضيات السعادة والخلود، خصوصاً إذا ما علمنا بأن الخوف من الله تعالى مقترنٌ بالأمل في رحمته وغفرانه، فالله تعالى ﴿... شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١) للعاصين، لكنه ﴿... عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) للتائبين الموقنين.

ثانياً: الخوف من الله والثقة به، هل يغيّر الخوف من الله الثقة به؟ كلا؛ لأن الثقة بالله من أهم عناصر العلاقة معه تعالى، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «سمعتُ أبي [الباقر عليه السلام] يقول وهو ساجد: يا ثقتي ورجائي في شدتي ورحائي، صلِّ على محمدٍ وآل محمدٍ، والطف بي جميع أحوالي فإنك تطف لمن تشاء»^(٣).

وقول الباقر عليه السلام أيضاً في دعائه: «اللهم من كان الناس ثقته فأنت ثقتي ورجائي، أقدرني خيرها عافيةً، ورضني بما قضيت لي، اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد، والبسني عافيتك الحصينة، فإن ابتليتني فصبرني...»^(٤).

مع أن الخوف من شيء قد يززع الثقة به، إلا أن الخشية منه عزَّ وجلَّ توثق الثقة به؛ لأنه لأنه حكيم، رحيم، عليم بما في القلوب، هنا ألتقى العقل مع النفس الإنسانية في توحيد الله عزَّ وجلَّ، فالعقل يثق برحمة الله تعالى وعدله، والنفس تحشى الله تعالى رهبةً

(١) سورة البقرة: الآية ٢١١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٢.

(٣) قرب الإسناد: ص ٦.

(٤) تهذيب الأحكام - الطوسي: ج ٣/ ص ٨٠.

منه، وتلك الثقة وذلك الخوف يجتمعان معاً في آنٍ واحدٍ في شخصية إنسانٍ ما، فيولدان توازناً نفسياً وعقلياً في الأمل بحياة سعيدة خالدة، وهو الذي يعبر عنه الإمام (ع) بقوله: «يا ثقتي ورجائي في شدتي ورجائي»^(١)، «اللهم من كان الناس ثقته فأنت ثقتي ورجائي»^(٢).

ثالثاً: التقوى توحد أهداف الموحدين: إن خشية الله تعالى والخوف من عقابه تجمع الموحدين برباط الذل له تعالى، وهذا يهذب المجتمع الإسلامي ويجعله عملياً مجتمعاً رحيماً نظيفاً لا يعصي الله تعالى.

عن الإمام (ع) قال: «يأتي على الناس زمانٌ يغيب عنهم إمامهم، فطوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان، إن أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم الله جلّ وعزّ: عبادي آمنتم بسرّي، وصدقتم بغيبي، فإبشروا بحسن الثواب مني، فأنتم عبادي، وأمنائي حقاً، منكم أتقبل، وعنكم أعفو، ولكم أغفر، بكم أسقي عبادي الغيث، وأدفع عنهم البلاء ولولاكم لأنزلت عليهم عذابي»^(٣).

رابعاً: الخوف من الله يتكامل مع حبه تعالى: أي أنك تخاف معصية الله تعالى، ولكنك في الوقت نفسه تحب طاعته، فهنا خفف الحب درجات الخوف، فللخوف درجات، أعلاها الرعب من الظالم، إذا كان كائناً متوحشاً لا يعرف الرحمة في قلبه، فالإنسان يخاف السلطان الظالم الذي يغوص بدماء الأبرياء؛ لأنه ظالم مسلوب الرحمة، والإنسان يخاف من الحيوان المفترس؛ لأنه يفترس ضحيته لغريزة حبه للطعام وفقدانه التمييز بين كائن وآخر، ولكن الخشية من الله تعالى تشوبها المحبة والندم على المعصية؛

(١) قرب الإسناد: ص ٦.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٨٠.

(٣) كمال الدين: ج ١ / ص ١٤٥.

لأن الله تعالى رحيم بعباده، غفورٌ لأفعالهم، قريبٌ منهم، فمحبتته تعالى تهوّن خطب الخوف منه.

وفي حديثٍ لأحد أصحابه قال عليه السلام: «يا فلان ويحك، وهل الدين إلا الحب، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، أو لا ترى قول الله لمحمد صلى الله عليه وآله: ﴿... وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾^(٢)، وقال: ﴿... يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ...﴾^(٣)، فقال: الدين هو الحب، والحب هو الدين»^(٤).

مصاديق تقوى الإمام عليه السلام:

وُصِفَ الباقر عليه السلام في تقواه، بالصورة التالية: «قال بعض أهل العلم... صفني قلبه، وزكي عمله، وطهرت نفسه، وشرفت أخلاقه، وعمرت بطاعة الله تعالى، ورسخ في مقام التقوى قدمه وميثاقه»^(٥)، وله كلام نافع في الحكم والمواعظ، منه: «أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم معونة، إن نسيته ذكرك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله»، ومنه عليه السلام: «أنزل الدنيا كمنزلٍ نزلته وارتحلت عنه، أو كمال أصبته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء»^(٦).

وعن الباقر عليه السلام، وهو يشير إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله في التقوى، فيقول: «سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: أن رسول الله صلى الله عليه وآله مرَّ بنا ذات يوم، ونحن في نادينا، وهو على ناقته

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ٧.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

(٤) المحاسن: ص ٢٦٢.

(٥) الفصول المهمة: ص ٢١٠.

(٦) شذرات الذهب - ابن العماد الدمشقي: ص ٤٦٢.

وذلك حين رجع من حجة الوداع، فوقف علينا، فسلمّ فردنا عليه السلام، ثم قال ﷺ:

ما لي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس، حتى كأنّ الموت في هذه الدنيا على غيرهم كُتِب، وكأنّ الحق في هذه الدنيا على غيرهم واجب، وحتى كأن لم يسمعوا ويروا من خبر الأموات قبلهم، سبيلهم سبيل قوم سُقِرَ عما قليل إليهم راجعون، بيوتهم أجداثهم، ويأكلون تراثهم، فيظنون أنهم مخلّدون بعدهم، هيهات هيهات، أما يتعظّ آخرهم بأولهم.

لقد جهلوا ونسوا كلّ واعظٍ في كتاب الله، وآمنوا شرّ كل عاقبة سوء، ولم يخافوا نزول فادحة، وبوائق حادثة، طوبى لمن شغله خوف الله عزّ وجلّ عن خوف الناس، طوبى لمن منعه عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه، طوبى لمن تواضع لله عزّ ذكره، وزهد فيما أحلّ الله له من غير رغبة عن سيرتي، ورفض زهرة الدنيا من غير تحوّل عن سنتي.

اتبع الأخيار من عترتي من بعدي، وجانب أهل الخيلاء والتفاخر والرغبة في الدنيا، المبتدعين خلاف سنتي، العاملين بغير سيرتي، طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالا من غير معصية، فأنفقه في غير معصية، وعاد به على أهل المسكنة، طوبى لمن حسّن مع الناس خلقه، وبذل لهم معونته، وعدل عنهم شرّه، طوبى لمن أنفق القصد، وبذل الفضل، وأمسك قوله عن الفضول وقبيح الفعل»^(١).

كان الإمام الباقر عليه السلام من أتقى الأتقياء في زمانه، كان مطيعاً لربه تعالى بأكمل صور الطاعة وأمضاها في العبادات، وترك ما يُغضب الله تعالى، وتلك ميزة أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد عُرفوا بالتقوى والعلم في جميع مراحل حياتهم.

(١) الكافي: ج ٨ / ص ١٦٨.

يقول عليه السلام عن نفسه مخاطباً أحد أصحابه: «أصبحتُ والله محزوناً مشغول القلب... حزن هم الآخرة، من دخل قلبه خالص حقيقة الإيمان شغل عما في الدنيا من زينتها، إن زينة زهرة الدنيا إنما هي لعب وهو وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، إن المؤمن لا ينبغي له أن يركن ويطمئن إلى زهرة الحياة الدنيا، واعلم أنّ أبناء الدنيا هم أهل غفلة وغرور وجهالة، وأن أبناء الآخرة هم المؤمنون العاملون الزاهدون أهل العلم والفقه، وأهل فكرة واعتبار واختبار لا يملّون من ذكر الله.

واعلم أن أهل التقوى هم الأغنياء، أغناهم القليل من الدنيا فمؤوتهم يسيرة، إن نسيّت الخير ذكرك، وإن عملت به أعانوك، أخروا شهواتهم ولذاتهم خلفهم، وقدموا طاعة ربهم أمامهم، ونظروا إلى سبيل الخير وإلى ولاية أحبّاء الله فأحبّوهم، وتولّوهم واتبعوهم.

فانزل نفسك من الدنيا كمثلاً منزلاً نزلته ساعةً ثم ارتحلت عنه، أو كمثل مالٍ استفدته في منامك ففرحت به وسررت ثم انتبهت من رقدتك وليس في يدك شيء، وإني إنما ضربت لك مثلاً لتعقل وتعمل به إن وفقك الله له، فاحفظ ما أستودعك من دين الله وحكمته، وانصح لنفسك وانظر ما عند الله عندك في حياتك، فكذلك يكون لك العهد عنده في مرجعك، وانظر فإن تكن الدنيا عندك على غير ما وصفت لك فتحوّل عنها إلى دار المستعيب اليوم، فلربّ حريص على أمرٍ من أمور الدنيا قد ناله، فلما ناله كان عليه وبالاً وشقي به، ولربّ كارِهٍ لأمرٍ من أمور الآخرة قد ناله فسعد به»^(١).

بيان: في هذا الحديث يتحدث الإمام عليه السلام عن التقوى ويفرّق عليه السلام بين العاملين على الدنيا من الناس، والعاملين على الآخرة منهم.

(١) تحف العقول: ص ٢٨٤ - ٢٨٧.

فالعامل على الدنيا تبهره اللذات والرغبات، وتشغله زينتها عنه تعالى، فهو في لهوٍ، ولعبٍ، وغفلةٍ، وغرورٍ، وجهالةٍ، لكنه لا يعلم أنها مجرد محطة توقف، ويغادر بعدها إلى مكان آخر.

أما العامل على الآخرة، فهو الزاهد من أهل العلم والفقهِ، من أهل الاعتبار والإختبار، لا يملّ من ذكر الله، قليل ما في يده لكنه غنيٌّ بالله وبتقواه، قدّم طاعة ربه على لذاته وشهوته، فهو سعيدٌ وغنيٌّ بما استودعه الله تعالى من دينه وحكمته.

حول التقوى:

هذه كلماتٌ للإمام الباقر عليه السلام في التقوى يحثُّ فيها الناس على طاعة الله، وتجنب معصيته، بأساليب فكرية متنوعة، تعرض صفة المتقين، وتبحث في نفوسهم وعقولهم، يتحدث أحياناً فيها بلسان حال الناس:

١ - يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث»^(١).

٢ - قيل للباقر عليه السلام كيف أصبحت؟ قال: «أصبحنا غرقى في النعمة، موفورين بالذنوب، يتحبب إلينا إلهنا بالنعمة، ونتممّت إليه بالمعاصي، ونحن نفتقر إليه، وهو غنيٌّ عنّا»^(٢).

٣ - أورد عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ) بعضاً من أحاديث الإمام الباقر عليه السلام: «قال عليه السلام: «الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل استوطناه»، قلتُ: يعني وإن لم يجدا فيه توكلأ رحلا عنه، وفي معنى ذلك قلت:

(١) بحار الأنوار: ج ٦٧ / ص ٢٨٢.

(٢) أمالي ابن الشيخ الطوسي: ص ٥٠ الملحق بأمالي والده، ضمن حديث.

يجول الغنا والعز في قلب مؤمن
فإن ألفيا جوف القلوب توكلًا
أقاما فأسمى العبد بالله ذا غنى
عزيرًا وإن لم يلقياه ترحلًا^(١)
٤ - قال عليه السلام: «كان لي أخ في عيني عظيمًا، وكان الذي عظّمه في عيني صغر الدنيا في عيني»^(٢).

٥ - قال عليه السلام: «مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القزّ، كلما إزدادت من القزّ على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمًا، أغنى الغنى من لم يكن للحرص أسيرًا، لا تشعروا قلوبكم الإشتغال بها قد فات، فتشغلوا أذهانكم عن الإستعداد لما لم يأت»^(٣).

الدلالات:

١ - في الحديث الأول يذكر علامة مهمة فاصلة من علامات التقوى، وهي: صدق الحديث، فالصادق يخاف الله عزّ وجل من معصيته بالكذب، فالصدق إذن صفة من صفات التقوى، وتلك معلومة جديدة لأهل زمانه؛ لأن أغلب الناس كانوا يعتقدون بأن التقوى هي في كثرة القيام والصيام، ولكن الفكرة الصحيحة أن الصدق من التقوى أيضاً، والصادق من الرواة هو من ينقل حديث رسول الله صلى الله عليه وآله كما سمعه، بصدق، فيكون تقيًا.

٢ - في الحديث الثاني يتحدث الإمام عليه السلام على لسان حال أمته في ذلك الزمان، فالناس كانت غارقة في النعمة التي أنعمها الله تعالى عليهم، لكنها كانت غارقة في الذنوب وارتكاب المعاصي أيضاً، وهذا خلاف التقوى، ففي هذا الحديث يعالج الإمام عليه السلام مشكلة

(١) شرح أصول الكافي: ج ٨ / ص ٢٠٨.

(٢) مرآة الجنان: ج ١ / ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٣١٦.

اجتماعية في زمانه وهي ابتعاد الناس عن تقوى الله، وارتكابهم المعاصي.

٣ - في الحديث الثالث يذكر الإمام عليه السلام فكرتين: الغنى، والعز.

الأولى: إستغناء الإنسان عن الناس؛ لأن المتقي غنيٌّ، وقد قال عليه السلام في موضع آخر: «إن أهل التقوى الأغنياء، أغناهم القليل من الدنيا، فمؤونتهم يسيرة»^(١)، فالغنى الحقيقي هو الغنى عن الناس، والطلب من الله تعالى، وتلك طاعة الله تعالى، وتقوى من معصية.

الثانية: العز، وهو عزّة النفس، كما قال تعالى: ﴿...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٢)، وعزّة النفس هو أن لا يطلب من أحد غير الله تعالى، والطلب منه وحده تعالى هو فهمٌ لمعنى الخالقية، وإدراك لمعنى التدبير، فهو طاعة الله تعالى، وبالتالي فهي لونٌ من ألوان التقوى.

٤ - في الحديث الرابع يتحدث الإمام عليه السلام عن أخٍ إفتراضي له يُقدّر فيه خصلة فهم الحياة الدنيا كمعبرٍ إلى الحياة الآخرة، فالدنيا في عينه صغيرة وليس لها شأنٌ إلا عبادة الله وطلب رضاه، وذلك النظر يجعله لا يعصي الله تعالى؛ لأن الحياة لا تستحق المعصية، ولأن الله تعالى يستحق الطاعة المطلقة، وتلك من صفات التقوى.

٥ - في الحديث الخامس يُمثّل الإمام عليه السلام الإنسان الحريص على دنياه بدودة القرّ، كلما ازدادت حريراً ازداد لفها على نفسها، وكذلك الحريص في الدنيا كلما ازدادت ثروته ومتعلقاته الدنيوية إزداد حباً لها، وكثرت قيوده التي تكبله بها، والإمام عليه السلام يفتح صفحة مشرقة للمستقبل، وذلك بالإستغفار ونسيان الماضي، والاهتمام بالمستقبل؛ لأن ما فات

(١) تحف العقول: ص ٢٨٧.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

فات، ولا يمكن معالجة الماضي إلا بالإستغفار، والنظر إلى المستقبل على منهج عدم
معصية الله سبحانه.

الفصل الثالث

الخصائص الشخصية:

(٢) الخصائص العامة

(١) الأفضلية في العبادة (٢) في الحلم (٣) في الصبر

(٤) في الكرم والجود (٥) في البلاغة

الخصائص العامة

نبحث في هذا الفصل تكملة الخصائص الشخصية للإمام الباقر عليه السلام، وهي: الأفضلية في العبادة، والأفضلية في الحلم، والأفضلية في الصبر، والأفضلية في الجود، والأفضلية في البلاغة.

(١)

الأفضلية في العبادة

تعني الأفضلية في العبادة أن يكون أفضل عابد لله تعالى بجوارحه وعقله ونفسه، أي إن وجوده قد أخذ مجامع نفسه بحيث لا يعرف طريقاً في حياته عليه السلام إلا عبادته عبادة صحيحة جامعة كالصلاة، والصيام والحج، والذكر الدائم، وتلك العبادة عبارة عن منهج حياة، وحالة عقلية مستمرة مع المعصوم عليه السلام طول حياته، لا تنفك عنه أبداً.

العبادة: الدليل العقلي

فكرة عبادة الخالق عزّ وجلّ فكرة أخلاقية، بمعنى أنه حتى لو لم يأمرنا الله تعالى بعبادته، فعلينا أن نعبد؛ لأن عبادة الخالق لها صفة أخلاقية حتى لو لم تتدخل العقيدة الدينية بها، وهكذا يأمرنا العقل بعبادته تعالى، فجاءت الشرائع السأوية لإمضاء ما ذهب العقل إليه، وإلى ذلك يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «... وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»^(١).

(١) شرح نهج البلاغة: ج ١٩ / ص ٦٨، الكلمات القصار.

إن من أهم آثار عبادة الله تعالى هو ترسيخ الإيمان، وكشف معاني الحياة بعد الموت، فالإيمان به عزّ وجلّ في الحياة الدنيا مرتبطٌ إرتباطاً وثيقاً بعبادته؛ لأن العبادة العملية تطبق عملي لما يدور في ذهن الإنسان من أفكار تجاه خالقه، والعبادة الحقيقية تقتضي إيماناً حقيقياً بواجب الوجود، وإذا عاش الإنسان حياةً إيمانيةً منبعاها الإدراك الشامل لمعاني الخلقية، والحياة المحدودة على الأرض عاش في واقع الأمر حياةً أخلاقيةً فاضلةً سعيدةً.

وللإنسان في عبادة الله تعالى في الدنيا جزاءٌ أبدي في الآخرة تلخّصه كلمة واحدة هي: السعادة المطلقة، والجنة التي تجري من تحتها الأنهار، والخور العين، والولدان المخلّدون، والخلود، وعدم العناء وعدم المرض، والقرب من الله تعالى كلها من مصاديق تلك السعادة الأبدية التي يطمح لها كل مخلوق ضعيف كالإنسان.

ولا تعني عبادة الله تعالى القيام والصيام فحسب، بل تعني طاعة الله عزّ وجلّ في كل أوامره وإجتناّب كل نواهيه، وطالما كانت أوامره عزّ وجلّ تصبُّ كلها في خير الإنسانية، أصبحت تلك الأوامر والنواهي قضايا أخلاقية لا بد من الإذعان لها وتطبيقها كما أراد الخالق عزّ وجلّ، وإذا كان من طاعة الله: بر الوالدين، وصلة الرحم، ومساعدة الجيران، وكلّ من كان له حقٌّ علينا، كان ذلك العمل الأخلاقي سعادة للمجتمع أيضاً.

فحبُّ الله تعالى ينبغي أن يكون مقروناً بحب أناس حول الإنسان من أرحام، وأخوة، وأصدقاء، وجيران ونحوهم، وتلك عبادة لله تعالى أيضاً، فحب الله يوجّه الإنسان نحو حب المجتمع ككل، بإستثناء من تمردَ واستخدم الشر كوسيلة من وسائل الحياة الدنيا.

وبالإجمال، فإن العقل يدعو البشر جميعاً إلى عبادة خالقهم، وطاعة أوامره،

والانتهاء عن نواهيه.

العبادة: الدليل القرآني

يقول سبحانه وتعالى: ﴿...قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١)، ولما كان الله عز وجل خالق كل شيء، فكل شيء يخضع لإرادته حتماً، فلا مفر للمخلوق من عبادة خالقه، خصوصاً وأن الله هو الذي أراد ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، فالعبادة من قبل المخلوق حق من حقوقه عز وجل، وواجب حتمي على جميع المخلوقات.

فله يسجد كل شيء: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٣)، وله يسبح كل شيء: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤)، وهو الرازق مخلوقاته، والمدير لحياتهم ومماتهم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ...﴾^(٥)، وتلك عبادة تبدأ بالبلوغ والرشد وتستمر حتى الموت: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٦).

وما هدف الوجود إلا عبادة الخالق عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٧)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾^(٨)، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

(١) سورة الرعد: الآية ١٦.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٥.

(٤) سورة الحشر: الآية ١.

(٥) سورة الروم: الآية ٤٠.

(٦) سورة الحجر: الآية ٩٩.

(٧) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١﴾.

والعبادة تعني الطاعة، وهي الالتزام بأداء الأوامر التي أمرنا بها سبحانه وتعالى، واجتناب النواهي التي نهانا عنها، وتلك قصة الخلق والوجود، فقد بعث الله تعالى الرسل والأنبياء ﷺ لتبليغ الناس بوظائفهم الدينية، فبلغ خاتم الأنبياء محمد ﷺ عن دين الله أصدق البلاغ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾^(٢)، و﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٣)، فلا مفرّ للمكلف القادر من عبادته تعالى، كما أمره بها رسوله خاتم الأنبياء ﷺ، بجميع الوسائل من صلاة، ودعاء، وذكر، وتلاوة القرآن ونحوها.

العبادة: المصاديق العملية

كان لسان الإمام الباقر ﷺ لهجاً بذكر الله تعالى، وكان ذاكراً لله تعالى في قيامه وقعوده، ومشيه وحديثه، وكان يجمع ولده وأهل بيته ﷺ ويأمرهم بالصلاة، وذكر الله، وقراءة القرآن من الفجر حتى طلوع الشمس.

هذا ما ذكره الامام الصادق ﷺ عن أبيه ﷺ، فقال: «كان أبي ﷺ كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله، وأكل معه الطعام وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله، وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر»^(٤).

(١) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٤٩٨ ضمن حديث.

وكان ﷺ إذا أقبل على الصلاة إصفرّ لونه خشية من الله^(١)، وهكذا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد كانت حياتهم مبنية على ذكره تعالى، وفي رأي سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ): «... وإنما سُمي الباقر من كثرة سجوده، بقر السجود جبهته، أي فتحها ووسعها...»^(٢).

وكان كثير الصلاة، يصلي في اليوم واللييلة مائة وخمسين ركعة^(٣)، ولم يشغله العلم والتدريس عن ذلك، وإذا أضفنا تلاوته للقرآن الكريم، وذكر الله الذي كان لسانه يلهج به، لكان ذلك استيعاباً تاماً لوقت الإمام عليه السلام، خصوصاً وأنه كان مشغولاً أيضاً في المناظرات وأجوبة الناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة.

وأفضل شهادة على تقوى الإمام عليه السلام وعبادته ما شهدت به الأعداء، فهذا عامل المدينة المنورة أيام عبد الملك بن مروان يبعث برسالة جواباً على رسالة الخليفة الأموي بتقييد محمد بن علي عليه السلام وإرساله إلى الشام، فيكتب عامل المدينة إلى خليفته: «ليس كتابي هذا خلافاً عليك يا أمير المؤمنين، ولا رداً لأمرك، ولكن رأيت أن أراجعك في الكتاب نصيحة لك، وشفقة عليك، إنَّ الرجل الذي أردته ليس اليوم على وجه الأرض أعفّ منه ولا أزهد ولا أروع منه، وإنه من أعلم الناس، وأرقّ الناس، وأشدّ الناس اجتهاداً وعبادة، وكرهتُ لأمر المؤمنين التعرض له ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾^(٤)»^(٥).

يشير الامام الباقر عليه السلام إلى جوهر العبادة، فيقول: «قال [نبي الله] سليمان بن

(١) تاريخ دمشق: ج ٥١ / ص ٤٤.

(٢) صفوة الصفوة - سبط بن الجوزي: ج ٢ / ص ١٠٨ - ١١٢ ترجمة رقم ١٧١.

(٣) تذكرة الحفاظ: ج ١ / ص ١٢٥.

(٤) سورة الرعد: الآية ١١.

(٥) كشف الغمة: ص ٢١٢.

داود عليه السلام: «أوتينا ما أوتي الناس وما لم يؤتوا، وعُلمنا ما عُلّم الناس وما لم يعلموا، فلم نجد شيئاً أفضل من خشية الله في الغيب والمشهد، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والتضرع إلى الله عزّ وجلّ في كل حال»^(١).

وهو القائل عليه السلام: «ما أغرورقت عينٌ بقاءٍ من خشية الله تعالى إلا حرّم الله وجهه صاحبها على النار، فإن سألت على الخدين دموعه لم يرهق وجهه قطراً ولا ذلّةً، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة، فإن الله تعالى يكفّر بها بحور الخطايا، ولو أنّ باكياً بكى في أمةٍ حرّم الله تلك الأمة على النار»^(٢).

وكان عليه السلام لا يترك صلاة الليل حتى في سفره، كما نقل الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام: «كان أبي عليه السلام يدعو بالطهور في السفر وهو في محمله^(٣) فيؤتى بالتور^(٤) فيه الماء فيتوضأ، ثم يصلي الثنائي والوتر في محمله، فإذا نزل صلى الركعتين والصبح»^(٥).

في خطبة صلاة الجمعة:

أورد محمد بن يعقوب الكليني بإسناده إلى محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام في خطبة صلاة الجمعة، يعلّم فيها أصحابه طريقة تلك الخطبة، بعد أن شرح لهم طبيعة صلاتها، وفيها دلائل العبادة الخالصة لله تعالى:

«الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا،

(١) الخصال: ج ١ / ص ١١٤، وفي تاريخ دمشق: ج ٢٢ / ص ٢٨١، يذكر الحديث ولا ينسبه

إلى الإمام الباقر عليه السلام.

(٢) الفصول المهمة: ص ٢٠٩.

(٣) المحمّل: الهودج.

(٤) التور: إناء يُشرب فيه، والجمع: أتوار.

(٥) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٢٣٢.

ومن سيئات أعمالنا، ومن يهدي الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضِلُّ فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، انتجبه لولايته، واختصه برسالته، وأكرمه بالنبوة أميناً على غيبه ورحمة للعالمين، وصلى الله على محمدٍ وآله وعليهم السلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأخوفكم من عقابه، فإن الله ينجي من اتقاه بمفازتهم، لا يمسهم سوء ولا هم يحزنون، ويكرم من خافه، يقيهم شرَّ ما خافوا ويلقيهم نضرةً وسروراً، وأرغبكم في كرامة الله الدائمة وأخوفكم عقابه، الذي لا انقطاع له ولا نجاة لمن استوجبه، فلا تغرنكم الدنيا ولا تركنوا إليها، فإنها دار غرور، كتب الله عليها وعلى أهلها الفناء، فتزودوا منها الذي أكرمكم الله به من التقوى، والعمل الصالح، فإنه لا يصل إلى الله من أعمال العباد إلا ما خالص منها، ولا يقبل الله إلا من المتقين.

قد أخبركم الله عن منازل من آمن وعمل صالحاً، وعن منازل من كفر وعمل في غير سبيله وقال: ﴿... ذَلِكَ يَوْمٌ جَمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُوَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ﴾^(١).

نسأل الله الذي جمعنا لهذا الجمع أن يبارك لنا في يومنا هذا وأن يرحمنا جميعاً إنه على كل شيء قدير، إن كتاب الله أصدق الحديث وأحسن القصص، وقال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢)، فاسمعوا طاعة الله

(١) سورة هود: الآية ١٠٣ - ١٠٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٤.

وأنصتوا إبتغاء رحمته.

ثم اقرأ سورة من القرآن، وادعُ ربك وصلِّ على النبي ﷺ، وادعُ للمؤمنين
والمؤمنات، ثم تجلس قدر ما تمكّن هنيهة، ثم تقوم فتقول:

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونؤمن به، ونتوكل عليه،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضلَّ له، ومن
يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، وجعله
رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، من يطع الله ورسوله فقد
رشد، ومن يعصها فقد غوى.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ينفع بطاعته من أطاعه، والذي يضرُّ بمعصيته
من عصاه، الذي إليه معادكم وعليه حسابكم، فإن التقوى وصية الله فيكم وفي الذين
من قبلكم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ
أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾^(١)،
انتفعوا بموعظة الله، وألزموا كتابه، فإنه أبلغ الموعظة وخير الأمور في المعاد عاقبةً، ولقد
اتخذ الله الحجة، فلا يهلك من هلك إلا عن بينة، ولا يحيى من حيى إلا عن بينة.

قد بلغ رسول الله ﷺ الذي أرسل به، فالزموا وصيته وما ترك فيكم من بعده، من
الثقلين كتاب الله وأهل بيته الذين لا يضلُّ من تمسك بهما ولا يهتدي من تركهما، اللهم
صلِّ على محمدٍ عبدك ورسولك، سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، ثم
تقول:

(١) سورة النساء: الآية ١٣١.

اللهم صلّ على أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين، ثم سمّ الأئمة حتى تنتهي إلى صاحبك^(١) ثم تقول: افتح له فتحاً يسيراً وانصره نصراً عزيزاً، اللهم أظهر به دينك، وسنة نبيك حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافةً أحدٍ من الخلق، اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزُّبها الإسلام وأهله، وتذلُّبها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة في سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة، اللهم ما حملتنا من الحق فعرّفناه وما قصرنا عنه فعلمناه.

ثم يدعو الله على عدوّه ويسأل لنفسه وأصحابه، ثم يرفعون أيديهم فيسألون الله حوائجهم، كلها حتى إذا فرغ من ذلك قال: اللهم استجب لنا، ويكون آخر كلامه أن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، ثم يقول: اللهم اجعلنا ممن تذكر فتتفعه الذكرى، ثم ينزل^(٣).

الدلالات:

١ - تبين الرواية أنه ﷺ أورد خطبة صلاة الجمعة، كوسيلة تعليمية لأصحابه، وذكر أنها متضمنة خطبتين:

الأولى: في التذكير بتقوى الله تعالى، وعرض فكرة دينية لها علاقة بوظيفة المسلم وعقيدته، فكانت: مقارنة بين منازل المؤمنين العاملين الصالحات، وبين الكافرين العاملين بكفرهم، ثم دعا الله عزّ وجلّ بمباركة جماعة المؤمنين.

(١) صاحبك: يقصد به الإمام المهدي عليه السلام، وعدم التصريح باسمه يدل على إتقائه من عيون السلطة آنذاك.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٣) الكافي: ج ٣/ ص ٤٢٢.

الثانية: في حمد الله، والشهادتين، ووصيته عليه السلام بتقوى الله تعالى وطاعته، ثم ذكر سيرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الإثني عشر عليهم السلام، والدعاء للإمام القائم عليه السلام آخر أئمة أهل البيت عليهم السلام بتحقيق ما نصبه الله تعالى له من دولة كريمة عادلة، ومجتمع صالح عابد.

٢- وهو عليه السلام وإن لم يُقم الجمعة إلا أنه ذكرها بتفصيلها، وصلاة الجمعة مشروطة بوجود السلطان العادل المبسوط اليد، الذي يُقيم الحدود، لا السلطان الذي ينبغي أن يُقام عليه الحد! وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام بقيمان الجمعة؛ لأنهما سلطانان عادلان، ولكن، وما أن تسلط الظالم على دفة أمور الدولة، وبسط ظلمه فيها، لم يُقم أئمة أهل البيت عليهم السلام الجمعة، بل صلّوها بعض الأحيان تقيّةً.

نماذج من دعائه عليه السلام :

الصلاة من أهم أشكال العبادة، والصلاة الموقوتة التي أمرنا الله بأدائها هي في جوهرها دعاءً فيه حمدٌ وتمجيدٌ للخالق عزّ وجلّ، وتسييحٌ له، وإقرارٌ له تعالى بالتوحيد، ولمحمدٍ خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله بالنبوة، والدعاء، والمناجاة، والتذلل لله بالكلمات الطيبة كلها عبادة، وأفضل طريق لمعرفة عبادته عليه السلام هو التعرف على طبيعة أديته وأذكاره، ومنها:

١- عاش الإمام عليه السلام في زمنٍ قاسٍ حيث سلطَ عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) على أهل العراق الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) فكان يذيق المؤمنين شتى ألوان العذاب والاضطهاد، فكان عليه السلام يدعو في قنوته: «اللهم إن عدوي قد استسن في غلوانه، واستمر في عدوانه، وأمن بما شمله من الحلم عاقبة جرأته عليك، وتمرد في مبايتتك، ولك اللهم لحظاتٍ سخطٍ بيّاتاً وهم نائمون، ونهاراً وهم غافلون، وجهرةً وهم يلعبون، وبغتةً وهم ساهون، وأن الخناق قد اشتد، والوثاق قد احتد، والقلوب قد محيت، والعقول قد

تنكرت، والصبر قد أودى، وكادت تنقطع حباله، فإنك لبالمرصاد من الظالم، ومشاهدة من الكاظم، لا يعجلك فوت درك، ولا يعجزك احتجاز محتجز، وإنما مهل استثنائاً، وحققتك على الأحوال البالغة الدامغة، وبعبيدك ضعف البشرية وعجز الإنسانية، ولك سلطان الإلهية ومملكة البرية، وبطشة الأناة، وعقوبة التأبید، اللهم إن كان في المصابرة لحرارة المعان من الظالمين، وكمد من يشاهد من المبدلين لك، ومثوبة منك فهب لي مزيداً من التأبید، وعوناً من التسديد إلى حين نفوذ مشيئتك فيمن أسعدته وأشقيته من بريتك، وامن عليّ بالتسليم لمحتومات أقضيتك، والتجرع لصادرات أقدارك، وهب لي محبة لما أحببت في متقدّم ومتأخّر، ومتعجّل ومتأجّل، والإيثار لما اخترت في مستقرب ومستبعد، ولا تخلنا مع ذلك من عواطف رحمتك، وحسن كلاءتك»^(١).

٢- كان ﷺ يناجي الله تعالى في جوف الليل ويقول: «أمرتني فلم أتمر، وزجرتني فلم أزدجر، هذا عبدك بين يديك»^(٢).

٣- روى أبو عبيدة الحذاء، فقال: «سمعت أبا جعفر ﷺ يقول وهو ساجد: «أسألك بحق حبيبك محمد ﷺ إلا بدلت سيئاتي حسنات، وحاسبتني حساباً يسيراً».

ثم قال في السجدة الثانية: «أسألك بحق حبيبك محمد ﷺ إلا ما كفتني مؤونة الدنيا، وكلّ هولٍ دون الجنة».

ثم قال في الثالثة: «أسألك بحق حبيبك محمد ﷺ لما غفرت لي الكثير من الذنوب والقليل، وقبلت منّي عملي اليسير».

ثم قال في الرابعة: «أسألك بحق حبيبك محمد ﷺ لما أدخلتني الجنة، وجعلتني من

(١) مهج الدعوات: ابن طاووس: ص ٥١.

(٢) حلية الأولياء - أبو نعيم: ج ٣ / ص ١٨٦، في ترجمة الإمام الباقر ﷺ رقم ٢٣٥.

سكّانها، ولما نجيتني من سفعات النار^(١)، برحمتك، وصلّى الله على محمد وآله^(٢).

٤- ومن دعاء له ﷺ بعد صلاة العشاء: «اللهم بحق محمد وآل محمد، صلّ على محمد وآل محمد، ولا تؤمّنا مكره، ولا تنسينا ذكرك، ولا تكشف عنا سترك، ولا تحرمنا فضلك، ولا تحل علينا غضبك، ولا تباعدنا من جوارك، ولا تنقصنا من رحمتك، ولا تنزع عنا بركاتك، ولا تمنعنا عافيتك، واصلح لنا ما أعطيتنا، وزد من فضلك المبارك الطيب الحسن الجميل، ولا تغرّ ما بنا من نعمتك، ولا تؤيسنا من روحك، ولا تهنا بكرامتك، ولا تضلّنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب، اللهم اجعل قلوبنا سالمة، وأرواحنا طيبة، وألسنتنا صادقة، وإباننا دائماً، ويقيننا صادقاً، وتجارنا لا تبور، ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا برحمتك عذاب النار»^(٣).

٥- روى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق ﷺ أنه قال: «كنت أمهد لأبي فراشه فانتظره حتى يأتي، فإذا آوى إلى فراشه ونام، قمتُ إلى فراشي، وقد أبطأ عليّ ذات ليلة، فأتيت المسجد في طلبه، وذلك بعدما هدأ الناس، فإذا هو في المسجد ساجد، وليس في المسجد غيره فسمعتُ حنينه وهو يقول: «سبحانك اللهم، أنت ربي حقاً حقاً، سجدتُ لك يا ربّ تعبداً ورقاً، اللهم إنّ عملي ضعيف فضاعفه لي...، اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، وتب عليّ إنّك أنت التواب الرحيم»^(٤).

٦- عن الصدوق بإسناده، قال أبو جعفر الباقر ﷺ: «القنوت في الوتر كقنوتك يوم الجمعة، تقول في دعاء القنوت: اللهم تمّ نورك فهديتَ فلك الحمد ربنا، وبسطتَ

(١) سفعة النار: لفحة النار التي تسوّد جلد الإنسان من شدة الحرارة.

(٢) فروع الكافي: ج ٣/ ص ٣٢٢.

(٣) البلد الأمين - الكفعمي: ص ١٥.

(٤) حلية الأولياء: ج ٣/ ص ١٨٢.

يدك فأعطيتَ فلك الحمد ربنا، وعظم حلمك فعفوت فلك الحمد ربنا، وجهك أكرم الوجوه، وجهتك خير الجهات، وعطيتك أفضل العطايات وأهنأها، تُطاع ربنا فتشكر، وتُعصى ربنا فتغفر، لمن شئت تجيب المضطر، وتكشف الضر، وتشفي السقيم، وتُنجي من الكرب العظيم، لا يجزي بالآثك أحد، ولا يحصي نعمائك قول قائل.

اللهم إليك رُفِعَتُ الأبصار، ونقلتُ الأقدام، ومُدَّتُ الأعناق، ورُفِعَتُ الأيدي، ودُعيتَ بالألسن، وتحوكمَ إليك في الأعمال، ربنا اغفر لنا وارحمنا، وافتح بيننا وبين خلقك بالحق، وأنت خير الفاتحين.

اللهم إليك نشكو غيبة نبينا، وشدة الزمان علينا، ووقوع الفتن وتظاهر الأعداء، وكثرة عدونا، وقلة عددنا، فاخرج ذلك يا ربِّ بفتحٍ منك تعجَّله، ونصر منك تعزّه، وإمام عدل تُظهره، إله الحق رب العالمين.

ثم تقول في قنوت الوتر بعد هذا: استغفر الله وأتوب إليه، سبعين مرة، وتعوذ بالله من النار كثيراً، وتقول في دبر الوتر بعد التسليم: سبحان ربي الملك القدوس العزيز الحكيم - ثلاث مرات - الحمد لربِّ الصباح، الحمد لخالق الإصباح، ثلاث مرات^(١).

٧ - الشيخ الصدوق بإسناده عن أحدهما: الباقر أو الصادق عليه السلام، قال عليه السلام: «قل في قنوت الوتر: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله ربِّ السموات السبع، وربِّ الأرضين السبع، وما فيهنَّ وما بينهنَّ وربِّ العرش العظيم.

اللهم أنت الله نور السموات والأرض، وأنت الله زين السموات والأرض، وأنت الله جمال السموات والأرض، وأنت الله عماد السموات والأرض، وأنت الله قوام السموات والأرض، وأنت الله صرير المستصرخين، وأنت الله غياث المستغيثين،

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٢٣٥.

وأنت الله المفرج عن المكروبين، وأنت الله المروّح عن المغمومين، وأنت الله مجيب دعوة المضطرين، وأنت الله إله العالمين، وأنت الله الرحمن الرحيم.

أنت الله كاشف السوء، وأنت الله بك منزل كل حاجة، يا الله لا يردّ غضبك إلاّ حلمك، ولا ينجي من عذابك إلاّ رحمتك، ولا ينجي منك إلاّ التضرّع إليك، فهب لي من لدنك يا الهي رحمةً تغنيني بها عن رحمة من سواك، بالقدرة التي بها أحيت جميع ما في البلاد، وبها تنشر ميت العباد، ولا تهلكني غمّاً حتى تغفر لي، وترحمني، وتعزّمني الإستجابة في دعائي، وارزقني العافية إلى منتهى أجلي، وأقلني عثرتي، ولا تشمت بي عدوي، ولا تمكّنه من رقبتني.

اللهم إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني، وإن وضعتني فمن ذا الذي يرفعني، وإن أهلكتني فمن ذا الذي يحول بينك وبينني، أو يتعرض لك في شيء من أمري، وقد علمت أن ليس في حكمك ظلمٌ، ولا في نعمتك عجلة، إنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وقد تعاليت عن ذلك.

يا الهي فلا تجعلني للبلاء غرضاً، ولا لنعمتك نصباً، ومهلني ونفسي، وأقلني عثرتي، ولا تتبعني ببلاء على أثر بلاء، فقد ترى ضعفي، وقلة حيلتي، أستعيد بك الليلة فأعزني، واستجير بك من النار فأجرني، وأسألك الجنة فلا تحرمني، ثم أدع الله بما أحببت واستغفر الله سبعين مرة^(١).

٨ - في عبادته ﷺ روى الشيخ الصدوق عن زرارة عن الباقر عليه السلام قال: «إذا أنت انصرفت من الوتر، فقل: سبحان ربي الملك القدوس العزيز الحكيم، ثلاث مرات، ثم تقول: يا حيُّ يا قيوم، يا برِّ يا رحيم، يا غنيُّ يا كريم، ارزقني من التجارة أعظمها فضلاً،

(١) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق: ج ١ / ص ٤٩٠.

وأوسعها رزقاً، وخيرها عاقبةً، فإنه لا خير فيما لا عاقبة له»^(١).

٩ - ومن دعاء له ﷺ كان يدعو به بعد صلاة الليل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللهم لك الحمد يا رب، أنت نور السماوات والأرض فللك الحمد، وأنت قوام السماوات والأرض فللك الحمد، وأنت جمال السماوات والأرض فللك الحمد، وأنت صريخ المستصرخين فللك الحمد، وأنت غياث المستغيثين فللك الحمد، وأنت تحيب دعوة المضطرين فللك الحمد، وأنت أرحم الراحمين فللك الحمد، اللهم بك تنزل كل حاجة فللك الحمد، وبك يا إلهي أنزلتُ حوائجي الليلة فاقضها لي يا قاضي الحوائج، اللهم أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، وأنت ملك الحق، أشهد أن لقاءك حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأسرت وأعلنت، إنك الحي الذي لا إله إلا أنت»^(٢).

١٠ - وكان من دعائه ﷺ عندما يأوي إلى فراشه: «اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووجهتُ وجهي إليك، وفوضتُ أمري إليك، فتوكلتُ عليك، رهبةً منك، ورغبةً إليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت»^(٣)، ثم يسبح تسبيح الزهراء عليها السلام وهو: «الله أكبر ٣٤ مرة، الحمد لله ٣٣ مرة، سبحان الله ٣٣ مرة»^(٤)، قال عليه السلام: «تسبيح فاطمة عليها السلام من ذكر الله الكثير الذي قال:

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٩٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٣١٠.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٩٧.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٦ / ص ٤٤٣.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١)، وقال عليه السلام: «ما عبد الله بشيءٍ من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة عليها السلام، ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام»^(٣).

١١ - الدعاء الجامع للإمام الباقر عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، آمنت بالله وبجميع رُسل الله وبجميع ما نزل به رسل الله، وأن وعد الله حق، ولقائه حق، وصدق الله، وبلغ المرسلون، والحمد لله رب العالمين، وسبحان الله كلما سبح الله شيء، وكلما يحب الله أن يسبح، والحمد لله كلما حمد الله شيء، وكلما يحب الله أن يُحمد، ولا إله إلا الله كلما هَلَّلَ الله شيء، وكلما يحب الله أن يُهلل، والله أكبر كلما كَبَّرَ الله شيء، وكلما يحب الله أن يُكَبِّر.

اللهم أي أسألك مفاتيح الخير وخواتيمه، وشرائعه وسوابقه، وفوائده وبركاته، وما بلغ علمه علمي، وما قصر عن إحصائه حفظي، اللهم انهج لي أسباب معرفتك، وافتح لي أبوابه، وعَشِّنِي بركات رحمتك، ومُنِّ عَلَيَّ بعصمة من الشيطان الرجيم، وما يريدني عن الإزالة عن دينك، وطَهِّرْ قلبي من الشك، ولا تشغل قلبي بدنياي، وعاجل معاشي عن آجل ثواب آخرتي، واشغل قلبي بحفظ ما لا تقبل مني جهله، وذلل لكل خير لساني، وطهر قلبي من الرياء، ولا تجره في مفاصلي، واجعل عملي خالصاً لك.

اللهم إني أعوذ بك من الشر، وأنواع الفواحش كلها، ظاهرها وباطنها وغفلاتها، وجميع ما يريدني به السلطان العنيد مما أحطت بعلمه، وأنت القادر على صرفه عني.

اللهم إني أعوذ بك من طوارق الجنّ والإنس، وزوابعهم، وتوابعهم، وبوائقهم،

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٦٧، ومجمع البيان - الطبرسي: ج ٨ / ص ٨٥٣.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٦ / ص ٤٤٣.

ومكايدهم، ومشاهد الفسقة من الجن والأنس، وأن أستزلّ عن ديني فتفسد عليّ آخرتي، ويكون ذلك منهم ضرراً عليّ في معاشي، أو بعرضٍ بلاءٍ يصيبني منهم لا قوة لي عليه، ولا صبر لي على احتماله، فلا تبتلني يا إلهي بمقاساته فيمنعني ذلك من ذكرك، ويشغلني عن عبادتك، أنت العاصم المانع، والدافع الواقى من ذلك كله.

وأسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني في معيشةٍ أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك، وأصير بها منك إلى دار الحيوان غداً، ولا ترزقني رزقاً يطغيني، ولا تبتلني بفقرٍ أشقى به مضيقتاً عليّ، أعطني حظاً وافراً في آخرتي، ومعاشاً واسعاً هنيئاً مريئاً في دنياي، ولا تجعل الدنيا عليّ سجنًا، ولا تجعل فراقها عليّ حزنًا، أخرجني من فتنها مرضياً عني، واجعل عملي فيها مقبولاً، وسعيي فيها مشكوراً.

اللهم من أرادني بسوء فأرده بمثله، ومن كادني فيها فكده، واصرف عني همّ من أدخل عليّ همه، وامكر بمن مكر بي فإنك خير الماكرين، وافقأ عني عيون الكفرة والظلمة، والطغاة الحسدة.

اللهم وأنزل عليّ منك السكينة والوقار، وألبسني درعك الحصينة، واحفظني بسترک الواقى، واجعلني في عافيتك النافعة، وصدّق قولي وفعالي، وبارك لي في ولدي وأهلي، ومالي، وما قدمت وأخرت، وما أغفلت، وما تعمدت، وما توانيت، وما أسررت، فاغفر لي برحمتك يا أرحم الراحمين»^(١).

الدلالات:

١ - تباينت مضامين تلك الأدعية الرائعة للإمام الباقر عليه السلام ابتداءً من التوسل بالله تعالى، إلى قبول اليسير، وغفران الذنوب، إلى تمجيد الله وتسيبته، والتوكل عليه،

(١) مهج الدعوات: ص ٢١٣ - ٢١٥.

وانتهاءً بالشكوى له وحده لشدة الزمان، ووقوع الفتن، والنتيجة التي نحصلها من تلك الأدعية عمق اتصاله ﷺ بالله تعالى، وحسن ظنّه به في المغفرة، وقبول العمل الصالح.

٢ - ومع أنه كان شديد الذكر لله تعالى في صباحه ومساءه، ويومه وليله، إلا أن الروايات المذكورة تُجمل دعاءه ﷺ في الليل غالباً، وبعد أن تهجع النفوس، وتطبق الأجفان على الأجنان، يتوجه إلى خالقه وبارئه في صلاة الليل، فيُقبل عليه تعالى وهو يناجيه بصفاته التامة: «... وأنت الله نور السموات والأرض، وأنت الله زين السموات والأرض، وأنت الله جمال السموات والأرض...»^(١).

٣ - نكتشف من تلك الأدعية نقطة مهمة، وهي: أن الله عزّ وجلّ طهّرهم ﷺ بقوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٢)، ورفعهم إلى أعلى درجات العبودية والطهارة الأخلاقية والدينية، إلا أنهم مع الله تعالى يتعاملون وكأنهم أصحاب ذنوب، فيقول ﷺ: «أمرتني فلم أؤتمر، وزجرتني فلم أنزجر...»^(٣)، و«أسألك بحق حبيبك محمد ﷺ لما غفرت لي الكثير من الذنوب والقليل...»^(٤)، «اللهم إن عملي ضعيفٌ فضاعفه لي...»^(٥)، ذلك لأنهم ﷺ كانوا يعدّون اشتغالهم ببعض المباحات كتناول الطعام مثلاً نزولاً عن تلك المرتبة العالية في العبادات فيرونه ذنباً، وإلى ذلك قيل: «حسنت الأبرار سيئات المقربين»^(٦).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٩٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) حلية الأولياء ج ٣ / ص ١٨٦.

(٤) الكافي: ج ٣ / ص ٣٢٢.

(٥) حلية الأولياء ج ٣ / ص ١٨٢.

(٦) كشف الغمة: ص ٢٥٥.

(٢)

الأفضلية في الحلم

أن يكون الإنسان حليماً هو أن يكون متسامحاً ذا صفحٍ جميل، وكان رسول الله ﷺ من أعظم الناس حليماً وصفحاً حتى مع أعدائه، وكذلك كان الإمام الباقر عليه السلام، فقد كان حليماً يسامح أعداءه من الجاهلين حقه، وقد تضافرت الروايات على أنه كان من أحلم الناس في زمانه.

الحليم في اللغة والدين:

الحليم صفةٌ مشبهةٌ باسم الفاعل لمن اتصف بالحلم، تدلُّ على الثبوت، وجذر الكلمة: حلم، ويُقال: كان حليماً بأهله: متسامحاً، ذا صفحٍ وحلم^(١)، هذا فيما يخص الإنسان، قال تعالى في وصف نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٢)، ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾^(٣)، أي لديه أناة، وبصيرة، وحكمة من صغره.

أما بالنسبة لله تعالى، فالحليم هو اسم من أسماء الله الحسنى، يعني: الذي لا يُعجل بالعقوبة والانتقام، ويرزق العاصي والمطيع معاً، بمعنى لا يجبس نعمه على عباده لذنوبهم مع قدرته على عقابهم، قال تعالى: ﴿... وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤)، والمأثور في الدعاء: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العليُّ العظيم، سبحان الله رب السموات السبع ورب الأرضين السبع، وما فيهن ورب العرش العظيم»^(٥).

(١) لسان العرب: ج ١٢ / ص ١٤٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٠١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٩٠.

والحلْمُ سيدُ الأخلاق، فالحليم لا يستفزه غضبٌ غاضبٍ، ولا يهينه جهلٌ جاهلٍ، ولا يستخفه عصيانٌ عاصٍ، بل هو ذو أناةٍ، وقدرةٍ على المعاقبة بالمثل، إلا أنه يصفح، والصفح هو قمة الأخلاق.

قال الشاعر:

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا حتى يذلُّوا وإن عزُّوا لأقوامٍ
ويُشتموا فترى الألوانَ مسفرةً لا صفحَ ذلٍّ ولكن صفحَ إكرامٍ^(١)

الحلْمُ: الدليل العقلي

ليس الحلْمُ صفةً عارضةً، بل هو منهجٌ للحياة لا يقدر على أدائه إلا من له الملكة على إمامة الناس، والسلوك بهم إلى طريق الهداية، فالناس كثيراً ما تُزعج الحليم، وتحاول إخراجه عن دوره المرسوم، إلا أن أمنياتهم تتحطم على صخرة تماسك شخصية الحليم وثباته.

وللحلْم خصائص عقلية وثمرات، منها:

١ - الحلْمُ صفحٌ عقلائي: فالحليم هو الإنسان الذي يفهم ابتداءً العلل والأسباب في سلوك الآخرين، ويدرك المبادئ التي يسرون عليها في حياتهم عندما يقابلونه بعداءٍ لا مبرر له.

فالحليم المتأن الذي يتحمل أذى الناس لديه قدرة عقلية على فهم مشاكلهم النفسية والفكرية واستيعابها، وإدراك نواقصهم وهفواتهم، فعندما يواجهونه بالأذى يواجههم بالصفح، والمغفرة، والثقة بنفسه، وكأنه ﷺ يفهم نقصهم الفكري، ويعلم سبب عدم كمال سلوكهم.

(١) سراج الملوك - الطرطوشي: ج ١ / ص ٦٧.

والحلم ينبع من قضية عقلية مختصة بالحليم ﷺ ذاته، وهي أنه يفكر بأن المقابل لو كان عالماً بقيمة الحليم ومنزلته لما حاول الخط من شأنه أو إهائته، والجاهل فقط هو الذي يحاول أن يقلل من قيمة ذي الحلم ﷺ، هنا لعب العقل عند الحليم ﷺ دوراً في صياغة سلوكه تجاه ذلك الإنسان الذي قصد الأذى بسبب جهل مركب، وعدم معرفة بالواقع.

ومن ذلك قول الجاهل له ﷺ: «أنت بقر» يريد أن يستخف به، ويحط من شأنه ﷺ، فيبادره الإمام ﷺ: «أنا باقر»^(١)، والجاهل ربما لا يعلم أن من سباه باقر العلم هو رسول الله ﷺ، فالإستخفاف وإن وقع على الباقر ﷺ مباشرة، إلا أنه وقع على رسول الله ﷺ بصورة غير مباشرة.

٢ - الحلم تواضع لله تعالى: التواضع هو وضع المخلوق نفسه بمنزلة أدنى من غيره، فالتواضع يعلم موضعه في الوجود، فهو يعتبر نفسه مخلوقاً كباقي المخلوقات، لا يشعرهم بالتميز عليهم، مع أنه متميز فعلاً في صفاته عنهم بالإمامة والطهارة من الذنوب، وأفضل أنواع التواضع مع الناس هو أن يتعامل معهم بأناة وصفح، أي أن يدرك أن تواضعه للناس هو تواضع لله تعالى.

يقول ﷺ: «إن الله عز وجل يحب الحيي^(٢) الحليم»^(٣)، وينقل ﷺ عن رسول الله ﷺ قوله: «أن الله يحب الحيي الحليم، العفيف المتعفف»^(٤)، وأورد عن أبيه الإمام السجاد ﷺ قوله: «إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه»^(٥).

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣٣٧.

(٢) الحيي: من الحياة والنماء، إذا سرت فيه الروح، وعكسه الموت.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ١١٢.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ١١٢.

(٥) الكافي: ج ٢ / ص ١١٢.

وبذلك نزل الحليم إلى مستوى الأرض تواضعاً لخالقه عزّ وجلّ، وذلك التواضع للخالق تعالى ينعكس على سلوكه بين الناس، فتراه كَيِّساً فطناً بين الناس، يتحمل أذاهم، ويصفح عن أخطائهم، ويغفر زلاتهم، وتلك خصيصة من خصائص الإمام عليه السلام.

٣ - الحِلْمُ علاجٌ لقضيةٍ نفسيةٍ: لاشك أن التآني في الردّ على الأذى فيه تربية نفسية للمؤذي بالخصوص، فقد يتأثر المؤذي بسلوك الحليم عليه السلام، ولو رده الإمام عليه السلام بغضب لما حصلت الفائدة المرجوة، ولكن التعامل بلطفٍ مع مُسيء جاهل هو دواءٌ نفسي لعلاجه.

ومن ذلك أن رجلاً كان يختلف إلى مجلس الإمام عليه السلام ويحضر درسه إلا أنه كان مغيباً له عليه السلام، فقال له مرة: يا محمد إنما أغشى مجلسك لا حباً مني إليك، ولا أقول: إن أحداً أبغض إليّ منكم أهل البيت، وأعلم أن طاعة الله، وطاعة أمير المؤمنين ^(١) في بغضكم، ولكني أراك رجلاً فصيحاً لك أدب وحسن لفظ، فإنما اختلف إليك لحسن أدبك ^(٢).

فاعمله الإمام عليه السلام بحلمه المعهود، ولم يردّ عليه، فاعتذر الرجل لاحقاً، وأقرّ، بعد حين، بأن الباقر عليه السلام هو الإمام الذي ينبغي موالاته والإيمان بإمامته عليه السلام.

ليس للمسيء منطق غير الإساءة، فيناديه: يا محمد، وتلك إساءةٌ بحدّ ذاتها، وليس ذلك بغريب، فقد أسأؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ...﴾ ^(٣)، ثم يصرح عن بغضه لأهل البيت عليهم السلام، وإنما يختلف إلى الإمام عليه السلام

(١) يقصد عبد الملك بن مروان.

(٢) بحار الأنوار - المجلسي: ج ١١ / ص ٦٦.

(٣) سورة الحجرات: الآية ٤ - ٥.

لأنه فصيح، حسن الأدب، لم يرده الإمام عليه السلام وهو قادرٌ على ذلك، بل صفح عنه. فالمسيء جاهل على كل حال، ولا يمكن رده إلا بالعلم، وما يردُّ الإساءة الموجهة لأهل البيت عليهم السلام إلا العلم، فالإمام عليه السلام بحلمه تعامل مع ذلك المسيء، عن طريق استخدامه أسلوب التسامح، وطريق التأني.

٤ - الحِلْمُ معرفةُ الله: يعلّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن نتخلق بالأخلاق الفاضلة، فيقول صلى الله عليه وآله: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١)، ويقول صلى الله عليه وآله: «تخلّقوا بأخلاق الله...»^(٢)، ويقول صلى الله عليه وآله: «أفشوا السلام...»^(٣)، علّمنا الله تعالى عبر تبليغ رسوله صلى الله عليه وآله الرحمة في علاقاتنا الاجتماعية، فالله عزّ وجلّ الغفور الرحيم مع عباده، وهو السلام المؤمن المهيمن، ونحن كمخلوقات نتعلم الحِلْمُ أو الأناة في التعامل مع الناس من صفات خالقنا تعالى، فهو الحليم الذي يتأنى في المحاسبة والعقاب، وهو الغفور الذي يغفر الذنوب.

وبكلمة، فالحليم عليه السلام يعرف الله عزّ وجلّ معرفة راسخة، ذلك لأن الله حليم، فكيف يخالف العابد العالمُ صفةً من صفات خالقه وربّه، وهو يتوجه إليه في كل لحظة مسبّحاً، ذاكراً، باكياً من خشيته!

ومن ذلك رواية الرجل الذي كان يجب أن يقدحه بكلماتٍ جارحاتٍ:

..، فقال: أنت ابن السوداء الزنجية البذية، فأجابه عليه السلام: «إن كنت صدقتَ غفر الله لها، وإن كنت كذبتَ غفر الله لك»^(٤)، وجوابه عليه السلام فيه معرفة كاملة بالله تعالى، فجعل عليه السلام

(١) سنن الترمذي: ج ٤ / ص ٣٢٢.

(٢) المحجة البيضاء - الكاشاني: ج ٣ / ص ٦٤.

(٣) سنن الترمذي: ج ٢ / ص ٣٤٠.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣٣٧.

الغفران الالهي النقطة الوسطية التي تدور عليها الأحداث، فإذا كان المعتدي صادقاً في دعواه، سأل الله المغفرة لأمه، وإن كان كاذباً في دعواه سأل الله المغفرة له، وفي ذلك حلمٌ أساسه معرفة الله تعالى.

٥ - الحِلْمُ قدرةٌ على كظم الغيظ: وإذا كان العلمُ قدرةً نظريّةً على الإدراك والفهم، فإن الحِلْمُ هو قدرةٌ عملية على تطبيق ذلك العلم.

والقدرة على كظم الغيظ هي القدرة على فهم الحياة من زاوية التعامل بالفضائل وترك الرذائل، فإذا كان الغضب، وعدم التآني، والشتم، والسب رذائل، فإن الحلیم لا يتعامل معها، وإذا واجهها من قبل شخص يريد الإساءة، فلا بد أن يقابله بالحلم والتآني والنصيحة.

ومن ذلك رواية ابن شهر آشوب (ت ٥٥٨هـ) في المناقب، وهي رواية مشابهة لرواية المجلسي (ت ١١١١هـ) في بحار الأنوار المذكورة آنفاً، لكن مضمونها يختلف، يقول نص الرواية «أن شامياً كان يختلف إلى مجلس الإمام الباقر عليه السلام، ويقول له: طاعة الله في بغضكم، ولكنني أراك رجلاً فصيحاً، فكان أبو جعفر عليه السلام يقول: لن تحفى على الله خافية، فمرض الشامي، فلما ثقل، قال لوليه: إذا أنت مددت عليّ الثوب، فأنت محمد بن علي عليه السلام، وسله أن يصلي عليّ، قال: فلما أن كان في بعض الليل ظنونا أنه برد، وسجّوه، فلما أن أصبح الناس خرج ولية إلى أبي جعفر، وحكى له ذلك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «كلا، إن بلاد الشام صرد، والحجاز بلاد حرّ، ولحمها شديد، فانطلق، فلا تعجلن علي صاحبكم حتى آتيكم»، قال: ثم قام من مجلسه، فجدد وضوءاً، ثم عاد فصلى ركعتين، ثم مدّ يده لتلقاء وجهه ما شاء الله، ثم خرّ ساجداً حتى طلعت الشمس، ثم نهض، فانتهى إلى مجلس الشامي، فدخل عليه، فدعاه فأجابته ثم أجلسه،

فدعا له بسويق، فسقاه، وقال أملئوا جوفه، وبردوا صدره بالطعام البارد.

ثم انصرف، وتبعه الشامي، فقال: أشهد أنك حجة الله على خلقه»^(١).

فعامله الإمام عليه السلام بحلمه المعهود، ولم يردّ عليه إساءته، فكان ذلك الحلم مدعاةً لهدايته إلى الحق.

وبكلمة إجمالية، فإن الحلیم هو من يمتلك الحقائق، ويسير عليها في حياته، فالحلم عند الإمام عليه السلام هو الترجمة الأخلاقية العملية لعلمه عليه السلام.

من مصاديق حلم الإمام عليه السلام :

وبعد التدبر في معاني الحلم والحليم، فإننا لا نبالغ إذا قلنا بأن الإمام الباقر عليه السلام كان أفضل أهل زمانه حِلماً، كان يقابل الناس بالبر والإحسان، ويتفضل عليهم بالكلمة الطيبة، ويساعدهم على إتمام شؤونهم.

وفي ذلك روايات دُكرت سابقاً نثبتها هنا كمصاديق لحلمه عليه السلام:

١ - إن رجلاً حاول أن يزعجه عليه السلام بعبارات قاذحة منها: أنت بقر، فأجابه الإمام عليه السلام: «أنا باقر»، ثم استرسل ذلك الرجل، فقال: أنت ابن السوداء الزنجية البذية، فأجابه عليه السلام: «إن كنت صدقتَ غفر الله لها، وإن كنت كذبتَ غفر الله لك»^(٢).

٢ - في زيارته الثالثة إلى دمشق، حيث أمر هشام عامله على المدينة المنورة بحمل الإمام عليه السلام إليه، واجهه هشام وقال: «يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين، ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم...»، ثم سكت هشام، وجعل حاشيته تنال من الإمام عليه السلام من قدحٍ وشتمٍ وذمٍ، وعندما انتهوا من كلامهم،

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٢ / ص ٢٧٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج ٣ / ص ٣٣٧.

تكلم الإمام عليه السلام بحلم، فقال: «أيها الناس: أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملكٌ معجّل، فإن لنا ملكاً مؤجّلاً، وليس بعد ملكنا ملك؛ لأننا أهل العاقبة، والعاقبة للمتقين...»^(١).

وبعد خروجه من مجلس هشام بن عبد الملك سنحت له عليه السلام الفرصة لوعظ أهل الشام الذين كانوا يكيلون له السبّ والشتم، فقام فيهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «[أيها الناس] اجتنبوا أهل الشقاق، وذرية النفاق، وحشو النار، وحصب جهنم عن البدر الزاهر، والبحر الزاخر، والشهاب الثاقب، وشهاب المؤمنين، والصراط المستقيم، من قبل أن نظمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو يلعنوا كما لعن أصحاب السبت، وكان أمر الله مفعولاً...»^(٢).

ثم قال عليه السلام مدافعاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومبرزاً فضله: «أبصنو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٣) تستهزئون؟ أم بيعسوب (٤) الدين تلمزون؟ وأي سبيل بعده تسلكون؟ وأي حزن بعده تدفعون؟ هيهات برز والله بالسبق وفاز بالخصل (٥)، واستولى على الغاية، وأحرز على الختار (٦) فانحسرت عنه الأبصار، وخضعت دونه الرقاب، وفرع الذروة العليا، فكذب من رام من نفسه السعي، وأعياه الطلب، فأنى لهم التناوش (٧) من مكان بعيد؟!»

(١) بحار الأنوار: ج ١١ / ص ٧٥.

(٢) مناقب آل طالب: ج ٤ / ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٣) يعني الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٤) اليعسوب: ملكة النحل، ويعسوب القوم: رئيسهم وكبيرهم، ويعسوب الدين: زعيم الدين وسيدهم بعد خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(٥) الخصل: الهدف.

(٦) الختار: الغدر.

(٧) التناوش: التناول.

فأنى يسدّ ثلثة أحي رسول الله ﷺ إذ شفعوا، وشقيقه إذ نسبوا وندّ يده^(١) إذ قتلوا، وذى قرين^(٢) كنزها إذ فتحوا، ومصلي القبلتين إذ تحرفوا، والمشهود له بالإيمان إذ كفروا، والمدعي لنبذ عهد المشركين إذ نكلوا، والخليفة على المهاد ليلة الحصار إذ جزعوا، والمستودع الأسرار ساعة الوداع...»^(٣).

ذلك الإستدعاء كان محاولة من هشام بن عبد الملك للتقليل من منزلة الإمام ﷺ واستفزازه بشتى الطرق، ولكن الإمام ﷺ كما عهدناه في سلوكه الحكيم طرح الحقائق التي كان لابد من طرحها في تثبيت أسس الإسلام، والولاية الحقة لأهل بيت النبوة ﷺ.

كان الإمام ﷺ يتعامل مع الناس بالحلم والهدوء خصوصاً وهو يعيش أيام ظلم السلاطين، وعدم رحمتهم بالناس، وكأنه يتذكر هذه الآية دوماً: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٤).

كان الحلم قوة للإمام ﷺ حيث تعامل مع شتى أصناف الناس من كاره، أو جاهل، أو حاسد، فكان عليه أن يتعامل معهم بصبرٍ وأناة، وهذا ما كان يفعله ﷺ معهم جميعاً.

(١) ندّ يده: ند: صفة مشبهة تدلُّ على الثبوت، من ندي، ولعل المعنى: الثابت معه في المحن.

(٢) ذي قرين: القرين هو المصاحب والملازم.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٤) سورة النحل: الآية ٦١.

(٣)

الأفضلية في الصبر

الصبر والصلاة هما الوسيلتان اللتان يمكن عن طريقهما مواجهة مشاق الحياة الاجتماعية، فالصبر سلاحٌ عقليٌّ، والصلاة سلاحٌ روحي يجيزان الإنسان بقبالية فريدة في معالجة الإبتلاءات التي يتلى بها الإنسان في حياته.

الصبر في القرآن الكريم:

الصبر من أعظم الملكات الأخلاقية التي مدحها القرآن الكريم، وقد بلغت المواضع التي ذكرها القرآن في الصبر نحواً من سبعين موضعاً، فقال تعالى فيه: ﴿...وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١)، ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٢)، ﴿... إِنَّمَا يُوفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣)، ومعناه: حبس النفس على فعل شيء أو تركه ابتغاء وجه الله تعالى، قال عز وجل مادحاً من صبر: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٤).

وهو على أنواعٍ ثلاثة:

الأول: صبرٌ على الإبتلاء، وفيه قوله تعالى: ﴿وَلَبَلُّوْكُمْ بِنِجْيٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٤) سورة الرعد: الآية ٢٢.

المُهْتَدُونَ ﴿١﴾.

الثاني: صبرٌ على طاعة الله، وفيه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(٢).

الثالث: صبرٌ عن معصية الله، وفيه قوله تعالى بشأن صبر نبي الله يوسف عليه السلام عن فعل المعصية مع امرأة العزيز: ﴿...كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣)، وحين التقى بأخوته قال يوسف عليه السلام: ﴿... قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤).

ودعا الله تعالى المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٥)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٦)، فكلُّ عزيمة تصغر بالصبر، وكلُّ غشاوة تزول بحلاوة الصلاة وما يتبعها من إيمان، وبالتسلح بالصبر وبالصلاة يستطيع المؤمن أن يواجه الحياة بمصاعبها وإبتلاءاتها مواجهة حكيمة.

والباعث على تحمل الصبر هو وجه الله تعالى، قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾^(٧)، وقد أثنى الله تعالى على الصابرين: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) سورة طه: الآية ١٣٢.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٤) سورة يوسف: الآية ٩٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٥٣.

(٧) سورة المدثر: الآية ٧.

رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١﴾.

وعندما يصبر الإنسان عن الشهوات عامة فهو عفيف، وعندما يصبر عن شهوة البطن خاصة فهو شريف، وعندما يصبر عن زينة الحياة الدنيا فهو زاهد، وعندما يصبر على داعي البخل في نفسه فهو جواد كريم، وعندما يصبر عن إجابة داعي العجلة والغضب فهو وقور حلِيم، فالصبر إذن هو مفتاح حياة المؤمن، وَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى الصَّابِرَ بِثَوَابٍ عَظِيمٍ مِنْ عِنْدِهِ: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾^(٢)، (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) ﴿٣﴾.

الصبر: الدليل العقلي

الصبر فضيلة من الفضائل المهمة، والسبب في عده فضيلة لأن أغلب الناس تريد تحقيق المكاسب وحل المشاكل بسرعة زمنية فائقة، والناس -على الأغلب- تبحث عن المال والسعادة المادية دون انتظار طويل، هنا تتجلى فضيلة الصبر عند الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤).

ولكن، لو نظر الإنسان إلى العالم من حوله لرأى أن الزمن بطيء، وأن التغيرات على الإنسان والأشياء تسير ببطء أيضاً، فالطبيعة والحياة تتحلان بالصبر، عدا الإنسان الذي يريد تحقيق أهدافه الذاتية على عجلة، فالإنسان يريد -ودون تأني- مالا وسعادة وخيراً واسعاً سريع المنال، كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ

(١) سورة الرعد: الآية ٢٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧٥.

(٣) سورة الرعد: الآية ٢٤.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٠.

الإنسان عجولاً^(١).

والمراد - والله أعلم - أن الإنسان غالباً ما يتعجل الأمور، من دعاءٍ يتمنى أن يُستجاب، أو مكسبٍ يتطلع أن يتحقق، فلا يتروى في طلب الشيء خصوصاً إذا تعلق بهواه الشخصي، فيطلبه عاجلاً حتى لو كان فيه شرٌّ، وباطلٌ.

ما بين الصبر والانتظار:

إنَّ عملية الصبر عموماً صعبةٌ على الإنسان، ولا يستطيع جميع الناس التحلي بها، وهنا لابد من التمييز بين المصطلحين: الصبر، والانتظار.

الصبر صفة أخلاقية للانتظار، وما الانتظار إلا عملية يقوم بها المنتظر لإتمام العمل، مثلاً يقوم المزارع ببذر البذرة في أحشاء الأرض ثم يسقيها بالماء، ثم يقوم بالعناية بالنبته لتصبح شجرة، و ينتظر حتى تثمر، تلك العملية تسمى بعملية الانتظار، فهو عمل، أما الصبر فهو صفة أخلاقية تجعل المنتظر يتحمل ألم الانتظار بإطمئنان، والصبر هو التحمل بقلب مطمئن آثار الظرف الذي يمر به المنتظر.

وإذا كان الصبرُ صفةً أخلاقيةً لعملية الانتظار أو التحمل، كان الصبر أعلى رتبةً من عملية الانتظار نفسها أو التحمل ذاته، فلربما يتحمل الإنسان أمراً ما، إلا أنه يشكو ويتظلم إلى الناس، وهذا ليس صبراً، بل الصبر هو الانتظار أو التحمل بقلبٍ ثابتٍ، ونفسٍ مطمئنةٍ، دون شكوى أو تظلم إلى الناس.

وطالما كان الصبر على أنواعٍ ثلاثة: واحدٌ على البلاء، وثانٍ على الطاعة، وثالثٌ عن المعصية، صار الصبر يشغل مساحةً واسعةً من حياة الإنسان؛ لأن الحياة تتضمن دائماً إبتلاءً، وطاعةً، وامتحاناً، ومن هنا عدَّ الصبر من أرقى الفضائل الأخلاقية التي أوصى

(١) سورة الإسراء: الآية ١١.

الله بها عباده، ولذلك قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)، كما ذكرنا آنفاً.

فالصبر على المصيبة هي حالة عقلية تجعل الصابر يقبل بقضاء الله تعالى بنفسٍ مطمئنةٍ، ويتحمل الأذى أو الحزن في ذلك، ومن ذلك صبر الإمام الباقر عليه السلام عندما مات ابنه الصبي عبد الله، وكان يحبه حباً جماً، فصبر على ذلك وقال: «إنا ندعو الله فيما يجب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يجب»^(٢).

والصبر على الطاعة، وهي حالة عقلية تجعل الصابر يتحمل كل المصاعب من أجل طاعة الله تعالى، كالصلاة المستحبة في الليل الطويل حيث تهجع فيه الناس وتأوي إلى فراشها، والإمام الباقر عليه السلام يصلي مائة وخمسين ركعة في الليلة الواحدة، وهو صابرٌ يتحمل أثر الجهد والإرهاق.

والصبر عن المعصية، وهي حالة عقلية تجعل الصابر يتحمل مشاق الطاعة ويتعد عن المعصية، فالصيام في يومٍ قاضٍ من شهر رمضان واجب وهو طاعةٌ لله تعالى، فالصبر عن الأكل والشرب هو صبرٌ عن معصية الله تعالى وصبرٌ على طاعته.

إذن فالصبر يعني أن الإنسان يقبل بقضاء الله تعالى وقدره بنفسٍ مطمئنةٍ، دون أن يُظهر حزنًا أو انزعاجًا على قدر الله تعالى وتدييره، فالصابر يسعى من أجل رزقه، إن جاءه رضي به، وإن لم يأتِه صبرٌ، أي انتظر قضاء الله تعالى برحابة صدرٍ وإيمانٍ بأن ما كتبه سبحانه أو منعه هو تديرٌ منه ورحمة.

وبالنتيجة فإن الصبر عند المعصوم عليه السلام حالة عقلية، أي إنه صمم حياته على الطاعة

(١) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٥١ / ص ٥٢.

التامة لله تعالى، وعلى عدم ارتكاب المعصية وإن كان قادراً عليها، وعلى القبول بقضائه تعالى في كل الأحوال.

الصبر والزمن:

الصبر مرتبط بالزمن، أي إن الصابر يتوقع أن يكون الزمن بطيئاً في تحقيق الأشياء، أو يحس أن الألم يمرُّ عليه ببطء فيحسبه فترة طويلة.

وطالما كان الصبر قضية موضوعية شخصية تخص الإنسان نفسه، وَقَعَ تحمُّله على عاتق الإنسان ذاته، ومن هنا كانت له تلك القيمة الأخلاقية؛ لأن الذي يتحمَّل إنما يتحمَّل لوحده.

وما يجعل الصبر قضية أخلاقية هو تحمُّل ثقل الزمن على كاهل الإنسان، فالصبر على تحمل الإبتلاء، إنما هو تأخيرٌ ذهني لعجلة الزمن من الإستمرار، فالصابر قد يتوقع تباطؤ مسيرة الزمن، ويقبل ذلك بإطمئنان، ونفس الكلام ينطبق على فكرة الصبر على المصيبة، فهو تحمل الألم، والرضا بقضاء الله تعالى على خطِّ موازٍ لتباطؤ مسير عجلة الزمن.

والإنسان عموماً على عجلة من أمره في إستلام المكافأة، والدافع عنده هو تحقيق الرغبة، وكلما كانت الرغبة قوية كان الدافع سريعاً، عندها يتلاشى صبره، وتنهار قدرته على التحمل، وتلك من أهم نقاط ضعف الإنسان.

ولما كان تحمل الصعاب من ابتلاءات أو آلام قضية زمنية تنتهي بانتهاء تلك الصعاب، بات الصبرُ منهج حياة بالنسبة للإمام عليه السلام، لأن حالته العقلية لا تنتهي بزمن ما، فالصبر هو صفة التحمل بقلبٍ رحبٍ مطمئنٍ دون تشكِّي أو تدمرٍ أو إظهارِ الألم للآخرين، نعم قد يشتكي إلى الله تعالى، وتلك عبادة متميزة، ولكن أن لا يشتكي إلى

الناس.

وبذلك بات الصبر أرقى رتبة من التحمل، لأن الصبر يرتبط بالإيمان بالله تعالى، بينما يرتبط التحمل بالإنسان نفسه، فربما ينتهي التحمل بعد انتهاء المعاناة، بينما يستمر الصبر مع الإنسان حتى بعد انتهاء المعاناة.

وللصبر فائدة عملية أخرى على روحية الإنسان، فما أن استسلم الإنسان لقضاء الله تعالى، انفتح قلبه على العبادة والدعاء والتفكير في الباري عز وجل.

فإذا كان صابراً أصبح خاشعاً: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١)، ومتقياً: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢)، ومحسناً: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

الجزع:

الجزع يقابل الصبر، وفي اللغة أن الجزع: ما يحسُّ به المرء من القلق، والإضطراب، وعدم الصبر، والجزع في أغلب حالاته هو عدم القبول بقضاء الله تعالى، أو التذمر من أفعال الناس، ويقابله الصبر، والتجلد، والتحمل، إلا أنه قد يُستخدم أيضاً في معاني الأسى أو الشجن والحزن، فهو لفظٌ مشتركٌ بين معنيين.

وعن طريق الصبر يستطيع المرء إدارة حياته الروحية والاجتماعية إدارة ناجحة، فالصابر العارف بالله إنما يؤخر المكافأة الدنيوية بمكافأة الهية في حياةٍ لاحقة، وبواسطة

(١) سورة البقرة: الآية ٤٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٨.

(٣) سورة هود: الآية ١١٥.

الصبر يستطيع الإنسان السيطرة على النفس التي تطمح إلى تحقيق طموحاتها على عجلة من أمرها؛ ذلك أن الصبر يرتبط بتهديب النفس، وينتج طمأنينةً قلبيةً يتمتع بها الإنسان المؤمن بالله تعالى، وبالنتيجة فإن الصبر يفتح الباب لتوسعة أفق الإنسان، في قضايا الوجود، والثواب، والمصلحة الإلهية للإنسان، والتدبير السماوي، والصابر المتأني يعلم أن الحياة الدنيا إنما هي بداية حياة أخرى أفضل.

أما الجازع فيحسبه المرء قلقاً، مضطرباً لا يعرف نهايةً لجزعه، ولا بدايةً لطمأنانه ولا لسكينته، فهو لا يقتنع بقضاء الله تعالى، ويتذمر في الوقت ذاته من أفعال الناس، وتلك قضية نفسية لا ينفع معها علاج.

النتيجة :

هل أن الصبر وسيلةٌ للوصول إلى هدف أم أنه غايةٌ بذاته؟ لاشك أن الصبر وسيلة أخلاقية لتأخير ما يطمح له الإنسان، فإذا كان طموح الإنسان الوصول إلى الرغبة الجسدية مثلاً، فالصبر هو الوسيلة لترويض النفس (صبرٌ عن المعصية)، وإذا كان طموح الإنسان القرب من الله أصبح الصبر وسيلة لتحقيق رضا النفس وذلك بحرمانها من لذة الطعام والشراب ونحوه في الصيام مثلاً (صبرٌ على الطاعة)، وإذا كانت النفس تتألم لفقدان الحبيب، فإن الرضا بقضاء الله تعالى يهدئ النفس (صبرٌ على البلاء).

وبالإجمال عُدَّ الصبر، بأنواعه الثلاثة، من أعظم الفضائل الإنسانية، ولم تغفله الكتب السماوية في جميع الأديان، وإلى ذلك قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ...﴾^(١).

(١) سورة النحل: الآية ١٢٧.

من مصاديق صبره عليه السلام :

كان الإمام الباقر عليه السلام عظيماً في صبره، واحتماله المكاره، كان لا بد له من التحلي بالصبر مطلقاً، فهو عابدٌ متقي مطيعٌ لله تعالى، يتحمل أذى الناس، وهو مثالٌ يُحتذى لأولئك الذين يتألمون ويعانون في حياتهم من ظلم الظالم، أو من قلّة التوفيق في الرزق، أو من الإبتلاءات التي قضى الله بها في عبادته، وفي تأكيد ذلك روايات، منها:

الرواية الأولى: عن يونس بن يعقوب، عن بعض أصحابنا، قال: «أتى قومٌ أبا جعفر عليه السلام فوافقوا صبيّاً له مريضاً، فرأوا منه اهتماماً وغمّاً وجعل لا يقرّ، فقالوا: والله لئن أصابه شيء إنا لتتخوف أن نرى منه ما نكره، قال: فما لبثوا أن سمعوا الصياح عليه، فإذا هو قد خرج عليهم منبسّط الوجه في غير الحال التي كان عليها، فقالوا له: جعلنا الله فداك لقد كنا نخاف مما نرى منك أن لو وقع أن نرى منك ما يغمنا، فقال لهم: «إنا لنحب أن نعافى فيمن نحب، فإذا جاء أمر الله سلّمنا فيما نحب»^(١)، وقد روي أنه كان للإمام عليه السلام ولد قد مرض ثم توفي، وكان الإمام عليه السلام يحب ولده حباً جماً، فقبل له: خشينا عليك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله، فأجاب بإطمئنان: «إنا ندعو الله فيما يحب، فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يحب»^(٢).

الرواية الثانية: عن زرارة قال: «ثقل ابنُ جعفر الصادق عليه السلام، والإمام الباقر عليه السلام جالسٌ في ناحية فكان إذا دنا منه إنسان قال: لا تمسه، فإنه إنما يزداد ضعفاً، وأضعف ما يكون في هذه الحالة، ومن مسه على هذه الحال أعان عليه، فلما قضى الغلام أمر به فغمض عينيه وشدّ لحياه، ثم قال لنا: «إن نجزع»^(٣) ما لم ينزل أمر الله، فإذا نزل أمر الله فليس لنا

(١) الكافي: ج ٣/ ص ٢٢٦.

(٢) تاريخ دمشق: ص ٥١-٥٢، عيون الأخبار - ابن قتيبة: ج ٣/ ص ٥٧.

(٣) إن نجزع: أي إن نحزن، وليس بمعنى عدم القبول بقضاء الله تعالى، كما أشرنا سابقاً.

إلا التسليم»، ثم دعا بدهن فأدهن واكتحل ودعا بطعام فأكل هو ومن معه، ثم قال: «هذا هو الصبر الجميل»، ثم أمر به فغسل، ثم لبس جبةً خَزَّ^(١)، ومطرف خز، وعمامة خز، وخرج فصلى عليه^(٢).

الرواية الثالثة: روي أنه كان جالساً مع أصحابه إذ سمع صيحة في داره، فأسرع إليه بعض مواليه فأسر إليه بشيء، فقال ﷺ: «الحمد لله على ما أعطى، وله ما أخذ، إنهم عن البكاء، وخذوا في جهازه، واطلبوا السكينة، وقولوا لها: لا ضير عليك، أنتِ حرّة لوجه الله لما تداخلك من الروع...»^(٣)، ورجع إلى حديثه، فتهيّب القوم سؤاله، ثم أقبل غلامه فقال له: قد جهّزناه، فأمر أصحابه بالقيام معه للصلاة على ولده ودفنه، وأخبر أصحابه بشأنه فقال لهم ﷺ: «إنه قد سقط من جارية كانت تحمله فمات»^(٤).

الدلالات:

١ - في الروايات الثلاث علّم الإمام ﷺ أصحابه أو ممن حضر عنده درساً في الصبر عند الإبتلاء أو المصيبة، فهو ﷺ يتصرف مع أولاده في غاية المحبة والعناية، قال ﷺ: «إنا لنحب أن نعافي فيمن نحب...»^(٥)، و«إنا ندعو الله فيما يجب...»^(٦)، أي نطلب من الله تعالى العافية لمن نحب، فنحن كبشر لنا عواطف ومشاعر أبوية.

ولكن ما أن يقع أمر الله تعالى حتى نسلّم: «... فإذا نزل أمر الله فليس لنا إلا

(١) الخز: من الثياب وهو ما يُنسج من صوفٍ.

(٢) تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٢٨٩.

(٣) عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ٢١٨.

(٤) عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ٢١٨.

(٥) الكافي: ج ٣ / ص ٢٢٦.

(٦) عيون الأخبار - ابن قتيبة: ج ٣ / ص ٥٧.

التسليم»^(١)، و«هذا هو الصبر الجميل»^(٢)، «... فإذا وقع ما نكره لم نخالف الله فيما يجب»^(٣)، و«الحمد لله على ما أعطى، وله ما أخذ...»^(٤)، وبالجملة فهو موقن بقضاء الله تعالى.

٢ - إن الإمام عليه السلام كان يتحسس بعاطفته الأبوية نحو ولده كأبي إنسان آخر، فيتألم لألمه، ويفرح لفرحه، ويسعد لسعادته، ولكن إذا جاء أمر الله تعالى كانوا أول المستسلمين لقضائه وقدره، فهم عليهم السلام مصداق الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٥).

٣ - نهى عليه السلام أهل بيته من الصياح والبكاء على الميت، فقال عليه السلام: «الحمد لله على ما أعطى وله ما أخذ، أنهم عن البكاء...»^(٦)، ومن ذلك نفهم أن الصبر على الإبتلاء يتمثل في ذكر الله تعالى من تلاوة القرآن، أو الصلاة، أو الترجيع أي قول: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٧)، أما البكاء والصياح فهو لا ينفع الميت بقدر ما يخفف عن الحي المفجوع!

٤ - أظهر الإمام عليه السلام الرضا التام بقضاء الله تعالى، ثم دعا بدهن وكحل وطعام، فتطيب وأكل ثم قال: «هذا هو الصبر الجميل»، وهذا في غاية الكمال في معرفة الله تعالى والإيمان بقضائه، والصبر الجميل هو صبر المطمئن بقضاء الله تعالى، الواثق بصدق

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٢٨٩.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٢٨٩.

(٣) عيون الأخبار: ج ٣ / ص ٥٧.

(٤) عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ٢١٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

(٦) عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ٢١٨.

(٧) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

وعده، القابل أشد القبول بحكمته، المستسلم لما أَرَادَهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرٍ .

٥ - وردت أيضاً روايات عن الإمام الباقر عليه السلام يذكر فيها الصبر، ومنها: «لما حضرت أبي علي بن الحسين عليه السلام الوفاة ضممني إلى صدره، وقال: يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي عليه السلام حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه عليه السلام أوصاه به: يا بني اصبر على الحق، وإن كان مرّاً»^(١)، وقال عليه السلام: «الصبرُ صبران: صبر على البلاء حسنٌ جميلٌ، وأفضل الصبرين: الورع عن المحارم»^(٢)، وعندما سُئِلَ: عن الصبر الجميل، قال عليه السلام: «ذلك صبرٌ ليس فيه شكوى إلى الناس»^(٣).

(٤)

الأفضلية في الكرم والجود

الجود من أعظم الفضائل التي بها يحيى المجتمع ويتناسك، وقد أكد عليه الإسلام، ووصفَ عطاء الإنسان لآخر محتاج شبيه له في الخلق عطاءً لله تعالى.

الكرم والجود في اللغة:

الكَرْمُ: ضد اللُّؤْمِ، كَرَمٌ كَرَامَةٌ وَكَرَمًا، فَهُوَ كَرِيمٌ وَكَرِيمَةٌ، وَكَرْمٌ فُلَانٌ: أُعْطِيَ بِسَهُولَةٍ وَجَادٌ^(٤).

والجود والسخاء: «الجود: المطر الغزير، وجاد الرجل بهاله يجودُ جُودًا، فهو

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٩١.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٩١.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٩٣.

(٤) جبهة اللغة - ابن دريد: ج ٢ / ص ٧٩٨.

جَوَادٌ»^(١)، و«قيل: الجواد هو الذي يعطي بلا مسألة، صيانةً للأخذ من ذلّ السؤال»^(٢)، و«السخاء: هيئة للإنسان داعية إلى بذل المقتضيات، حصل معه البذل أو لم يحصل، وذلك خُلُقٌ»^(٣).

الكرم في القرآن الكريم:

الكرم أو الجود من الصفات الحميدة، فقد وصف الله سبحانه نفسه بالكرم، الوهّاب، ففي صفة الوهّاب، قال تعالى: ﴿... وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٤)، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾^(٥)، وفي صفة الكرم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(٦)، وهو الذي يفوق عطاؤه عطاء ما سواه، ويعطي لا عن استحقاق، بل بتدبيرٍ منه سبحانه.

ووصف أهل الكرم بأعظم الصفات وهي صفة الفلاح بالآخرة، فقال: ﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٧).

وأطلق تعالى صفة الكرم على إبراهيم عليه السلام عندما أكرم عليه السلام الملائكة الذين دخلوا عليه عليه السلام ليسروه له وزوجه ثم ليلغوه إهلاكهم قوم لوط: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾^(٨)، فأكرمهم

(١) الصحاح - الجوهري: ج ٢ / ص ٤٦١.

(٢) تاج العروس: ج ٧ / ص ٥٢٧.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة - الراغب الأصفهاني: ص ٢٨٦.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٨.

(٥) سورة ص: الآية ٩.

(٦) سورة العلق: الآية ٣.

(٧) سورة الحشر: الآية ٩.

(٨) سورة الذاريات: الآية ٢٤ - ٢٥.

وذبح لهم عجلاً واستسمنه، ولم يعلمهم بذلك، وتلطف في إكرامهم، وعرض عليهم الطعام وهو يحسبهم بشراً.

وقال تعالى مادحاً مجموعة من المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَآظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، أي الذين ينفقون في سبيل الله في الغنى والفقير، أو في اليسر والعسر، أو في الرخاء والشدة، وإذا وُصفَ الله بالكرم فهو اسمٌ لإحسانه وإنعامه، مثل قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٢)، وإذا وُصفَ به الإنسان فهو اسمٌ للأخلاق والأفعال المحمودة منه، قال تعالى: ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾^(٣).

الكرم والوجود: الدليل العقلي

تعني صفة الكرم عند الإنسان أن يفكر الكريم بالآخرين قبل تفكيره بنفسه، وهو تفكيرٌ عقلائي بلحاظ الفضائل والأخلاق الحميدة، وبذلك يناقض الكرم شعوره بالأنا، ويخالف إحساسه بالأناية التي تزين للإنسان نفسه وذاته بعيداً عن الآخرين، أي إن الأناي يفكر بنفسه هو، لا غير.

والناس بفطرتهم يحتاجون غيرهم، في كل الأزمان والأماكن، فهم -بطبيعتهم- كائنات اجتماعية متباينة التوفيق في الرزق والعطاء، ومختلفة في القدرة والكسب، فالجود أو الكرم هو الاهتمام بالآخرين من ذوي الحاجات، وإعطاؤهم من قبل الكريم، سألوا أم لم يسألوا، وتلك الصفة الفاضلة تعتمد بالدرجة الأولى على أخلاقية الإنسان في العطاء، وعلى نيته في إثارة مصالح الناس على مصلحته الخاصة.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

لكن قضية الكرم أو الجود تصطدم دائماً بمشكلة البخل والأنانية أو حب الأنا، وهنا يُثار الإشكال التالي: ما هي المسافة الفاصلة بين الجود والأنانية؟ وما هي المسافة الفاصلة بين التفكير بالآخرين وإسعادهم وبين التفكير بالنفس فقط وإسعادها؟

لا يمكن للإنسان -وبسبب طبيعته- أن يقف في المنتصف أو على الحياد بين الإيثار والأنانية، أو بين الجود والأنا، لا بد أن يميل إلى أحد الطرفين، فإما أن يكون كريماً جواداً ينظر إلى حاجات الآخرين فيمنحهم ما تيسر تفضلاً منه، وإما أن يكون بخيلاً أنانياً ينظر لنفسه فقط، ولا ينظر لغيره من ذوي الحاجة خصوصاً وهو يملك ما يكفيهِ ويفيض على حاجته.

والبخل رذيلة من الرذائل، فلا يمكن أن تكون من صفات الإمام عليه السلام أبداً، ولكن يمكن أن تكون من صفات الحاكم الأموي مثلاً، كان سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) بخيلاً، بحيث سُمِّي بـ(رشح الحجارة) لبخله، فقد كان قاسياً في جمع الخراج، وكان شعاره: «أحلب الدرّ^(١) حتى ينقطع، وأحلب الدم حتى ينصرم»^(٢)، وعندما قدم عليه أحد الجباة قائلاً له: «إني ما جئتك حتى نُهكت الرعية وجُهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفّه عليها، وتحفّف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل»، فقال له سليمان: «هبلتك أمك، إحلب الدرّ فإذا انقطع فاحلب الدم»^(٣)!

شروط الكرم عند الإمام عليه السلام :

للكرم شروطٌ عند الإمام عليه السلام، وبدونها لا يمكن أن نعدّه كريماً، ومن شروط صحة

(١) الدرّ: اللّبن، أو الكثير منه.

(٢) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٨٠.

(٣) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٨٠.

فعل الكرم شرعاً الأمور التالية:

أولاً: طيبة نفس الكريم: إن الجود لا يعتبر جوداً أو كرمًا ما لم يقترن بطيبة نفس الكريم، فلا يمكن للمحسن أن يكون محسناً بدون الشعور بطيبة النفس خلال عملية الإعطاء، وإلا أصبحت عملية الإعطاء غصباً من لون ما، وقد ورد في المأثور: «المأخوذ حياءً كالمأخوذ غصباً»^(١)، والظالم وإن أعطى، فعطاؤه لا يعتبر جوداً لأنه خلط ذلك العطاء بالظلم، فيفتقد الآخذ طيبة النفس المشروطة في حسن العطاء، يؤكد الإمام الباقر عليه السلام على هذه المسألة، ويوصي أهله في حسن التعامل مع السائلين من الفقراء، ويقول: «لا تقولوا: يا سائل خذ هذا، بل قولوا: يا عبد الله بورك فيك، وسَمُّوه بأحسنِ أسمائه»^(٢)، وفي ذلك دلالة على طيبة نفس الكريم.

ثانياً: أن يكون دافع العطاء هو الله تعالى: بمعنى أن يكون المحرك لعطاء الكريم هو الله تعالى، فالنية الصادقة في الكرم والجود دون مقابل تُثبت أن الكرم كان إبتغاءً لوجه الله سبحانه، وتلك أرقى درجات الفضيلة، وهذا يعني أن الكريم يعطي ما عنده إلى محتاج حتى لو كان هو بأمس الحاجة إليه، وفي ذلك إيثار مخصوص لوجه الله تعالى. وقد وصف الله تعالى الأطهار من أهل البيت عليهم السلام ممن أطعموا الفقراء وبتوا جيعاً: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٣).

ثالثاً: أن يكون المعطى له محتاجاً: وإلا فإن الكرم مع الأغنياء، وعمل الولاثم لهم، وترك الفقراء من ذوي الحاجة يتضورون جوعاً ليس بكرم، ولا هدفه مرضاة الله، بل غايته دنيا يصيبها البازل، وما أكثر الهدايا التي يستلمها السلطان من الرعية! هل تعتبرها

(١) مقالات الأصول - الشيخ ضياء الدين العراقي: ج ٢ / ص ١٦٦.

(٢) البيان والتبيين: ص ١٥٨.

(٣) سورة الإنسان: الآية ٩.

كرماً من فقراء الرعية إلى السلطان؟ أم تعتبرها خوفاً من بطشه؟ أم تعتبرها تزلزلاً لتحقيق هدف ما؟ بالتأكيد ليست كرمًا بل عطاءات ذليلة ومنح لها حسابات سياسية!

في كرم أهل البيت عليهم السلام قال الكميت (ت ١٢٦هـ):

والغيوث الليوث إن أحمل الناس فمأوى حواضن الأيتام^(١)
 رابعاً: عدم المنّ على الفقير: فالكرم شفاءً نفسي للفقير، والعطاء مع المنّ والأذى لا يعتبر جوداً، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾^(٢)، إذا حذفنا المنّ من صفة الكرم، وأكدنا على طيبة نفس الكريم، أصبح الكرم والجود وسيلة من وسائل الراحة النفسية للفقير أو المحتاج، فالعطاء هنا لم يقتصر على منح العين أو المال للفقير، بل تجاوز إلى ترويح عن نفسه.

وربما يكون الجود بالكلمة الطيبة أفضل من إعطاء العين، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ تَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾^(٣).

ولاشك أن الهدف النهائي لكرم الإمام عليه السلام هو تطيب نفس المؤمن، وإشعاره بأنه عليه السلام معه في محنة الحاجة والفقر، وذلك التطيب أحياناً يعادل ما يعطيه الكريم من أشياء عينية، فالكرم أو الجود يُشعر الإنسان بالسعادة والغبطة، ولذلك كان الإمام عليه السلام يحمل ما قدّر عليه للفقراء ويقول عليه السلام: «هيأناها لكم من أول السنة»^(٤)، ومفهوم قوله عليه السلام هو أنكم في عقولنا وقلوبنا نفكر بحالكم، وملتاع لمشاقكم.

وبالإجمال، فإن الكريم كالإمام عليه السلام كان يفضل مصالح الناس على نفسه، ويعطيهم

(١) ديوان الكميت الأسدي: ص ٤٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٦٣.

(٤) الإرشاد: ص ٢٢٩.

ما يحتاجون، ويترك لنفسه القليل، أو ربما لا يترك لنفسه شيئاً، وهذا أعظم تهذيب للأنا التي تتحكم - غالباً - بالإنسان.

مصاديق كرم الإمام عليه السلام :

يلخص كرم الإمام عليه السلام تضافر الفضائل الأخلاقية مع الواجبات الدينية في مساعدة أهل الحاجة والمسكنة، فقد عُرف بأنه أكرم الناس في عصره، وأكثرهم سخاءً، فكان ينفق ما عنده ولا يُبقي لنفسه شيئاً، وبذلك كان يقتدي بسيرة النبي محمد عليه السلام، وسيرة أمير المؤمنين عليه السلام، وفاطمة الزهراء والحسين عليه السلام، وسيرة أبيه السجاد عليه السلام.

يقول الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) أنه عليه السلام كان «ظاهر الجود في الخاصة والعامة، مشهور الكرم في الكافة، معروفاً بالتفضل والإحسان، مع كثرة عياله وتوسط حاله»^(١).

كان عليه السلام سخياً من طرفين:

الأول: سخيٌّ عما في يد غيره، أي إنه متورعٌ عن مالٍ غيره، لا ينظر إلى ما في أيدي الناس، وفي ذلك رواية، حيث أقبل رجلٌ إليه عليه السلام، وقال: رحمك الله أقبض هذه الخمسمائة درهم فضعها في موضعها، فإنها زكاة مالي، فقال عليه السلام: «بل خذها أنت فضعها في جيرانك، والأيتام، والمساكين، وفي إخوانك من المسلمين...»^(٢).

وكان عليه السلام يوجه الناس نحو التعاون والسخاء فيما بينهم، ويقول لهم: «يا فلان كيف تواسيكم؟»، قلتُ: صالحٌ يا أبا جعفر! قال عليه السلام: «أيدخل أحدكم يده في كيس أخيه فيأخذ حاجته إذا احتاج إليه؟».

(١) الإرشاد: ص ٢٤٩.

(٢) علل الشرائع: ج ١ / ص ١٥٥.

قلت: أما هذا فلا! فقال عليه السلام: «أما لو فعلتم [ذلك] ما أحتجتم»^(١).

الثاني: سخيٌّ عما في يده، وهو أن يكون بهاله متبرعاً سخياً، قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «السخاء ما كان منه ابتداءً، فأما ما كان عن مسألة فحياءٌ وتكرمٌ»^(٢)، و«إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تُفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى»^(٣)، وإليه عليه السلام يُنسب:

لا تبخلنَّ بدنيا وهي مقبلةٌ فليس ينقصها التبذيرُ والسرفُ
وإن تولّت فأحرى أن تجود بها فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلفُ

وكان عليه السلام مؤمناً بأن التعامل مع الفقير لا يتم عن طريق المال فحسب، بل عن طريق الأخلاق الحسنة، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾^(٤)، وقد عهد الإمام عليه السلام - كما ذكرنا سابقاً - إلى أهله «إذا قصدهم سائل أن لا يقولوا له: يا سائل خذ هذا، وإنما يقولون له: يا عبد الله بورك فيك»^(٥)، وأوصاهم عليه السلام بالقول: «سمّوهم بأحسن أسمائهم»^(٦).

وكان عليه السلام باراً بفقراء المدينة المنورة، وقد أحصيت صدقاته عليهم فبلغت ثمانية آلاف دينار^(٧) في دفعة واحدة، كما يقول الصادق عليه السلام: «دخلت على أبي يوماً وهو يتصدق

(١) كشف الغمة: ج ٢ / ص ١٢١.

(٢) كنز العمال: ج ١٨ / ص ٦٩٥.

(٣) العقد الفريد - ابن عبد ربه: ج ١ / ص ٦٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

(٥) عيون الأخبار: ج ٣ / ص ٢٠٨.

(٦) البيان والتبيين: ص ١٥٨.

(٧) شرح شافية أبي فراس: ج ٢ / ص ١٧٦.

على فقراء أهل المدينة بثمانية آلاف دينار، وأعتق أهل بيتٍ بلغوا أحد عشر مملوكاً^(١)، مع أن الموارد المالية التي كانت تحت يده قليلة، فقد كان أقل أهل بيته مالاً وأعظمهم مؤونة.

وفي جوده وكرمه عليه السلام روايات أخرى، منها:

١ - روى سليمان بن قرم، قائلاً: «كان أبو جعفر يميزنا الخمسمائة درهم إلى الستائة درهم إلى الألف، وكان لا يملّ من صلة الإخوان وقاصديه وراجيه»^(٢).

٢ - كان عليه السلام محبوباً^(٣) قوماً يغشون مجلسه من المائة إلى الألف [درهم]، وكان يجب مجالستهم، منهم عمرو بن دينار، وعبد الله بن عبيد، وكان يحمل إليهم الصلة والكسوة، ويقول: «هَيَّأْنَا لَكُمْ مِنْ أَوَّلِ السَّنَةِ»^(٤).

٣ - قال الحسن بن كثير: شكوتُ إلى أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام الحاجة وجفاء الإخوان، فتأثر عليه السلام وقال: «بئس الأخ يرعاك غنياً، ويقطعك فقيراً»، ثم أمر غلامه فأخرج كيساً فيه سبعمائة درهم، وقال: «استنق هذه فإذا نفدت فأعلمني»^(٥).

٤ - روت مولاته سلمى فقالت: «كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب، ويلبسهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم...»^(٦)، وكان عليه السلام يقول: «ما حسنت الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف»^(٧).

(١) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٣٠٢.

(٢) الإرشاد: ص ٢٩٩.

(٣) محبوب: من حبا أي أعطى، أغدق، وهب.

(٤) عيون الأخبار وفنون الآثار: ص ٢١٧، الإرشاد: ص ٢٢٩.

(٥) صفة الصفوة: ج ٢ / ص ٦٣.

(٦) صفة الصفوة: ج ٢ / ص ٦٣.

(٧) صفة الصفوة: ج ٢ / ص ٦٣.

٥ - في أهل البيت عليهم السلام، قال الشاعر:

لو كان يوجد عَرَفٌ مجِدٍ قبلهم لوجدته منهم على أميالٍ
 إن جئتهم أبصرت بين بيوتهم كرماً يقيك مواقف التسالٍ
 نور النبوة والمكارم فيهم متوقِّدٌ في الشيب والأطفالِ^(٨)

وفيهم قال الفرزدق (ت ١١٠هـ)، وهو يقصد بالخصوص الإمام زين العابدين عليه السلام:

إذا رآته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم^(٩)

٦ - قال عليه السلام: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة»^(١٠)، ونقل عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «السخي قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار»^(١١)، وعنه عليه السلام يرسله عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع، وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع، ينظر الله إليهم يوم القيامة»^(١٢).

٧ - وقال عليه السلام: «والله لأن أحجّ حجة أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة ومثلها، ومثلها حتى أبلغ عشراً ومثلها ومثلها حتى أبلغ السبعين، ولأن أعول أهل بيت من المسلمين أسدّ جوعتهم، وأكسو عورتهم، فأكفّ وجوههم عن الناس أحبّ إليّ من أن أحجّ حجة وحجة وحجة ومثلها ومثلها، حتى أبلغ عشراً ومثلها ومثلها حتى أبلغ السبعين»^(١٣).

(٨) سير أعلام النبلاء: ج ٤ / ص ٤٠٤.

(٩) سير أعلام النبلاء: ج ٤ / ص ٣٩٨.

(١٠) الاختصاص: ص ٣٠.

(١١) بحار الأنوار: ج ٧٣ / ص ٣٠٨.

(١٢) الكافي: ج ٢ / ص ٦٦٨.

(١٣) الكافي: ج ٢ / ص ١٩٥.

٨ - وعنه عليه السلام: «من خالطت فإن استطعت أن تكون يدك العليا عليه فافعل»^(١).

ما بين الجود على الناس والزهد على نفسه عليه السلام:

ومع كرمه عليه السلام كان أفضل زهاد زمانه، فقد أعرض عن الدنيا ولم تُعرض الدنيا عنه عليه السلام، ولم يتخذ الرياش^(٢) في داره، وإنما كان يفرش في مجلسه حصيراً^(٣).

قال عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفي: «إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب»، فيسأله: وما حزنك؟ فيقول عليه السلام: «إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه، ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون؟ هل هي إلا مركب ركبته؟ أو ثوب لبسته؟ أو امرأة أصبتها؟»^(٤).

قال الباقر عليه السلام: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد أخبرني بعمل يجني الله عليه، قال صلى الله عليه وآله: يا أعرابي ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس تحبك الناس»^(٥).

زهد الباقر عليه السلام حتى في طعامه، ينقل لنا التاريخ وجهاً من وجوه زهده في الطعام: يقول أحدهم: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام وهو يأكل خلاً وزيتاً في قصعة..، فأمرني أن ادنو، فدنوت فأكلت معه، ثم حسا من الماء ثلاث حسيات حين لم يبق من الخبز شيء، ثم ناولني فحسوت البقية»^(٦).

فهو عليه السلام مع كرمه وجوده مع الناس، إلا أنه كان زاهداً في حياته، وطعامه الخل والزيت، وفراشه الحصير، وكان أخف الناس مؤونةً، ولا يشغله من الدنيا إلا ذكر الله

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٦٦٩.

(٢) الرياش: أثاث البيت أو المجلس.

(٣) دعائم الإسلام: ج ٢ / ص ١٥٨.

(٤) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ٣١٠.

(٥) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ٢٠٤.

(٦) الكافي: ج ٢ / ص ٤٨٧.

تعالى، وحسن عبادته.

(٥)

الأفضلية في البلاغة

البلاغةُ طريقٌ فني لإيصال المعلومة إلى المخاطبين، وتحريك مشاعرهم نحو الإيذان بخالقي الوجود، وتنفيذ ما أوصاهم به الله تعالى، والبلاغة والفصاحة من الألفاظ المشتركة في اللغة.

البلاغةُ لغةٌ: الوصول والانتهاء إلى الشيء، قال تعالى: ﴿وَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾^(١)، أي وصل، يقال: بلغ الإنسان مراده إذا انتهى إليه.

البلاغةُ إصطلاحاً: هي حسن البيان، وقوة التأثير، والوصول إلى المعنى بكلامٍ بليغٍ، فالبلاغةُ في الكلام هو مطابقته للمراد من المعاني مع فصاحة ألفاظه، وحسن سبكها، و«بلاغةُ المتكلم هي ملكةٌ في النفس يقتدرُ بها صاحبها على تأليف كلامٍ بليغٍ، مُطابقٍ لمقتضى الحال^(٢)، مع فصاحته في أي معنى قصده، وتلك غايةٌ لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب خبيراً، وعرف سنن مخاطبهم في مُناظراتهم، ومُفاخراتهم، ومديحهم، وشكرهم، واعتذارهم، ليلبس لكل حالةٍ لبوسها»^(٣).

والوصول إلى المعنى - فيما نحن فيه - بالكلام البليغ لا يتم إلا بمطابقة الخطاب الشرعي لمقتضى حال الخطاب، من الأوامر والنواهي والإرشادات مع فصاحتها، تركيباً وأسلوباً.

(١) سورة يوسف: الآية ٢٢.

(٢) مقتضى الحال: أي مقتضى حال الخطاب.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة - الخطيب القزويني: ص ١٤.

والبلاغة عند الإمام عليه السلام تعني وضوح دلالة الألفاظ التي يخاطب بها المكلفين بمعانيها الشرعية الحقيقية، حيث تقوم على أساس فطرة الإمام عليه السلام في تذوق الألفاظ البليغة، وعلى بصيرته النافذة التي تُحكّم بناء الأفكار الجدية التي يطمئن لها العقل والقلب معاً.

وإذا كانت البلاغة فناً يعتمد على الاستعداد الفطري، وعلى إدراك الجمال اللفظي، فإن الإمام عليه السلام وضع الكلمات البليغة في مواضعها الصحيحة، واختار دقة الأسلوب، فجاءت أفكاره بتلك الصورة البديعة الخلابّة.

«سئل ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الإحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل»^(١).

لم يكن الإمام الباقر عليه السلام بليغاً في اختيار الكلمات العربية البليغة فحسب، بل كان بليغاً في بناء التراكيب اللغوية التي تعطي المعاني ذلك الوضوح والعمق، وهي التي يسميها علماء اللغة بـ(النظم)، وهذا ما اعتقده الجرجاني (ت ٤٧٤ هـ) لاحقاً حينما قال: «إن البلاغة والجمال الفني، ليس في الألفاظ والمعاني، بل في التراكيب أو العلاقة القائمة بين الألفاظ في العبارات، وما ينتج من هذه العلاقات من معاني أو نظم»^(٢).

الفصاحة: معناها البيان والظهور، قال تعالى على لسان موسى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾^(٣). قالت العرب: أفصح الصبحُ: إذا أضاء وبان، والبلاغة والفصاحة

(١) البيان والتبيين: ج ١ ص / ١١٤.

(٢) دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني: ص ٥١.

(٣) سورة القصص: الآية ٣٤.

كلمتان مترادفتان.

وقال الجوهري (توفي نحو ٤٠٠هـ): «الفصاحة: هي البلاغة»^(١)، والكلام لا يكون بليغاً إلا إذا كان فصيحاً، وكلام الإمام عليه السلام كان بليغاً لأن ألفاظه كانت فصيحة، غير متوعرة، ولا من ألفاظ العامة، ولا متنافرة الحروف، ولا غريبة الإستعمال، ولا خارجة عن السياق.

كان كلامه عليه السلام في خطاب الناس: إيجازاً من غير عجز، وإطناباً من غير خَطَل^(٢)، وذا معانٍ كثيرةٍ في ألفاظٍ قليلةٍ، وقوة على بيان مع حسن انتظام، وأصابة المعنى، وقصد الحجة.

وكانت مناظراته عليه السلام محاولةً ناجحةً لإستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وتلك من أساليب البلاغة؛ لأنها تحقق بلوغ غرض المخاطب بها.

جنبَةُ البلاغةِ عند الإمام عليه السلام :

في كلام الإمام الباقر عليه السلام جوانب بلاغية رائعة، نعرضها في البيان، والمعاني، والبديع، ووضوح عباراته عليه السلام، وجمالية تركيبها يُغنيننا عن الشرح والإسهاب.

١ - في البيان: يُراد به إيراد المعنى الواحد بطرقٍ مختلفة في وضوح الدلالة عليه، وفيها ألوان من البلاغة، والفصاحة، وثراء المعاني.

لاحظ وجوه البيان والبلاغة في عمل يوم الجمعة، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «تصلي ركعتين، وتقول مسترسلاً: اللهم صلّ على محمدٍ وآله، وأجرني من السيئات،

(١) الصحاح - الجوهري، مادة: فصح: ج ١ / ص ٣٩١.

(٢) الخَطَل: المنطق الفاسد والكلام المضطرب، في حديث علي عليه السلام: «... فركب بهم الزلزل، وزين

لهم الخطل» النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير: ج ٢ / ص ٥٠.

واستعملني عملاً بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، وأعذني من نارك وسخطك، اللهم إن قلبي يرجوك لسعة رحمتك، ونفسي تخافك لشدة عقابك، فوفقني لما يؤمنني مكره، ويعافيني من سخطك، واجعلني من أوليائك، وتفضل علي برحمتك ومغفرتك، واسترني بسعة فضلك عن التذلل لعبادك، وارحمني من خيبة الردّ وسفع نار الحرمان.

اللهم أنت خير مأتي، وأكرم مزور، وخير من طلبت إليه الحاجات، وأجود من أعطى، وأرحم من استرحم، وأرأف من عفي، وأعزّ من اعتمد، اللهم وبني إليك فاقة، ولي عندك حاجات، ولك عندي طلبات من ذنوب أنا بها مرتهن، قد أوقرت ظهري وأوبقتني، وإلا ترحميني وتغفرها لي أكن من الخاسرين.

ثم تحزّ ساجداً، وتقول: اللهم إني أتقرب إليك بجودك وكرمك، واتشفع إليك بمحمد عبدك ورسولك، وأتوسل إليك بملائكتك المقربين وأنبيائك المرسلين، أن تقلبني عثرتي، وتستر عليّ ذنوبي، وتغفرها لي، وتقلبني بقضاء حاجتي، ولا تعذبني بقضاء ما كان مني، يا أهل التقوى وأهل المغفرة، يا برّ يا كريم، أنت أبرّ من أبي وأمي، ومن نفسي، ومن الناس أجمعين، بي إليك فاقة وفقر، وأنت غنيّ عني، فصلّ على محمد وآله واستجب دعائي، وكفّ عني أنواع البلاء، فإن عفوك وجودك يسعني.

ثم ترفع رأسك، وتصلّي ركعتين، وتقول: اللهم صلّ على محمد وآله واستعملني بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، وأعذني من نارك وسخطك، اللهم عظمّ النور في قلبي، وصغرّ الدنيا في عيني، وأطلق لساني بذكرك، وأخرس نفسي من الشهوات، واكفني طلب ما قدرته لي عندك، حتى أستغني به عما في أيدي عبادك.

ثم تصلي ركعتين، وتقول: اللهم صلّ على محمد وآل محمد وأجرني من السيئات، واستعملني بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، وأعذني من نارك وسخطك، اللهم أغثني

باليقين، وأعزني بالتوكيل، واكفني روعة القنوط، وافتح لي في انتظار جميل الصنع، وافتح لي باب الرحمة، وحبب إليّ الدعاء، وصله منك بالإجابة.

ثم تصلي ركعتين، وتقول: اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ وأجرني من السيئات، واستعملني بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، وأعذني من نارك وسخطك، اللهم استعملني بما علمتني ومتعني بما رزقتني، وبارك بي في نعمك عليّ، وهب لي شكراً ترضى به عني، وحمداً على ما ألهمتني، واقبل بقلبي إلى ما يرضيك عني، واشغلني عما يباعدني منك، وألهمني خوف عقابك، وازجرني عن المنى لمنازل المتقين بما يسخطك، وهب لي الجِد في طاعتك يا أرحم الراحمين.

ثم تصلي ركعتين، وتقول: اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ، وأجرني من السيئات، واستعملني بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، وأعذني من نارك وسخطك، اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ واجعل لي قلباً ظاهراً، ولساناً صادقاً، ونفساً ساميةً إلى نعيم الجنة، واجعلني بالتوكل عليك عزيزاً، وبما أتوقعه منك غنياً، وبما رزقتنيه قانعاً راضياً، وعلى رجائك معتمداً، وإليك في حوائجي قاصداً، حتى لا أعتد إلا عليك، ولا أثق فيها إلا بك.

ثم تصلي ركعتين، وتقول: اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ وأجرني من السيئات، واستعملني عملاً بطاعتك، وارفع درجتي برحمتك، واعذني من نارك وسخطك، اللهم ظلمت نفسي، وعظم عليّ إسرافي، وطال في معاصيك إنهماكي، وتكاثفت ذنوبي، وطال بك اغتراري، وتظاهرت سيئاتي، ودام للشهوات إتباعي، فأنا الخائب إن لم ترحمني، وأنا الهالك إن لم تعف عني، فاغفر لي ذنوبي، وتجاوز عن سيئاتي، وأعطني سؤلي، واكفني ما أهمني، ولا تكنني إلى نفسي فتعجز عني، وأنقذني برحمتك من خطاياي سيدي»^(١).

ويمكننا ملاحظة صور البيان والبلاغة أيضاً في الروايات التالية:

١ - عن الإمام الباقر عليه السلام قول النبي صلى الله عليه وآله عندما افتقد رجلاً شكاً له المرض وثقل العيال، فقال صلى الله عليه وآله: «ألا أعلمك بكلماتٍ تدعو بهن يذهب الله عنك السقم، وينفي عنك الفقر، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، توكلتُ على الحيّ الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً»^(١).

٢ - عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾^(٢): «فأما اللباس فالثياب التي يلبسون، وأما الرياش فالمتاع والمال، وأما لباس التقوى فالعفاف؛ لأنّ العفيف لا تبدو له عورة وإن كان عارياً من الثوب، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من الثياب»^(٣).

٣ - عن الإمام الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربع من كنّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٤)، ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب خطيئة قال: استغفر الله وأتوب إليه»^(٥).

(١) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ٣٢٠.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٣) تفسير القمي ج ١ / ص ٢٢٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

(٥) ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق: ص ١٩٨.

الدلالات:

في عمل يوم الجمعة، يذكر الإمام ﷺ صلاة ركعتين ست مرات، والظاهر أن هذا ليس من نافلة الظهرين في الأيام الأخرى غير الجمعة، وفي كل مرة يدعو بدعاء مختلف، ولكن يراد منه معنى مشترك وهو التذلل والطلب من الله عزّ وجلّ برحمة هذا العبد الضعيف.

ففي الأولى: يدعو تعالى إلى المغفرة، وهو بين الخوف والرجاء، ثم يستعطفه تعالى بأنه الأكثر رحمة، والأجود في العطاء، وعليه الإعتماد لا على غيره، وفي الثانية: يدعو إلى تصغير الدنيا في عينه، وإبعاده عن الشهوات، وفي الثالثة: يدعو إلى تحصيل اليقين، وترك القنوط، وفتح أبواب الرحمة له.

وفي الرابعة: يدعو إلى القبول بما يُرضي الله تعالى، وعدم شغله بما يبعده عنه تعالى، وفي الخامسة: يدعو أن يكون دائماً متوكلاً عليه، وقانعاً بما قسمه له من رزق، وفي السادسة: يدعو ويلجّ عليه بتجاوز سيئاته؛ لأن ذنوبه وشهواته قد طغت عليه، ولا يمكن إنقاذه إلا برحمة منه تعالى.

وفي الروايات الثلاث التي تلتها عرضُ في البيان للتوكل على الله تعالى، ولباس التقوى، وأركان الحياة العملية.

فعلى صعيد ثقل الحياة ومشاكلها، كان التوكل على الحي القيوم الذي لا يموت، والتقربُ إليه عبر الكلمات الطيبات لرسول الله ﷺ من وسائل رفع الإبتلاء بالفقر والمرض، وهذا الدعاء من أجمل الأدعية وأكثرها بياناً؛ لأنه يحمل قضايا التوحيد في جمل قليلة واضحة.

وعلى صعيد التقوى، فإن اللباس على نوعين: لباس مادي ظاهر، وهو الذي يستر

عورة الإنسان ظاهراً، ولباس روعي إيماني يستر معاصي الإنسان، ولباس التقوى يستر العفيف المتقي، وإن كان عارياً من الثوب، بينما لا يستر الفاجر ثوب حتى ولو كان كاسياً من الثياب، وفي الرواية بيانٌ جميلٌ لمعنى اللباس وعلاقته بالتقوى أو الفجور.

وعلى الصعيد الثالث أوضحت الرواية قول الباقر عليه السلام الذي يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أركان الحياة العملية الأربع وهي: الإسلام، والإبتلاء، والغنيمة أو الرزق، ومشكلة المعصية، فأعظم الأمور في حياة المسلم هو قول الشهادتين والإقرار بهما، وما يقال عند حدوث المصيبة من الترجيع، وهو قوله تعالى: ﴿...إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١)، وإذا أصاب رزقاً أو خيراً قال: الحمد لله، وإذا ارتكب خطيئة قال: استغفر الله واتوب إليه. وفي الرواية وجوهٌ من البيان، والبلاغة ما لا يخفى.

وبالإجمال، فإن البيان في تلك الروايات هو إيراد المعنى الواحد، وهو الإتصال اللفظي والفكري بالله سبحانه وتعالى، بطرقٍ مختلفةٍ متعددة، مع وضوح الدلالة عليه.

٢ - في المعاني: يُراد به معرفة أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى حال الخطاب.

القطعة الآتية قطعة غاية في الأدب والبلاغة، ثرية في المعاني، غنية في الأفكار والمفاهيم، نقلها الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله دعاءً عند الخوف، والحزن، والكرب والدخول على الظالم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يا صريخ المكروبين، يا مجيب دعوة المضطرين، يا كاشف الكرب العظيم، يا أرحم الراحمين، اكشف كربى وهمي فإنه لا يكشف الكرب إلا أنت، فقد تعرفُ حالي، وحاجتي، وفقري، وفاقتي، فاكفني ما أهمني وما غمني من أمر الدنيا والآخرة بجودك وكرمك.

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

اللهم بنورك اهتديت، وبفضلك استغنيت، وفي نعمتك أصبحت وأمسيت، ذنوبي بين يديك، استغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أسألك من حلمك لجهلي، ومن فضلك لفاقتي، ومن مغفرتك لخطاياي.

اللهم إني أسألك الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، اللهم اجعلني أخشاك إلى يوم ألقاك حتى كأني أراك، اللهم أوزعني أن أذكرك كي لا أنساك ليلاً ولا نهاراً، ولا صباحاً ولا مساءً، آمين رب العالمين.

اللهم إني عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاائك، مجزئٌ في فضلك وعطائك، اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تصلي على محمدٍ وآل محمدٍ، وأن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي.

اللهم إني أسألك يا أكبر من كل كبير، يا من لا شريك له ولا وزير، يا خالق الشمس والقمر المنير، يا عصمة الخائفين، وجار المستجيرين، ويا مغيث المظلوم الحقير، ويا رازق الطفل الصغير، ويا مغني البائس الفقير، يا جابر العظم الكسير، يا مطلق المكبل الأسير، يا قاصم كل جبار عنيد، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ويسراً، وارزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب، إنك سميع الدعاء يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، اللهم إنك محسنٌ فأحسن إلي، اللهم إنك رحيمٌ تحب الرحمة فارحمني، اللهم إنك لطيفٌ تحب اللطف فالطف بي، يا مقيل عثرتي، ويا راحم عبرتي، ويا مجيب دعوتي أسألك الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله ما أحاط به علمك، يا غياث من لا غياث له، ويا ذخر من لا ذخر له، ويا سند من لا سند له، اغفر

لي، علمك فيّ، وشهادتك عليّ، فإنك تسميت لسعة رحمتك الرحمن الرحيم.

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً خاشعاً سليماً، ولساناً ذاكراً صادقاً، وأسألك من خير ما أعلم، ومن خير ما لا أعلم، إنك تعلم، ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نصبح، وبك نمسي، وبك نحيا، وبك نموت، وعليك نتوكل، وإليك النشور، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وأشهد أن لا إله إلا الله إلهاً واحداً أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

اللهم أطمس على أبصار أعدائنا كلهم من الجنّ والإنس، واجعل على بصره غشاوة، واختم على قلبه، وأخرج ذكري من قلبه، واجعل بيني وبين عدوي حجاباً، وحصناً حصيناً منيعاً، لا يرونه سلطان ولا شيطان، ولا إنس ولا جنّ.

اللهم أي أدرأ بك في نحره، واستعيذ بك من شره، وأستعين بك عليه فاكفنيه كيف شئت، وأنى شئت، اللهم لك الحمد، وأنت المستغاث، وإليك المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

اللهم اجعل صدر يومي هذا فلاحاً، وأوسطه صلاحاً، وآخره نجاحاً، اللهم اجعل بي في صدر جميع بني آدم وحواء، والجن والإنس، والشياطين والمردة، رافعةً ورحمةً، خيرهم بين أعينهم، وشرهم تحت أقدامهم، وبالله أستعين عليهم أن يفرط عليّ أحد منهم، أو أن يطغى، عزّ جارك، وجلّ ثناؤك، ولا إله غيرك، وحدك لا شريك لك.

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

صلِّ على محمدٍ وآل محمد وارزقني الخير كلَّه ما أحاط به علمك، يا حنَّان يا متَّان، يا ذا الجلال والإكرام، والحمد لله على آلائه، وأحمده على نعمائه، واشكره على بلائه، وأومن بقضاء الذي لا هادي لمن أضلَّ، ولا خاذل لمن نصر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله المصطفى، وأمينه المرتضى، انتجبه، وحباه، واختاره، وارفضاه ﷺ.

اللهم إني أسألك إيماناً صادقاً، ليس بعده كفر، ورحمةً أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة، تباركت ربنا وتعاليت، تمَّ نورك ربي فهديت، وعظم حلمك ربي فغفرت، فلك الحمد، وجهك أكرم الوجوه، وجاهك أفضل الجاه، وعطيتك أرفع العطايا وأهنؤها، تطاعُ ربنا فتُشكر، وتُعصى ربنا فتُغفر من تشاء، تجيب دعوة المضطر إذا دعاك، وتكشف الضرَّ، وتشفي السقيم، وتغفر الذنب العظيم، لا يحصى نعماءك أحدٌ، ربنا فلك الحمدُ حمداً أبداً، لا يحصى عدده، ولا يضمحل سرمده، حمداً كما حمد الحامدون من عبادك الأولين والآخرين.

اللهم إني أسألك النصيب الأوفر: الجنة، وأسألك الهدى، والتقوى، والعافية، والبشرى عند انقطاع الدنيا، اللهم إني أسألك تقوى لا تنفد، وفرجاً لا ينقطع، وتوفيق الحمد، ولباس التقوى، وزينة الإيمان، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد، يا بادي لا بديء له، ويا دائم لا نفاذ له، يا حيُّ، يا محيي الموتى، يا قائم على كل نفس بما كسبت، أسألك الهدى، والتقوى، والعافية، والغنى، والتوفيق مما تحب وترضى يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء، وبِعزتك التي قهرت كل شيء، وبِعزتك التي ذلَّ لها كل شيء، وبِقوتك التي لا يفوت لها شيء، وبسلطانك الذي علا كل شيء، وبعلمك الذي أحاط بكل شيء، وباسمك الذي يبید كل شيء، وبوجهك

الباقي بعد فناء كل شيء، وبنور وجهك الذي أضاء كل شيء أن تغفر لي كل ذنب، وتمحو عني كل خطيئة، وأن توفقني لما تحبُّ ربنا وترضى، وأن تكفيني ما هممني وغممني من الدنيا والآخرة، وأن ترزقني عمل الخير كله ما أحاط به علمك، آمين رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين المعصومين»^(١).

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبق العلم، وجفَّ القلم، ومضى القضاء، وتمَّ القدر بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسل بالسعادة من الله لمن آمن واتقى، وبالشقاء لمن كذب وكفر بالولاية من الله للمؤمنين، وبالبراءة للمشركين.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [عن جبرئيل عن الله تعالى]: يا بن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي، وبقوتي وعصمتي وعافيتي أديت إليّ فرائضي.

أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بذنوبك مني، الخير مني إليك واصل بها أوليتك، والشر مني إليك بها جنيت جزاءً، وبكثير من تسليطي لك انطويت عن طاعتي، وبسوء ظنك قنطت من رحمتي، فلي الحمد والحجة عليك بالبيان، ولي السبيل عليك بالعصيان، ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان.

ثم لم أَدع تحذيرك بي، ثم لم آخذك عند غرتك، وهو قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ...﴾^(٢)، لم أكلفك فوق طاقتك، ولم أحملك من الأمانة إلا ما قررت بها على نفسك، ورضيت لنفسي منك ما رضيت به لنفسك مني، ثم قال عز وجل: ﴿... وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ

(١) مهج الدعوات ص ١٦٩.

(٢) سورة فاطر: الآية ٤٥.

الدلالات:

في الرواية الأولى نقرأ خمسة عشر مقطعاً ثرياً في المعاني والأفكار، فهو ﴿يَخَاطَبُ﴾ يخاطب الله تعالى ويتوسل إليه بجبروته ورحمته أن يلفظ بالعبد الفقير.

ففي المقطع الأول: يناجي ربه بكشف الكرب عنه؛ لأنه تعالى عالمٌ بحال الإنسان، وحاجته، وفقره إليه، وفي المقطع الثاني: يقرُّ بذنوبه فيستغفره، ويطلب الهداية منه تعالى، وفي المقطع الثالث: يدعو أن يساعده على خشيته تعالى، وكأنه يراه في كل لحظة، وفي كل مكان، وفي المقطع الرابع: يدعو بأن يجعل القرآن ربيع قلبه، ونور بصره، وفي المقطع الخامس: يدعو بأن يفرِّج عنه، وأن يرزقه من حيث يحتسب، ومن حيث لا يحتسب.

وفي المقطع السادس: يدعو بأن يرحمه، ويحسن إليه، ويغفر له، وفي المقطع السابع: يدعو أن يجعل له قلباً خاشعاً، ولساناً ذاكراً، وأن يثبت في الأمر، وفي المقطع الثامن: يمجِّده ويتوكل عليه، ويوحِّده، وفي المقطع التاسع: يطلب من الله تعالى أن يضع حاجباً بينه وبين عدوه، وفي المقطع العاشر: يتعوذ بالله من شر الظالم، ويستعين به تعالى حتى يكفيه شره.

وفي المقطع الحادي عشر: يدعو الله تعالى أن يجعل يومه عامراً بالصلاح والفلاح، وأن يجعل أعداءه ينظرون إليه بعين الرأفة والرحمة، وفي المقطع الثاني عشر: يمجِّده ويدعوه بالرزق الكثير، وفي المقطع الثالث عشر: يمجِّده ويدعوه بالهداية والإيمان والرحمة، وفي المقطع الرابع عشر: يدعو بالتقوى والإيمان والفرج والجنة مع محمد ﷺ.

(١) سورة فاطر: الآية ٤٥.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ / ص ٢١٠.

خاتم الأنبياء، وفي المقطع الخامس عشر: يدعو بالمغفرة، ومحو الذنوب، والإكتفاء في الدنيا والآخرة، والرزق الوفير.

ففي تلك الرواية استخلصنا خمسة عشر عنواناً في أجمل المعاني الحياتية في الدنيا، وما يعقبها من آثار في الحياة الآخرة.

وفي الرواية الثانية: نقرأ المعاني المتعلقة بطبيعة العلاقة بين الإنسان وخالقه تعالى، فالله هو المنعم المدبر الرازق، لكن الإنسان يعصي الله تعالى بنفس القوة التي أعطاها إياه، فأرادة الخير منه تعالى، وإرادة الشر والمعصية من الإنسان.

وبالإجمال فإن المعاني التي تحملها أقوال رسول الله ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام معاني عظيمة تكشف لنا جانباً من طبيعة الخلق والتكوين، والحياة والتكليف، والقوة والضعف، والثواب والعقاب، والطاعة والمعصية.

٣ - في البديع: يُراد بالبديع وجوه تحسين الكلام، وتطبيقه على مقتضى حال الخطاب ووضوح دلالاته.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «اللهم لك الحمد والشكر، والمن والفضل، والطول والنعمة، والعظمة والجبروت، والملك والملكوت، والقهر والفخر، والسؤدد والسلطان، والإمتنان والكرم، والجلال والجبر، والتوحيد والتمجيد، والتهليل والتكبير، والتقديس والعظمة، والرحمة والمغفرة، والكبرياء، ولك ما زكى وطاب من الثناء الطيب، والمدح الفاخر، والقول الحسن الجميل، الذي ترضى به عن قائله، وترضى به ممن قاله وهو رضاء لك.

فتقبّل حمدي بحمد أول الحامدين، وثنائي بثناء أول المثنين، وتهليلي بتهليل أول المهللين، وتكبيرتي بتكبير أول المكبرين، وقولي الحسن الجميل بقول أول القائلين المجملين المثنين على رب العالمين متصلاً ذلك، كذلك من أول الدهر إلى يوم القيامة

بعدد زنة الرمال، والتلال والجبال، وعدد جرع ماء البحار، وعدد قطر الأمطار وورق الأشجار، وعدد النجوم وعدد زنة ذلك، وعدد الثرى والنوا والحصا، وعدد زنة ذر السموات والأرض، وما فيهن وما بينهن، وما تحتهن وما بين ذلك وما فوق ذلك، من لُدن العرش إلى قرار الأرض السابعة السفلى، وعدد حروف ألفاظ أهلهن، وعدد أزمانهم ودقائقهم، وسكونهم وحركاتهم، وأشعارهم وأبشارهم، وعدد زنة ما عملوا أو لم يعملوا، أو كان منهم أو يكون إلى يوم القيامة.

أعيذ أهل بيت محمد ﷺ ونفسي ومالي، وذريتي وأهلي، وولدي وقراباتي، وأهل بيتي، وكلّ ذي رحم لي دخل في الإسلام، وجيراني وإخواني، ومن قلّدي دعاء أو أسدى إلي برّاً، أو اتخذ عندي يداً من المؤمنين والمؤمنات بالله، وبأسائه التامة الشاملة، الكاملة الفاضلة، المباركة المتعالية، الزكية الشريفة، المنيعة الكريمة، العظيمة المكنونة، المخزونة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأم الكتاب وخاتمتها وما بينها من سورة شريفة، وآية محكمة، وشفاء ورحمة، وعودة وبركة، وبالتوراة والأنجيل والزبور، وبصحف إبراهيم وموسى، وبكل كتاب أنزل الله، وبكل رسول أرسل الله، وبكل حجة أقامها الله، وبكل برهان أظهره الله، وبكل نور أناره الله، وبكل آلاء الله وعظمته.

أعيذ واستعيذ بالله من شرّ كلّ ذي شرّ، ومن شرّ ما أخاف وأحذر، ومن شرّ ما ربي تبارك وتعالى منه أكبر، ومن شرّ فسقة الجنّ والأنس، والشياطين والساطين، وإبليس وجنوده، وأشياعه وأتباعه، ومن شرّ ما في النور والظلمة، ومن شرّ ما دهم أو هجم، ومن شرّ كلّ همّ وغمّ، وآفة وندم، ومن شرّ ما ينزل من السماء، وما يعرج فيها من شرّ ما يلج في الأرض، وما يخرج منها ومن شرّ كل دابة ربي آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

العَظِيمُ ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

وعنه ﷺ دعاؤه: «اللهم أنت الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم، يا غالباً غير مغلوب، ويا شاهداً ولا يغيب، يا قريب يا مجيب، ذلكم الله ربي، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب، أتذلل إليك تذلل الطالبين، وأخضع إليك خضوع الراغبين.

وأسألك سؤال الفقير المسكين، وأدعوك تضرعاً وخيفَةً، إنك لا تحبّ المعتدين، وأدعوك خوفاً وطمعاً، إن رحمتك قريبٌ من المحسنين، وأتوسل إليك بخيرتك، وصفوتك من العالمين، الذي جاء بالصدق وصدق المرسلين، محمد عبدك، ورسولك النذير المبين، وبوليتك وعبدك علي بن أبي طالب، أمير المؤمنين، وبالإمام محمد بن علي الباقر علم الدين، والعالم بتأويل الكتاب المستبين.

أسألك بمكانهم عندك، واستشفع بهم إليك، وأقدمهم أمامي، وبين يدي حوائجي، وأن توزعني شكر ما أوليتني من نعمك، وتجعل لي فرجاً ومخرجاً من كل كرب وغمٍّ، وترزقني من حيث أحسب ومن حيث لا أحسب، ويسّر لي من فضلك ما تغنيني به من كل مطلب، واقذف في قلبي رجاءك وتقطع رجائي من سواك، حتى لا أرجو إلا إياك، إنك تجيب الداعي إذا دعاك، وتغيث الملهوف إذا ناداك، وأنت أرحم الراحمين» ﴿٣﴾.

وعنه ﷺ أيضاً: «اللهم ربّ الضياء والعظمة، والنور والكبرياء، والسلطان،

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٩.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٥ / ص ٢٠٤ - ٢٠٨.

(٣) مصباح الكفعمي: ص ١٣٨.

تجبرت بعظمة بهائك، ومننت على عبادك برأفتك ورحمتك، ودللتهم على موجود رضاك، وجعلتهم دليلاً يدلهم على محبتك، ويعلمهم محابك، ويدهم على مشيتك، اللهم فبحق وليك محمد بن علي عليه السلام عليك، وأقدمه بين يدي حوائجي ورغبتني إليك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تعينني به على آخرتي في القبر، وفي النشر والحشر، وعند الميزان، وعلى الصراط، يا حنان يا منان، يا ذا الجلال والإكرام...»^(١).

وفي الرواية، حضره ذات يوم جماعة من الشيعة، فوعظهم وحدّثهم، وهم ساهون لاهون، فأغاظه ذلك، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه إليهم، فقال عليه السلام: «إن كلامي لو وقع طرف منه في قلب أحدكم لصار ميتاً، ألا يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنكم خشبٌ مسندة، وأصنامٌ مربدة، ألا تأخذون الذهب من الحجر، ألا تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر، خذوا الكلمة الطيبة ممن قالها، وإن لم يعمل بها، فإن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾»^(٢).

ويحك يا مغرور، ألا تحمد من تعطيه فانياً، ويعطيك باقياً، درهمٌ يفنى بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف مضاعفة، من جوادٍ كريم، أتاك الله عنده مكافأة، هو: مُطعمك وساقيك، وكاسيك ومعاфик، وكافيك وسائرُك، ممن يراعيك من حفظك، في ليلك ونهارك، وأجابك عند اضطرارك، وعزم لك على الرشد في إختبارك، كأنك قد نسيت ليالي أوجاعك وخوفك، دعوته فاستجاب لك، فاستوجب بجميل صنيعه الشكر، فنسيته فيمن ذكر، وخالفته فيما أمر.

ويلك إنما أنت لئس من لصوص الذنوب، كلما عرضت لك شهوة أو ارتكاب

(١) مصباح الكفعمي: ص ١٣٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ١٨.

ذنب، سارعت إليه، وأقدمت بجهلك عليه فارتكبتة، كأنك لست بعين الله، أو كأن الله ليس لك بالمرصاد، يا طالب الجنة ما أطول نومك، وأكل مطيتك، وأوهى همتك، فله أنت من طالبٍ ومطلوبٍ، ويا هارباً من النار ما أحت مطيتك إليها، وما أكسبك لما يوقعك فيها.

انظروا إلى هذه القبور سطوراً بأفناء الدور، تدانوا في خططهم، وقربوا في مزارهم، وبعدوا في لقائهم، عمروا فخربروا، وأنسوا فأوحشوا، وسكنوا فأزعجوا، وقنطوا فرحلوا.

فمن سمع بدانٍ بعيدٍ، وشاحطٍ قريبٍ، وعامرٍ مخربٍ، وأنسٍ موحشٍ، وساكنٍ مزعجٍ، وقاطنٍ مرحلٍ، غير أهل القبور، يابن الأيام الثلاث: يومك الذي ولدت فيه، ويومك الذي تنزل فيه قبرك، ويومك الذي تخرج فيه إلى ربك، فيا له من يوم عظيم، يا ذوي الهيئة المعجبة، والهيم المعطنة، مالي أرى أجسامكم عامرة، وقلوبكم دامرة، أو ما والله لو عاينتم ما أنتم ملاقوه، وما أنتم إليه صائرون، لقلتم: يا ليتنا نردّ ولا نكدّب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين، قال جلّ من قائل: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١) (٢).

البلاغة: الدليل العقلي

البلاغة من الزاوية الفلسفية تعني قوة التعبير العقلي بلغة جميلة فصيحة، بحيث تنتهي بإقناع المخاطب بصحة المدعى، ولا تتم البلاغة إلا عن طريق حسن تركيب الكلمات، وعرض المفاهيم العقلية، وتفسير المبهات بطريقة توصل المراد إلى المستمع أو المخاطب، وتتطلب البلاغة استيعاباً كاملاً لمفردات اللغة العربية، واستيعاباً شاملاً

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

(٢) تحف العقول: ص ٢١١ - ٢١٢.

للافكار والعلل.

وإذا رجعنا إلى كلام الإمام الباقر عليه السلام، لرأينا يجمع عليه السلام بين ثلاثة عناصر في الخطاب:

الأول: الوضوح التام في طرح الفكرة: ونعني به وضوحاً يتحدى الوضع السياسي والاجتماعي، ففي المثال التالي يعرض الإمام عليه السلام بوضوح تام: بغض الناس للمتقين في ذلك الزمان، وهذا بلاءٌ يُصيب المتقين أكثر من غيرهم، فربما يُعدُّ امتحاناً لهم، وربما هو تمحيصٌ للناس.

ففي رسالته عليه السلام إلى سعد بن عبد الملك^(١)، يقول فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه معرفة ما لا ينبغي تركه، وطاعة من رضى الله رضاه، فقبلتُ من ذلك لنفسك ما كانت نفسك مرتبهة لو تركته، فعجب أن رضى الله وطاعته ونصيحته لا تُقبل ولا تُوجد ولا تُعرف إلا في عباد غرباء، أخلاء من الناس، قد اتخذتهم الناس سخرياً لما يرمونهم به من المنكرات، وكان يقال: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون أبغض إلى الناس من جيفة الحمار، ولولا أن يصيبك من البلاء مثل الذي أصابنا فتجعل فتنة الناس كعذاب الله - وأعيذك بالله وإيانا من ذلك - لقربت على بُعد منزلتك، واعلم - رحمك الله - أنه لا تنال محبة الله إلا ببغض كثير من الناس، ولا ولايته إلا بمعاداتهم، وفوت ذلك قليل يسير لدرك ذلك من الله لقوم يعلمون.

(١) سعد بن عبد الملك هو من ولد عبد العزيز بن مروان، وكان الإمام عليه السلام يسميه: سعد الخير، دخل على الإمام عليه السلام وهو يبكي، فقال عليه السلام له: وما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي وأنا من الشجرة الملعونة في القرآن، فقال عليه السلام له: «لست منهم، أنت أمويٌّ منا أهل البيت، أما سمعت قول الله عزَّ وجلَّ يحكي عن إبراهيم عليه السلام: (... فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي...» سورة إبراهيم: الآية ٣٦» الإختصاص:

يا أخي إن الله عزّ وجلّ جعل في كل من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون معهم على الأذى، يجيبون داعي الله، ويدعون إلى الله، فأبصرهم -رحمك الله- فإنهم في منزلة رفيعة، وإن أصابتهم في الدنيا وضیعة، إنهم يحيون بكتاب الله الموتى، ويصرون بنور الله من العمى، كم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من تائه ضالّ قد هدوه، يبذلون دماءهم دون هلكة العباد، وما أحسن أثرهم على العباد؟! وما أقبح آثار العباد عليهم؟!»^(١).

والإمام عليه السلام يطرح واقع المجتمع كما هو، حيث يتحمل المتقون كراهية الكثير من الناس، فيقول عليه السلام: «أنه لا تُنال محبة الله إلا ببغض كثيرٍ من الناس»^(٢)، فهو عليه السلام ببلاغته لا يضع السامع في عالم خيالي ويزوق له الوضع، بل ينقله إلى الواقع الحقيقي المرلوضع الناس في زمانه عليه السلام، وتصوير تلك المرارة لا تتم إلا ببلاغة لغة، ووضوح الأسلوب، وهو ما فعله الإمام عليه السلام.

الثاني: اختيار المفردات وتركيبها بصورة جميلة: بمعنى أنه يختار المفردات الجميلة ويركبها مفاهيم غنية بالأفكار، فلا بد من التأمل فيها، كما في النص التالي:

رسالة أخرى إلى سعد بن عبد الملك كتبها له عليه السلام، يقول فيها: «أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله، فإن فيها السلامة من التلف، والغنمة في المنقلب، إن الله تعالى بقي بالتقوى عن العبد ما عزب عنه عقله، ويجلي بالتقوى عنه عماه وجهله، وبالتقوى نجا نوح عليه السلام ومن معه في السفينة، وصالح عليه السلام ومن معه من الصاعقة، وبالتقوى فاز الصابرون، ونجت تلك العُصَب من المهالك، ولهم إخوان على تلك الطريقة يلتمسون تلك الفضيلة، نبذوا طغيانهم من إلتذاذٍ بالشهوات، لما بلغهم في الكتاب من المثلات،

(١) الكافي: ج ٨ / ص ٥٢.

(٢) الكافي: ج ٨ / ص ٥٢.

حمدوا ربهم على ما رزقهم وهو أهل الحمد، وذموا أنفسهم على ما فرطوا وهم أهل الذم، وعلموا أن الله تعالى الحليم العليم، إنما غضبه على من لم يقبل منه رضاه، وإنما يمنع من لم يقبل منه عطاءه، وإنما يضلّ من لم يقبل منه هداه، ثمّ أمكن أهل السيئات من التوبة بتبديل الحسنات.

دعا عباده في الكتاب إلى ذلك بصوت ربيع لم ينقطع، ولم يمنع دعاء عباده، فلعن الله الذين يكتمون ما أنزل الله، وكتب على نفسه الرحمة، فسبقت قبل الغضب، فتمتّ صدقاً وعدلاً، فليس يتدّى العباد بالغضب قبل أن يُغضبوه، وذلك من علم اليقين وعلم التقوى، وكل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه، ولآهم عدوهم حين تولّوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يُعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية، وكان من نبذهم الكتاب أن ولّوه الذين لا يعلمون، فأوردوهم الهوى وأصدروهم إلى الردى، وغيروا عرى الدين، ثم ورثوه في السفه والصبا...

فاعرف أشباه الأخبار والرهبان الذين ساروا بكتان الكتاب وتحريفه، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، ثم أعرف أشباههم من هذه الأمة الذين أقاموا حروف الكتاب وحرفوا حدوده، فهم مع السادة والكثرة فإذا تفرقت قادة الأهواء كانوا أكثرهم دنيا، ذلك مبلغهم من العلم، لا يزالون كذلك في طمع وطبع، فلا تزال تسمع صوت إبليس على ألسنتهم بباطل كثير، يصبر منهم العلماء على الأذى والتعنيف، ويعيون على العلماء بالتكليف، والعلماء في أنفسهم خانة^(١) إن كتموا النصيحة، إن رأوا نائهاً ضالاً لا يهدونه، أو ميّتاً لا يحيونه، فبئس ما يصنعون؛ لأنّ الله تبارك وتعالى أخذ عليهم الميثاق في الكتاب أن يأمرؤا بالمعروف وبأمرؤا به، وأن ينهؤا عتْمأ نهؤا عنه، وأن

(١) خانة: جمع خائن.

يتعارفوا على البرِّ والتقوى، ولا يتعاونوا على الأثم والعدوان، فالعلماء من الجهّال في جهد وجهاد، إن وعظت، قالوا: طغت^(١)، وإن علموا الحق الذي تركوا، قالوا: خالفت، وإن إعتزلوهم قالوا: فارقت، وإن قالوا: هاتوا برهانكم على ما تحدّثون، قالوا: نافقت، وإن أطاعوهم قالوا: عصيت الله عزّ وجلّ، فهلكت جهّال في ما لا يعلمون، أميون في ما يتلون، يصدّقون بالكتاب عند التعريف، ويكذّبون به عند التحريف، فلا ينكرون.

أولئك أشباه الأبحار والرهبان، قادة في الهوى، سادة في الردى، وآخرون منهم جلوس بين الضلالة والهدى، لا يعرفون إحدى الطائفتين من الأخرى، يقولون ما كان الناس يعرفون هذا ولا يدرون ما هو وصدقوا، تركهم رسول الله ﷺ على البيضاء ليلها من نهارها، لم يُظهر فيهم بدعة، ولم تُبدل فيهم سنّة، لا خلاف عندهم ولا اختلاف، فلما غشي الناس ظلمة خطاياهم صاروا إمامين: داع إلى الله تعالى، وداع إلى النار.

فعند ذلك نطق الشيطان، فعلا صوته على لسان أوليائه، وكثر خيله ورجله، وشارك في الأموال والولد من أشركه، فعمل بالبدعة، وترك الكتاب والسنة، ونطق أولياء الله بالحجة، وأخذوا بالكتاب والحكمة، فتنفّرق من ذلك اليوم أهل الحق وأهل الباطل، وتخاذل وتهاون أهل الهدى، وتعاون أهل الضلالة، حتى كانت هي الجماعة مع فلان وأشباهه.

فاعرف هذا الصنف، وصنفاً آخر فأبصرهم رأي العين نجباء، وألزمهم حتى ترد أهلك، فإن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران الميين^(٢).

في رواية محمد بن يحيى إضافة، ربما سقطت من أصل الرواية، وهي:

(١) طغت: من طغى الشخص: جاوز الحد المقبول، تجرّ واستبد.

(٢) مستدرک الوسائل: ج ٢ / ص ٣٧٠.

«لهم علم بالطريق، فإن كان دونهم بلاء فلا ينظر إليهم، فإن كان دونهم عسف من أهل العسف وخسف، ودونهم بلايا تنقضي، ثم تصير إلى رخاء، ثم اعلم أن إخوان الثقة ذخائر بعضهم لبعض، ولولا أن تذهب بك الظنون عنّي لجلّيت لك عن أشياء من الحق غطيّتها، ولنشرت لك أشياء من الحق كتمتها ولكنني أتقيك وأستبقيك، وليس الحلّيم الذي لا يتقي أحداً في مكان التقوى، والحلم لباس العالم، فلا تعرينّ منه، والسلام»^(١).

الثالث: الزاوية الاخلاقية في حديثه عليه السلام، ففي كل جملة أو مقطع بقوله عليه السلام يتضمن منحىً أخلاقياً، فالدين السماوي إطاره الأخلاق، وفحواه التعامل الأخلاقي بين الناس وربهم تعالى، وفي ذلك روايات عديدة، منها:

قوله عليه السلام: «مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القزّ، كلما إزدادت على نفسها لفاً، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً»^(٢).

وقوله عليه السلام: «ما اغرورقت عينٌ بمائها، من خشية الله عزّ وجلّ إلا حرّم جسدها على النار، ولا فاضت دمعاً على خد صاحبها، فما رهق وجهه قترٌ، ولا ذلّة يوم القيامة، وما من شيء من أعمال الخير، إلا وله وزنٌ وأجرٌ إلا الدمعة من خشية الله، فإن الله يطفئ بالقطرة منها بحاراً من نار يوم القيامة، وأن الباكي ليكي من خشية الله في أمةٍ فيرحم الله تلك الأمة ببكاء ذلك المؤمن فيها»^(٣).

وقوله عليه السلام: «أربع من كنّ فيه كمل إسلامه، وأعين على إبانه، ومُحصت ذنوبه، ولقى ربه وهو عنه راضٍ، ولو كان فيما بين قرنه إلى قدمه ذنوباً حطها الله تعالى عنه، هي: الوفاء بما يجعل الله على نفسه، وصدق اللسان مع الناس، والحياء مما يقبح عند الله

(١) الكافي: ج ٨ / ص ٥٢ - ٥٥.

(٢) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر - ابن أبي فراس: ج ٢ / ص ١٩٤.

(٣) أمالي المفيد: ص ٩٣.

والناس، وحسن الخلق مع الأهل والناس.

وأربع من كنّ فيه من المؤمنين أسكنه الله في أعلى عليين في غرفٍ في محل الشرف، كل الشرف: من آوى اليتيم ونظر له فكان له أباً، ومن رحم الضعيف وأعانه وكفاه، ومن أنفق على والديه ورفق بهما وبرّهما ولم يخزفهما^(١)...^(٢).

وقوله ﷺ: «ألا أخبركم بخمس خصال هي من البرّ، والبرّ يدعو إلى الجنة: إخفاء المعصية وكتماها، والصدقة تعطيتها بيمينك لا تعلم بها شمالك، وبرّ الوالدين فإن برّهما لله رضى، والإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإنه من كنوز الجنة، والحب لمحمدٍ وآل محمدٍ صلى الله عليه وعليهم أجمعين»^(٣).

وقوله ﷺ: «ثلاث درجات، وثلاث كفارات، وثلاث موبقات، وثلاث منجيات:

فأما الدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام.

وأما الكفّارات: إفسّابغ الوضوء بالسبرات^(٤)، والمشي بالليل والنهار إلى الصلوات،

والمحافظة على الجماعات.

وأما الموبقات: فشحّ مطاع، وهوى متّبّع، وإعجاب المرء بنفسه.

وأما المنجيات: فخوف الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة

العدل في الرضا والسخط^(٥).

(١) يخزف: من خزف الثوب أي خرّقه وشقّه.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ١٩٢.

(٣) المحاسن: ص ٩.

(٤) السبرات: من السبرة وهي الغداة الباردة، فيكون المعنى: الوضوء قبل الفجر حين يكون الجو بارداً.

(٥) المحاسن: ص ٤.

وقوله عليه السلام: «كان فيما وعظ لقمان عليه السلام ابنه أن قال: يا بني إن تك في شك من الموت فادفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك، وإن كنت في شك من البعث فادفع عن نفسك الإنتباه ولن تستطيع ذلك، فإنك إذا فكرت علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

قال لقمان عليه السلام: يا بني لا تقترب فيكون أبعد لك، ولا تبعد فتهان، كل دابة تحب مثلها، وابن آدم يحب مثله! لا تنشر برك إلا عند باغيه، وكما ليس بين الكبش والذئب خلة كذلك ليس بين البار والفاجر خلة، من يقترب من الرفث يعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طريقه، من يحب المرء يُشتم، ومن يدخل مدخل السوء يُتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم.

قال: يا بني صاحب مائة ولا تعادِ واحداً، يا بني إنما هو خلاقك وخلقك، فخلاقك دينك، وخلقك بينك وبين الناس فلا ينقصنّ، تعلّم محاسن الأخلاق.

يا بني عليك بأداء الأمانة تسلم دنياك وآخرتك، وكن أميناً، فإن الله تعالى لا يحب الخائنين، يا بني لا تُر الناس أنك تحشى الله وقلبك فاجر»^(١).

البلاغة في تقديم الفكر الديني :

تعدُّ البلاغة أفضل وسيلة لنشر حقائق الدين عموماً، ولناخذ أمثلةً في بلاغة الخطاب الديني، ماذا يقول الدين في أهمية طلب العلم؟ فلنقرأ الروايات التالية:

١ - عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، رضا به، وأنه ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على

(١) قصص الأنبياء - الراوندي: ص ١٩٠.

العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء لورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم»^(١).

٢ - وقال عليه السلام: «أن الذي تعلّم العلم منكم له مثل أجر الذي يعلمه، وله الفضل عليه، تعلّموا العلم من حملة العلم، وعلموه إخوانكم كما علمكم العلماء»، و(العلم خزائن والمفاتيح: السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر في العلم أربعة: السائل، والمتكلم، والمستمع، والمحب لهم)^(٢).

٣ - وقال عليه السلام: «كان في خطبة أبي ذر رحمه الله: يا مبتغي العلم لا يشغلك أهل ولا مالٌ عن نفسك، أنت يوم تفارقهم كضيف بتّ فيهم، ثم غدوت عنهم إلى غيرهم، الدنيا والآخرة كمنزل تحوّلت منه إلى غيره، وما بين الموت والبعث إلا كنومة نمتها ثم استيقظت منها، يا مبتغي العلم أن قلباً ليس فيه شيء من العلم كالبيت الخرب لا عامر له»^(٣).

وفي مسائل العمل الصالح، والإيمان، والعبادة، نقرأ النصوص التالية:

١ - قال عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أسبغ وضوءه، وأحسن صلاته، وأدى زكاة ماله، وخزن لسانه، وكفّ غضبه، واستغفر لذنبه، وأدى النصيحة لأهل بيت رسوله فقد استكمل حقائق الإيمان»^(٤).

٢ - وقال عليه السلام: «إنما هو الإسلام، والإيمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين»، قيل

(١) الكافي: ج ١ / ص ٣٥.

(٢) الخصال - الصدوق: ص ٢٤٤.

(٣) المحاسن: ص ٢٢٨.

(٤) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٢٠٠.

له: فأَيُّ شيء اليقين؟ قال ﷺ: «التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله»^(١)، و«أحب الأعمال إلى الله سبحانه في الأرض: الدعاء، وأفضل العبادة: العفاه»^(٢).

٣ - وقال ﷺ أيضاً: «قال رسول الله ﷺ: الدعاء سلاح المؤمنين، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض»^(٣).

المادة والشكل في البلاغة:

وبلاغة الإمام ﷺ تعتمد على أمرين: المادة، والشكل.

الأول: المادة: التي تتضمنها أقواله ﷺ في العقائد والأحكام، وهي مادة غنية بالمفاهيم والأفكار الدينية، وكل كلام صدر عنه ﷺ كان يتضمن حكمةً، وأدباً، وفكراً إلزامياً بالوجوب، أو الحرمة، أو الإستحباب، أو الكراهة، أو الإباحة.

مثال ذلك: قوله ﷺ لأحد أصحابه: «... استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلّصاً إلى الشكر، واستقلل من نفسك كثير الطاعة لله إزراءً على النفس وتعرضاً للعفو، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفيّ التزيّن بحاضر الحياة، وتوقّ مجازفة الهوى بدلالة العقل...»^(٤).

هنا يلخص الإمام ﷺ ثمانية مفاهيم في مقطع واحد: في الرزق والشكر، والطاعة والعفو، ودفع الشر بالعلم، والعلم بالعمل، والعمل بالتيقظ، والتيقظ بصدق الخوف،

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٥٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٣ / ص ٢٩٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٣ / ص ٢٩٧.

(٤) تحف العقول: ص ٢٨٥.

وعدم التزين بحاضر الحياة، ومقابلة الهوى بدلالة العقل، بتلك الكلمات القليلة تقع على منجم عظيم من المادة الفكرية، والمعاني العظيمة.

وأمثلة أخرى نعرضها:

١ - في قوله تعالى: ﴿... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾^(١)، قال عليه السلام: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله تعالى يبغض اللعان، السباب، الطعان على المؤمنين، الفاحش، المتفحش، السائل، الملحف، ويحب الحبي، الحليم، العفيف، المتعفف»^(٢).

٢ - قال عليه السلام: «صنایع المعروف تقي مصارع السوء، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة، وأول أهل الجنة دخولاً إلى الجنة أهل المعروف، وأول أهل النار دخولاً إلى النار أهل المنكر»^(٣)، و«عجباً لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار»^(٤).

٣ - قال عليه السلام: «الظلم ثلاثة: ظلمٌ يغفره الله، وظلمٌ لا يغفره الله، وظلمٌ لا يدعه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره الله عزّ وجلّ فالشرك بالله تعالى. وأما الظلم الذي يغفره الله عزّ وجلّ فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ. وأما الظلم الذي لا يدعه الله عزّ وجلّ فالمداينة بين العباد.

(١) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٢) روضة الواعظين - الفتال: ص ٣١٠.

(٣) روضة الواعظين: ص ٣١٠.

(٤) بحار الأنوار: ج ٦٢ / ص ٢٦٩.

ما يأخذ المظلوم من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من دنيا المظلوم»^(١).

٤ - وكان مما يدعو به ﷺ: «اللهم هب لي حقل، وأرض عني خلقك، واغفر لي ما لا يضرك، وعافني ما لا ينفك، فإن شقائي لا يضرك، وعذابي لا ينفك، فإنك تعطي من سألك، وتغضب على من لا يسألك، ولن يفعل ذلك أحد غيرك، سبحانه وبحمده»^(٢)، و«اللهم ألبسني العافية حتى تهتني المعيشة، وارزقني من فضلك ما تعينني به على سائر خلقك، ولا اشتغل عن طاعتك ببشر سواك»^(٣)، وكان يقول ﷺ في سجوده: «اللهم إن ظنّ الناس بي حسناً، فاغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، وأنت علام الغيوب»^(٤).

الثاني: الشكل: وهو اللغة البليغة العميقة التي تعطي الثقافة الدينية بُعداً جميلاً ذواقاً، ونعني بالشكل: التركيبة الخارجية للأفكار باستخدام كلمات وإصطلاحات بليغة فصيحة تحاكي ذكاء الإنسان في كل زمان.

مثال ذلك قوله ﷺ: «صنائع المعروف تدفع مصارع السوء»^(٥)، و«من توكل على الله لا يُغلب، ومن اعتصم بالله لا يهرم»^(٦)، و«أن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض، ولا يعطي دينه إلا من يحب»^(٧)، و«كن لما لا ترجو أرجأ منك لما ترجو، فإن موسى ﷺ خرج

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ص ١٥٣.

(٢) قرب الإسناد: ص ٦.

(٣) قرب الإسناد: ص ٦.

(٤) قرب الإسناد: ص ٥.

(٥) الاختصاص - الشيخ المفيد: ص ٢٤٠.

(٦) روضة الواعظين: ص ٢٤٩.

(٧) بحار الأنوار: ج ٧٣ / ص ١٢٧.

ليقتبس ناراً فرجع نبياً مرسلًا»^(١).

وعن الصادق عليه السلام قال: «كان أبي عليه السلام يقول في دعائه: رب أصلح لي نفسي، فإنها أهم الأنفس إليّ، رب أصلح لي ذريتي فإنهم يدي وعضدي، رب وأصلح لي أهل بيتي فإنهم لحمي ودمي، رب أصلح لي جماعة إخواني وأخواتي ومحبي، فإن صلاحهم صلاحي»^(٢).

إن للكلمة البليغة قوة إستثنائية لإيصال المعنى المراد إلى المخاطب، وقد قال تعالى على لسان رسوله عليه السلام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾^(٣)، فكلامُ النبي عليه السلام وأوصيائه عليهم السلام لا يقتصر على الذين عاشوا في زمانهم، بل يتعدى إلى كل من سمع كلامهم عليهم السلام إلى يوم الحساب.

تلحظ في كلام الإمام الباقر عليه السلام وحدة المحتوى، والتركيب، والشكل، بدون فقدان أصل الموضوع، وهذا هو أصل البلاغة، والفكرة - وإن كانت صالحة - إلا أنها وبدون بلاغة، لا تستطيع أن تصل إلى عقل الإنسان وقلبه.

أخرس الله تعالى المشركين بإعجاز القرآن وبلاغته، بحيث تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة تشابه الكتاب المجيد، ولم يتمكنوا من ذلك، وبقي التحدي قائماً لحد اليوم، وكذلك بقي عجزهم أيضاً: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

وهكذا كان خطابُ الإمام عليه السلام أصالةً في الفكرة، وبلاغةً في المحتوى، وجمالاً في

التعبير.

(١) بحار الأنوار: ج ٧٨ / ص ١٨٨.

(٢) قرب الإسناد: ص ٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣.

خاتمة:

كانت العرب في الفترة التي عاش فيها الإمام الباقر عليه السلام تستحسن القول البليغ الفصيح، وتستذوق الشعر، وكان الإمام عليه السلام جامعاً لكل مناقب وسائل الإتصال بالناس من آداب وفصاحة وعلم، وتلك ميزة مهمة من ميزات المعصوم عليه السلام كي يكون قادراً على إيصال العقائد والأحكام الشرعية إلى المكلفين.

وفي ختام البحث نذكر شواهد من بلاغته عليه السلام لم تذكر فيها مضي، ومنها:

١ - عندما أنشده الكميت (ت ١٢٦هـ) قصيدته:

من لقلبٍ متيمٍ مستهامٍ غير ما صبوةٍ ولا أحلامٍ
إلى أن بلغ قوله:

أخلص الله لي هواي فما أغرُقُ نزعاً ولا تطيش سهامي
قال عليه السلام: «قل: [بدل: فما أغرُقُ نوعاً...] فقد أغرُقُ نزعاً ولا تطيش سهامي»، فقال: يا مولاي أنت أشعرُ مني في هذا المعنى^(١)، تقول العرب: أغرُقُ النازع في القوس، وتُرِيدُ به مثلاً في الإفراط والمبالغة لمن أراد جذب الوتر بالسهم، فالإغراق نزعاً مبالغة في حسن الرمي وكثرته، فالإمام عليه السلام يصحح للكميت، ويقول له قولك: فما أغرُقُ نزعاً لا يناسب المقام لأن معناه أنك لا تبالغ في المحبة، والمناسب أن تقول أنك مبالغ في المحبة وهذا هو قصدك.

٢ - ويُنسب له عليه السلام مخاطباً العصاة:

تعصي الإله وأنت تُظهِرُ حبه هذا لعمرك في الفعال بديعٍ
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحبَّ لمن يحب مطيعٌ^(٢)

(١) الكافي: ج ٨ / ص ٧٠٢.

(٢) تحف العقول: ص ٢٩٤.

الفصل الرابع

المنهج العلمي عند الإمام الباقر عليه السلام

- (١) تعريف المنهج العلمي عند الإمام عليه السلام. (٢) معالم المنهج العلمي: أ- منهج الإمام عليه السلام في التفسير، ب - منهج الإمام عليه السلام في الأخذ بالحديث. (٣) الطرق المعرفية عند الإمام عليه السلام. (٤) نماذج في المنهج العلمي: تفسير القرآن الكريم. (٥) الحديث الشريف. (٦) الاعتقادات.

المنهج العلمي عند الإمام الباقر عليه السلام

(١)

تعريف المنهج العلمي عند الإمام عليه السلام

المنهج العلمي هو الطريقة العلمية المستقرأة من كلام الإمام الباقر عليه السلام، حيث كان يعرض الأدلة والحجج لموضوع معين، من أجل طرْح معرفة جديدة صحيحة، أو تصحيح معرفة خاطئة سابقة.

وطالما كان الإنسان -بطبيعته- باحثاً عن الحقيقة، وساعياً لكشف الأفكار العلمية التي توصله إلى معرفة دينه وموقعه في هذا العالم المضطرب بالإتجاهات الفكرية، والاجتهادات الخاطئة أحياناً، فإنَّ المنهج العلمي الصحيح يوصله إلى منبع المعرفة الحقيقية، فالإنسان يلحظ الفكرة، فتبادر في ذهنه أسئلة متعلقة بها، ويكونُ إفتراضاً معيناً إلى أن يأتيه الجواب السديد من مصدرٍ يطمئن إليه، فيدعن عقله، وتطمئن روحه إلى الحقيقة التي عرفها للتو.

عاش الإمام الباقر عليه السلام خلال الدولة الأموية، ولمس إفلاسها، وتنبأ بإنحلالها وأفولها، لكنه استطاع بناء كيان فكري عند الإنسان قوامه القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأسس مدرسة علمية ضمت أعداداً من الفقهاء والمفسرين وعلماء عقائد، وبذلك أسس للإسلام أن يحتل قلوب الناس في زمن غرق بفوضى الأفكار والمفاهيم الخاطئة، وكانت الساحة الفكرية مزدحمة بكل من كان يدلوه في الآراء، والمذاهب، والحلال والحرام، فكان وجود الإمام الباقر عليه السلام منار هداية لعرض الإسلام الأصيل

الذي جاء به سيد المرسلين محمد ﷺ، نظيفاً من الأفكار الدخيلة.

وعندما يؤمن الإنسان بديانة سماوية، فإنه لا يمكنه القبول بآراء أفرادٍ يجللون له الأحكام ويحرمونها، لمجرد الإستحسان، أو الرأي الشخصي، حتى لو اكتسب هؤلاء مقداراً من العلم، بل يريد أن يعتمد في إيمانه على معلومات قطعية، ومعرفة ربانية ممضاة من قِبَل رسول الله ﷺ.

فالعلمُ الديني مبنيٌّ على الحقائق، وليس مبنياً على الآراء الشخصية أو الأهواء، ولذلك فإن العلم الحق يتحدى كل الأفكار الباطلة ويهزمها، ولا يمكن للفرضية أن تصبح نظرية قطعية ما لم يتم التحقق منها، ويتم التأكد من منبعها الصحيح، فلا بد هنا من مرجع علمي ذي كمالية في علم الدين نرجع إليه.

ومن خلال دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية نجد أن المعين الذي لا ينضب، والذي نستمد منه علومنا الدينية بعد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا هو علم الإمام المعصوم عليه السلام.

عناصر المنهج العلمي:

هناك ثلاثة عناصر للمنهج العلمي، وهي بمجمعتها تبين طبيعة سعي الإنسان في البحث عن العلم، ودور الإمام عليه السلام في كشف ذلك العلم ورفده بالمفردات الحقيقية، وتلك العناصر تُمثلُ بمراحل هي: مرحلة الاستفهام، ومرحلة الافتراض، ومرحلة التحليل والاستنتاج.

الأولى: مرحلة الاستفهام: فالناس عموماً تتحرى الحقائق، وعندما تبحث عن مظاتها في العلم تبدأ بالسؤال، فهي بعد أن تعيها التفاسير والتعليقات البشرية للأشياء والظواهر تأتي وتساءل، فالسؤال هو مفتاح طلب العلم، وهو الخطوة الأولى في المنهج

العلمي.

ولو وضعنا نوايا السائلين جانباً ونظرنا إلى السؤال بما هو سؤال لرأينا أن الأسئلة في جوهرها علامات تعيش في أجواء البحث عن الجواب، فبسبب طموح الإنسان نحو النزوع للعلم ومعرفة حقائق الأشياء، فهو يخلق جواً من الاستفهام للوصول إلى حقل المعرفة، كما يسأل السائل: ما هو [الله]؟^(١)، أو يسأل نافع بن الأزرق: أخبرني عن الله عز وجل متى كان؟^(٢)، أو يسأل أحد الخوارج: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟^(٣)

الثانية: مرحلة الافتراض: يفترض الناس أموراً من خلال سعيهم في الحياة، والافتراض الفكري هو تقديم تفسير عقلي نسبي محدود لظاهرة معينة أو حكم معين.

وقد يكون الافتراض خاطئاً، كمن يفترض أن الله تعالى يحكمه حين الزمان والمكان، فيسأل: ما هو؟ كيف هو؟ أين هو؟^(٤)، وآخر يفترض أن الخالق عز وجل لا بد أن تراه عيون البشر، ويقصد العيون لا القلوب!^(٥)، وثالث يسأل استفهاماً: أأراد الله المعاصي؟^(٦) وظاهره افتراض أن الناس مجبورون على الأفعال.

وقد يكون الافتراض صحيحاً، كمن يسأله عن قوم شهدوا الحق وكانوا كاذبين؟ فيجيب الإمام عليه السلام: «المنافقون حين قالوا لرسول الله ﷺ: نشهد أنك لرسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٤) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٥) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٦) تذكرة الخواص: ص ٣٠٢.

يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴿٢﴾.

وكمّن يسأله ﷺ عن رُوحٍ من الله في قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾^(٣)، فيجيب ﷺ: «هي مخلوقة خلقها الله بحكمته في آدم وعيسى»^(٤)، ولم يزد ﷺ على ذلك؛ لأن الروح مرتبطة بالله تعالى فلا يخوض فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥).

وطالما كانت الأفكار الدينية لا تخضع للتجارب العملية كالكيمياء والفيزياء، صار لزاماً علينا الأخذ من المصدر الصحيح؛ لأن الخطأ في اختيار المصدر سيؤدي إلى خلل في المنهج العلمي، فيدفعنا نحو سلوك الطريق الخاطيء، فلا بد في فحصها إذن من مصدر موثوق كنبى أو وصي نبي.

الثالثة: مرحلة التحليل والنتيجة: ومن المهم أن يكون هناك استنتاج فكري نابع من تحليل عقلي ذي معطيات، فالعقل يستطيع أن يفكك الأجزاء العلمية، ثم يعيد تركيبها بصيغة ثانية أكثر قبولاً للإنسان، وهذا هو التحليل، حيث يبدأ الإنسان في هضم الحقيقة العلمية الأولية، ثم يعيد تجميعها بما يناسب إدراكه وفهمه، خصوصاً إذا لاحظنا أن الإسلام أعطى فسحة للعقل بالتحرك والتفكير والتحليل والمطابقة.

كان الإمام ﷺ يعطي الفكرة، ويترك للعقل البشري استنتاج قيمتها وأهميتها، فما

(١) سورة المنافقون: الآية ١.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٤) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٠.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

أن نسمع كلامه ﷺ حتى نبقى مشدودين للنسيج الفكري الإسلامي الذي يطرحه ﷺ، ومنسجمين مع الرابط الذي يوصله ﷺ برسول الله ﷺ.

وبذلك يكون الإمام الباقر ﷺ قد رفع عنا غطاء الجهل، وأوصلنا إلى معرفة المجهول من الأحكام والعقائد، فكما يكتشف الفيزيائي قوانين الجاذبية والحرارة وهو يراقب العالم الطبيعي، فإن طالب العلم يكتشف الحقائق الكامنة في الدين عن طريق سماع الإمام ﷺ وهو يشرح الأحكام الشرعية، ويعلل عقائد التوحيد والنبوة والإمامة.

ولذلك تعلّم التلاميذ من استاذهم ﷺ الطريق العلمي لمعرفة الدين.

ولذلك عندما قال ﷺ لهم أن النبي ﷺ نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال، قالوا له: أين هذا في كتاب الله؟ فقد أرادوا أن يعرفوا الطريق العلمي لفهم الدين، فقال لهم مضموناً أنها في سورة النساء الآية ١١٤، وسورة النساء الآية ٥، وسورة المائدة الآية (١) ١٠١.

وعندما افترض أهل السؤال مختلف الافتراضات عن الخالق عزّ وجلّ في الماهية والكيف والأين، كان الله سبحانه وتعالى في كلام الإمام ﷺ هو: «سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»^(٢).

(١) الاحتجاج: ج ٢ ص ٤٩.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ ص ٤٨.

(٢)

معالم المنهج العلمي عند الإمام عليه السلام

مقدمة :

إنَّ أهمَّ خصيصة في أيِّ علمٍ هو المنهج الذي يسير عليه، فعلم التفسير مثلاً ليس مجرد مجموعة أفكارٍ وكلماتٍ، بل هو علمٌ منهجيٌّ في إطار المعرفة النازلة من السماء، والمنهجية تتضمن القواعد التي يمكن أن يسير عليها ذلك العلم الشريف، ونفس الأمر ينطبق على علم الحديث النبوي.

فالإمام عليه السلام ومن أجل أن ينقل لنا المعلومة الشرعية الصادقة، صمّم وصفاً للحقائق الدينية تشرح لنا الأحكام الشرعية، ووصفاً للخالق عزّ وجلّ بما وصف به نفسه، وعرضاً للأخلاق الدينية، وبذلك وَصَحَ للأمة منهجاً علمياً تسير عليه إلى ما شاء الله. والقضية العلمية في الإسلام بدأت حيث بدأ القرآن الكريم، وحيث بدأت سنّة النبي صلى الله عليه وآله، وبإكتمالها صار لدينا كمية هائلة من المعلومات تحتاج إلى منهج في التفسير، ومنهج في تطبيق المفاهيم على المصاديق، فكان المنهج العلمي للإمام الباقر عليه السلام.

معالم المنهج العلمي :

يتطلب المنهج العلمي أموراً ومعالم أساسية، نستطيع أن نقدرها بستة معالم، وهي: الكفاءة في الاستدلال، والثبوت في المنهج وعدم تغيره، وعرض الحقائق الدينية وتفسيرها، وكمالية الإجابة، ومفاتيح البحث، وصلاحية المعرفة الدينية.

١ - الكفاءة في الاستدلال، والدقة المتناهية في وضع الأمور في مواضعها، لنأخذ مثلاً، عندما يفسر الإمام عليه السلام: الغضب الالهي في آية ﴿... وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ

غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ»^(١)، فإنه يعرّفه بإرادة العقوبة الالهية، هنا يرفع الإمام عليه السلام معنى التجسيم العالق في أذهان الناس إلى معنى الإرادة الالهية في العقوبة، وينزّه الخالق عزّ وجلّ من أفكار التجسيم والتشبيه، فأصبح المسلم يفهم الآية بانسجام وتوازن مع آيات الكتاب السماوي الأخرى التي تنزه الخالق عن التشبه بالمخلوقات. وتلك كفاءة لا نظير لها في الاستدلال.

ونضرب مثلاً آخر، وهو قوله عليه السلام: «إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾^(٢) يعني عدلاً، ﴿... لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾^(٣)، قال عليه السلام: «ولا يكون شهداء على الناس إلا الأئمة والرسول عليه السلام»، فأما الأمة فإنه غير جائز أن يستشهدها الله تعالى على الناس، وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل»^(٤).

٢ - الثبوت في المنهج وعدم تغيره، فالدين - وبالخصوص علما التفسير والحديث الشريف - ليس علماً تجريبياً يتغير بثبوت نتائج التجربة أو عدم ثبوتها، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، أي إن الإمام عليه السلام يشرح لنا تفسير الآية مثلاً، وهذا تفسير ثابت لا يستطيع أحد أن يفنّده أو يغيّره بدعوى الاستحسان، أو الرأي الشخصي.

وعندما ينقل الإمام عليه السلام لنا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله، فإن فحوى الحديث ثابت، والحكم المتعلق به ثابت لا يتغير، وكذلك المنهج في الأخذ بالحديث فإنه ثابت أيضاً، أي ثبوت معايير الأخذ بصحة الحديث هي نفسها من زمن الإمام الباقر عليه السلام ولحد اليوم

(١) سورة طه: الآية ٨١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ١ / ص ٢٧٢.

ثابتة ولن تتغير.

قال عليه السلام: «لو أننا حدّثنا برأينا ضللنا كما ضلّ من كان قبلنا، ولكنّا حدّثنا بيّنة من ربنا بيّنها لنبينه عليه السلام فيبينها لنا»^(١).

٣ - عرض الحقائق الدينية وتفسيرها من وظيفة الإمام عليه السلام، فهو يقوم بإعطاء الحكم الشرعي فيما يخص العبادات والمعاملات، ويقوم بشرح حقائق العقائد في التوحيد والنبوة والإمامة.

وما يميّز جواب الإمام المعصوم عليه السلام عن غيره هو أنّ جوابه على سؤال ما:

أ - قد يستغرق لحظة أو لحظات كما سنلاحظ في الفصل الرابع: المناظرات، بينما يستغرق معرفة الجواب لعالمٍ من سائر العلماء مثلاً وقتاً أطول، وجهداً أعظم.

ب - جواب يطابق الحقيقة الشرعية الواقعية، بينما قد يكون جواب الباحث صحيحاً، وربما غير صحيح لعدم تطابق المقدمات مع النتيجة، أو لعدم توفر المعرفة الخاصة بالسؤال.

ج - علم الباحث علمٌ اكتسابي فقط، وعلم الإمام عليه السلام: علمٌ اكتسابي من آباءه عليهم السلام، وإلهامي مسدّد من قبل الله تعالى.

ولا أجد تفسيراً لجرأة بعض علماء المذاهب وغيرهم في الوقوف أمام الإمام الباقر عليه السلام في القضايا العلمية، ومناظرته مناظرة الند للند!!

٤ - كمالية الإجابة: إن القيمة العلمية للموضوع يُحدّد بكمالية الجواب ودقته، لا بصعوبة السؤال وشدته، فقد كان العديد من أصحاب الاستفسارات والأسئلة، أمثال:

(١) إعلام الوري: ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

هشام بن عبد الملك، ونافع مولى عمر بن الخطاب، والحسن البصري، وعمرو بن عبيد وغيرهم يحاولون نصب فخ للإمام عليه السلام حتى يقع في جواب مفاده: لا أعلم.

لكن الإمام عليه السلام بسبب علمه الإكتسابي والإلهامي كان يُجيب على جميع أسئلتهم الطبيعية والغريبة على سواء، ولم يذكر لنا التاريخ ولا مرة واحدة أنه قال: لا أعلم، أو لا أدري، أو اتركوني فترة أبحث عن الجواب، وفي ذلك دلالة عظيمة على عصمة الإمام عليه السلام من الخطأ، والجهل، والسهو، والنسيان، وكان عليه السلام -فوق ذلك- مسدداً من قبل الله تعالى، ذلك أن علم الدين ينبغي عقلاً أن يأتي، بعد النبي صلى الله عليه وآله، من إنسانٍ معصومٍ عن الخطأ، يمتلك علماً تاماً، وهذا هو الفرق بين العلم الديني والعلوم التجريبية كالفيزياء والهندسة مثلاً، ففي العلوم التجريبية يستطيع العالم التجريبي أن يغير ويصحح حتى يصل الى النتيجة، ولا يستطيع الإنسان فعل ذلك في الدين السماوي، فينبغي أن يكون مصدره صحيحاً من البداية، كما أشرنا سابقاً.

مقدار العلم في جملة (لا أدري):

ولكن، وللمقارنة العلمية أن مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) صاحب المذهب المالكي، قال: «من فقه العالم أن يقول لا أعلم»^(١)، وقال: «إنما أنا بشرٌ أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»^(٢)، وقال الشعبي (ت ١٠٣هـ): «لا أدري نصف العلم»^(٣)، بينما كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكدون أنهم «عبية علم الله»^(٤) أي الخزينة التي يوضع فيها العلم الإلهي، و«نحن

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٨ / ص ٦٩، ٧٧.

(٢) جامع بيان العلم - ابن عبد البر: ج ٢ / ص ٣٢.

(٣) الآداب الشرعية - محمد بن مفلح: ج ٢ / ص ٥٨.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ١٩٣.

الراسخون في العلم، ونحن نعلم تأويله»^(١).

وقد قيل في مدرسة الحديث والرأي: «من قال لا أعلم أو لا أدري فقد أفتى»^(٢)، وربما أريد منه أن السائل اذا علم أن المسؤول لا يملك العلم، فليسأل غيره، وأنفق الفقهاء من مختلف المذاهب بأن المسلم لا يجوز له أن يقول في دين الله ما لا يعلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(٣)، وفي الحديث الشريف: «... من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤)، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم»^(٥)، منطوقاً: هو الاعتراف بعدم العلم، وهو إنذارٌ للذين كانوا يفتنون بغير علم، ومفهوماً: إرجاعهم إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، أهل العلم والذكر والمعرفة.

ذكر ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) قصة لمالك (ت ١٧٩هـ) «حين سأله رجل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال الرجل وهو ينكر جوابه: قد سافرت البلدان إليك! فأجابه: ارجع إلى بلدك وقل: سألتُ مالكا، فقال: لا أدري»^(٦).

والحادثة وإن تُذكر على نحو تمجيد مالك بن أنس وعرض تقواه في الفتوى، إلا أنها تقدح في علميته أيضاً بوجود أئمة الهدى كالإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام في زمانه، ولسان أئمة أهل البيت عليهم السلام كان يصدق: «نحن أمناء الله، نحن مستودع

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ / ص ١٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ١ / ص ٢٧٩.

(٣) سورة النحل: الآية ١١٦.

(٤) مسند أحمد: ج ٤ / ص ٢٤٥.

(٥) سير أعلام النبلاء: ج ٢ / ص ١٩١.

(٦) صيد الخاطر - ابن الجوزي: ص ٨١.

مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) «(٢)».

وثمرة العلم الاكتسابي المجرد، مع الجهد البالغ في التحصيل، هي عدم اكتمال المعاني الحقيقية، وعدم وصول المكتسب اليقين في ابتغاء المطالب! وما اختلاف تفاسيرهم إلا شاهد صدق على عدم وصولهم اليقين في المعرفة الدينية، كالزنجشري (ت ٥٣٨هـ)، والرازي (ت ٦٠٥هـ)، والسيوطي (ت ٩١١هـ) لم يفتوا بقول واحد، بل أفتوا بأراءٍ متعددة، وقالوا: (يحتمل)، و(أعترض عليه)، و(يمكن)، و(ها هنا بحث وفيه شيء)، وأحياناً ينقض بعضهم بعضاً.

٥ - مفاتيح البحث: لو درسنا مفاتيح البحث في أقوال الإمام عليه السلام لرأيناها تصل إلى أربعة مفاتيح:

الأول: تعريف الموضوع، فالإمام عليه السلام يبدأ في أجوبته، بتعريف الموضوع قبل الإجابة عليه، فإذا تم تعريف الموضوع تحددت معاملة عند السامع.

مثلاً: عرّف (غضب الله) في قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(٣) بالعذاب، أو بصورة أدق: إرادة العقوبة الإلهية، وعرّف (اليد) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...﴾^(٤) بالقوة والمنعة، وعرّف (وجه الله) في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٦٢.

(٣) سورة طه: الآية ٨١.

(٤) سورة ص: الآية ٧٥.

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ... ﴿١﴾ بدين الله تعالى.

الثاني: تصميم الموضوع، فالإمام عليه السلام يُصمّم طبيعة الدخول في الموضوع وطبيعة الخروج منه.

ففي قضية (الغضب الالهي)، صمّم الامام الموضوع بهذا الشكل: «... فمن زعم أن الله يغيّره الغضب والرضا ويزول عن هذا، فقد وضعه بصفة المخلوق»^(٢).

وفي قضية (اليد)، صمّم الموضوع: «... ويقال لفلان عنده أيادٍ كثيرةٍ أي فواضل وإحسان، وله عندي يد بيضاء أي نعمة»^(٣).

وفي قضية (وجه الله)، صمّم الموضوع: «... الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كلُّ شيءٍ هَالِكٌ إِلَّا دينه، نحن وجه الله الذي يؤتى الله منه...»^(٤)، وإذا كان معنى وجه الله تعالى هو دينه، فهم عليهم السلام يمثلون الدين في المبدأ والمصدق معاً بقوله عليه السلام: «نحن وجه الله...»، بمعنى أن لديهم علماً تاماً في الدين على صعيد النظرية، ويطبّقونه تطبيقاً تاماً على أنفسهم على صعيد المصدق، ولا يُنقصون من ذلك شيئاً أبداً ولا يزيدون.

الثالث: انتخاب العناوين الفرعية، ينتخب الإمام عليه السلام العناوين الفرعية المتعلقة بصلب الموضوع، وتلك لها رابطة في إحكام النسيج العلمي للقضية المطروحة، مثلاً في (الغضب)، كان العنوان الفرعي هو امتلاك المخلوق صفات الغضب، وتغير حاله من حال الرضا والسعادة إلى حال الغضب والاستفزاز، وتلك صفة المخلوق الضعيف، ولا يمكن أن تنطبق تلك الصفة على صفات الخالق المطلق الذي لا تعتريه تلك الصفة

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٩.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٨٨.

(٤) بصائر الدرجات: ص ٧١.

إطلاقاً، بينما كان العنوان الرئيسي هو نفي التجسيم والتشبيه عن الخالق جلّ وعلا.

وفي موضوع (اليد)، كان العنوان الفرعي هو إمتلاك العبد العضو المخصوص على نحو الحقيقة، أما على نحو المجاز فاليد هي القوة والمنعة، بينما كان العنوان الرئيسي هو نفي التجسيم والتشبيه عن الخالق عزّ وجلّ أيضاً.

وفي موضوع (وجه الله)، كان العنوان الفرعي هو العضو المخصوص على نحو الحقيقة، أما على نحو المجاز - وهو مراد الآية - فالوجه هو الدين، بينما كان العنوان الرئيسي هو عدم فناء الدين؛ لأنه مرتبطٌ بالله تعالى.

الرابع: النتيجة النهائية من الموضوع، فالجواب عند الإمام ﷺ له هدفٌ منطقي محددٌ وهو إعطاء النتيجة النهائية، فإذا كان السؤال عن صفات الله تعالى، فلا بد أن تصل من الجواب إلى نتيجة مفادها نفي التجسيم والتشبيه.

وبتعبيرٍ آخر أن الباقر ﷺ بتلك المصاديق القرآنية نفى التجسيم بصورة نهائية في جميع أركان المعرفة الإسلامية، فالله عزّ وجلّ لا يُعرَف بالقياس، ولا يُدرَك بالحواس، ولا يُشَبَّه بالناس.

وبتلك الطريقة قام الإمام ﷺ بفتح مغاليق البحث في أغلب المواضيع الدينية التي سُئِلَ عنها الإمام ﷺ.

وبذلك أعطى للمواضيع الدينية المغلقة وضوحاً وعللاً شرعية ومنطقية، ولذلك كان مناوئوه يخشون من علمه ﷺ لأنه كان يكشف جهلهم، وعدم إحاطتهم بالشرعية من حيث زعموا بأنهم محيطون بها.

٦ - صلاحية المعرفة الدينية: إن صلاحية المعرفة تعني مدى مطابقة قول الإمام ﷺ للحقيقة الدينية التي تضمنها كتاب الله المجيد، وسنة رسول الله ﷺ، كان

الإمام عليه السلام يؤكد على قضية الإمامة الشرعية لأهل البيت عليهم السلام، وضرورة الإيثار بها: «نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سر الله...»^(١)، و«نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمه وحي الله، نحن الحجة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض»^(٢)، وإذا تم الإيثار بالولاية الشرعية لأهل البيت عليهم السلام ثبتت عند المكلف الصلاحية العقلية والشرعية لمضمون كلامهم عليهم السلام من أوامر ونواهي ومستحبات ومكروهات ومباحات.

وكانت المشكلة عبر التاريخ ولا تزال هي محاولة أعدائهم تجريد هؤلاء الأطهار عليهم السلام من تلك الصلاحية الدينية الممنوحة لهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، لبث الحكم الشرعي الصحيح بين الناس.

طرق المنهج العلمي عند الإمام عليه السلام :

وللمنهج العلمي طرق لا بد من سلكها، كالطريق الوصفي، والنوعي، والبلاغي، بمعنى أن العلم قوة عظيمة لا بد من حملها على مركبٍ قويٍّ لا تهزه رياح الشك، ولا تزعزعه الأمواج العاتية للمغالطين، واستخدام تلك الطرق يؤدي إلى تثبيت الكليات، وتصحيح الأخطاء، وتقوية المعاني بالبلاغة والفصاحة.

١- الطريق الوصفي: وهو الطريق الذي يمكن تطبيقه من خلال حديث في موضوع واحد على مواضيع متعددة، مثل: تعريف الإمام عليه السلام ليد على أنها القدرة، ومنها يُستنتج نفي التجسيم، وهي تنطبق على أشياء أخرى متعلقة بالموضوع مثل: الساق: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٣) وهو

(١) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ٢٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ١٠٥.

(٣) سورة القلم: الآية ٤٢.

كناية عن جدية الأمر، والوجه: ﴿لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾^(١) يعني دين الله، وهي أيضاً تنفي التجسيم والتشبيه.

٢ - الطريق النوعي: ونعني به تصحيح الإمام عليه السلام للأخطاء الشرعية التي كان يروجها، بعلم أو دون علم، رؤساء المذاهب والتيارات الفكرية المضادة، وهي على نوعين:

أ - أخطاء عشوائية: وهي أخطاء يمكن أن تصدر من أشخاص لديهم مقدار من العلم، إلا أن نيتهم ربما لم تكن نية سوء، بل لمجرد الظهور الاجتماعي، والظهور أمام أتباعهم بمظهر المقتدرين في العلم، ونلخصه بتعبير الإفتاء بغير علم، أمثال الحسن البصري، وعمرو بن عبيد ونحوهم.

وقد حرّم الإسلام الإفتاء بغير علم، كما في الروايات التالية:

١ - عن الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض»^(٢).

٢ - عنه عليه السلام قال: «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه»^(٣).

٣ - عنه عليه السلام قال: «ما علمتم فقولوا، وما لم تعلموا فقولوا: الله أعلم، أن الرجل ليتنزح الآية من القرآن يختر فيها أبعد ما بين السماء والأرض»^(٤).

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) المحاسن: ص ٢٠٥.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٤٢.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ٤٢.

٤ - عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام: ما حق الله على العباد؟ فقال عليه السلام: «أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون»^(١).

٥ - عنه عليه السلام قال: «من أفتى الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضاد الله حيث أحلّ وحرّم فيما لا يعلم»^(٢).

٦ - عن أبي بصير قلت لأبي جعفر عليه السلام: يرد علينا أشياء لا نجدها في الكتاب والسنة فنقول فيها برأينا؟ فقال عليه السلام: «أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله»^(٣).

ب - أخطاء منهجية: وهي أخطاء شرعية لها نظريات ومنهجية يؤخذ بها، ومن ذلك نظرية التجسيم والتشبيه، ونظرية القياس، ونظرية المصالح المرسلّة، ونظرية الاستحسان، ونحوها.

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٤)، كلامٌ موجّهٌ إلى المكذّبين الذين لم يسجدوا لله في الدنيا، فيشتد الأمر عليهم، ويتفاقم في الآخرة، فيدعون إلى السجود لله خضوعاً يوم القيامة ولكن لا يستطيعون لإستقرار ملكة التكبر والجحود في سرائرهم.

في كتاب (صحيح البخاري) ورد حديث عن النبي صلى الله عليه وآله يقول فيه: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة»^(٥)، وعن أبي هريرة قال أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في

(١) الكافي: ج ١ / ص ٤٣.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٥٧.

(٣) المحاسن: ص ٢١٥.

(٤) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٥) صحيح البخاري: ج ٦ / ص ١٥٩.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(١): يكشف عن ساقه^(٢).

والصحيح هو أن «معنى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ...﴾، يوم يشتد الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل»^(٣).

والكثير من الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام ذمّت القياس، منها:

١ - عن الباقر عليه السلام قال: «أن علياً عليه السلام قال: من نصب نفسه للقياس لم يزل في دهره في التباس، ومن دان الله بالرأي لم يزل في دهره في ارتماس»^(٤).

٢ - عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عمل بالمقاييس فقد هلك وأهلك، ومن أفتى الناس وهو لا يعلم الناس والمنسوخ، والمحكم والمتشابه فقد هلك وأهلك»^(٥).

٣ - عنه عليه السلام قال: «خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس، فقال: أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كلام الله، يقلد فيها رجالاً رجالاتاً، ولو أن الباطل خلص لم يخف على ذي حجي^(٦)، ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجثيان معاً، فهنا استحوذ الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى»^(٧).

(١) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٢) تفسير عبد الرزاق: ج ٢ / ص ٣١٠.

(٣) الكشف - الزمخشري: ج ٤ / ص ٥٩٨.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ٥٧.

(٥) المحاسن ص ٢٠٦.

(٦) ذو حجي: ذو عقل.

(٧) المحاسن: ص ٢٠٨.

٤ - عنه عليه السلام قال: «إن السنّة لا تقاس، وكيف تقاس السنّة والحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟»^(١).

٥ - عن زرارة بن أعين قال: قال لي محمد بن علي الباقر عليه السلام: «يا زرارة إياك وأصحاب القياس في الدين، فإنهم تركوا علم ما وكّلوا به، وتكلّفوا ما قد كفوه، يتأولون الأخبار، ويكذبون على الله عزّ وجلّ، كأني بالرجل منهم ينادى من بين يديه قد تاهوا وتحيروا في الأرض والدين»^(٢).

٦ - عنه عليه السلام قال: «أيما عبد من عباد الله سنّ سنّة هدى كان له أجر مثل من عمل بذلك من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وأيما عبد من عباد الله سنّ سنّة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٣).

وكلا النوعين من تلك الأخطاء الشرعية تقود إلى استنتاج خاطئ، وحكم شرعي جديد مخالف للحكم الشرعي الأصلي الذي أنزله الله تعالى في القرآن الكريم وقاله رسول الله صلى الله عليه وآله، أو فعله، أو أمضاه.

وقف الإمام الباقر عليه السلام بمنهجه الشرعي يكافح ويجاهد من أجل تثبيت الحكم الصحيح في أمة محمد صلى الله عليه وآله.

وكانت النقطة الأساسية في المنهج العلمي للإمام الباقر عليه السلام التي ذكرناها ونكرها لأهميتها، هي أن الدين لا يتمل تجارب مختبرية على أفكاره إذا صح التعبير، بمعنى أن الذي أقحم نظرية القياس في الأحكام الشرعية لا يمكن له أن يعتذر ويقول بأن نظريتي كانت خاطئة، فعليكم التبديل إلى نظرية أخرى جديدة، ثم يثبت خطأ النظرية الجديدة،

(١) المحاسن: ص ٢١٤.

(٢) أمالي الشيخ المفيد: ص ٣٩.

(٣) ثواب الأعمال: ص ١٦.

ويذهب إلى نظرية ثالثة، ربما هذا مقبولٌ في العلم التجريبي، لكنه غير مقبول في العلم الديني، نحتاج في العلم الديني شخصاً علمياً خلفه رسول الله ﷺ مباشرةً علينا الأحكام والعقائد، فتطمئن لها قلوبنا وعقولنا.

٣ - الطريق البلاغي: وهو الطريق الذي يحمل الحقيقة العلمية على جناحي اللغة الفصحى والمنطق، فالبلاغة في اللغة أمرٌ مهم في توصيل المعلومات إلى الناس، ولا يمكن لإمام الأمة أن يخاطب الناس بلغة ركيكة، فهنا لا يستطيع توصيل المعلومة الشرعية إلى المكلفين، أما المنطق، فهو أن تكون أفكار الحكم الشرعي منسجمة ومتعاضدة مع الأفكار الأخرى في الإسلام، وقد أسهبنا في موضوع أفضلية الإمام ﷺ في البلاغة في الفصل الثالث.

أ - منهج الإمام الباقر ﷺ في التفسير:

وضع الإمام الباقر ﷺ منهجاً رئيسياً لتفسير كتاب الله المجيد، عبر المبادئ الثلاثة التالية:

١ - إرادة المعنى الصحيح دون إرادة اللفظ: المعنى هو الأصل في فهم القرآن الكريم، وقد يُستخدم المجاز اللفظي في بعض الآيات القرآنية، وقد يُراد المُحكم دون المتشابه، وقد يُراد الظاهر دون الباطن أو العكس، والتدبر في القرآن الكريم الذي أكد عليه رسول الله ﷺ هو فهم المعاني على حقيقتها، ولا يتم ذلك إلا من مصدرٍ نظمّن إلى سلامته وارتباطه برسول الله ﷺ، وبذلك كان منهج الإمام ﷺ إرجاع فهم آيات القرآن الكريم إلى المعاني الأصلية التي نزل من أجلها الكتاب السماوي، في إظهار صفات الخالق عزّ وجلّ كالقدرة، والعدالة، والرحمة، والجبروت ونحوها، ونفي الصفات الدخيلة.

وفي ذلك روايات، منها:

١ - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(١) قال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٢)»^(٣).

٢ - عن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ...﴾^(٤)، قال: «قوت عيالك»، والقوت يؤمئذٍ مُدٌّ، قلت: ﴿... أَوْ كِسْوَتُهُمْ...﴾^(٥)، قال عليه السلام: «ثوب»^(٦).

٣ - عنه عليه السلام: «في قول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٧)، قال عليه السلام: في عقب الحسين عليه السلام، فلم يزل هذا الأمر منذ افضى إلى الحسين عليه السلام ينتقل من ولدٍ إلى ولدٍ، لا يرجع إلى أخٍ، ولا عمٍّ، ولم يعلم أحد منهم إلا وله ولد، وأن عبد الله خرج من الدنيا ولا ولد له، ولم يمكث بين ظهراي أصحابه إلا شهراً»^(٨).

٤ - سئل الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا

(١) سورة الحجر: الآية ٧٥.

(٢) سورة الحجر: الآية ٧٥.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٢١٨.

(٤) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٥) سورة المائدة: الآية ٨٩.

(٦) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣٣٧.

(٧) سورة الزخرف: الآية ٢٨.

(٨) علل الشرائع: ج ١ / ص ١٩٧.

الَّذِينَ آمَنُوا... ﴿١﴾؟ قال ﷺ: «إلهام»^(٢).

٥ - عنه ﷺ في قوله عز وجل: ﴿... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾^(٣): قال ﷺ: «من قدرتي»^(٤).

٦ - عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾^(٥)، قال ﷺ: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم»^(٦).

٧ - سئل الباقر ﷺ عن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾^(٧)، قال ﷺ: «ذلك قول ابن آدم إذا حضره الموت، قال: هل من طيب؟ هل من راق؟»، قال: ﴿وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾^(٨) يعني: فراق الأهل والأحبة عند ذلك، قال: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّمَاءُ بِالسَّاقِ﴾^(٩) قال: التفت الدنيا بالآخرة، قال: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾^(١٠) إلى رب العالمين يومئذ المصير»^(١١).

٨ - في قوله تعالى: ﴿... وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(١٢)، قال ﷺ: «يعني أن يأتي

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ٥٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٤) التوحيد: ص ١٧٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٦) الكافي: ج ٢ / ص ١٦٥.

(٧) سورة القيامة: الآية ٢٦ - ٢٧.

(٨) سورة القيامة: الآية ٢٨.

(٩) سورة القيامة: الآية ٢٩.

(١٠) سورة القيامة: الآية ٣٠.

(١١) أمالي الشيخ الصدوق: ص ١٨٥.

(١٢) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

الأمر من وجهه أي الأمور كان»^(١).

٩ - في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ...﴾^(٢)، قال: «هما أجلان: أجل محتوم، وأجل موقوف»^(٣).

٢- التفسير بالأثر الصحيح: أي عدم جواز تفسير آيات القرآن الكريم إلا بالأثر الصحيح عن النبي ﷺ وخلفائه من أهل البيت ﷺ، فما يرويه الباقر ﷺ إنما يرويه عن زين العابدين، وعن الحسين الشهيد، وعن الحسن المجتبي، وعن علي بن أبي طالب ﷺ، عن رسول الله ﷺ.

وفي ذلك روايات، منها:

١ - عن الباقر ﷺ قال: «وجدنا في كتاب علي بن الحسين ﷺ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤)، قال: إذا أدوا فرائض الله تعالى، وأخذوا بسنن رسول الله ﷺ، وتورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورجبوا فيما عند الله، واكتسبوا الطيب من رزق الله، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثم انفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فاولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويثابون على ما قدموا لآخرتهم»^(٥).

٢ - عنه ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يجهر بسم الله الرحمن الرحيم، ويرفع صوته بها، فإذا سمعها المشركون ولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: ﴿...وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي

(١) المحاسن ص ٢٢٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ١٤٧.

(٤) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٥) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ١٢٤.

الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿١﴾ (٢).

٣ - عنه عليه السلام قال: «لما أنزل الله على نبيه عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣)، قال: فأخذ رسول الله عليه السلام بيد علي عليه السلام فقال عليه السلام: يا أيها الناس إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلا وقد عمّر، ثم دعاه الله فأجابه، وأوشك أن أدعى فأجيب، وأنا مسؤول وأنتم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وأديت ما عليك، فجزاك الله أفضل ما جرى المرسلين، فقال: اللهم اشهد، ثم قال: يا معشر المسلمين ليبلغ الشاهد الغائب أوصي من آمن بي، وصدّقني بولاية عليّ، إلا أن ولاية عليّ ولايتي، وولايتي ولاية ربي، ولا أدري عهداً عهدته إليّ ربي، وأمرني أن أبلّغكموه، ثم قال: هل سمعتم؟ ثلاث مرات يقولها، فقال قائل: قد سمعنا يا رسول الله (٤).

٣- تفسير القرآن بالقرآن في جملة من الموارد، منها: في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي...﴾ (٥)، قال عليه السلام: «اليد في كلام العرب: القوة والمنعة، قال تعالى: ﴿...وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ...﴾ (٦)، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٦.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٢٠.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٤) تفسير العياشي: ج ١ / ص ٣٣٤.

(٥) سورة ص: الآية ٧٥.

(٦) سورة ص: الآية ١٧.

لَمَوْسِعُونَ ﴿١﴾، أي بقوة... ﴿٢﴾، فاستدل هنا بآيات القرآن في تفسير القرآن الكريم.

وروايات أخرى في تفسير القرآن بالقرآن، منها:

١ - في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ﴿٣﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٤﴾، فهو النضر بن الحارث، قال لرسول الله ﷺ: أتبع ما أنزل إليك من ربك؟! بل أتبع ما وجدت عليه آبائي ﴿٥﴾.

٢ - في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦﴾، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح، فقال ﷺ: ﴿...الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٧﴾، قالوا: نحن خاصة؟ قال ﷺ: «بل الناس عامة»، قالوا: كيف يجتمع هذان؟ يا محمد تزعم أنك لم تؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتيت القرآن، وأوتينا التوراة، وقد قرأت: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ...﴾ وهي التوراة... فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٨﴾؟

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ

(١) الذاريات: الآية ٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٨٨.

(٣) سورة الحج: الآية ٨.

(٤) سورة لقمان: الآية ٢١.

(٥) تفسير القمي ج ٢ / ص ١٦٦.

(٦) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٧) سورة الاسراء: الآية ٨٥.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١)، يقول: علم الله أكثر من ذلك، وما أوتيتم كثيرٌ فيكم، قليلٌ عند الله^(٢).

٣ - عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٣)، يعني الرجل يكره أهله، فإما أن يمسكها فيعطفه الله عليها، وإما أن يخلي سبيلها فيتزوجها غيره، فيرزقها الله الولد والولد، ففي ذلك قد جعل الله خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(٤)، وذلك إذا كان الرجل هو الكاره للمرأة فنهى الله أن يسيء إليها حتى تفتدي منه، يقول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾^(٥)، والإفشاء: المباشرة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَخَذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٦)، والميثاق الغليظ الذي اشترطه الله للنساء على الرجال: ﴿...فَأِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ...﴾^(٧)^(٨).

٤ - عن محمد بن مسلم قال: سألت الباقر عليه السلام: جعلت فداك كيف صارت عدّة المطلقة ثلاث حيضات أو ثلاثة أشهر، وصارت عدّة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً؟ فقال عليه السلام: «أما عدّة المطلقة ثلاثة قروء، فلأجل استبراء الرحم من الولد، وإما عدّة المتوفى عنها زوجها، فإن الله شرط للنساء شرطاً، وشرط عليهن شرطاً، فلم يجز فيها

(١) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ / ص ١٦٦.

(٣) سورة النساء: الآية ١٩.

(٤) سورة النساء: الآية ٢٠.

(٥) سورة النساء: الآية ٢١.

(٦) سورة النساء: الآية ٢١.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

(٨) تفسير القمي: ج ١ / ص ١٣٤.

شرطاً لهن، ولم يجز فيها شرطاً عليهن.

أما ما شرط لهن ففي الإيلاء أربعة أشهر، إذ يقول: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾^(١)، فلن يجوز لأحد أكثر من أربعة أشهر من الإيلاء لعلمه تبارك وتعالى إنها غاية صبر المرأة من الرجل، وأما ما شرط عليهن فإنه أمرها أن تعتد إذا مات زوجها أربعة أشهر وعشراً، فأخذ له منها عند موته ما أخذ لها منه في حياته^(٢).

٥ - عنه عليه السلام قال: «أعينونا بالورع، فإنه من لقي الله عز وجل منكم بالورع، كان له عند الله فرجاً، وإن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٣)»^(٤).

٦ - عن أبي بصير سأل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾^(٥)، ما ذاك الشيء؟ قال عليه السلام: «هو الرجل يقبل الدية، فأمر الله عز وجل الذي له الحق أن يتبعه بمعروف، ولا يعسره، وأمر الذي عليه الحق أن لا يظلمه، وأن يؤدي إليه بإحسان إذا أيسر»، فقلت: رأيت قوله عز وجل: ﴿...فَمَنْ اغْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٦)؟ قال عليه السلام: «هو الرجل يقبل الدية، أو يصلح ثم يجيء بعد، فيمثل أو يقتل، فوعده الله عز

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٦.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١٢٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٧٨.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٧٨.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٧٨.

وجلّ عذاباً أليماً»^(١).

٧ - عنه عليه السلام: «لا يرجع الرجل فيما يهب لامرأته، ولا امرأة فيما تهب لزوجها، حازا أو لم يجازا، أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا...﴾»^(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾^(٣)، وهذا يدخل في الصداق والهبة»^(٤).

ب - منهج الإمام عليه السلام في الأخذ بالحديث:

لم يكن الحديث النبوي الشريف أقلّ عنايةً عند أهل البيت عليهم السلام من القرآن الكريم، فقد أعتنى عليه السلام بالحديث الشريف كما أعتنى بالقرآن الكريم، ووضع منهجاً واضحاً في العناية به، والتمييز بين صحيحه وضعيفه، فكانت القواعد الفقهية لعلاج تعارض الأخبار وتضاربها، أو تعارض موقف المكلف من الأحكام حسب الزمان، ومصلحة المكلف، ونحوها.

أولاً: القواعد الفقهية:

من القواعد الفقهية التي وضع أسسها الإمام الباقر عليه السلام، ناذج نعرضها مختصرة، ومنها:

١ - قاعدة لا تعاد: وهي قاعدة تقول بأن الصلاة لا تُعاد إلا من خمسة أمور، قال عليه السلام لزراعة: «لا تعاد الصلاة إلا من خمسة: الطهور، والوقت، والقبلة، والركوع،

(١) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق ج ٤ / ص ١١١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٤.

(٤) تهذيب الأحكام - الشيخ الطوسي: ج ٧ / ص ٤٦٣.

والسجود»^(١)، وقال عليه السلام في إشارة أخرى لتلك القاعدة: «إذا صليت على غير القبلة، فاستبان لك قبل أن تصبح أنك صليت على غير القبلة، فأعد صلاتك»^(٢).

٢ - قاعدة الفراغ: وهي قاعدة تبحث في الحكم عن صحة الفعل فيما لو شك في صحته بعد الفراغ منه، استفيدت هذه القاعدة من قوله عليه السلام: «كلما شككت فيه بعدما تفرغ من صلاتك فامض ولا تعد»^(٣).

٣ - قاعدة التجاوز: وهي قاعدة تبحث في الحكم بوجود الشيء المشكوك بعد الدخول في غيره مما هو مترتب عليه، استفيدت هذه القاعدة من قوله عليه السلام: «متى ما استيقنت أو شككت في وقت صلاة إنك لم تصلها، أو في وقت فوتها صليتها، فإن شككت بعدما خرج وقت الفوت فقد دخل حائل فلا إعادة عليك من شك حتى تستيقن، فإن استيقنت فعليك إعادة أن تصلها في أي حال كنت»^(٤).

٤ - قاعدة المؤمنون عند شروطهم: وهي الوفاء بالشرط الشرعي، عن الباقر عليه السلام قال: «أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يقول: من شرط لامرأته شرطاً فليف لها به، فإن المسلمين عند شروطهم، إلا شرطاً حرم حلالاً، أو أحل حراماً»^(٥).

٥ - في قضايا الشك: قال عليه السلام بخصوص عدم التأكد من دخول الوقت: «لأن أصلي بعدما يمضي الوقت أحب إلي من أن أصلي وأنا في شك من الوقت، وقبل الوقت»^(٦).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٧٩.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٤٨.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٣٥٢.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٢٧٦.

(٥) تهذيب الأحكام: ج ٧ / ص ٤٦٧.

(٦) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٢٣.

٦ - في القطع واليقين: وهو الأخذ بحالة اليقين في شيء، مثلاً جلد الميتة نجس ولا تجوز الصلاة فيه، سئل عليه السلام عن جلد الميتة يُلبس في الصلاة إذا دُبغ؟ فقال عليه السلام: «لا، وإن دُبغ سبعين مرة»^(١).

ثانياً: القواعد العلاجية:

هناك قواعد إضافية لعلاج الأخذ بالروايات، نورد هنا من باب التهاجج المختصرة، من علم الإمام الباقر عليه السلام:

١ - موافقة الكتاب والسنة: وهي أن تُعرض الأخبار على القرآن والسنة النبوية فما وافقها أخذ، وما خالفها ترك، قال عليه السلام: «لا تصدق علينا إلا بما يوافق كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام»^(٢)، و«إن الله لم يدع شيئاً محتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبينه لرسوله عليه السلام، وجعل لكل شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه»^(٣)، ويقصد السنة النبوية الصحيحة، كما ذكرنا ذلك سابقاً، لا الأحاديث الموضوعية.

٢ - الشهرة: وهي الأخذ بالرواية المشهورة عند ورود خبرين متعارضين، والقاعدة: «خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر»^(٤).

قال زرارة بن أعين سألت الباقر عليه السلام: جعلتُ فداك يأتي عنكم الخبران أو الحديثان المتعارضان، فبأيهما أخذ؟ فقال عليه السلام: «يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك، ودع الشاذ النادر».

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٤٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٦ / ص ٢٦٢.

(٣) بصائر الدرجات: ص ٦.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٤٥.

فقلتُ: سيدي، إنها معاً مشهوران مرويان مأثوران عنكم؟ فقال ﷺ: «خذ بقول أعدلهما عندك، وأوثقهما في نفسك».

فقلتُ: إنها معاً عدلان مرضيان موثقان، فقال ﷺ: «انظر ما وافق منهما مذهب العامة فاتركه، وخذ بما خالفهم».

فقلتُ: ربما كانا موافقين لهم، أو مخالفين، فكيف أصنع؟ فقال ﷺ: «إذن فخذ بما فيه الحائطة لدينك، واترك ما خالف الإحتياط».

فقلتُ: إنها معاً موافقان للإحتياط أو مخالفان له، فكيف أصنع؟ فقال ﷺ: «إذن فتخير أحدهما فتأخذ به، وتدع الآخر»، وفي رواية أنه قال ﷺ: «إذن فأرجه، حتى تلقى إمامك فتسأله»^(١).

٣ - الترجيح بأحوال الرواة: وهو النظر في صفات الراوي وأحواله من حيث الوثاقة والعدالة، فإذا كانا ثقتين عادلين فإنه يأخذ بالأوثق والأعدل، فالقاعدة: «خذ بما يقول أعدلهما عندك، وأوثقهما في نفسك»^(٢)، كما في الرواية السابقة، وإذا لم يتم إحراز الثقة بهما يسقط الخبر.

٤ - حديثهم ﷺ هو حديثه ﷺ: أن حديث أئمة أهل البيت ﷺ هو حديث رسول الله ﷺ: فما ورد عن أهل البيت ﷺ من أحاديث لم تكن عن رأي أو استحسان أو مصالح مرسلة، بل إما نقلاً عن رسول الله ﷺ، وإما بما أودع الله لديهم من علوم.

وفي ذلك أقوال للإمام الباقر ﷺ، منها:

أ - قوله ﷺ: «إنا لو كنا نحدثكم برأينا لكنا من الهالكين، ولكننا نحدثكم بأحاديث

(١) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٤٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٤٥.

نكنزها عن رسول الله ﷺ كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم»^(١).

ب - وبتعبير مختلف قوله ﷺ: «والله يا جابر، لو كنا نحدث الناس أو حدثناهم برأينا لكننا من الهالكين، ولكننا نحدثهم بأثار عندنا من رسول الله ﷺ نتوارثها كإبراً عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم»^(٢).

ج - قوله ﷺ: «لو أننا حدثنا برأينا ضللنا كما ضل من كان قبلنا، ولكننا حدثنا بينة من ربنا بينها لنبيه ﷺ فيبينها لنا»^(٣).

لم يحدث الإمام الباقر ﷺ حديثاً وقال فيه أنه من رأيي أو استحساني أبداً، بل كان ﷺ يرفعه إلى النبي ﷺ، وعندما كان يحدثهم أحاديث مرسله كان يسندها إلى النبي ﷺ عن طريق السلسلة الذهبية، فيقول ﷺ: «إذا حدثت بالحديث فلم أسنده، فسندي فيه أبي زين العابدين، عن أبيه الحسين الشهيد، عن أبيه علي بن أبي طالب، عن رسول الله ﷺ، عن جبرئيل عن الله عز وجل»^(٤).

ولكن كان العديد من أئمة المذاهب من كان يقول برأيه، حتى وإن كان مخالفاً لقول رسول الله ﷺ، قال «أبو عمر بن عبد البر القرطبي المالكي: أفرط أصحاب الحديث في ذم أبي حنيفة، وتجاوزوا الحد في ذلك، والسبب والموجب لذلك عندهم إخاله الرأي والقياس على الآثار واعتبارهما، وأكثر أهل العلم يقولون: إذا صحَّ الأثر بطل القياس والنظر، وكان ردُّه - أي أبو حنيفة - لما ورد من أخبار الآحاد بتأويلٍ محتملٍ، وكثيرٌ منه تقدم إليه غيره، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأي، وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه

(١) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ٢٨.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٢٨٥.

(٣) بصائر الدرجات: ص ٢٩٩.

(٤) إعلام الوري: ص ٢٧٠.

إتباعاً لأهل بلده كإبراهيم النخعي، وأصحاب ابن مسعود، إلا أنه أغرق وأفرط في تنزيل النوازل - أي الفروض - هو وأصحابه، والجواب فيها برأيهم، واستحسانهم، فأتى منه من ذلك خلافٌ كبيرٌ للسلف، وُشِنَعُ هي عند مخالفيهم بدع، وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل في آية، أو مذهب في سنة، ردّ من أجل ذلك المذهب سنةً أخرى بتأويلٍ سائغٍ، أو ادعاءٍ نسخٍ، إلا أن لأبي حنيفة من ذلك كثيراً، وهو يوجد لغيره قليلاً.

وقال ابن عبد البر متابعاً: - وقد ذكر يحيى بن سلام - قال: سمعتُ عبد الله بن غانم في مجلس إبراهيم بن الأغلب يُحدِّث عن الليث بن سعد أنه قال: أحصيتُ على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي ﷺ مما قال مالك فيها برأيه^(١).

(٣)

الطرق المعرفية عند الإمام الباقر

للأنبياء وأوصيائهم ﷺ طرق معرفية يوصلون بها المعرفة والعلم إلى الناس، والقاسم المشترك بين الأنبياء والأوصياء ﷺ هو أنهم كانوا يُتهمون بالكذب دوماً من قبل أعدائهم، بأساليب متشابهة، ولا يبقى إلا التسديد الإلهي لنصرتهم، وكهالية الطريق المعرفي لنقل رسالتهم، أو لإيصال ما كُلفوا بتوصيله إلى الناس.

كان من الطرق المعرفية للإمام ﷺ هو الاستدلال مباشرة بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية الشريفة، وتفسير القرآن بالأثر الصحيح دون إدخال الرأي في ذلك.

(١) مالك بن أنس - عبد الغني الدقر: ص ٢٤٨.

الطريق الأول: الاستدلال المباشر بالقرآن الكريم:

لاشك أن الاستدلال بالقرآن الكريم في أية قضية يأتي في الرتبة الأولى؛ لأن القرآن كتاب الله المجيد المحفوظ بين الدفتين والذي تعهد الله تعالى بحفظه من التغيير والتحريف، وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: قال الإمام الباقر عليه السلام: «إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله»^(١)، وقال عليه السلام في بعض حديثه: «أن النبي صلى الله عليه وآله نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال»، فقيل له: يابن رسول الله أين هذا من كتاب الله تعالى؟

قال عليه السلام: قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٣)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

بيان:

١ - الدليل القرآني هو الأصل في المعرفة الإسلامية، ولكن لأن القرآن الكريم (...، حملاً ذو وجوه)^(٥) كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام، فالإحاطة الواقعية بعلوم القرآن

(١) الاحتجاج: ج ٢ ص ٤٩.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٠١.

(٥) الإلتقان في علوم القرآن - السيوطي: ج ١ / ص ٤٤٠، جاء فيه: بعث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عبد الله بن عباس إلى الخوارج قال له: «لا تخصصهم بالقرآن، فإن القرآن حملاً أوجه، ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً».

ليست ميسورة لكل وارد، ومن كانت مقدمته خاطئة كانت نتيجته خاطئة أيضاً، إلا أن الإمام الباقر عليه السلام بالخصوص، وأهل البيت عليهم السلام بالعموم اقتصوا بعلوم القرآن كما قال عليه السلام: «لا يفهم القرآن إلا من خوطب به»^(١).

٢ - عندما قال عليه السلام: «إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله»، يعني أنه كان دائماً يستمد مفاهيمه من القرآن الكريم حتى وإن لم يذكره في الاستدلال، وفي ذلك دلالة على دور القرآن الكريم في الحياة المعرفية لأهل البيت عليهم السلام.

٣ - عندما سئل عليه السلام عن موقع نهى النبي صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال، أرجعها إلى آيات القرآن الكريم، وذكرها كالتالي:

القول والقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢).

فساد المال: ﴿لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾^(٣).

كثرة السؤال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

٤ - لاشك أن تلك الآيات القرآنية كان قد قرأها الكثير ممن كانوا في مجلسه من قبل، ولكن الأصل في المعرفة الإسلامية هو ربط تلك الآيات بعناوينها، وربط الأفكار بالنصوص ينتج ذلك النسيج المحبوك الذي نفتقده في فهم الشريعة.

(١) بحار الأنوار: ج ٧٢ / ص ٢٤٨.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٤.

(٣) سورة النساء: الآية ٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٠١.

النموذج الثاني: لما حج هشام بن عبد الملك، بعث إلى الإمام الباقر عليه السلام، حيث كان جالساً عند الكعبة، من يسأله: كيف يأكل الناس ويشربون حتى يُفصل بينهم يوم القيامة؟

أجابه الإمام عليه السلام: «يحشر الناس على مثل قرصة البرّ النقي^(١)، فيها أنهار متفجرة، يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب».

ظن هشام أنه قد ظفر بالإمام عليه السلام، فقال: الله أكبر اذهب إليه فقل له: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ!

فقال الإمام عليه السلام: «هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا ﴿...أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾^(٢)»^(٣).

بيان:

١ - كان الإشكال الموجه من قبل هشام بن عبد الملك إلى الإمام عليه السلام فخأً علمياً، ظنّ منه هشام أنه سيوقع الإمام عليه السلام فيه، فلذلك بعث من يسأله، والسؤال على أية حال لم يكن سؤالاً فقهياً أو عقائدياً، بل أراد أن يستوضح عن كيفية معيشة الناس يوم الحساب.

٢ - أجاب الإمام عليه السلام إجابة في غاية الدقة، وهي طالما لم ينته حساب الناس، فإن حاجاتهم الدنيوية من طعام وشراب باقية كما هي، إنما التغير يحصل عندما ينتهي الحساب، قسمٌ يُساق إلى الجنة، والآخر إلى النار، وما قبل الجنة والنار يكون رغيف الخبز، أو قرصة البرّ النقي هو الطعام، والماء يشربونه من الأنهار.

(١) قرصة البرّ النقي: الخبز من حبوب القمح.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٠.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥١.

٣ - إن الحساب - وإن كان شديداً ومضنياً - إلا أنه لا يمنع الإنسان من الجوع والعطش، إذا بقيت غريزته نفسها نحو الطعام والشراب، أي إن الإنسان يبقى على حاجته الأساسية في الطعام والشراب حتى ينتهي الحساب، وبذلك تكون تلك المرحلة مرحلة إنتقالية إلى أحد عالمين: إما عالم السعادة الأبدية، أو عالم الشقاء الأبدية، وحتى بعد الحساب، فإن أهل الجنة يأكلون طعاماً طيباً ينسجم مع جزائهم في الثواب، وأهل النار يأكلون طعاماً قبيحاً ينسجم مع جزائهم في العقاب.

٤ - عندما ظنَّ هشام - واهماً - أنه اوقع بالامام عليه السلام في فخ سؤاله، رجع إليه يسأله كيف يمكن أن يتناسب موقف الحساب مع الطعام والشراب، وهشام بعدم معرفته بأن الحساب شيء وغريزة الجوع والعطش شيء آخر، أوقع نفسه في فخ جهله، فأجابه الإمام عليه السلام بما لا يقبل الشك: «هم في النار أشغل، ولم يشغلوا عن أن قالوا: ﴿...أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾»^(١)^(٢).

فغريزة الجوع والعطش تبقى حتى بعد الحساب، ولكن طبيعة الطعام والشراب تتغير حينئذٍ، فبدل الطيبات من الطعام يأكل أهل النار من شجرة الزقوم، ويشربون ماءً يقطع أمعاءهم.

الطريق الثاني: الاستدلال بالكتاب والسنة معاً:

وهو أحد الطرق الأساسية عند الإمام عليه السلام؛ لأن القرآن الكريم والسنة الشريفة مصدر الاستدلال في الأحكام والعقائد، وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: في كلامه عليه السلام عن الخوارج، قال الإمام عليه السلام: «قل لهذه المارقة، بما

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٠.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥١.

استحللتهم فراق أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سفكتم دماءكم بين يديه، وفي طاعته، والقربة إلى الله تعالى بنصرته؟ فسيقولون لك: إنه حكّم في دين الله، فقل لهم: قد حكّم الله تعالى في شريعة نبيّه رجلين من خلقه، قال جلّ اسمه: ﴿...فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا...﴾^(١)، وحكّم رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكّم فيهم بما أمضاه الله.

أو ما علمتم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما أمر الحكمين أن يحكّموا بالقرآن ولا يتعدياه واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال؟ وقال حين قالوا له: حكّمت على نفسك من حكّم عليك؟ فقال: ما حكّمت مخلوقاً فإنما حكّمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر الحكم بالقرآن، واشترط ردّ ما خالفه، ولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان^(٢).

بيان:

١ - يخاطب الإمام عليه السلام أحد زعماء الخوارج، والخوارج هي فرقة من جنود الإمام علي عليه السلام خرجت عليه بدعوى أنه حكّم في دين الله الرجال! يرّد الإمام الباقر عليه السلام على تلك الدعوى بالقول بأن تحكيم الرجال ليس مخالفاً للشريعة إذا تم عن طريق الأصول الشرعية المتبعة، وفي ذلك دليلان:

الأول: تحكيم الله تعالى في الإسلام رجلين في قضية الإصلاح بين الزوج وزوجته إذا حصل خلاف ما قد ينتهي إلى الطلاق، فقال تعالى: ﴿...فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا...﴾^(٣)، فقضية التحكيم هنا شرعية

(١) سورة النساء: الآية ٣٥.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥١.

(٣) سورة النساء: الآية ٣٥.

بنص القرآن الكريم.

الثاني: تحكيم رسول الله ﷺ سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكّم فيهم بما أمضاه الله تعالى، وغزوة بني قريظة قادها رسول الله ﷺ بسبب غدرهم بالمسلمين في معركة الخندق، ونقضهم العهود التي كانت بينهما، وانتهت الغزوة باستسلام بني قريظة بشرط التحكيم، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ لأنه كان حليفاً لهم في الجاهلية، وقضية التحكيم هذه قضية شرعية بنص السنة النبوية.

٢ - طَبَّقَ الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في سنة رسول الله ﷺ، فحكّم أبا موسى الأشعري من طرفه، وحكّم معاوية: عمرو بن العاص، وأمرهما ﷺ أن يحكّما بالقرآن ولا يتعدياه، واشترط رد ما خالف القرآن من أحكام الرجال.

٣ - عندما أثيرت الشبهة على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بأنه قد حكّم الرجال، قال ﷺ: «ما حكمتُ مخلوقاً، إنما حكمتُ كتاب الله تعالى»، ولكن إذا خانت الرجال الذي وكلّوا بالتحكيم، فما بال الإمام عليه السلام أن يفعل؟

٤ - هؤلاء الذين اتهموا علياً عليه السلام مرقوا عن الدين كما يمرق السهم من الرمية، ولذلك ساهم ﷺ بالمارقة، وهذه لم تكن سابقة من نوعها، فقد حصل ما يشبه ذلك مع النبي ﷺ في صلح الحديبية عندما اعترضوا على الصلح، وبعد فتح مكة عندما زعموا انه ﷺ حابي عشيرته، ونحوها!

النموذج الثاني: حديث الإمام الباقر عليه السلام مع أخيه زيد بن علي الذي كان يستعجل القيام على بني أمية، دخل زيد بن علي على الإمام الباقر عليه السلام ومعه كتب أهل الكوفة يدعونه فيها إلى أنفسهم، ويخبرونه باجتماعهم، ويأمرونه بالخروج، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «هذه

الكتب ابتداءً منهم، أو جواب ما كتبت به إليهم ودعوتهم إليه؟»، فقال: بل ابتداءً من القوم لمعرفة بحقنا وقرابتنا من رسول الله ﷺ، ولما يجدون في كتاب الله عز وجل من وجوب مودتنا وفرض طاعتنا، ولما نحن فيه من الضيق والظنك والبلاء، فقال له الإمام ﷺ: «إن الطاعة مفروضة من الله عز وجل، وستة أمضاها في الأولين، وكذلك يجريها في الآخرين، والطاعة لواحد منا والمودة للجميع، وأمر الله يجري لأوليائه بحكم موصول، وقضاء مفصول، وحتم مقضي، وقدر مقدور، وأجل مسمى لوقت معلوم، فلا يستخفّنك الذين لا يوقنون، إنهم لن يغنوا من الله شيئاً، فلا تعجل، فإن الله لا يعجل لعجلة العباد، ولا تسبقن الله فتعجزك البلية، فتصرعك».

قال: فغضب زيد عند ذلك، ثم قال: ليس الإمام منا من جلس في بيته، وأرخى ستره، وثبط عن الجهاد، ولكن الإمام منا من منع حوزته، وجاهد في سبيل الله حق جهاده، ودفع عن رعيته، وذب عن حريمه.

قال الإمام ﷺ: «هل تعرف يا أخي من نفسك شيئاً مما نسبتها إليه، فتجيء عليها بشاهد من كتاب الله أو حجة من رسول الله ﷺ، أو تضرب به مثلاً فإن الله عز وجل أحلّ حلالاً، وحرّم حراماً، وفرض فرائض، وضرب أمثالاً، وسنّ سنناً، ولم يجعل الإمام القائم بأمره شبهة فيما فرض له من الطاعة أن يسبقه بأمر قبل محله، أو يجاهد فيه قبل حلوله، وقد قال الله عز وجل في الصيد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ...﴾^(١)، أفقتل الصيد أعظم أم قتل النفس التي حرّم الله، وجعل لكل شيء محلاً، وقال الله عز وجل: ﴿...وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا...﴾^(٢)، وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) سورة المائدة: الآية ٩٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ... ﴿١﴾، فجعل الشهور عدّة معلومة، فجعل منها أربعة حرماً، وقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِّمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...﴾ ﴿٣﴾، فجعل لذلك محلاً.

وقال: ﴿...وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ...﴾ ﴿٤﴾، فجعل لكل شيء أجلاً، ولكل أجل كتاباً، فإن كنت على بيّنة من ربك، ويقين من أمرك، وتبيان من شأنك، وإلا فلا ترومنّ امرأة أنت منه في شك وشبهة، ولا تتعاطَ زوال ملك لم تنقض أكله، ولم ينقطع مدها، ولم يبلغ الكتاب أجله، فلو قد بلغ مدها، وانقطع أكله، وبلغ الكتاب أجله لانقطع الفصل، وتتابع النظام، ولأعقب الله في التابع والمتبوع الذل والصغار.

أعوذ بالله من إمامٍ ضلّ عن وقته، فكان التابع فيه أعلم من المتبوع، أتريد يا أخي أن تحيي ملة قوم قد كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله ﷺ واتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، وادعوا الخلافة بلا برهان من الله، ولا عهدٍ من رسوله، أعيدك بالله يا أخي أن تكون غداً المصلوب بالكناسة، ثم أرفضت عيناه، وسالت دموعه، ثم قال: الله بيننا وبين من هتك سترنا، وجحدنا حقنا، وأفشى سرّنا، ونسبنا إلى غير جدنا، وقال فينا ما لم نقله في أنفسنا» ﴿٥﴾.

بيان: كان موقف زيد بن علي من الإمام الباقر ﷺ موقف المجتهد مع الإمام

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.

(٥) الكافي: ج ١ / ص ٣٥٦-٣٥٧.

المعصوم عليه السلام، فحاول الإمام عليه السلام أن يوضح الموقف الشرعي الصحيح من القيام على الظالم، وهو إن هناك أجلاً معلوماً، وقدراً مقدوراً، ولا يمكن استعجال الأشياء ما لم يأت بها أمرٌ من الله تعالى.

ثم قام الإمام عليه السلام بتوضيح الفكرة الأساسية، وهي: أن الله عز وجل حلل الحلال، وحرّم الحرام، وفرض الفرائض عبر تصميمٍ متقنٍ للحياة، فكما حرّم الصيد في الحرم والناس محرمون، كذلك حرّم القتال في الأشهر الحُرْم، وقتل النفس البشرية أعظم من صيد الأنعام، فكيف يمكن طاعة الله تعالى في شك وشبهة؟ وكيف تدخل مدخلاً ولم يبلغ الكتاب أجله؟ وكان في بداية حديثه أن سأله أن يأتي بحجةٍ من كتاب الله أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله تميز له الخروج في ظرفٍ قاسٍ على الدين مثل ذلك الظرف.

الطريق الثالث: تفسير القرآن الكريم:

ولا يكفي - أحياناً - الاستدلال بآيات القرآن الكريم في إثبات المدعى، بل يحتاج الأمر إلى تفسيرٍ لآيات الكتاب المجيد، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالشبهات التي كان يطرحها الناس، وقد ذكرنا سابقاً نماذج من تفسيره للقرآن الكريم، ولكن نذكر هنا التفسير من زاوية الطريق المعرفي عند الإمام عليه السلام، وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: عمرو بن عبيد الله المعتزلي (ت ١٤٤هـ) يسأل الإمام الباقر عليه السلام عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...﴾^(١)، ما هذا الرتق؟ وما هذا الفتق؟

يجيب الإمام عليه السلام: «كانت السماء رتقاً لا تُنزلُ المطر، وكانت الأرض رتقاً لا تُخرجُ

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

النبات، ففتق الله السماء بالقطر، وفتق الأرض بالنبات»^(١).

بيان: قال اللغويون^(٢): رَتَقَ الفَتَقَ: سَدَّهُ أو لَحَمَهُ، عكسه فَتَقَهُ، والرتق: الضمّ والالتحام، رتق القميص: خاطه، رَتَقَ الفَتَقَ: أصلح شأنه، قال عبد الله بن الزبيري (ت ١٥٥هـ):

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني راتقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُورٌ^(٣)
ومنه قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

ورتق الفتوق وفتق الرتوق ونقض الأمور وإبرامها^(٤)
رَتَقَ الفَتَقَ: أصلح شأنه، ومنه قول أبو طالب عليه السلام:

أبنيَّ طالبُ إنَّ شيخَكَ ناصحٌ فيما يقولُ مُسَدِّدٌ لك راتقٌ^(٥)
لم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، بمعنى أن الكون في بداية خلقه كان وجوداً أقرب إلى النسيج (الرتق) بحيث ينفثق كما ينفثق الثوب المنسوج. ونفهم من كلامه عليه السلام أن الكون في بداية تكوينه كان: حيث السماء لم ينزل منها رَجْع، والأرض ليس فيها صَدْع، ففتقها الخالق عزّ وجلّ بالماء والنبات.

من الناحية الفلكية، اشتهر بين الفلكيين أن الأرض كانت في بدايتها ملتهبة لا تُنبِت شيئاً من النبات، وطالما كانت ملتهبة فلم يحتمل الفضاء القريب من الأرض الغيوم والأمطار، ولكن عندما بردت الأرض تكوّن الغلاف الجوي فوقها ليحمل السحاب،

(١) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٩٠.

(٢) انظر القاموس المحيط، مادة (رتق).

(٣) لسان العرب: ج ١٠ / ص ١١٤.

(٤) الأشباه والنظائر - السيوطي: ج ١ / ص ١١٢.

(٥) ديوان أبي طالب: ص ٤٨.

وهكذا فتق الخالق عز وجل السماء بالمطر، وفتق الأرض بانشقاقها ليخرج النبات.

النموذج الثاني: عمرو بن عبيد يسأله عن قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(١)، ما ذلك الغضب؟

أجاب الإمام عليه السلام: «العذاب يا عمرو، وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزه، ويغيره عن الحال التي هو بها إلى غيرها، فمن زعم أن الله يغيره الغضب والرضا ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق»^(٢).

بيان: الغضب في اللغة هو: ضد الرضا، والغضب: الصخرة الصلبة، قالوا: ومنه أشتق الغضب؛ لأنه اشتداد السخط»^(٣).

معنى الغضب في الإصطلاح: قال الجرجاني (ت ٨١٦هـ): «الغضب: تغيير يحصل عند غليان دم القلب، ليحصل عنه التشنجي للصدر»^(٤).

فلو فهم الغضب في الآية الكريمة كما عرفه الجرجاني، وكان وصفاً للخالق بصفة المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وبذلك نفهم سبب تأكيد الإمام الباقر عليه السلام على أن الغضب الالهي معناه العذاب؛ لأن:

١ - الغضب البشري يصاحبه غليان الدم، وهذا منزهٌ عنه الخالق عز وجل.

٢ - أراد الإمام عليه السلام من الغضب: إرادة العقوبة الالهية النازلة بالعصاة.

(١) سورة طه: الآية ٨١.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ ص ٤٩.

(٣) مقاييس اللغة - ابن فارس ج ٤ / ص ٤٢٨، لسان العرب ج ١ / ص ٦٤٨.

(٤) التعريفات ص ٢٠٩.

٣ - هذه الآية الكريمة تخاطب بني إسرائيل بعد أن أنزل الله عليهم النعم الثلاث: النجاة من فرعون حيث أغرقه الله ونجى بني إسرائيل بعد محنة طويلة، ومواعدة موسى أربعين ليلة لإنزال التوراة، وإنزال المنّ والسلوى، وهو نوع من الطعام وقيل إن المنّ هو العسل الجلي، والسلوى لحم الطير^(١). ثم قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(٢)، و«الغضب من صفاته الفعلية، مصداقه إرادته تعالى إصابة المكروه للعبد بتهيئة الأسباب لذلك عن معصية عصاها»^(٣).

٤ - وكون الغضب الالهي: إرادة العقوبة الإلهية بالعصاة، لا يختلف عن القول بأنها إرادة إصابة المكروه للعبد بتهيئة الأسباب لذلك عن معصية عصاها، أي إن الإرادة الإلهية المعبر عنها بالغضب الإلهي ربما تكون عبر تهيئة الأسباب لإنزال المكروه بالعاصي، وذلك شكل آخر من أشكال العقوبة الإلهية على العصاة.

الطريق الرابع: النهي عن التفسير بالرأي:

نهى الإمام عليه السلام التفسير بالرأي الشخصي الذي تداولته مدرسة الرأي، وهو الأخذ بالاعتبارات العقلية الظنية التي ترجع إلى الاستحسان، وفي ذلك نماذج:

الأول: دخل قتادة بن دُعامة فقيه أهل البصرة على الإمام الباقر عليه السلام، قال له الإمام عليه السلام: «بلغني أنك تفسر القرآن؟»

قال: نعم.

(١) تفسير ابن كثير: ج ٥ / ص ٣٤.

(٢) سورة طه: الآية ٨١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن - الطباطبائي: ج ١٤ / ص ١٨٧.

فأنكر عليه الإمام عليه السلام ذلك قائلاً: «يا قتادة، إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت... ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن من حوْطب به»^(١).

الثاني: ذكّر عند الإمام الباقر عليه السلام أن الحسن البصري يروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من كتم علماً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من النار»، قال عليه السلام: «كذب ويحه، فأين قول الله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾^(٢)، ثم مدّ بها عليه السلام صوته، فقال: ليذهبوا حيث شاؤوا أما والله لا يجدون العلم إلا هيهنا، ثم سكت ساعة، ثم قال: عند آل محمد»^(٣).

الثالث: سئل الإمام الباقر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٤)؟ قال أبو جعفر عليه السلام: «أن الله ابتدع الأشياء كلها على غير مثال كان قبله، وابتدع السموات والأرض ولم يكن قبلهن السموات والأرضون، أما تسمع لقوله تعالى: ﴿...وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾^(٥)؟

فقال له حمran بن أعين: رأيت قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾^(٦)؟

فقال له الإمام عليه السلام: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

(١) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٣٤٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٣) بصائر الدرجات: ص ١٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ١١٧.

(٥) سورة هود: الآية ٧.

(٦) سورة الجن: الآية ٢٦.

رَصَدًا^(١)، وكان والله محمدٌ ممن ارتضى، وأما قوله: عالم الغيب، فإن الله تبارك وتعالى عالمٌ بما غاب عن خلقه، فما يقدر من شيء، ويقضيه في علمه قبل أن يخلقه وقبل أن يقضيه إلى الملائكة، فذلك يا حمران علمٌ موقوفٌ عنده إليه، فيه المشية، فيقضيه إذا أراد، ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأما العلم الذي يقدره الله ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله ﷺ، ثم إلينا^(٢).

وفيما يلي مجموعة روايات نهت عن التفسير بالرأي، منها:

١ - قال الباقر عليه السلام: «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن أن الآية ينزل أولها في شيء، وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء»^(٣).

٢ - عنه عليه السلام: «ما علمتم فقولوا، وما لم تعلموا فقولوا الله أعلم، فإن الرجل ينزع بالآية فيخرّ بها أبعد ما بين السماء والأرض»^(٤).

٣ - عنه عليه السلام: قال: «من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»^(٥).

٤ - قال الباقر عليه السلام: «إن الله تعالى برأ محمدًا عليه السلام من ثلاث: أن يقول على الله، أو ينطق عن هواه، أو يتكلّف»^(٦).

اختص أهل البيت عليهم السلام بعلم القرآن، تفسيراً وتأويلاً، وعرفوا المحكم من

(١) سورة الجن: الآية ٢٧.

(٢) بصائر الدرجات: ص ١١٣.

(٣) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١٧.

(٤) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١٧.

(٥) تفسير العياشي: ج ١ / ص ١٧.

(٦) المحاسن: ص ٢٧٠.

المتشابه، والناسخ من المنسوخ، ولم يملك هذا العلم الالهي بعد النبي ﷺ غيرهم، فهم المخصوصون بعلم القرآن، وإلى ذلك أشار الإمام ﷺ: «ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء»^(١).

يقول الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ): «إن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي ﷺ وعن الأئمة الذين قولهم حجة كقول النبي ﷺ»^(٢).

(٤)

نماذج في المنهج العلمي:

تفسير القرآن الكريم

صلاحية تفسير كتاب الله المجيد عند أهل البيت ﷺ واضحة وضوح الشمس، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعتري أهل بيتي...»^(٣)، فالقرآن الكريم كتاب الله المجيد، وأئمة أهل البيت ﷺ كتابٌ تفسيريٌّ للقرآن، إن صح التعبير! وإلى ذلك قال أمير المؤمنين علي ﷺ: «هذا كتاب الله الصامت، وأنا كتاب الله الناطق...»^(٤).

والفكرة الأساسية في هذا المنهج التفسيري هو أن تفسير الإمام ﷺ متصل برسول الله ﷺ، أو ممن علمهم رسول الله ﷺ، ومن أئمتهم الله العلم بنص القرآن الكريم وأقوال النبي ﷺ، وفي ذلك نماذج نذكرها ضمن العناوين التالية:

(١) الكافي: ج ١ / ص ٢٢٨.

(٢) التبيان في تفسير القرآن - الطوسي: ج ١ / ص ٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٢ / ص ٤٧٦.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ٦١.

في التوحيد:

١ - اليد معناها القوة والنعمة: قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾^(١). سألته السائل عن تفسير تلك الآية، فقال ﷺ: «اليد في كلام العرب: القوة والنعمة، قال تعالى: ﴿...وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٢)، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمَوَسِعُونَ﴾^(٣) أي بقوة، ويقال لفلان عنده أيادٍ كثيرة أي فواضل وإحسان، وله عندي يد بيضاء أي نعمة»^(٤).

بيان: إن المنصرف من اليد في اللغة هو العضو المخصوص، ويستحيل ذلك على الله تعالى لأنه يستلزم التجسيم، وهو ممتنع عليه عقلاً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، واستعمالها هنا هو على نحو المجاز، فهو اشتراك لفظي، أي اشتراك كلمة واحدة في معنيين.

٢ - وجه الله يعني دين الله: في قوله تعالى: ﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾^(٥)، قال ﷺ: «يا فلان فيهلك كل شيء ويبقى وجه الله؟ الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كل شيء هالكٌ إلا دينه، نحن وجه الله الذي يؤتى الله منه، لم نزل في عباد الله ما دام الله فيهم روية»، قلت: وما الروية جعلني الله فداك؟ قال ﷺ: «حاجة، فإذا لم يكن له فيهم حاجة رَفَعْنَا إِلَيْهِ، فيصنع بنا ما أحب»^(٦).

٣ - الروح تعني القدرة: في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾^(٧)

(١) سورة ص: الآية ٧٥.

(٢) سورة ص: الآية ١٧.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٤٧.

(٤) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٨٨.

(٥) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٦) بصائر الدرجات: ص ٦١.

(٧) سورة الحجر: الآية ٢٩.

سُئِلَ عَنْ مَعْنَى: مَنْ رُوْحِي، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ قَدْرَتِي»^(١).

٤ - فَرُوا إِلَى اللَّهِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٢)، قَالَ ﷺ: «حَجُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣)، وَلَعَلَّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مَرَادِينَ، الْأَوَّلُ: نَظْرِي، وَهُوَ الْفِرَارُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْقِطَاعَ إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْإِيْبَانُ بِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالثَّانِي: عَمَلِي، وَهُوَ الْحُجُّ، وَهُوَ بِحَدِّ ذَاتِهِ انْقِطَاعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

النَّبُوَّة:

١ - بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾^(٤)، قَالَ ﷺ: «يَعْنِي بِذَلِكَ تَبْلِيغٌ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي فَضْلِ عَلِيِّ ﷺ، وَقَدْ رَوَى ﷺ: أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلَيْهِ فَكَانَ يَخَافُ أَنْ يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ»^(٥).

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾^(٦)، رَوَى الثَّعْلَبِيُّ (ت ٤٢٧هـ) فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الْبَاقِرِ ﷺ قَوْلَهُ: «إِنْ مَعْنَاهَا بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فِي فَضْلِ عَلِيِّ ﷺ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ عَلِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»^(٧).

(١) التوحيد: ص ١٧٢.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٠.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٤ / ص ٣١٨.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٥) بحار الأنوار: ج ٣٧ / ص ٢٥٠.

(٦) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٧) تفسير الثعلبي: ج ٤ / ص ٩٢.

في الإمامة والولاية :

١ - أهل الذكر: قوله تعالى: ﴿...فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، قال عليه السلام: «نحن أهل الذكر»^(٢).

قال الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ): «وقد سألت محمد بن مقاتل عن هذا فتكلم فيه برأيه، وقال: أهل الذكر العلماء كافة، فذكرت ذلك لأبي زرعة فبقي متعجباً من قوله، وأوردت عليه ما حدثني به يحيى بن عبد الحميد، قال: صدق محمد بن علي، إنهم أهل الذكر، ولعمري إن أبا جعفر عليه السلام لمن أكبر العلماء»^(٣).

٢ - الأمة الوسط: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾^(٤)، قال عليه السلام: «نحن أمة الوسط، ونحن شهداء الله على خلقه، وحجته في أرضه»^(٥).

٣ - الهداية تعني الولاية: في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(٦)، الهداية: الولاية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، قال عليه السلام: «فوالله لو أن رجلاً عبَدَ اللهَ عمره ما بين الركن والمقام، ولم يحج بولابتنا لأكبه الله في النار على وجهه»^(٧).

بيان: في الآية الشريفة أربع مراحل للمغفرة الالهية، وهي: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، ثم الهداية، فالتوبة حيث يتوب الإنسان من معاصيه، ثم يؤمن بالله عز وجل

(١) سورة النحل: الآية ٤٣، سورة الأنبياء: الآية ٧.

(٢) الإرشاد: ج ٢ / ص ١٦٢.

(٣) التفسير الكبير: ج ٢ / ص ٣٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٥) بصائر الدرجات: ص ٦٢.

(٦) سورة طه: الآية ٨٢.

(٧) تفسير نور الثقلين - الحويزي: ج ٣ / ص ٤٥٧.

وما أنزل، ثم يعمل صالحاً، وفي نهاية تلك المراحل يهتدي بهداية أهل البيت عليهم السلام، ولو أراد تعالى معنى غير ذلك لكانت الهداية هي أولى المراحل.

٤ - الذين يعلمون: في قوله تعالى: ﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١)، قال عليه السلام: «نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون...»^(٢).

٥ - الذين أوتوا العلم هم أئمة أهل البيت عليهم السلام: في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾^(٣)، قال الإمام عليه السلام: «هم الأئمة»^(٤).

٦ - أهل البيت عليهم السلام: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...﴾^(٥)، قال الباقر عليه السلام: «لما نزلت هذه الآية قال المسلمون: يا رسول الله أأنت إمام الناس كلهم أجمعين؟ فقال عليه السلام: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون بعدي أئمة على الناس من أهل بيتي يقومون في الناس، فيكذبون، ويظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم، فمن والاهم واتبعهم وصدقهم، فهو مني ومعى، وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم وكذبهم فليس مني، ولا معى، وأنا منه بريء»^(٦).

٧ - الظالم لنفسه والمقتصد والسابق للخيرات: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٢١٢.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٤) الفصول المهمة ج ١ / ص ٣٨٨.

(٥) سورة الإسراء: الآية ٧١.

(٦) الكافي: ج ١ / ص ٢١٥.

الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ^(١)، قال عليه السلام: «السابق بالخيرات: الإمام، والمقتصد: العارف للإمام، والظالم لنفسه: الذي لا يعرف الإمام»^(٢).

٨ - المتوسمون: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٣)، قال عليه السلام: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله المتوسم، وأنا من بعده، والأئمة من ذريتي المتوسمون»^(٤)، والمتوسمون هم: المتفرسون المتأملون.

٩ - شهداء الأعمال: في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٥)، قال عليه السلام: «إيانا عنى، وعلي أولنا، وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله»^(٦).

١٠ - آل إبراهيم عليه السلام وآل محمد صلى الله عليه وآله: في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٧)، قال عليه السلام: «جعل في آل إبراهيم الرسل والأنبياء والأئمة، فكيف يقرونه في آل إبراهيم، وينكرونه في آل محمد صلى الله عليه وآله؟»، قال السائل: وما المراد عليه السلام: «...وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا»^(٨)، قال عليه السلام: «الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم»^(٩).

(١) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٢١٤.

(٣) سورة الحجر: الآية ٧٥.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢ / ص ٢٠٠.

(٥) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٦) الاحتجاج: ج ١ / ص ٢٣٢.

(٧) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٨) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٩) الكافي: ج ١ / ص ٢٠٥.

في الناس:

١ - القول الحسن: قوله تعالى: ﴿... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾^(١)، قال عليه السلام: «قولوا لهم أحسن ما تحبون أن يقال لكم»^(٢)، ثم قال: «إن الله عز وجل يبغض اللعان السباب، الطعان الفحاش المتفحش، السائل الملحف، ويحب الحيي الحليم، العفيف المتعفف»^(٣).

٢ - الوحيد من لا يُعرف له أب: قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾^(٤)، المشهور أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي الذي اتهم النبي صلى الله عليه وآله بالسحر، وكان الوليد يسمى في قومه الوحيد، وسياق الآية على وجه التهديد له، روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «الوحيد: ولد الزنا»^(٥)، وفي رواية أخرى، قال زرارة: ذُكر للإمام الباقر عليه السلام أن أحد بني هشام قال في خطبته أنا ابن الوحيد، فقال عليه السلام: «ويله لو علم ما الوحيد ما فخرَ بها»، فقالوا: وما هو؟ قال عليه السلام: «من لا يُعرف له أب»^(٦).

٣ - الغاؤون: في قوله تعالى: ﴿فَكُبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾^(٧)، قال عليه السلام: «إنها نزلت في قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره»^(٨).

الجنة:

معنى الغرفة: في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً

(١) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٣٢١.

(٣) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٣٢١.

(٤) سورة المدثر: الآية ١١.

(٥) الكشاف ج ٣ / ص ٢٣٠.

(٦) مجمع البيان ج ١٠ / ص ١٧٩.

(٧) سورة الشعراء: الآية ٩٤.

(٨) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٣٥.

وَسَلَامًا ﴿١﴾، قال عليه السلام: «الغرفة: هي الجنة، وهي جزاء لهم بما صبروا على الفقر في الدنيا» (٢).

دلالات تفسير الإمام الباقر عليه السلام:

١ - نزه الإمام عليه السلام الخالق عز وجل من صفات التجسيم التي انتشرت بين الناس في زمانه، حيث استخدم القائلون بالتجسيم نفس مفردات القرآن الكريم لإثبات دعواهم.

فقال عليه السلام أن اليد تعني القدرة أو القوة، ووجه الله يعني دينه، والروح تعني القدرة الالهية، والغضب الالهي يعني إرادة العذاب، وبتفسير الإمام عليه السلام عَلِمْنَا بِإِنْسِجَامِ الْأَفْكَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَمَاسُكِهَا، فالله تعالى ليس كمثله شيء، ولا تدركه الأبصار، وكل يوم هو في شأن، وهذا يثبت الصورة الواقعية للوجود وخالقه، بينما تزعم فكرة التجسيم المفردات الأساسية لعقيدة التوحيد، وتناقضها.

٢ - كان الإمام عليه السلام يعالج مشكلة عقائدية فرضتها السياسة الأموية على مبادئ الإسلام، والمشكلة تتمثل في محورين:

الأول: ما يتعلق بالتوحيد من تجسيم، ومن أفكار حول ماهية الخالق تعالى ووجوده.

الثاني: ما يتعلق بالإمامة، ونشر فكرة معادية مفادها أن الإمامة الشرعية لا تنحصر بأهل البيت عليهم السلام، بل يستطيع أي إنسان أن يكون إماماً فاضلاً حتى لو كان مفضولاً وبجنبه من هو أعلم منه، وعلى هذا الأساس كانت أحاديث الإمام الباقر عليه السلام من تفسير

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٥.

(٢) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ٣١٠.

تصبُّ في هذا الإتجاه، ولم تُطرح فكرة النبوة كمشكلة، ولذلك نلاحظ قلة الأحاديث الخاصة بالنبوة؛ لأن الظاهر أن الجميع كان متفقاً عليها، وتلك فذلكة من بني أمية حيث زرعوا بذور الشك في التوحيد والإمامة، وتمسكوا بظاهر النبوة ولم يناقشوها أو يفتروا عليها، عدا الأحاديث الموضوعية التي أسسوا لها، ولكن أصل فكرة النبوة بقيت كما هي!

٣ - طرح عليه السلام ولاية أهل البيت عليهم السلام بفكرة يستطيع أن يتقبلها أي مسلم عبر التساؤل التالي: لماذا يؤخذ بفكرة آل إبراهيم عليهم السلام ولم يؤخذ بفكرة آل محمد عليهم السلام؟ وقد جعل الله تعالى الكتاب والحكمة والملك العظيم في آل إبراهيم: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(١)، فلماذا لا يأخذ بآل محمد عليهم السلام بنفس درجة أخذهم بآل إبراهيم، وقد قال عليه السلام: «قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين»^(٢)؟

وآل محمد عليهم السلام هم الأمة الوسط، وأهل الذكر، وهم الذين يعلمون، وهم الذين أوتوا العلم، وهم الأئمة الهداة المهديون، وهم السابقون بالخيرات، وهم شهداء الأعمال بنص الآيات القرآنية ذاتها.

٤ - إن مراحل المغفرة الإلهية في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾^(٣)، أعظم دليل على ولاية أهل البيت عليهم السلام، فمراحل المغفرة هي: التوبة، ثم الإيمان، ثم العمل الصالح، ثم الإهتمام إلى أهل البيت عليهم السلام، فالإنسان إذا ارتكب المعصية تاب، وإذا تاب، آمن قلباً بالله تعالى، ثم عمل صالحاً، هل هذا يكفي

(١) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٢) الدر المنثور: ج ٥ / ص ٢١٧.

(٣) سورة طه: الآية ٨٢.

التائب؟ يقول الإمام عليه السلام على لسان الآية الشريفة أن هذا ليس كافياً ما لم يقرنه بالولاية لأئمة الهدى عليهم السلام، ويثبت: «فو الله لو أن رجلاً عبدَ الله عمره ما بين الركن والمقام، ولم يجيء بولايتنا لأكبّه الله في النار على وجهه»^(١)، وهذا التفسير من أبلغ الكلام وأكثره دقة وصرحة، وقد قاله الإمام الباقر عليه السلام في تلك المرحلة السياسية الحساسة التي انتشر فيها المطبّلون لولاية خلفاء بني أمية وفقهائهم.

وقريبٌ من ذلك ما قاله عليه السلام: «إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذ نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذ خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء - وقبض يده^(٢) - قال له: يا إبراهيم ﴿... إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾^(٣) فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: يا رب ومن ذريتي؟ قال: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ^(٤)».

٥ - المتوسمون تعني المتفرسين المتأملين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(٥)، والمتوسم يمتلك الفراسة التي تجعله يحسس ما عند المقابل من عمل أو إيمان، وتلك صفة كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمتلكها، فكان يتوسم في الإنسان صلاحه وحسن إسلامه، وكذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

٦ - قام عليه السلام بتقييد المطلق، وتخصيص العام، فلولا كلامه لم نكن نعرف أن الإستقامة على الطريقة تعني الإستقامة على ولاية آل محمد صلى الله عليه وآله، وأن المتوسم أو المتفرس هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وأن السابق بالخيرات هو الإمام عليه السلام، والمقتصد هو

(١) تفسير نور الثقلين ج ٣ / ص ٤٥٧.

(٢) قبض يده: أي ضم الإمام عليه السلام أصابعه.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) بحار الأنوار: ج ٣٨ / ص ١٣٤.

(٥) سورة الحجر: الآية ٧٥.

العارف للإمام عليه السلام، والظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام عليه السلام في زمانه.

٧- تعريف الأشخاص الذين أدانهم القرآن الكريم، مثل: الوحيد، وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد انطلى على الناس تفاخر أحد أبناء هشام بأنه ابن الوحيد، حتى انبرى الإمام عليه السلام وكشف معنى الوحيد، وهو الذي لا أب له.

(٥)

نماذج في المنهج العلمي:

الحديث الشريف

لاشك أن السنة النبوية هي العمود الثاني بعد القرآن الكريم في الاستدلال، فالسنة تبين مجمله ومبينه، وناسخه ومنسوخه، وتقييد مطلقاته، وتخصيص عمومياته، وتعرض لأحكام الله في العبادات والمعاملات.

قام الإمام الباقر عليه السلام بعملين متوازيين:

الأول: نشر الإمام عليه السلام أحاديث النبي صلى الله عليه وآله مباشرة خلال خطبه ودروسه وأحاديثه.

الثاني: الاهتمام بخيرة طلبته وأصحابه المتفانين في خدمة الدين في نشر الحديث النبوي الشريف، وإفتاء الناس، كان منهم: جابر الجعفي، وأبان بن تغلب، وزرارة بن أعين الذي قال فيه الإمام الصادق عليه السلام: «لولا زُرارة لظننت أن أحاديث أبي ستذهب»^(١)، و«رحم الله زرارة بن أعين، لولا زرارة ونظراؤه لاندروست أحاديث أبي»^(٢)، وقال فيه وفي جماعة من أصحابه منهم: أبو بصير، ومحمد بن مسلم، ويزيد بن معاوية العجلي: «لولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا الفقه، هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي عليه السلام على

(١) الكافي: ج ٧ / ص ٩٥.

(٢) الاختصاص: ص ٦٦.

حلاله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والآخرة»^(١).

ووضع قاعدة لتفاضل الموالين لأهل البيت عليهم السلام، فقال عليه السلام: «اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدارية للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، إني نظرت في كتابٍ لعلِّي عليه السلام فوجدتُ في الكتاب: أن قيمة كل امرئٍ وقدره معرفته أن الله تعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا»^(٢).

ما رواه الإمام الباقر عليه السلام :

روى الإمام الباقر عليه السلام جملة من الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولتلك الروايات قيمة عظيمة في الفقه والأخلاق لأن سندها صحيح، ولأن اختياره عليه السلام لها يكشف عن طبيعة تلك المرحلة الزمنية حيث كانت المشكلة التي واجهت الناس هي مشكلة الاعتقاد، والأخلاق، وأحكام الفقه.

أ - ما رواه عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

وهذه روايات يجمعها جامع مشترك أنه هو عليه السلام نقلها عن رسول الله صلى الله عليه وآله بسندٍ عن أبيه السجاد عليه السلام، عن جده الحسين الشهيد عليه السلام، عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس هناك من عطرٍ أطيب من عطر آل محمد عليهم السلام عندما ينقلون أحاديثهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله :

١ - عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «ما جمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم»^(٣).

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٧ / ص ١٤٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ١٨٤.

(٣) مجمع الزوائد - الهيثمي: ج ١ / ص ٣٢٥.

٢ - وعن رسول الله ﷺ قوله: «فضل العلم أحب إلى الله من فضل العبادة، وأفضل دينكم الورع»^(١).

٣ - وعن رسول الله ﷺ قوله: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل التحبب إلى الناس»^(٢).

٤ - وعن رسول الله ﷺ قوله: «من واسبى الفقير، وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً»^(٣).

٥ - وعن رسول الله ﷺ قوله: «كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاث أعين: عين بكت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله، وعين باتت ساهرة في سبيل الله»^(٤).

٦ - وعن رسول الله ﷺ قوله: «سته لعنهم الله وكل نبي مجاب: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والتارك لستتي، والمستحل لعترتي ما حرم الله، والمتسلط بالجبروت ليدل من أعزه الله ويعز من أذله الله، والمستأثر بفيء المسلمين والمستحل له»^(٥).

ب - ما رواه عن آبائه عليهم السلام عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

وروى عليه السلام أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام، فيكون سنده أباه زين العابدين عليه السلام، عن أبيه الحسين الشهيد عليه السلام، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام:

١ - عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «إن قلوب الجهال تستفزها الأطماع، وترتمنها

(١) الخصال: ج ١ / ص ٤.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٨ / ص ١٧.

(٣) جامع السعادات - النراقي: ج ١ / ص ٣١٩.

(٤) الفصول المهمة: ج ٢ / ص ٢٥٢.

(٥) (كتاب) سليم بن قيس: ص ٤٨٦.

المنى، وتستعلقها الخدائع»^(١).

٢ - وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «جَمَعَ الخَيْرُ كله في ثلاث خصال: النظر، والسكوت، والكلام، فكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو، وكل سكوت ليس فيه فكرة فهو غفلة، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو، فطوبى لمن كان نظره عبرةً، وسكوته فكراً، وكلامه ذكراً، وبكى على خطيئته، وأمن الناس شره»^(٢).

٣ - سُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام: «أربع أصابع - ووضع يده على أذنه وعينه - فقال: ما رأته عينك فهو الحق، وما سمعته أذنك فأكثره الباطل»^(٣).

الدلالات:

١ - كانت الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله التي رواها عليه السلام تندرج في قضايا العقيدة: كالتوحيد، والنبوة، والإمامة؛ وفي قضايا الأخلاق: كطلب العلم، والتحجب إلى الناس، ومساعدة ذوي الحاجة، وخصال التجارة؛ وفي قضايا الإنسان: كالبكاء من خشية الله، وجمع الحلم إلى العلم، والورع.

٢ - وما رواه عليه السلام عن أمير المؤمنين علي عليه السلام كان محوره: في فضائل النفس كالنظر والسكوت والكلام، وفي الفرق بين الحق والباطل والمسافة بينهما، وفي العلم والجهل حيث يكون الجاهل مخدوعاً طامعاً مرتين بالأماني.

٣ - إن ما نستنتجه من أحاديث الإمام الباقر عليه السلام المسندة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير

(١) الكافي: ج ١ / ص ٢٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ / ص ٤٠٥.

(٣) الخصال: ص ٢٣٦.

المؤمنين علي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كانوا يعملون وعلى مدى دهور زمنية طويلة كفرقٍ علمي يساند بعضه بعضاً، منسجم ومتكامل في الفكر والسلوك، فلا ترى تناقضاً على مدى تلك الحقبة الطويلة من الزمان، مع تربص الأعداء بهم في كل زمان ومكان، وتلك قضية تثبت صدقهم في مبادئ العصمة والإمامة التي طرحوها بقوة أمام الناس.

ومصدق ذلك رواية تبين تماسك أفكار أهل البيت عليهم السلام يقول الراوي، نجبة بن الحارث العطار: سألت أبا جعفر عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء، فقال عليه السلام: «صوم متروك بنزول شهر رمضان، والمتروك بدعة»، قال نجبة: فسألت أبا عبد الله عليه السلام من بعد أبيه عليه السلام من ذلك فأجابني بمثل جواب أبيه، ثم قال عليه السلام: «أما أنه صوم يوم ما نزل به كتاب ولا جرت به سنة إلا سنة آل زياد بقتل الحسين بن علي صلوات الله عليهما»^(١).

(٦)

نماذج في المنهج العلمي:

الاعتقادات

كانت حرب الاعتقادات في القرنين الأول والثاني الهجري حرباً طاحنة، مؤلها حكم بني أمية عبر دعم من جاء بأفكار جديدة في التوحيد والإمامة بالخصوص، فظهرت العقائد التي تناولت صفات الخالق عز وجل وذاته، وقضايا إيمان الإنسان وعمله، ونحوها، وأثاروا مختلف الشبهات حول إمامة أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم، وكان دور الإمام الباقر عليه السلام فاعلاً على الساحة الفكرية يذب عن دين الله شبهاتهم، وينصّر رسالة محمد صلى الله عليه وآله بما أوتي من قوة.

(١) الكافي: ج ٤ / ص ١٤٦.

أ - في التوحيد:

وفي التوحيد كانت الشبهات تدور حول ذات الله وصفاته، فتصدى لها الإمام عليه السلام عبر الروايات التالية:

١ - الواحد الصمد: قال الإمام عليه السلام: «إن الله، تباركت أسماؤه التي يُدعى بها وتعالى في علوِّ كُنْهه واحدٌ، توحد بالتوحيد في توحيده، ثم أجراه على خلقه، فهو واحد صمد، قدوس يعبدُه كل شيء، ويصمد إليه كل شيء، ووسع كل شيء علماً»^(١).

٢ - خلاف الوهم: عبد الرحمن بن أبي النجران يسأل الإمام عليه السلام: «إني أتوهم شيئاً، فقال عليه السلام له: «نعم غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، ولا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، وهو خلاف ما يعقل، وخلاف ما يتصور، إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود»^(٢).

٣ - من صفات الله تعالى: رجل يسأل الإمام عليه السلام: أخبرني عن ربك الذي تعبدُه هل رأيتُه؟ ومتى كان؟

أجابه الإمام عليه السلام: «ويلك إنما يقال لشيء لم يكن فكان، متى كان؟! إن ربي تبارك وتعالى كان لم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كوّن شيئاً، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مكوناً، ولا كان خلواً من الملك قبل انشائه، ولا يكون منه خلواً بعد ذهابه، لم يزل حياً بلا حياة، وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً، وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيف ولا له أين، ولا له حد، ولا يعرف بشيء يشبهه، ولا يهرم لطول

(١) التوحيد - الصدوق: ص ٩٤.

(٢) التوحيد: ص ١٠٦.

البقاء، ولا يصعق لشيء، بل لخوفه تصعق الأشياء كلها، كان حياً بلا حياةٍ حادثيةٍ، ولا كون موصوف ولا كيف محدود، ولا أين موقوف عليه، ولا مكان جاور شيئاً، بل حي يعرف، ومَلِكٌ لم يزل له القدرة والمَلِك، إن شاء ما شاء حين شاء بمشيئته، لا يحد ولا يبعث، ولا يفنى، كان أولاً بلا كيف، ويكون آخراً بلا أين، وكل شيء هالكٌ إلا وجهه، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ويلك أيها السائل!! إن ربي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار، ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى^(١)، و(كان الله عز وجل ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه)^(٢).

٤ - النهي عن الكلام في ذات الله تعالى: قال ﷺ: «تكلموا في كل شيء، ولا تتكلموا في ذات الله»^(٣)، و«تكلموا في خلق الله، ولا تتكلموا في الله فإن الكلام في الله عز وجل لا يزيد إلا تحيراً»^(٤).

٥ - السميع البصير: أشاع قومٌ ضلّوا طريقهم إلى أنه تعالى يسمع بغير ما يبصر، ويبصر بغير الذي يسمع شأنه في ذلك شأن مخلوقاته. وصل ذلك إلى مسمع الإمام ﷺ، فقال: «كذبوا وأحدوا وشبهوا، تعالى الله عن ذلك إنه سميع بصير، يسمع بما يبصر، ويبصر بما يسمع»، فقال أحد أصحابه: يزعمون أنه بصير على ما يعقلونه، فقال ﷺ:

(١) التوحيد: ص ١٧٣.

(٢) التوحيد: ص ١٤٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٠ / ص ٣٤١.

(٤) الهداية - الشيخ الصدوق / ص ١٤.

«تعالى الله، إنما يعقل ما كان بصفة المخلوق، وليس الله كذلك»^(١).

٦ - لاشك في وجوده تعالى: يقول عليه السلام حول موضوع الشك في الله تعالى، في وجوده وصفاته: «لا ينفع مع الشك والجحود عمل...»^(٢).

ب - في الإمامة :

كانت الإمامة، كفكرة وكمصداق، من أهم موارد الاختلاف بين الحاكم والمحكوم منذ وفاة النبي صلى الله عليه وآله، ولذلك نافح أهل البيت عليهم السلام في تثبيت تلك الفكرة الأساسية بين أفراد الأمة، وقام الإمام الباقر عليه السلام بدور رئيسي في ذلك من خلال شرح حاجة الناس إلى الإمام المعصوم عليه السلام، ووجوب معرفته، وطاعته، وفي ذلك ورد:

١ - حاجة الناس إلى الإمام عليه السلام في كل زمان:

سئل عليه السلام عن علة حاجة الناس إلى نبي أو إمام، أجاب عليه السلام: «لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾^(٣)، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون»، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٤)، وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون الله، وهم المؤيدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلاده،

(١) التوحيد: ص ١٤٤.

(٢) جامع السعادات: ج ١ / ص ١٢٣.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض، وبهم يمهل أهل المعاصي، ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، ولا تفارقهم روح القدس، ولا يفارقونه، لا يفارقون القرآن، ولا يفارقهم صلوات الله عليهم أجمعين»^(١).

٢ - وجوب معرفة الإمام عليه السلام:

أ - يقول عليه السلام: «إنما يعرف الله عزّ وجلّ ويعبده من عرف إمامه منا أهل البيت، ومن لا يعرف الله عزّ وجلّ ولا يعرف الإمام منا أهل البيت، فإنما يعرف ويعبد غير الله»^(٢).

ب - يقول مخاطباً أحد أصحابه: «كل من دان الله عزّ وجلّ بعبادة يجهد فيها نفسه، ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضالّ متحير، والله شانئ»^(٣) لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلّت عن راعيها فهجمت^(٤)، ذاهبة وجائئة يومها، فلما جنّها الليل بصّرت بقطيع من غنم مع راعيها، فحنّت إليها واغترت بها فباتت معها في مربضها، فلما أن ساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيرة تطلب راعيها وقطيعها، فبصّرت بغنم مع راعيها فحنّت إليها واغترت بها، فصاح بها الراعي الحقي براعيك وقطيعك، فأنت تائهة متحيرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة متحيرة تائهة لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها ويردها، فبينما هي كذلك إذ اغتتم الذئب ضيعها فأكلها، وكذلك يا محمد بن مسلم من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عزّ وجلّ ظاهراً عادلاً أصبح ضالاً تائهماً، وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق.

واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلّوا وأضلّوا،

(١) تفسير نور الثقلين: ج ١ / ص ٥٠١.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١٨٠.

(٣) شانئ: من شئناً فلاناً كرهه وأبغضه.

(٤) هجمت: ذهب فتاهت.

فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد»^(١).

٣ - طاعة الإمام عليه السلام:

في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٢)، قال عليه السلام: «ذروة الأمر وسنامه، ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضا الرحمن تبارك وتعالى، الطاعة للإمام بعد معرفته، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٣)»^(٤).

٤ - حق الإمام عليه السلام:

سئل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ما حق الإمام على الناس؟ قال عليه السلام: «على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقُّ على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا»^(٥).

٥ - صفات أئمة أهل البيت عليهم السلام:

١ - قال عليه السلام: «إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذة نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذة رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذة خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء قال له: يا إبراهيم ﴿...إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾^(٦) فمن عَظَمَهَا فِي

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ / ص ٨٦.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) غاية المرام: ج ٣ / ص ٧٨.

(٥) تفسير النيشابوري: ج ٥ / ص ٧٩ بهامش الطبري طبع الميمنية بمصر.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي، قَالَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

٢ - قوله ﷺ: «نحن ولادة أمر الله، وخزان علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، طاعتنا فريضة، وحبنا إيمان، وبغضنا كفر، وحبنا في الجنة، وبغضنا في النار»^(٢).

٣ - قوله ﷺ: «نحن جنب الله تعالى [جنب الله: أي طاعة الله]، نحن صفوة الله، نحن أمناء الله، نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن جبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣)، نحن رحمة الله للمؤمنين، بنا يفتح الله، وبنا يختم الله، من تمسك بنا نجا، ومن تخلف عنا غوى، نحن قادة الغر المحجلون، من عرفنا وعرف حقنا، وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا»^(٤).

٤ - قوله ﷺ: «نحن خزان علم الله، ونحن تراجمه وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء، ومن فوق الأرض»^(٥).

٥ - قوله ﷺ: «الأئمة اثنا عشر إماماً منهم الحسن والحسين ثم الأئمة من ولد الحسين»^(٦).

٦ - قوله ﷺ: «نحن اثنا عشر محدثاً»^(٧).

(١) الكافي: ج ١ / ص ١٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ٢٥٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ٢٦٧.

(٥) الكافي: ج ١ / ص ١٩٢.

(٦) بحار الأنوار: ج ٣٦ / ص ٢٦٦.

(٧) بحار الأنوار: ج ٣٧ / ص ٨٤.

٧ - قوله ﷺ: «تكون تسعة أئمة بعد الحسين بن علي، تاسعهم قائمهم»^(١).

الدلالات:

١ - عرفنا الكثير من صفات أهل البيت ﷺ في كلام الإمام الباقر ﷺ، فأهل البيت ﷺ يملكون:

أ - العصمة (المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون)، والعصمة مَلَكَ تُعَصَّم صاحبها عن الجهل والمعصية، فالمعصوم ﷺ إذن هو المتقي الذي يتقي غضب الله تعالى عن ارتكاب المعصية، وهو قادرٌ عليها لكنه لا يرتكبها، وهو العالم الذي لا يفارق القرآن، والقرآن لا يفارقه.

ب - ولاية الأمر: فالمعصوم ﷺ هو ولي الأمر، ومن تجب طاعته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(٢)، وقد قرن الله تعالى طاعتهم بطاعته.

ج - الأمان لأهل الأرض: وأهل البيت ﷺ أمانٌ لأهل الأرض كما أن النجوم أمانٌ لأهل السماء، وبهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر البلاد، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض.

د - رحمة للعالمين: وبأهل البيت ﷺ يُمهّل الله أهل المعاصي، ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، وهم رحمةٌ الله للمؤمنين، بهم يفتح الله، وبهم يختم الله، من تمسك بهم نجا، ومن تخلف عنهم غوى، فهم أهل بيت الرحمة، وشجرة النبوة.

٢ - تكليفنا تجاه أئمة أهل البيت ﷺ:

(١) كفاية الأثر: ص ١٩٤.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

أ - وجوب معرفتهم ﷺ: فمن عرف إمامه ﷺ عرف ربه، لأن الإمام ﷺ يعلمه طاعة الله تعالى بعد أن يعرفه بنفسه، ومن لم يعرف إمامه أصبح تائهاً ضالاً.

ب - وجوب طاعتهم ﷺ: والآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(١) جامعة مانعة، فقد قرن طاعة أهل البيت ﷺ بطاعة رسول الله ﷺ، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٢).

٣ - وظيفة أهل البيت ﷺ:

أ - حفظ الدين: يقول ﷺ: «... نحن خزان علم الله»^(٣) والخازن هو الحافظ لعلم الله تعالى، ويقول ﷺ: «نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾^(٤)»^(٥).

ب - العدل في الرعية: عندما سُئِلَ ﷺ عن وظيفة الإمام ﷺ أجاب: «يقسم بينهم بالسوية، ويعدل في الرعية»، وربما قصد ﷺ المساواة في بذل العلم، والعدل في بذل المال والعطاء؛ لأن العلم يُبذل بالمساواة، أي إن الإمام ﷺ يتحدث بنفس اللغة الإرشادية للجميع، بينما قد يحتاج إنسان إلى المال أو العطاء بمقدار أكثر من غيره لثقل عياله، أو عدم قدرته على العمل، أو لكبر سنه، ونحوها.

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ١٩٢.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٥) أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ٢٦٧.

الفصل الخامس

أصول المناظرة

والاحتجاج عند الإمام الباقر عليه السلام

- (١) مقدمة (٢) المناظرة والجدل في اللغة والاصطلاح
- (٣) الدليل والبرهان في المناظرة (٤) المناظرة في القرآن الكريم
- (٥) مناظرات الإمام الباقر عليه السلام: النظرية والمصاديق.

أصول المناظرة والاحتجاج عند الإمام الباقر عليه السلام

(١)

مقدمة حول المناظرة

من أهم اهداف المناظرة الناجحة هو القابلية على إقناع الطرف المقابل بأحقية المعلومات التي يطرحها المناظر، فإذا تم ذلك أذعن الطرف المناظر غالباً إلى الحق. فالإنتصار في المناظرة العلمية يتم بقوة الحقائق والأدلة التي يسردها المناظر لإيضاح موقفه للطرف الآخر، وهذا يتم على المستوى العملي.

أما على المستوى النظري فإن قابلية الإقناع في المناظرات تعكس حقيقة أن المناظر المنتصر أعلى مستوى، وأقوى حجةً من ناحية الفكر والاستدلال من الطرف الخاسر، وما المناظرة التي يقوم بها صاحب الملكة والعصمة إلا صعوداً إلى سلم الكمال، فالمناظرة الصحيحة تضيء جوانب من الفكر الديني عند الإنسان، وتنقله إلى مستوى الإقتراب من الحقيقة التي جاء بها الوحي.

ولاشك أن نتيجة المناظرة العلمية بين طرفين يختلفان في صحة الاستدلال وقوته مهمة للغاية؛ لأنها تبين صحة عقيدة المناظر وما يدعيه من حقائق.

فالمناظرة - في مقدماتها - تعني أن هناك اختلافاً في وجهات النظر، وتبايناً في الدليل والحجة، وفي - نتیجتها - ثمرة الإقناع بقوة الحجة وصحة الدليل، وهكذا كانت الأجواء المحيطة بالمدينة المنورة في نهايات القرن الأول الهجري: شبهات عديدة تحتاج إلى رد علمي مُحكم من طرف الإمام عليه السلام.

كانت لدى أئمة أهل البيت عليهم السلام قابليات استثنائية في المناظرات، وكان إمامهم عليه السلام بالعلوم الإلهية، وضبطهم المذهل لمعاني القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجعلهم في صدارة أي نقاش يتم بينهم وبين من يقابلهم من الناس، حكماً كانوا أو متفقهين من مذاهب أخرى، أو متفلسفين بفلسفة وضعية، وكان إقناع الخصم بقوة الدليل يتم عبر وضع الحقائق وكأنها أحجار بناء مصممة للإستقرار بعضها فوق بعض، بجمالية وهندسة محكمة.

(٢)

المناظرة والجدل في اللغة والإصطلاح

والإنسان بطبيعته يميل إلى الجدل، فما أن يأتي برأيٍ إلا رُدَّ عليه برأيٍ مقابل، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(١)، والجدل يعبر، في أغلب حالاته، عن التباين في طبيعة الإنسان من الناحية العقلية والنفسية.

أما المناظرة فهي سلاح أهل الحق لطرح الدليل والحجة على صحة معتقداتهم، ولاشك أن القرآن الكريم وأئمة أهل البيت عليهم السلام بينوا أصول المناظرات، واسلوب الاستدلال والاعتراض، وإقامة البرهان الذي هو في غاية البيان، وغالباً ما يرد هذان المصطلحان: المناظرة والجدل.

المُناظرة:

مشتقة في اللغة من النظر^(٢)، وكلمة المناظرة جاءت من الإنتظار، ومن النظر بالبصيرة، والمناظر: مصدر ناظر، ناظرة في قضايا العلم: جادلته، وناقشته، و«المناظرة أن

(١) سورة الكهف: الآية ٥٤.

(٢) التعريفات: ص ٢٩٨.

تناظر أحاك في أمرٍ إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتياه»^(١).

في الإصطلاح هي النظر بالبصيرة من الطرفين المتناظرين بغرض إظهار الصواب؛ والأصل في المناظرة هو النظر الاستدلالي، وهو النظر في الدليل أو الحجة التي توصله إلى الحق، عن طريق متسائل ومجيب ينتظران الوصول إلى الحقيقة، من هنا كانت المناظرة المثالية عملية لا تتم إلا عبر مصدرٍ يتحلّى بالملكة العلمية، أي العصمة في بحثنا هذا.

ومقصود الإمام عليه السلام في التناظر هو إظهار الحق في المطلوب، وكان سلاحه عليه السلام بين الناس: العلم الديني من منابعه الأصيلة، بينما كانت المناظرة العلمية وسيلةً لتفنيد الحجج الباطلة والادعاءات الموضوعية، وتصحيح الأخطاء العقائدية التي يقع فيها الناس عادةً.

الجدل:

«الجدل والجدال والمجادلة: مقابلة الحجة بالحجة، وتكون بحق وباطل، وأصله الخصومة الشديدة، ويسمى جدلاً لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يُحكم خصومته وحجته إحصاماً بليغاً على قدر طاقته تشبهاً بجدل الحبل وهو إحصام فتله، يقال جادله يجادله وجدالاً»^(٢).

أول مصادر هذا الموضوع هو القرآن الكريم، فقد قسّمه إلى نوعين، الأول: ما كان محموداً في تقرير الحق، قوله تعالى: ﴿... وَجَادَهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٣)، والثاني: ما كان مذموماً، وهو في نصرة الباطل: ﴿... وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾^(٤).

(١) لسان العرب: ج ٨ / ص ٦٠٦.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات - النووي: ج ٣ / ص ٤٨.

(٣) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٤) سورة غافر: الآية ٥.

والإشتراك بينهما هو إبداء كل طرفٍ نظره، حقاً كان أم باطلاً، إلى الطرف الآخر. وفي هذا الفصل نترك موضوع الجدل جانباً، ونبحث في المناظرة العلمية، وهي عرض الدليل العلمي لإفحام الخصم في الفكر الديني.

(٣)

الدليل والبرهان: في المناظرة

لا تكتمل المناظرة دون دليل واضح قوي يُفحم المنازع؛ فالمناظرة تبقى كلمات مفردة ما لم تحمل دليلاً صادقاً على صحة المدعى، فلا بد أن يعرف معنى الدليل ومرادفاته.

الدليل: في المناظرة:

والأصل في المناظرة هو قوة الحجج أو الأدلة، فالحجة أو الدليل في المناظرة كالجملة المفيدة في الحديث اللغوي بين الناس، فلا حديث بدون جملة مفيدة، ولا مناظرة بدون دليل.

وطالما حمل المتناظران دعاوى متفاوته، أثمرَ التناظرُ طرحاً جديداً، ونقداً لاذعاً، وبرهاناً للطرف المحقِّق، ودفاعاً عن حقيقةٍ مستورةٍ.

ويتخذ الدليل أشكالاً مختلفةً، فربما كان دليلاً قرآنياً، وربما كان دليلاً روائياً، وربما كان دليلاً عقلياً، وقوة الدليل تحمل الخصم على مراجعة آرائه واقتناعه بخطئها وضرورة تصحيحها، فالمناظرة مدرسة من مدارس العلم والفكر لجميع طبقات الأمة.

البرهان: في اللغة والقرآن والمنطق:

البرهنة على المدعى هي العملية الرئيسية في المناظرات، ولذلك معرفة معنى البرهان ضرورية، وكذلك معرفة مرادفاته مثل: البيان، والحجة، والسلطان، والدليل،

ومن المهم تشخيص المعنى اللغوي والقرآني للبرهان، قبل الخوض في المعنى المنطقي.

أ- البرهان: في اللغة

البرهان: هو الحجة البينة الفاصلة^(١)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾^(٢)، أي البينة الواضحة، قال الأزهري: «الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، والتحاُّج: التخاصم، وفي الحديث: (الصدقَةُ برهانٌ)، البرهان: الحجة والدليل، أي إنها حُجَّةٌ لطالب الأجر من أجل أنها فرضٌ يجازي الله به وعليه، وقيل: هي دليلٌ على صحة إيمان صاحبها لطيب نفسه بإخراجها، وذلك لعلاقة ما بين النفس والمال، والدليل: ما يُستدلُّ به، وأنشد أبو عبيد: إني امرؤٌ بالطرق ذو دلالات»^(٣).

ذكر مصنّف (معجم الفروق اللغوية) أحد الفروقات بين الدليل والبرهان، فقال: «...الدليل يكون وضعياً قد يمكن أن يُجعل على خلاف ما جعل عليه نحو دلالة الاسم على المسمى، وأما دلالة البرهان فلا يمكن أن توضع دلالة على خلاف ما هي دلالة عليه نحو دلالة الفعل على الفاعل لا يمكن أن تُجعل دلالة على أنه ليس بفاعل»^(٤)، بمعنى أن البرهان أكثر قطعياً في مراد المعنى من الدليل، وهذا مجرد رأي، ولا دليل لغوي أو منطقي عليه!

ب - البرهان: في القرآن الكريم

وردت عدة مصطلحات في القرآن الكريم تُفيد معنى الدليل وإقامة الحجة في

(١) المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية، مادة: برهن.

(٢) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٣) لسان العرب - مادة: برهن.

(٤) معجم الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري، فرق رقم ٣٨٨.

المناظرة، منها:

١ - البيان: ما يبيّن به الشيء من الدلالة ونحوها، وبأن الشيء أي اتضح، قال تعالى في شأن الأنثى: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١)، أي إن الأنثى لا تكاد تستوفي الحجة القضائية؛ لأن عالمها البيت والزينة.

٢ - الحجّة: الدليل والبرهان، ويُقال: حاججته، قال تعالى في أمر إبراهيم ﷺ مع قومه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، أي إنهم احتجوا عليه بأدلة باطلة لا تصمد أمام الدليل الحق.

٣ - البرهان: وهي الحجة الفاصلة القاطعة لدفع الخصم، قال تعالى: ﴿...تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)، ومن برهن فقد أقام الحجة على الخصم.

٤ - السلطان: الحجة والبيّنة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٤)، قال الفراء: «السلطان عند العرب الحجة، يذكر ويؤنث، فمن ذكر السلطان ذهب به إلى معنى الرجل، ومن أنثه ذهب به إلى معنى الحجة»^(٥).

٥ - الدليل: ما يُستدلُّ به، ودلّه على الطريق أراه الطريق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ

(١) سورة الزخرف: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١١.

(٤) سورة هود: الآية ٩٦.

(٥) لسان العرب: ج ٧ / ص ٢٣١.

رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا^(١)، أي «أن الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل^(٢)، من كونه ثابتاً في مكان، زائلاً عن آخر، ومنتسحاً في موضع، ومتقلصاً في غيره؛ فينبون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على وفق ذلك، فجعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره، كامتداد الطريق وما فيه من علامات وإرشادات، وجعلت الشمس - من حيث كانت سبباً في ظهور مقادير الظل - كالهادي في الطريق؛ فكما أن الهادي يجبر السائر أين ينزل من الطريق فكذلك الشمس...»^(٣).

ج - البرهان: في المنطق

البرهان هو استدلال ينتقل فيه الذهن من قضايا مسلّمة إلى أخرى تنتج منها بالضرورة، يقول المناطقة بأنه استدلالٌ يقوم على أساسٍ من مقدمات يقينية وينتهي إلى نتائج يقينية، وتعبير آخر هو استدلال شرطي إفتراضي لا تصدق نتيجته إلا إذا صدقت مقدماته، ونقصد بالبرهان عملية الاستدلال التي يكون هدفها تأكيد صدق القضية أو كذبها، وينحصر البرهان على الحجة العقلية والشرعية في العلوم الدينية والإنسانية، دون الحجج الأخرى كالحجة التجريبية مثلاً في العلوم التجريبية مثل الطب، والفيزياء، والكيمياء.

والاستدلال الذي تترتب عليه القضية المنطقية والتي يُبنى عليها البرهان تسمى الحجج، ولا بد من صدق الحجج، على شرط أن لا تتضمن مقدمات تفترض القضية المراد برهانها.

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٥.

(٢) والأصح في مسير الأرض حولها؛ لأن الشمس ثابتة.

(٣) التفسير الكبير: ج ٢ / ص ٩٩.

(٤)

المناظرة في القرآن الكريم

مقدمة:

قال جل علماء المسلمين بأن الحجة والبرهان في القرآن الكريم، وقالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾^(١): «وهذا فيه معنى لأهل العلم أيضاً؛ لأن الحق لا يحقه إلا من عرفه، ولا يبطل الباطل إلا من عرفه، ولا يعرف الحق من الباطل إلا أهل العلم، فعون أهل الحق على حقهم، ودفع أهل الباطل عن باطلهم من أفضل الأعمال، وهو عمل بالقرآن لأن الله يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...﴾^(٢)»^(٣)، فهلا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام أحق بمعرفة القرآن من غيرهم لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وعصمتهم؟! نعم هو كذلك، فهم أهل الذكر، وهم الذين يعلمون، وهم حملة القرآن ومفسروه.

القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام:

ولما كان أئمة أهل البيت عليهم السلام صنو القرآن الكريم، وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي...»^(٤)، فإننا نرى هذا الخط المتوازي بين المناظرات المذكورة في القرآن الكريم وبين مناظرات الإمام الباقر عليه السلام.

فكان محور تلك المناظرات المقابلة بين الحق والباطل، واستخدام الأدلة الشرعية والعقلية في أصول العقيدة من التوحيد والنبوة والإمامة، و«ما من برهان وتقسيم

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

(٣) شرح مذاهب أهل السنة - ابن شاهين: ص ٩٧.

(٤) صحيح مسلم: ج ٤ / ص ١٨٧٣.

وتحديد ينبئ عن كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا والقرآن قد نطق به، ولكن أوردته الله تعالى على عادة العرب»^(١).

ودلالة القرآن «البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها تكون دليلاً سمعياً عقلياً أمرٌ تميّز به القرآن، وصار العالم به من الراسخين في العلم، وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتسكن عنده النفس ويزكو به العقل، وتستنير به البصيرة، وتقوى به الحجة، ولا سبيل لأحدٍ من العالمين إلى قطع من حاجٍ به، بل من خاصم به فَلَجَتْ حجته وكسر شبهة خصمه»^(٢).

وعندما نقرأ هذا المقطع في كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، نحسّ بأن المؤلف كان - من غير قصد - يصف الإمام الباقر عليه السلام في علمه بالقرآن واحتجاجه به.

خاض الإمام عليه السلام حرباً ضدّ الإتجاهات الفكرية المتضاربة التي سادت زمانه عليه السلام، وإذا كان الإمام الحسين عليه السلام قد دافع عن دين محمد عليه السلام بالسيف والدم في ساحة الطف، فإن معركة الإمام الباقر عليه السلام كانت بالكلمة والمداد في ساحة الفكر، وتلك معركة تحتاج إلى ملكات أو مهارات لا يملكها إلا أوصياء النبي عليه السلام.

إن مسائل أصول الدين كالإقرار بوجود الخالق ووحدانيته، وعلمه وقدرته، وقضائه ومشيئته، ونبوة محمد عليه السلام وإمامة علي عليه السلام وأولاده المعصومين عليهم السلام قد دلّ الشارع عليها بالدليلين العقلي والنقلي، وكان الظرف التاريخي بحاجة إلى مُخبر صادق ينقل ذلك، وإلى مصدر موثوق يُخبر بالمعاني الحقيقية لكتاب الله المجيد، فكان الإمام الباقر عليه السلام.

(١) (مقدمة) تفسير الراغب الاصفهاني: ص ٧٥.

(٢) (مفتاح دار السعادة - ابن قيم الجوزية: ج ١ / ص ١٤٦.

نماذج المناظرات في القرآن الكريم:

وإذا تأملنا في القرآن الكريم نجد فيه أسرار المناظرات، باستخدام الحجة والدليل، لإبطال الشبهة الفاسدة، ومن ذلك مناظرة النبي إبراهيم عليه السلام مع النمرود، ومناظرة النبي موسى عليه السلام مع فرعون، ومناظرة النبي محمد عليه السلام مع نصارى نجران.

١ - مناظرة النبي إبراهيم عليه السلام مع النمرود:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

في بيان الآية قال المفسرون^(٢) أن المحاجة هي عرض الحجة مقابل الحجة الأخرى لإثبات المدعى أو إبطاله، والمعنى اللغوي لكلمة الحجة هو القصد، أو إرادة الدعوى لإثباتها أو نفيها.

كان الذي حاجَّ إبراهيم عليه السلام في ربه، وهو النمرود ملك بابل، يرى في نفسه الألوهية بل أعلى مراتب الألوهية الموجودة في زمانه، فالمناظرة التي وقعت بينه وبين إبراهيم عليه السلام تكشف أن إبراهيم عليه السلام كان يقول: «أن ربه الله لا غير، ونمرود كان يدعي أنه هو رب إبراهيم وغيره، ولذلك لما احتجَّ إبراهيم عليه السلام على دعواه بقوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، قال: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فادعى أنه متصفٌ بها وصف به إبراهيم ربه، فهو ربه الذي يجب عليه أن يخضع له ويشغل بعبادته دون الله سبحانه ودون الأصنام»^(٣).

ردَّ النمرود دعوى إبراهيم عليه السلام وزعمَ بأنه يُحْيِي وَيُمِيت، مجازاً كأن يدخل شخصين

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) التبيان - الطوسي: ج ٢ / ص ٢٧، ومجمع البيان - الطبرسي: ج ١ / ص ٣٥٠.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ / ص ٣٥٠.

سجناً، فيقتل الأول ويطلق الثاني، ويعتبر ذلك إماتة وإحياء، أو يزرع النبتة ويعتبرها إنشاءً للحياة، وبذلك استخدم التمويه والتلاعب بالألفاظ من أجل تنفيذ حجة إبراهيم عليه السلام، ولم يبين إبراهيم عليه السلام وجه المغالطة للنمرود؛ لأن ذلك يستدعي شرح الفارق بين المعنيين المجازي والحقيقي للحياة والموت، وذلك بأن الأشياء لا تقوى على إيجاد نفسها بنفسها أو إفنائها بنفسها، والأسلوب الذي استخدمه النمرود في الإحياء والإماتة هو أسلوب مجازي، بأن يكون سبباً في موت شخص أو إبقائه حياً.

فعدل إبراهيم عليه السلام إلى حجة جديدة لم يستطع نمرود المكابر أن يعارضه فيها، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ﴾، وطالما كان الشروق والغروب بيد الله تعالى، وهو الفاعل الإرادي إذا اختار ذلك بالإرادة، ونمرود يعلم ذلك، بهت نمرود، ولم يستطع أن يقول أنا آتيها من المغرب بدل المشرق، وتلك مناظرة مثالية في إثبات صحة الدعوى.

مبنى المناظرة:

كان لإبراهيم عليه السلام في مناظرته مع نمرود احتجاجان يثبتان وجود الله الخالق البارئ عز وجل.

الأول: إن الحياة الحقيقية والموت الحقيقي هما بيد الله تعالى، لا بيد غيره، لكن النمرود تلاعب بالألفاظ كما ذكرنا، وقال: أنا أحيي وأميت، أي أنا ربك الذي وصفته بأنه يُحيي ويُميت، بمعنى أنه أقنع الحضور من حاشيته بأنه قادر على الإحياء والإماتة عبر العفو أو القتل.

الثاني: أن تدبير الكون وتسييره هو بيده تعالى، لا بيد غيره، فالله تعالى يأتي بالشمس من المشرق، وكان إحتجاجه عليه السلام: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ﴾، أي إنه لما يئس من المضي في

احتجاجه الأول في الحياة والموت، انتقل إلى الاحتجاج الثاني وكأنه بنى على الاحتجاج الأول باحتجاج ثانٍ كما يدل عليه التفريع بالفاء في قوله: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ...﴾^(١)، والمعنى: «إن كان الأمر كما تقول: أنك ربي ومن شأن الرب أن يتصرف في تدبير أمر هذا النظام الكوني، فالله سبحانه يتصرف في الشمس بإتيانها من المشرق، فتصرف أنت بإتيانها من المغرب حتى يتضح لك أنك رب، كما أن الله رب كل شيء، أو أنك رب فوق الأرباب، فبُهِتَ الذي كفر»^(٢).

٢ - مناظرة النبي موسى ﷺ مع فرعون :

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مَوْقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِهْلَا عِزِّي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٣).

تمت المناظرة بين النبي موسى ﷺ وفرعون بعد أن عرض موسى ﷺ عليه فحوى رسالته المتمثلة بالإيمان بالله تعالى، فأنكر فرعون ذلك، وبدأت مناظرتها بخصوص الخالق عز وجل، فكان موسى ﷺ مرسلًا من قبل الله تعالى، وكان فرعون وثنيًا يعبد الأصنام، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ المَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَآهَتِكَ...﴾^(٤)، ويدعي الألوهية في نفس الوقت كما في قوله تعالى على لسانه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢: ص ٣٥٥.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٣ - ٢٩.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.

(٥) سورة النازعات: الآية ٢٤.

ففرعون ربُّ للناس كما يدعي، ومربوبٌ للآلهة من الأصنام في نفس الزمان، فكانت المناظرة.

سأل فرعون: من هو هذا الموصوف برب العالمين؟ ﴿...وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وما حقيقته؟

فأجابه موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾^(٢)، كانت صيغة الجواب مطابقة لصيغة السؤال، فهو رب السموات والأرض وما بينهما، وهو ربُّ يدبر الوجود تدبيراً واحداً مرتبطاً ببعضه ببعض، وليس فيها ربُّ سواه، وارتباط الأجزاء في الوجود يدلُّ على وحدانية الخالق عزَّ وجلَّ، وعلى تدبير المخلوقات، ودقة النظام في الكون.

ولما أسقط ما في يده، توجه فرعون إلى حاشيته: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾^(٣)، أي ألا تتعجبون من قول موسى، أسأله عن ماهية رب العالمين، فيجيبني بأنه رسول رب العالمين؟! وما نسبة السموات والأرض إلى ﴿الْعَالَمِينَ﴾؟ هنا تصور فرعون أنه ظفر بموسى عليه السلام، ولكن!

أجابه موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾^(٤)، وهو أنه وجّه طريق المناظرة بما يريده هو عليه السلام لا بما يريده فرعون، فأصبح أكثر صراحة في المقصود، فذكر أن الله تعالى هو رب العباد بالإضافة إلى رب الكون والجمادات، «فكأنه [أي فرعون] كان يقول: إن أردتَ برب العالمين الله تعالى، فهو رب الأرباب لا غير، وإن أردتَ غيره من الآلهة فكلُّ

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٤.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٥.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٦.

منهم ربُّ عالمٍ خاص، فما معنى رب العالمين؟ فأجاب موسى ﷺ ملخصاً أنه ليس في الوجود من ربِّ إلا ربُّ واحدٌ، فيكون رب العالمين فهو ربكم وقد أرسلني إليكم^(١).

حاول فرعون توجيه سير المناظرة إلى طريقه مرة أخرى، ف﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(٢)، فسمى فرعون موسى ﷺ رسولاً تهكمًا واستهزاءً، ثم نسبته إلى من حوله استكباراً منه أن يكون رسولاً إليه خاصة، ثم رماه بالجنون، وهو أن موسى ﷺ يخلط الواقع بالخيال، وهذا هو شأن المجنون، فما يقوله موسى ﷺ ليس واقعاً، كما زعم فرعون.

أراد موسى ﷺ ثالثة توجيه المناظرة إلى الوجهة التي يريدتها ف﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣)، وذلك التوجيه كان تأكيداً لموقفه ﷺ من أن التدبير الإلهي متصل بالشرق والمغرب، وهو اتحاد لا يقبل إلا تدبيراً واحداً من قبل ربِّ واحدٍ.

وهنا انقطعت حجة فرعون، فهدده بالسجن ﴿قَالَ لئنِ اتَّخَذْتَ إِلهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾^(٤)، إلى هنا انتهت المناظرة العلمية بين النبي موسى ﷺ وفرعون، وابتدأت المصاديق العملية لنبوته موسى ﷺ في العصا ومعجزاتها.

٣ - مناظرة النبي محمد ﷺ مع نصارى نجران :

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج ١٥ / ص ٢٧١.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٧.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٨.

(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١﴾.

قصة نزول هذه الآية «أن نصارى نجران وفدوا على رسول الله ﷺ، فسألوه أسئلة أشبه بالمناظرة.

فقالوا: إلام تدعو؟

قال ﷺ: «إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبدٌ مخلوقٌ يأكل ويشرب ويُحدث».

قالوا: فمن أبوه؟

فنزّل الوحي على رسول الله ﷺ فقال: قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويُحدث وينكح؟ فسألهم النبي ﷺ، فقالوا: نعم، قال ﷺ: فمن أبوه؟ فبهتوا، فأنزل الله الآية ﴿٢﴾.

فوجه الاستدلال هنا أن المناظرة تمت بسؤالٍ له ﷺ منهم عن ماهية الدعوة التي تقوم بها؟ فأجابهم ﷺ بالشهادتين، ثم أضاف ﷺ تصحيحاً لاعتقادهم بعيسى ﷺ، وهو أن عيسى ﷺ عبدٌ مخلوقٌ وليس خالقاً أو ابناً للخالق عزّ وجلّ، كما يزعمون.

هنا وجهوا دفة الحديث أو المناظرة بالقول: إذا كان مخلوقاً فمن أبوه؟ وليس هناك بشرٌ يُخلق دون أب، فأفحمهم رسول الله ﷺ بأن شأن عيسى ﷺ في الخلق كشأن آدم ﷺ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٩ - ٦٠.

(٢) الإرشاد: ج ١ / ص ١٦٧.

(٥)

مناظرات الإمام الباقر عليه السلام : النظرية والمصاديق

كانت الأجواء العامة في زمن الإمام الباقر عليه السلام، في نهايات القرن الأول الهجري وبدايات القرن الثاني، تفصح عن مناظرات كانت تعدّ لوناً من ألوان العلم؛ لأنّ الناس بدأت تبحث عن فحوى الشبهات التي طغت على الأجواء الفكرية والدينية آنذاك، وقد اعترف بذلك الداني والقاصي، فقد «كانوا يتناظرون في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام بالأدلة المرضية والحجج القوية، حتى قلّ مجلس يجتمعون عليه إلاّ ظهر الصواب، ورجع راجعون إليه، لاستدلال المستدل بالصحيح من الدلائل، وعلم المنازع أن الرجوع إلى الحق خير من التهادي في الباطل...»^(٣).

ولكنهم كانوا يسمعون الحق أحياناً من الإمام الباقر عليه السلام ولا يأخذون به، ومن ذلك أن أبا يوسف (ت ٧٩٨هـ) سأل أستاذه أبا حنيفة (ت ٧٦٧هـ) عن لقائه بالإمام الباقر عليه السلام، فقال: نعم، وسألته: أراد الله المعاصي؟ فقال عليه السلام: «أفيعصى قهراً؟»، قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً أفحم منه^(٤).

ولقد أشرنا أكثر من مرة إلى أن من أهم لوازم المناظرة هي أنها يجب أن تستند على علم تامّ بالشريعة يرتقي إلى درجة العصمة، ولذلك أدان القرآن الكريم المناظرة بغير علم، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(٥). ويقول مبكّثاً^(٦) أهل الكتاب جداهم بغير علم: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ

(٣) تنبيه الرجل العاقل - ابن تيمية: ص ٢٤.

(٤) تذكرة الخواص: ص ٣٠٢.

(٥) سورة الحج: الآية ٨.

(٦) مبكّثاً: أي قرعه بالحجة.

بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِيهَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾. والآية ناطقة بالمنع من الجدل مع الجهل، أو أن يجادل المرء فيما لا علم له به.

طرق المناظرة عند الإمام عليه السلام :

للمناظرة العلمية مبانٍ هدفها رفع الشبهات، وإيصال الحقائق، وتلك وظيفة من وظائف أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام؛ لأن للعصمة ركنين مهمين هما: العلم، والتقوى، والمناظرة طريقة من طرق إيصال العلم الديني في أصول الدين وفروعه إلى الناس.

نستقري من دراسة مناظرات الإمام الباقر عليه السلام خمس نظريات في المناظرة، وهي:

الأولى: المناظرة بأسلوب الوسائط.

الثانية: المناظرة بأسلوب إعادة التوجيه والاستدلال.

الثالثة: المناظرة بالإجابة السريعة الخاطفة.

الرابعة: المناظرة بالاستدلال التفصيلي.

الخامسة: المناظرة بأسلوب الأخذ والرد من المناظر نفسه.

وسوف نشرح كل نظرية مع نماذج لكل منها من مناظراته عليه السلام.

النظرية الأولى: المناظرة بأسلوب الوسائط:

هذه النظرية، وفي كل مرحلة من مراحلها تصحح أخطاء المنازع، وترشده إلى الفكرة الحقيقية، فهي تعرّف الموضوع، وتنسج الحقائق نسجاً واقعياً منسجماً مع الأفكار الشرعية الأخرى، ثم تقيّم الموضوع، وتضع العلم في مكانه الصحيح.

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٦.

وسائط المناظرة:

وسائط جمع واسطة، والواسطة هو ما يتوصل به إلى الشيء، وطالما وقع الاختلاف في المناظرة وأصبح عدم الإتفاق مع الخصم أمراً واقعاً، إحتاج المناظر عندها إلى بناء منهج لإقامة الحججة على إحكام موقفه، والبرهنة على صحته.

فهنا ثلاثة وسائط للمناظرة:

الأولى: الواسطة الوصفية: وموضوعها تعريف الأشياء، ومعرفة طبيعتها، فينبغي أن تُعرّف الأشياء بتعاريفها المنطقية الصحيحة، حتى يصبح النقاش متوازياً، لا أن يتكلم الأول في شيء والثاني في شيء آخر، بل لا بد من سياق واحد يجري عليه طرح الحجج العلمية من الطرفين، فوحدة الموضوع، عبر تعريفه وتشخيص حدوده المنطقية أمرٌ أساسي في المناظرة.

الثانية: الواسطة الإرتباطية: وموضوعها العلاقة العقلية والشرعية بين شيء وآخر، وهو أن يكون هناك رابطٌ ما يجمع الأفكار المطروحة على طاولة البحث، فالأفكار التي يجمعها عنوان واحد ورابطة مشتركة تكون أكثر انسجاماً من الأفكار المبعثرة، وإذا انقطع الإرتباط بين الأفكار انقطع الفهم والإدراك، ومن هنا كان على المناظر أن يستمر في النسيج الفكري للموضوع الذي يدافع عنه أو يناقش فيه، فإذا كان الحديث عن التوحيد، يجب أن تكون الأفكار المطروحة متعلقة بالتوحيد، لا أن تشدّ إلى موضوع آخر لا علاقة له بالتوحيد.

الثالثة: الواسطة التقييمية: وموضوعها استحقاق الموضوع للمناظرة أو الجدال، فلا بد للمناظر من أن يُقيّم سير المناظرة، وأن يطمئن على أنها تسير بخط متوازٍ، فإذا أحسّ المناظر أن غريمه لا ينهض على الردّ قام بتوجيه الحديث بالوجهة التي يراها

صالحة، مع شرط أن يكون هو صاحب المبادرة في عرض الحججة أو الدليل الذي يناسب مقام البحث.

من مصاديقها :

ومن أجل فهم نظرية الإمام عليه السلام في هذا النوع من المناظرات نسرد بعضاً من المصاديق، لتتوصل إلى طريقته عليه السلام في الاستدلال الديني، ونعرض لأمثلة تعدد من مصاديق المناظرة بأسلوب الوسائط:

النموذج الأول: سأل نافع بن الأزرق ^(١) أبا جعفر عليه السلام قال: أخبرني عن الله عز وجل متى كان؟ قال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً» ^(٢).

وإذا طبّقنا خطوات وسائط المناظرة العلمية، فإننا نلاحظ:

كانت الوساطة الوصفية في هذا المثال هو تعريف صفة الخالق عز وجل عن طريق الأزلية، فقد نفى الإمام عليه السلام تحديده تعالى بزمان أو مكان عن طريق الاستفهام (متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟)، فعن طريق هذه الوساطة التعريفية نفى الإمام عليه السلام ما كان يحملها المنازع من أوهام حول الخالق عز وجل، وعن طريق الوساطة الوصفية وضع الإمام عليه السلام تعريف الخالق عز وجل بالصورة التي آمن بها عليه السلام لا بالصورة التي آمن بها المنازع.

أما الوساطة الارتباطية، وهو ارتباط المواضيع الفكرية بعضها ببعض، فقد احتج الإمام عليه السلام على السائل بإعادة تعريف الموضوع، فأرجع عليه السلام الموضوع إلى الأزلية،

(١) نافع بن الأزرق: أحد رؤساء الخوارج.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

فالأزلي: القديم العريق الذي لا أول له، فالله أزلُّ في ملكوته، خالدٌ دائمٌ الوجود لا بدء له، وهذا معنى قول: خلق الله العالم منذ الأزل، أي ما لا نهاية له في أوّله.

ربط الإمام عليه السلام موضوع العلاقة العقلية بين الأزلية التي ذكرناها للتو وبين صفة من صفاته في كونه خالقاً واحداً لا خالق سواه، فقال عليه السلام: «سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً»^(١).

فالإمام الباقر عليه السلام استخدم وسائل المناظرة، ولم يعترف بسؤال السائل، بل وجهه عليه السلام إلى التعريف الصحيح وهو: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟».

أما الوسيلة التقييمية، فقد كان موضوع المناظرة مهماً إلى درجة أنه كان يستحق الخوض في غماره العلمية، ولذلك استرسل الإمام عليه السلام واصفاً الخالق عزّ وجلّ: «سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً»^(٢)، بمعنى أن الله أزلُّ أبديُّ، واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وتلك من أعظم صفات الخالق عزّ وجلّ في قضية التوحيد.

النموذج الثاني: سأل عمرو بن عبيد الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(٣)، ما غضب الله؟ فقال عليه السلام: «الغضب: العذاب يا عمرو! وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزه، ويغيّره عن الحال التي هو بها لغيره، فمن زعم أن الله يغيّره الغضب والرضا، ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق»^(٤)، وفي رواية ثانية أنه عليه السلام

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٣) سورة طه: الآية ٨١.

(٤) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٩.

قال: «غضب الله تعالى عقابه يا عمرو، ومن ظن أن الله يغيره شيء فقد هلك»^(١)، والمعنى في الروایتين واحد، وإن تغيرت الألفاظ.

في هذا المثال، يُشكل عمرو بن عبيد على الإمام عليه السلام بأن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(٢)، يعني بأن الله تعالى يغضب، كما يغضب الإنسان! فيأخذ الإمام عليه السلام بوسائط المناظرة:

١ - فهو عليه السلام يعيد عليه تعريف الموضوع بالصورة الصحيحة، ويفهمه: أن معنى الغضب: هو العذاب، بمعنى أنه ليس تقطيب الوجه وفوران الدم كما هو الحال عند الإنسان.

٢ - ثم يوضح العلاقة العقلية بين حس المخلوق وصفاته التي لا تنطبق على الخالق عز وجل، فيقول عليه السلام: «وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزّه، ويغيره عن الحال التي هو بها إلى غيرها...»، والمخلوق سرعان ما يغضب لقضايا تزعجه فيفور دمه، وتتفخ أوداجه، تعالى الله عن ذلك، والخالق عز وجل لا يتصف بصفات المخلوق.

٣ - ثم يقيّم له الموضوع: «... فمن زعم أن الله يغيره الغضب والرضا، ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق»^(٣)، فالخالق عز وجل، بذاته وصفاته، يختلف عن المخلوق، والمشتركات اللفظية في الغضب والرضا لا تعني أن الخالق عز وجل له صفات المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلا بد من الأخذ بالسياق القرآني لفهم صفات الخالق عز وجل، فهو تبارك وتعالى ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٤)، وفي

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٥.

(٢) سورة طه: الآية ٨١.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٩.

(٤) سورة الشورى: الآية ١١.

الآية كفاية علم لنفي صفة الغضب والرضا المادي عنه، فيتعين أن غضب الله تعالى هو إرادة العقاب فقط.

الاستنتاج:

تتبع أهمية نظرية الوسائط من كونها مدرسة علمية في المناظرة، فهي لا تقتصر على السؤال والجواب فحسب، بل إنها تحدد ماهية الموضوع عبر تعريفه، واكتشاف العلاقة بينه وبين التفرعات المترتبة عليه، وتقوم بتقييمه، ثم تعطي الجواب بعد ملاحظة جميع أبعاد ذلك الموضوع، ومصاديق هذه النظرية في هذا البحث اختصت بفكرة التوحيد.

والحق، أن الإمام عليه السلام كان يجيب سائليه حتى لو كانوا ملحدين إجابةً ملؤها العلم الشامل، والأدب الجم، فلم يتهمهم بالكفر ولا بالزيغ، بل فتح قلبه عليه السلام لهم وحاول إرشادهم، وتلك هي أخلاقه في مناظراته عليه السلام.

النظرية الثانية: إعادة التوجيه والاستدلال:

هذه النظرية تفترض أن مقدمات المنازع غير صحيحة، فتقوم على الاستدلال عبر إعادة توجيه الفكرة الخاطئة إلى وجهة جديدة صحيحة، وللمناظرة بأسلوب إعادة التوجيه والاستدلال ثلاث مراحل، هي:

الأولى: المطالبة بالجواب، يقوم المنازع بسؤال الإمام عليه السلام سؤالاً أساسياً ويطلب بالجواب، والناس أحراراً عموماً في طرح الأسئلة، مهما كان فحواها، ومن وظيفته عليه السلام أن يجيب عليها بما يملكه من علم ومعرفة.

الثانية: إعادة توجيه فكرة السؤال: ينبري الإمام عليه السلام بتفنيد حجة الخصم من خلال توجيه السؤال وجهة صحيحة، وهنا ينقل الإمام عليه السلام الخصم من مساحة المعرفة التي يفهمها والمألوفة لديه إلى مساحة جديدة عليه وغير مألوفة لديه، تلك المساحة الجديدة

هي في الواقع نقلة نحو المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة الاستدلال.

الثالثة: الاستدلال: ومرحلة الاستدلال تعني أن الرابط بين مطالبة المنازع بالجواب وبين إبراز الدليل أصبحت ممكنة، فلا استدلال لا يعني تقديم الدليل فحسب، بل يعني إقناع المقابل بصحة الدليل وقوته، وعملية الاستدلال تفتح الباب في ذهن الإنسان لفهم الرابط بين الأفكار الأولية للسائل والأفكار النهائية للإمام عليه السلام، هذه القوة الدلالية تدفع السائل نحو قبول الجواب والإذعان لصحته.

النموذج الأول: وهو نموذج ذكرناه في النظرية الأولى، ولكن نعيده هنا وننظر إليه من زاوية النظرية الثانية، وهو سؤال نافع بن الأزرق حيث قال: أخبرني عن الله عز وجل متى كان؟ قال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحانه الله من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً»^(١).

نطبق خطوات نظرية إعادة التوجيه على هذا المثال:

الخطوة الأولى: يسأل المنازع الإمام عليه السلام طالباً منه إخباره عن الله تعالى متى كان؟ فالإمام عليه السلام مطالبٌ بالجواب، وللسائل هدف وتوجيه معين من وراء سؤاله، وربما كان ذلك التوجيه مقصوداً، وهو تثبيت فكرته حول كون الخالق تعالى حادثاً وليس بأزلي.

أي إن السائل أراد من صياغة سؤاله تحديد طبيعة الجواب بما يتناسب مع عقيدته المخالفة لعقيدة الإمام عليه السلام، هنا تتبين علمية الإمام عليه السلام عن طريق إعادة توجيه السؤال، وتلك هي المرحلة الثانية.

الخطوة الثانية: يقوم الإمام عليه السلام في هذه الخطوة بإعادة توجيه السؤال إلى السائل، فهو عليه السلام لم يهمل الجواب، لكنه يعيد صياغة الفكرة من جديد بسؤال السائل، فيقول عليه السلام:

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

«متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟»، هنا أعاد الإمام عليه السلام للموضوع فكرته الجوهرية.

الخطوة الثالثة (الاستدلال): وعندما تمكن الإمام عليه السلام من ترويض المنازع وفند باطن سؤاله الذي أراد منه أن الله عز وجل حادث، قام عليه السلام بالاستدلال، فطالما كان الله تعالى أزلياً أبدياً، فليس لهذا السؤال محل، استدلل الإمام عليه السلام بصدق القضية المراد اثبات برهانها بإظهار خطأ مقدمات السائل، ثم قال عليه السلام: «سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً»^(١).

وبالإجمال فند الإمام عليه السلام فكرة الطرف المنازع، وصحح له سؤاله بإعادة توجيه السؤال توجيهاً صحيحاً، ثم أعطاه الجواب الصائب.

النموذج الثاني: عن عبد الله بن سنان عن أبيه قال: حضرت أبا جعفر عليه السلام وقد دخل عليه رجل من الخوارج، فقال له: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟ قال عليه السلام: «الله». قال: رأيتك؟ قال عليه السلام: «بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالدلالات، لا يجوز في حكمه، ذلك الله لا إله إلا الله»، فيخرج الرجل ويقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته^(٢).

في هذا النموذج ثلاث مراحل للمناظرة:

المرحلة الأولى: يسأل الرجل الإمام الباقر عليه السلام عن ماهية عبادته عليه السلام، وكأنه يريد أن ينصب فخاً للإمام عليه السلام، ويريد أن يقول له كيف تعبد رباً لم تره، وهل العبادة إلا للمحسوس المتيقن رؤيته!! قوله: يا أبا جعفر أي شيء تعبد؟

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

المرحلة الثانية: يُجيب الإمام عليه السلام: «الله»، أي إنه عليه السلام أراد تثبيت جوابه بصورة قطعية، وهو أنه يعبد الله عز وجل باعتباره الخالق البارئ المصور، فالله سبحانه هو الذي يستحق العبادة دون سواه، لكن السائل المنازع يمضي قُدماً في توجيه رأيه عبر سؤال الإمام عليه السلام: رأيتَه؟ وكأنه أراد القول كيف تعبدُ رباً لم تره؟ أو ربما أراد التجسيم، فتوهم بأن الخالق عز وجل يمكن رؤيته بعين الإنسان! وبذلك ينتقل الإمام إلى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: وبعد أن يعيد عليه السلام توجيه السؤال، وهو أنه يعبد رباً يراه ولا يمكن له أن يعبد رباً لم يره، يقوم بالاستدلال، فالعالم الظاهري الذي نعيش فيه، لا يكشف لنا كل شيء بالعين الباصرة، بل هناك حقائق لا تصلها العين الإنسانية، بل تصلها القلوب بحقائق الإيمان، يقول عليه السلام: «بلى [رأيتَه]. [لكن] لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان».

وهنا يقرر الإمام عليه السلام الحقائق التالية:

١ - أن الله تعالى لا يمكن رؤيته بالعين الإنسانية المجردة ولا يمكن إدراكه بالحواس الإنسانية، بل بحقائق الإيمان التي هي من مختصات القلوب والعقول.

٢ - أن الله تعالى لا يُعرف بعملية قياس الأشياء بعضها إلى بعض، ولا يشبه المخلوقات في شيء، فالمخلوق كائن ضعيف ضئيل لا يصل إلى إدراك كُنه الخالق عز وجل وجوهه، والقياس المنطقي تحصيل حاصل لا يأتي بجديد ولا يضيف إلى الحدود المعلومة شيئاً جديداً.

٣ - أن العقل يعرف الله عز وجل ويراه بالآيات المعجزة، والآثار التي تدلّ عليه، أمثال دقة نظام الوجود، ولطافة خلق الكائنات، وتدبير المخلوقات، وتلك ميزة العقل الذي يرى الله تعالى في آثاره وأفعاله وصفاته.

٤ - أن الله تعالى مدبرٌ لما خلق، فهو لا يترك الخلق لشأنهم بل يدبّرُ أمورهم، وهذا الذي نفهمه من أنه تعالى لا يجور في حكمه، فهو رحيم رازق مدبر، ينظر إلى شؤون من خلق، فيقول ﷺ: «لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالدلالات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا الله»^(١).

٥ - ردّ الإمام ﷺ على الطرف المنازع بتوضيح فكرة أساسية تتعلق بالتوحيد، وهي أن رؤية الخالق عزّ وجلّ لا تتم بالعين المجردة، بل بالعقل وبإدراك العقل لآثار الخالق عزّ وجلّ على الوجود، وتلك الرؤية أشدّ من رؤية الأبصار وأعماق؛ لأن الإنسان قد يرى شيئاً بعينه ولكن لا يلتفت عقله إليه، فالرؤية العقلية أمضى في قضايا الاعتقاد من الرؤية البصرية.

النموذج الثالث: روي أن رجلاً دخل على الإمام الباقر ﷺ يريد أن يكلمه عن أمير المؤمنين علي ﷺ، فقال: جئتُ أكلمك في أمر هذا الرجل!

قال ﷺ: «أيتما رجل؟».

قال: علي بن أبي طالب.

قال ﷺ: «في أي أموره؟»

قال: في أحداثه.

قال ﷺ: «انظر ما استقرّ عندك مما جاءت به الرواة عن آبائهم»، ثم نسبهم، ثم

قال ﷺ: «يا سالم أبلغك أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن عبادَةَ براية الأنصار إلى خيبر، فرجع منهزماً، ثم بعث عمر بن الخطاب براية المهاجرين والأنصار، فأتى سعد جريحاً

وجاء عمر يبيّن أصحابه ويبيّنونه، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا يفعل المهاجرون والأنصار»، حتى قالها ثلاثاً، ثم قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً كَرَّاراً ليس بفرّار، يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله»؟
قال: نعم، وقال القوم جميعاً أيضاً.

فقال ﷺ: «يا سالم إن قلت أن الله تعالى أحبه وهو لا يعلم ما هو صانع فقد كفرت، وإن قلت أن الله تعالى أحبه وهو يعلم ما هو صانع فأني حدث ترى له؟».
فقال: أعد عليّ.

فأعادَ عليه، فقال سالم: عبدتُ الله على ضلالة سبعين عاماً^(١).

بيان:

١ - يبدو من مسار الرواية أو المناظرة أن رجلاً اسمه سالم كان مضطرب الفكر من قضية نزاع الخوارج مع الإمام أمير المؤمنين عليّ ﷺ، فبدأ الشك يدبُّ في عقله، هل كان الإمام عليّ ﷺ صائباً في قتاله الخوارج؟

٢ - أعاد الإمام الباقر ﷺ توجيه الموضوع بالصورة التالية: أن الله تعالى يعلم ما سيقوم به عليّ ﷺ حتى نهاية حياته، فقول رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً كَرَّاراً وليس بفرّار، يحبه الله ورسوله...» يبين صحة فعل عليّ ﷺ، ضمن مساحة الحب الالهي الممتدة على أفق الزمن، فالله تعالى يعلم أن علياً سيقا تل الخوارج، والله يحبه لأن عمله ﷺ ذلك كان مرضاةً له.

٣ - قطع الإمام الباقر ﷺ شك السائل بيقين قول رسول الله ﷺ بشأن عليّ ﷺ، والله

تعالى عالمٌ بما سيفعله علي عليه السلام بالخوارج بعد أكثر من ثلاثين سنة من قول رسول الله صلى الله عليه وآله له، هنا رسّخ الإمام الباقر عليه السلام يقين السائل بفضل إعادة توجيه الفكرة والاستدلال عليها.

الاستنتاج:

نظرية إعادة توجيه والاستدلال مهمة في تصحيح أخطاء الناس، فالسؤال من قبل المنازع أو السائل يعكس فهماً معيناً للمسألة المتنازع حولها، ومن أجل تثبيت الفكرة الصحيحة في الأذهان، لابد من إعادة توجيه السؤال حتى يكون الاستدلال متوازياً مع التوجيه الجديد، ذلك هو جوهر هذه النظرية التعليمية في المناظرة.

النظرية الثالثة: أسلوب الإجابة السريعة الخاطفة

هذا اللون من المناظرة يقتضي علماً جماً، وسرعة فائقة في الإجابة؛ لأن التأخر في الجواب أو التردد يعني عدم معرفته، أو على الأقل عدم الإطمئنان لوثوق معلوماته، فليس هناك مجال للتفكير أو للتذكر، في هذا النوع من المناظرات دلالة قوية على أعلمية أهل البيت عليهم السلام؛ لأن الأسئلة كانت تنهمر عليهم عليهم السلام كالطرر، وكان جوابهم جواباً صحيحاً شافياً متوازياً مع سرعة السؤال، ومع دقة العلم الذي يحملونه عليهم السلام، ومن ذلك النماذج التالية:

النموذج الأول: كان الإمام الباقر عليه السلام جالساً في الحرم وحوله مجموعة من أصحابه، فأقبل طاووس اليماني (ت ١٠٦هـ) في جماعة من أصحابه وطلب الإذن بالسؤال أو المناظرة، فأذن له عليه السلام، فكانت المناظرة التالية:

١ - قال: أخبرني متى هلك ثلث الناس؟

قال عليه السلام: «وهمت يا شيخ! أردت أن تقول: متى هلك ربع الناس؟ وذلك يوم قتل

قبايل هابيل، كانوا أربعة: آدم، وحواء، وقبايل، وهابيل، فهلك ربعمهم».

فقال: أصبتَ ووهمتُ أنا.

٢ - قال: فأَيُّها كان أباً للناس، القاتل أو المقتول؟

قال عليه السلام: «لا واحد منهما بل أبوهم شيث بن آدم».

٣ - قال: فلمَ سُمِّيَ آدم آدم؟

قال عليه السلام: «لأنه رفعت طيبته من أديم الأرض السفلى».

٤ - قال: ولمَ سُميت حواء حواء؟

قال عليه السلام: «لأنها خلقت من ضلعٍ حيٍّ، يعني ضلع آدم».

٥ - قال: فلمَ سُمِّيَ إبليس إبليس؟

قال عليه السلام: «لأنه أبلِس (١) من رحمة الله فلا يرجوها».

٦ - قال: فلمَ سُمِّيَ الجنُّ جنًّا؟

قال عليه السلام: «لأنهم استجنَّوا (٢) فلم يروا».

٧ - قال: فأخبرني عن كذبة كُذِّبت من صاحبها؟

قال عليه السلام: «إبليس حين قال: أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين».

٨ - قال: فأخبرني عن قومٍ شهدوا شهادة الحق وكانوا كاذبين؟

قال عليه السلام: «المنافقون حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: نشهدُ أنك لرسول الله، فأنزل الله

(١) أبلِس: يئس وتخيّر وسكت لإنقطاع حجته.

(٢) استجنوا: أي استتروا.

تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(١).

٩ - قال: فأخبرني عن طائرٍ طارَ مرةً ولم يطر قبلها ولا بعدها، ذكره الله تعالى في القرآن، ماهو؟

قال ﷺ: «طور سيناء^(٢) أطاره الله تعالى على بني إسرائيل حين أظلمهم بجناح منه، فيه ألوان العذاب، حتى قبلوا التوراة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ...﴾^(٣)».

١٠ - قال: فأخبرني عن رسول الله بعثه الله تعالى ليس من الجنّ، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال ﷺ: «الغراب بعثه الله تعالى ليرى قابيل كيف يوارى سوءة أخيه هابيل حين قتله، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ...﴾^(٤)».

١١ - قال: فأخبرني عمّن أنذر قومه ليس من الجنّ، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال ﷺ: «المنملة حين قالت: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اتُّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ لَا يُخِطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٥)».

(١) سورة المنافقون: الآية ١.

(٢) طور سيناء: الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧١.

(٤) سورة المائدة: الآية ٣١.

(٥) سورة النمل: الآية ١٨.

١٢ - قال: فأخبرني عمّن كُذِّبَ عليه، ليس من الجنّ، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال ﷺ: «الذئب الذي كُذِّبَ عليه أخوة يوسف».

١٣ - قال: فأخبرني عن شيء قليله حلال وكثيره حرام، ذكره الله تعالى في كتابه؟

قال ﷺ: «نهر طالوت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾^(١)».

١٤ - قال: فأخبرني عن صلاة فريضة تصلى بغير وضوء، وعن صوم لا يحجز عن أكل ولا شرب؟

قال ﷺ: «أما الصلاة بغير وضوء فالصلاة على النبي وآله عليه وعليهم السلام، وأما الصوم فقول الله تعالى: ﴿...إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^(٢)».

١٥ - قال: فأخبرني عن شيء يزيد وينقص، وعن شيء يزيد ولا ينقص، وعن شيء ينقص ولا يزيد؟

قال ﷺ: «أما الشيء الذي يزيد وينقص فهو: القمر، والشيء الذي هو يزيد ولا ينقص فهو: البحر، والشيء الذي ينقص ولا يزيد هو: العمر»^(٣).

بيان:

١ - طاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦هـ) هو أحد الأعلام التابعين وأصله من

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٦.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٧.

اليمن، كان فقيهاً جليلاً القدر، وكان تقياً يتجنب السلاطين.

عدّه ابن شهر آشوب (ت ٥٥٨هـ) من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام ووصفه بالفقيه^(١)، وكذا الشيخ الطوسي في رجاله^(٢).

وله موقف مشهود مع هشام بن عبد الملك حيث دخل عليه وخلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم عليه بأمره المؤمنين، ولم يكنّه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه.

فكان رده عندما عوتب على ذلك: أما خلعتي بحاشية بساطك، فإني أخلعتها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ، ثم قال: فإني سمعتُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام»...^(٣).

ونستفيد من قراءة خاطفة لحياة طاووس اليماني أنه كان موالياً لأهل البيت عليهم السلام، ويثبت ذلك أن أبا نعيم «أخرج بإسناده عن ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاووس عن بريدة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، قال أبو نعيم: غريب من حديث طاووس، لم نكتبه إلا من هذا الوجه»^(٤)، وعلى ضوء ذلك نستدل على أن لقاء طاووس بالإمام الباقر عليه السلام كان له هدفٌ.

٢ - كان لطاووس اليماني أحد هدفين:

أ - إما اختبار علم الإمام عليه السلام، فأغلب أسئلته كانت عويصة، ولا هدف منها سوى اختبار علمه عليه السلام، ولا يتأتى للإنسان الإجابة عليها ما لم يحط بها علماً.

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ١٧٧.

(٢) معجم رجال الحديث: ج ٩ / ص ١٥٥ رقم ٥٩٨٤.

(٣) وفيات الأعيان: ج ٢ / ص ٥١٠.

(٤) حلية الأولياء ج ٤ / ص ٢٣.

ب - وإما إراءة الناس علم الإمام عليه السلام عن طريق طرح الاسئلة العويصة، وكان طاووس على يقينٍ من قدرة الإمام عليه السلام على الإجابة السريعة، وفي ذلك تبيُّتٌ لأعلميته عليه السلام.

وكانت إجابات الإمام عليه السلام سريعة خاطفة لم تترك مجالاً للرد عليها؛ لأنها معلومة صحيحة، غير مسبوقه معرفتها، ولا يعتري صحتها شك.

٣ - في تلك الفترة القصيرة سأل طاووس البياني خمسة عشر سؤالاً، والرواية طويلة وفيها اسئلة كثيرة، والإجابة عليها بتلك السرعة يتطلب علماً وافياً، وعلمٌ بذلك الحجم لا نراه ولا نلمس آثاره إلا عند أئمة أهل البيت عليهم السلام المقتبس بالأصل من علم رسول الله صلى الله عليه وآله.

النموذج الثاني: روى حمران بن أعين قال: سألت الإمام الباقر عليه السلام قول الله تعالى: ﴿...إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾^(١)؟ قال عليه السلام: «هي مخلوقة خلقها الله بحكمته في آدم وفي عيسى»^(٢).

بيان:

جوابٌ يطابق كلام الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣)، فهو عليه السلام لم يبحث في ماهيتها، واقتصر قوله عليه السلام على أنها مخلوقة من قبل الله تعالى في آدم وعيسى، ولا أب لهما، فنفهم من كلامه عليه السلام أنها القدرة الالهية التي تقول للشيء كن فيكون، ويؤيد ذلك قوله تعالى في خلق عيسى عليه السلام:

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٠.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١)، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

النموذج الثالث: مناظرة القس النصراني، عندما زار الإمام الباقر عليه السلام دمشق الزيارة الثالثة، استقر به المجلس إلى حيث كان قس نصراني، كان شيخاً كبيراً جالساً، فسأل الإمام عليه السلام: أمنا أنت أم من الأمة المرحومة^(٣)؟ قال الإمام عليه السلام: من الأمة المرحومة، فقال: أمن علمائها أو من جهالها؟ قال الإمام عليه السلام: «لست من جهالها»!

قال القس: أنتم الذين ترعمون أنكم تذهبون إلى الجنة فتأكلون وتشربون ولا تُحدثون؟

الإمام عليه السلام: «نعم».

القس: هاتِ على هذا برهاناً.

الإمام عليه السلام: «نعم، الجنين يأكل في بطن أمه من طعامها، ويشرب من شرابها، ولا يُحدث».

القس: أخبرني عن ساعة^(٤) ليست من النهار ولا من الليل؟

الإمام عليه السلام: «هذه ساعة من طلوع الشمس، لا نعدّها من ليلنا، ولا من نهارنا، وفيها تفيقُ المرضى».

القس: أخبرني عن رجلين ولدا في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة؟ عاش

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

(٣) الأمة المرحومة: يقصد الأمة المؤمنة بالإسلام.

(٤) الساعة في اللغة: هي اللحظة.

أحدهما مائة وخمسين سنة، وعاش الآخر خمسين سنة؟

الإمام عليه السلام: «ذاك عزيز وعزرة، ولدا في يوم واحد، ولما بلغا مبلغ الرجال مرَّ عزيز على حمارة بقرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أتى يُحيي الله هذه بعد موتها، وكان الله قد اصطفاه وهداه، فلما قال ذلك غضب الله وأماته مائة عام ثم بعثه، فقيل له: كم لبثت؟ قال: يوماً أو بعض يوم، وعاش الآخر مائة وخمسين عاماً، وقبضه الله وأخاه في يوم واحد»^(١).

بيان:

١ - نحن لا نعلم ما كان يدور في ذهن القس الشامي، ولكننا نفترض أن الأسئلة كانت إما:

أ - إختبارية، وهو يريد اختبار علم الإمام عليه السلام.

ب - أو تعجيزية، والسائل يريد إظهار ضعف المسلمين من الناحية الفكرية، خصوصاً وأن القس كان يعيش في دمشق زمن خلفاء بني أمية المعروفين بجهلهم بأحكام الدين وعقائده.

ج - وإما استفهامية، والسائل يريد العلم والإجابة على أسئلته، وهذا الوجه أضعف الوجوه، لأن أسئلته لا تحمل ظاهراً هذا المعنى.

٢ - كان جواب الإمام عليه السلام السريع منسجماً مع نظرية الإجابة السريعة، ولم نلاحظ اعتراضاً من القس على أجوبة الإمام عليه السلام.

(١) دلائل الإمامة: ص ١٠٦، الدرر النظيم - اليافعي ص: ١٩٠.

الاستنتاج:

للمناظرة بالإجابة السريعة الخاطفة ميزات: أنها تشفي غليل السائل بإجابة سريعة صحيحة، وتثبت في الوقت نفسه أن الطرف المسؤول شخصية علمية من الطراز الأول، والظاهر أن أغلب الأسئلة في هذا النوع من المناظرات هي اختبارية بالدرجة الأولى، والسؤال يتم من طرف واحد، كما هو الجواب، وهو علمٌ نافعٌ يبيِّث للناس على أية حال، وإن كان خالياً من التفصيل، ونفترض أن الطرف الآخر كان مدعناً لأعلمية الإمام عليه السلام؛ لأن جميع الأجوبة لم تُثر تعقيباً أو رداً على الإمام عليه السلام من أي نوع.

النظرية الرابعة: المناظرة بالاستدلال التفصيلي:

المناظرة بالاستدلال التفصيلي هدفها توضيح المطالب بصورة تفصيلية، فتكون عادةً غنيةً بالعلم والمعرفة، فهي أقرب إلى المحاضرة العلمية ولكن مع جاذبية السؤال والجواب، وفي ذلك نماذج:

النموذج الأول: عن أبي حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال: حججتُ مع الإمام الباقر عليه السلام في السنة التي حجَّ فيها هشام بن عبد الملك، وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب، فنظر نافع إلى الإمام عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع عليه الخلق، فقال: يا أمير المؤمنين [يقصد هشام بن عبد الملك] من هذا الذي تكافأ عليه الناس؟

فقال: هذا محمد بن علي بن الحسين.

قال: لآتينه ولأسأله عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي.

قال: فاذهب إليه لعلك تحججه!

فجاء نافع حتى أتكا على الناس وأشرف على الإمام عليه السلام فقال: يا محمد بن علي إني قرأت التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وقد عرفت حلها عن حرامها، وقد جئتُ

أسألك عن مسائل لا يجيبني فيها إلا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي.

فرفع الإمام عليه السلام رأسه فقال: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ».

١ - قال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة؟

قال عليه السلام: «أَجِيبْكَ بِقَوْلِكَ أَمْ بِقَوْلِي؟».

قال: أجبني بالقولين!

قال عليه السلام: «أما بقولي فخمسة سنة، وأما بقولك فستائة سنة».

٢ - قال: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا

أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ﴾^(١)، مَنْ الَّذِي سَأَلَ مُحَمَّدًا عليه السلام وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

عيسى عليه السلام خَمْسَمِائَةَ سَنَةً؟

قال عليه السلام: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»^(٢) كان من الآيات التي

أراها محمداً حيث أسرى به الى بيت المقدس، أنه حشر الأولين والآخرين، من النبيين

والمرسلين، ثم أمر جبرئيل عليه السلام فأذن شفعاً وأقام شفعاً وقال في أذانه: (حي على خير

العمل) ثم تقدم محمد عليه السلام فصلّى بالقوم، فلما انصرف قال الله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبُدُونَ﴾^(٣)، فقال رسول الله عليه السلام: على

من تشهدون؟ وما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنت

رسول الله، أُخِذْتُ عَلَى ذَلِكَ عَهْدُنَا وَمَوَاقِفُنَا».

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

٣ - قال: صدقت يا أبا جعفر! فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾^(١)، أي أرضٍ تُبدَّل؟

قال ﷺ: «خبزة بيضاء يأكلونها حتى يفرغ الله من حساب الخلايق».

٤ - قال: أنهم عن الأكل لمشغولون؟

قال ﷺ: «أهم حينئذٍ أشغل أم هم في النار؟».

٥ - قال: بل هم في النار.

قال ﷺ: «فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ...﴾^(٢) ما أشغلهم إذا دعوا بالطعام فأطعموا الزقوم، ودعوا بالشراب فسقوا من الجحيم!».

قال: صدقت يا بن رسول الله^(٣).

بيان:

١ - ادعى نافع أنه قرأ التوراة والإنجيل والزمبور والفرقان، ولا نعلم صدق المدعى، لكننا نعلم أنها كانت تمهيداً لإيقاع الإمام ﷺ - كما ظنَّ - في فخٍّ علميٍّ، خصوصاً وهو يدعي أن تلك الأسئلة لا يجيب عليها إلا نبي، أو وصي نبي، أو ابن نبي، ومفهوم قوله: أنك لو أجبتَ عليها لاعترفتُ لك أنك وصي رسول الله ﷺ.

وفي قوله دلالة على أن نافعاً ومن بعثه كانا يعلمان بأن أئمة أهل البيت ﷺ هم أوصياء النبي ﷺ، أو فلنقل كانا في مرحلة شك من ذلك، وبعد الإجابة تبين لهما أن

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٠.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٢ - ٥٤.

الإمام الباقر عليه السلام وصي من أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك الزمان.

٢ - كانت أسئلة نافع محبوبكة يامعان، فهو لم يسأل سؤالاً افتراضياً، بل سأل سؤالاً واقعياً، وهو أنه إذا كان بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله خمسمائة عام، فمن سأل محمد صلى الله عليه وآله؟ أجاب الإمام عليه السلام مستنداً إلى حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حول الإسراء والمعراج، ثم لما لم يجد نافع بدأ من إحراج الإمام عليه السلام، وقد فشل في مسعاه للتو، عاد وسأل الإمام عليه السلام عن يوم القيامة، فأجابه الإمام عليه السلام مستنداً إلى حقائق القرآن الكريم مرة أخرى.

٣ - ذكر الإمام عليه السلام الفترة الزمنية بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله على قولين:

الأول: خمسمائة سنة، وهو قول أئمة أهل البيت عليهم السلام.

الثاني: ستمائة سنة، وهو قول علماء مدرسة الرأي، فقد أخرج البخاري في صحيحه أثراً عن سلمان الفارسي، قال: فترة ما بين عيسى ونبينا محمد ستمائة سنة^(١)، وفي تفسير القرطبي: «بين ميلاد عيسى عليه السلام والنبى محمد صلى الله عليه وآله خمسمائة سنة وتسع وتسعون سنة»^(٢)، وهكذا في تفسير مقاتل ستمائة سنة، وتفسير الصنعاني خمسمائة سنة وستون.

وعند النصارى كانت ولادة النبي صلى الله عليه وآله سنة خمسمائة وسبعين للميلاد.

والظاهر أن منشأ الاختلاف في السنة بين أنبياء الله الأطهار: عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله هو الاختلاف في روايات المؤرخين، ولذلك قال الإمام عليه السلام: «أجيبك بقولك أم بقولي؟»، ثم قال عليه السلام: «أما بقولي فخمسمائة سنة، وأما بقولك فستمائة سنة».

٤ - يكشف النص أن المناظرة بالاستدلال التفصيلي تكشف علم الإمام عليه السلام في

(١) صحيح البخاري: ج ٣/ ص ١٩٧، حديث رقم ٣٧٣٢.

(٢) تفسير القرطبي: ج ٦/ ص ١٢١.

ربط الحقائق القرآنية مع الحقائق النبوية بصيغة واضحة للسائل، فلولا علم الإمام عليه السلام وتفسيره لنا، لما كنا قادرين على ربط صيغة سؤال النبي عليه السلام بقضية العروج إلى السماء، فتفسير الإمام عليه السلام وضعنا في أجواء تلك العملية الإعجازية وما صاحبها من صلاة للأنبياء بإمامة محمد عليه السلام خاتم الأنبياء وسؤاله عليه السلام لهم.

النموذج الثاني: عن أبي حمزة الثمالي قال: أتى الحسن البصري (ت ١١٠هـ) الإمام الباقر عليه السلام فقال: جئتك لأسألك عن أشياء...

قال عليه السلام: «ألستَ فقيه أهل البصرة؟».

قال: قد يُقال ذلك!

قال عليه السلام: «هل بالبصرة أحدٌ تأخذ عنه؟».

قال: لا.

قال عليه السلام: «فجميع أهل البصرة يأخذون عنك؟».

قال: نعم.

قال عليه السلام: «سبحان الله! لقد تقلدتَ عظيماً من الأمر، بلغني عنك أمر فما أدري أكذلك أنت أم يُكذّب عليك؟».

قال: ما هو؟

قال عليه السلام: «زعموا أنك تقول: أن الله خلق العباد ففوّض إليهم أمورهم».

قال: فسكت الحسن.

وبعد حديثٍ طويلٍ، قال الإمام عليه السلام: «... ذريةً مصطفاهً بعضها من بعض، فلم ينته الاصطفاء إليكم، بل إلينا انتهى، ونحن تلك الذرية المصطفاه..، وإياك أن تقول

بالتفويض، فإنَّ الله تعالى لم يفوض الأمر إلى خلقه، وهنأً منه وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً^(١).

بيان: انتقد الإمام الباقر عليه السلام أفكار الحسن البصري (ت ١١٠هـ) في ثلاثة موارد:

الأول: التفسير بالرأي: أدانه عليه السلام بتفسير القرآن الكريم بالرأي الشخصي، وقال عليه السلام له: «لقد تقلدت عظيمًا في الأمر»^(٢)، «... وإن فعلت ذلك فقد هلكت وأهلك»^(٣)، فتفسير القرآن موكول إلى أهله، أهل الذكر والمعرفة عليه السلام، من الذين أوصى بهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثاني: القول بالتفويض: قال عليه السلام: «زعموا أنك تقول: إن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم»، «... وإياك أن تقول بالتفويض، فإنَّ الله تعالى لم يفوض الأمر إلى خلقه، وهنأً منه وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً».

الثالث: مسألة الاصطفاء: قال عليه السلام: «... ذرية مصطفاة بعضها من بعض، فلم ينته الاصطفاء إليكم، بل إلينا انتهى، ونحن تلك الذرية المصطفاة...».

وكانت تلك المسائل الثلاث من أهم المسائل التي شغلت بال الناس في تلك الفترة، فقد كانت السلطة الأموية تحارب أئمة أهل البيت عليهم السلام وتقذح في إمامتهم، وكانت تساعد على نشر أفكار الجبر والتفويض والإرجاء، والتفسير بالرأي، وبكلمة، فقد حاول الأمويون تفرغ الإسلام من محتواه العقائدي على مدى قرن كامل من الزمان.

النموذج الثالث: مناظرة هشام بن عبد الملك، تمت هذه المناظرة عندما استدعاه

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٥-٥٦.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٥.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٥.

هشام بن عبد الملك إلى دمشق، فقال هشام فيها قال: ألسنا بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد؟

فقال الإمام الباقر عليه السلام: «نحن كذلك، والله اختصنا من مكنون سرّه، وخالص علمه بما لم يخصّ به أحداً غيرنا».

هشام: أليس الله بعث محمداً عليه السلام من شجرة عبد مناف إلى الناس كافة أبيضها وأسودها وأحمرها، فمن أين ورثتم ما ليس لغيركم؟ ورسول الله عليه السلام مبعوث إلى الناس كافة، وذلك قول الله عز وجل: ﴿...وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١)؟ فمن أين ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد نبي، ولا أنتم أنبياء؟

الإمام عليه السلام: «من قوله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٢)، فالذي لم يحرك به لسانه لغيرنا أمره الله تعالى أن يخصنا به من دون غيرنا، فلذلك كان يناجي أخاه علياً من دون أصحابه، وأنزل الله به قرآناً في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعْيَهَا أَدُنُّ وَأَعْيَةُ﴾^(٣)، فقال رسول الله عليه السلام: «سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي»، فلذلك قال علي عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب»، خصّه به النبي عليه السلام من مكنون سرّه كما خصّ الله نبيّه، وعلمه ما لم يخصّ به أحداً من قومه، حتى صار إلينا فتوارثناه من دون أهلنا».

هشام: إنَّ علياً كان يدّعي علم الغيب، والله لم يُطلع على غيبه أحداً، فكيف ادّعى ذلك؟ ومن أين؟

الإمام عليه السلام: «إن الله أنزل على نبيه كتاباً بين دفتيه ما كان وما يكون إلى يوم

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٠.

(٢) سورة القيامة: الآية ١٦.

(٣) سورة الحاقة: الآية ١٢.

القيامة في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، وفي قوله تعالى: ﴿...مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ...﴾^(٣)، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(٤)، وأوحى الله إلى نبيه أن لا يُبقي في عيبة^(٥) سره، ومكنون علمه شيئاً إلا يناجي به علياً، فأمره أن يؤلف^(٦) القرآن من بعده، ويتولى غسله وتحنيطه من دون قومه...، فإنه مني، وأنا منه، له ما لي، وعليه ما عليّ، وهو قاضي ديني، ومنجز وعدي، ثم قال لأصحابه: علي بن أبي طالب يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله، ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكماله وعامه إلا عند علي، ولذلك قال رسول الله: «أقضاكم علي» أي هو قاضيكم، وقال عمر بن الخطاب: لولا علي لهلك عمر، يشهد له عمر ويحجده غيره!^(٧).

بيان:

١ - هذه المناظرة من طرف هشام بن عبد الملك صريحة وقوية في نكران التفاضل الإلهي بين البشر، ويمكن تلخيص أفكارها بثلاثة إشكالات:

الإشكال الأول: إذا كان نسب العرب يرجع إلى عبد مناف، فلماذا هذا التفاضل

الذي يدعيه أهل البيت عليهم السلام؟

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٤) سورة النمل: الآية ٧٥.

(٥) عيبة: وعاء ينقل فيه الزرع، ومعناه هنا: وعاء أو حاوية سر علم النبي صلى الله عليه وآله.

(٦) يؤلف: يجمع.

(٧) دلائل الإمامة: ص ١٠٤ - ١٠٦.

الجواب: أن الله تعالى فضّل أهل البيت عليهم السلام بالعلم؛ لأن الأمة تحتاج في كل زمن إلى إمام علم وهدى، فعلم أهل البيت عليهم السلام هداية للناس، قال عليه السلام: «والله اختصنا من مكنون سره، وخالص علمه بما لم يخص به أحداً غيرنا».

الإشكال الثاني: كيف ورثتم هذا العلم وليس بعد محمد عليه السلام نبي؟

الجواب: هناك دلائل قرآنية ونبوية على تخصيص هذا بعلي عليه السلام ومن بعده أهل البيت عليهم السلام، ومنها:

أ - ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾^(١)، وهي التي سأل الله فيها أن تكون أذن علي عليه السلام.

ب - ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٢)، حيث اختصهم عليهم السلام بعلم مكنون وليس ذلك على الله تعالى بعزیز.

ج - قول علي عليه السلام: «علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف باب من العلم، يفتح من كل باب ألف باب»، ومعناه أن علم علي عليه السلام الذي تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم علم غير متناهٍ، فكل نافذة تفتح له هذا الكم الهائل من النوافذ، فهذا علمٌ جمٌّ توارثه أهل البيت عليهم السلام.

الإشكال الثالث: كيف ادعى علي عليه السلام علم الغيب؟

الجواب: لم يدع علي عليه السلام علم الغيب، وإنما علمٌ تعلمه من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسلّحٌ بالقرآن الذي فيه تبيان كل شيء، وهذا العلم القرآني المحيط نقله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم إلى علي عليه السلام، فأية غرابة في ذلك؟

٢ - كان الإمام علي عليه السلام متميزاً بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ثقته، وحافظ

(١) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٢) سورة القيامة: الآية ١٦.

سره، فلم لا يكون أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ؟ وقد شهد بذلك الخليفة الثاني، فلم لا يشهد بذلك غيره؟

النموذج الرابع: عن محمد بن مسلم قال: سألتُ الإمام الباقر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾^(١)، كيف هذا النفخ؟

قال عليه السلام: «إنَّ الروحَ متحرِّكٌ كالريح، إنما سُمِّيَ روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح، وإنما أخرجه عن لفظة الريح لأن الروح متجانس للريح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح، كما اصطفى بيتاً من البيوت، وقال: «بيتي»، وقال لرسولٍ من الرسل: «خليلي»، وأشابه ذلك مخلوقٌ مصنوعٌ مربوبٌ مدبرٌ»^(٢).

وعن نفس الراوي قال: سألته عليه السلام عما روي: «إن الله خلق آدم على صورته؟» قال عليه السلام: «هي صورة محدثة مخلوقة، اصطفاه الله واختارها، على أساس الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبة إلى نفسه والروح، فقال: «بيتي»، وقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾^(٣)»^(٤).

بيان:

١ - لم يدخل عليه السلام في نقاش ماهية الروح وجوهرها، بل تحدث عن صفتها وطبيعة إضافتها إلى المولى عز وجل، وقد ناقشنا ذلك في موضع آخر من الكتاب.

٢ - هذا الحديث على خطٍ متوازٍ مع بقية أحاديثه عليه السلام في موضوع التوحيد، فهو عليه السلام لا يدخل في صلب الموضوع إذا كان متعلقاً بذات الله تعالى، وكل موضوع يخص ذات

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٠.

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٩.

(٤) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٠.

الله تعالى فإن الإمام يعيّر مجرى الحديث إلى صفات الله تعالى، وفي هذا الحديث يشرح الإمام (باء) النسبة إلى لفظ الجلالة في (بيتي)، و(خليلي)، و(روحي)، ويتجنب الحديث عن ذات الله تعالى.

النموذج الخامس: سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

قال (ع): «من لم يدله خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك بالشمس والقمر، والآيات العجيبات على أن وراء ذلك أمراً هو أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى»، وقال (ع): «فهو عمّن لم يعاين، أعمى وأضلّ سبيلاً»^(٢).

بيان:

١ - هناك نوعان من العمى: عمى البصر، وعمى البصيرة، فالإنسان إذا لم يُبصر عظمة الله تعالى ببصيرته فهو أعمى بالبصيرة، لا يفهم من آيات الله العجبية العظيمة شيئاً يوصله إلى معرفة خالقه، فهذا أعمى بصيرة لم يقدر على معاينة طريق الحق.

٢ - وإذا كانت بصيرة الإنسان لا ترى في الدنيا عظمة الخالق، ونحن في دار عمل ولا حساب، فكيف يستطيع أن يُبصر ببصيرته يوم القيامة وهو يوم حساب ولا عمل؟

الاستنتاج:

في المناظرة بالاستدلال التفصيلي يستطيع الإمام (ع) أن يُسهب في التفاصيل الدالة على الموضوع محل البحث، ويستطيع أن يربط بين الحقائق القرآنية والحقائق النبوية، خصوصاً في قضية الإمامة التي كانت ولا تزال الشغل الشاغل للناس، ومحل الصراع

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٢.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

بين الحق والباطل.

النظرية الخامسة: أسلوب الأخذ والرد من قبل المناظر نفسه.

وهذا أسلوب آخر في المناظرة، وهو أن يقوم المناظر بطرح الإشكال أو السؤال ويحيب عنه، دون أن ينتظر طرح السؤال من قبل المناظر، وفيه أمران:

الأول: أن يكون المناظر أعلى رتبة في العلم من المناظر.

الثاني: أن معلومات المناظر قطعية وواضحة، فلا يحتاج المنازع إلى مؤونة سؤاله من جديد، وفي ذلك نموذجان:

النموذج الأول: هذا النموذج ذكرناه في مكان آخر، وفيه أن «نافع بن الأزرق جاء إلى الإمام عليه السلام، فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام، فقال له الإمام عليه السلام في عرض كلامه:

«قُلْ لِهَذِهِ الْمَارِقَةِ، بِمَا اسْتَحَلَلْتُمْ فِرَاقَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَقَدْ سَفَكْتُمْ دِمَاءَكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفِي طَاعَتِهِ، وَالْقُرْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِنَصْرَتِهِ؟ فَسَيَقُولُونَ لَكَ: إِنَّهُ حَكَمَ فِي دِينِ اللَّهِ.

فَقُلْ لَهُمْ: قَدْ حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرِيعَةِ نَبِيِّهِ رَجُلَيْنِ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَ جَلَّ اسْمُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١)، وَحَكَمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَحَكَمَ فِيهِمْ بِمَا أَمَضَاهُ اللَّهُ، أَوْ مَا عَلِمْتُمْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِنَّمَا أَمَرَ الْحَكَمِينَ أَنْ يَحْكُمَا بِالْقُرْآنِ وَلَا يَتَعَدِّيَاهُ وَاشْتَرَطَ رَدًّا مَا خَالَفَ الْقُرْآنَ مِنْ أَحْكَامِ الرِّجَالِ؟

وقال حين قالوا له: حكمت على نفسك من حكم عليك، فقال: ما حكمت مخلوقاً

(١) سورة النساء: الآية ٣٥.

فإنها حكمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر الحكم بالقرآن، واشترط ردّ ما خالفه، ولا ارتكابهم في بدعتهم البرهان».

فقال نافع: هذا والله ما طرق بسمعي قط، ولا خطر مني ببال، هو الحق ان شاء الله تعالى^(١).

بيان: شرحنا الحديث في الفصل الرابع - الطرق المعرفية عند الإمام الباقر^(ع)، ونضيف هنا أن الإمام^(ع) كان يبادر في هذه الرواية بالسؤال ويوجب عنه، وتلك ميزة هذا اللون من المناظرات.

النموذج الثاني: الإمام^(ع) يسأل أبا الجارود^(٢) ما يقولون في الحسن والحسين^(ع)؟ فيجيبه بأنهم ينكرون عليهما أنهما ابنا رسول الله^(ص).

قال^(ع): «فبأي شيء احتججتم عليهم؟».

قلت: بقول الله في عيسى^(ع): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ^(٣) فجعل عيسى من ذرية إبراهيم، واحتججنا عليهم بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥١.

(٢) أبو الجارود: زياد المنذر، قال شيخنا صاحب المستدرک في ترجمته في الخاتمة: وأما أبو الجارود فالكلام فيه طويل، والذي يقتضيه النظر بعد التأمل فيها ورد فيها قالوا فيه: أنه كان ثقة في النقل، مقبول الرواية، معتمداً في الحديث، إمامياً في أوله وزيدياً في آخره، ثم أطال الكلام في حاله، إلى أن قال: وفي تقريب ابن حجر: «زياد بن المنذر أبو الجارود الأعمى الكوفي رافضي، كذبه يحيى بن معين من السابعة، مات بعد الخمسين أي بعد المائة» (الكنى والألقاب - القمي: ج ١ / ص ٣١).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٨٤-٨٥.

فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١﴾.

قال عليه السلام: «فأي شيء قالوا؟».

قلت: قالوا قد يكون ولد البنت من الولد ولا يكون من الصلب.

قال عليه السلام: «والله يا أبا الجارود لأعطينكم من كتاب الله آيةً تسميها أنها لصلب رسول الله صلى الله عليه وآله لا يردها إلا كافر».

قلت: جعلتُ فداك وأين؟

قال عليه السلام: «حيث قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ...﴾»^(٢)، فسلهم يا أبا الجارود وهل يحلُّ لرسول الله صلى الله عليه وآله نكاح حليلتيهما؟ فإن قالوا نعم، فكذبوا والله، وإن قالوا لا، فهما والله ابنا رسول الله لصلبه، وما حرمن عليه إلا للصلب»^(٣).

بيان: في هذا النموذج يسأل الإمام الباقر عليه السلام أبا الجارود عن قولهم في الحسن والحسين عليه السلام، باعتبار أنهم ينفون كون الحسن والحسين عليه السلام ابني رسول الله صلى الله عليه وآله، ولذلك كانوا يطلقون على ذرية محمد صلى الله عليه وآله بذرية فاطمة عليها السلام لا ذرية النبي صلى الله عليه وآله، وهنا نقاط:

(١) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٥٢.

١ - إن الاحتجاج عليهم يتم بثلاث:

الاحتجاج الأول: جعل الله عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام، مع أن النسبة ترجع إلى أمه مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١)، وفيه دلالة واضحة على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات وذريتهن أولاداً حقيقةً، ونظير ذلك آية الإرث وآية محرمات النكاح.

الاحتجاج الثاني: آية المباهلة في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٢)، فوصف الحسن والحسين بالأبناء، أي أبناء الرسول صلى الله عليه وآله.

الاحتجاج الثالث: ولكونها أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يحل للنبي صلى الله عليه وآله - لو اختزلنا المسافة الزمنية افتراضاً - نكاح مطلقة الحسن عليه السلام أو الحسين عليه السلام لأنها بمثابة الأبناء للأب، قال تعالى في آية التحريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ...﴾^(٣).

٢ - رفضوا الاحتجاجين الأولين، على لسان أبي الجارود حيث زعموا بأن ولد البنت من الولد لا يكون من الصلب، فقدّم لهم الإمام عليه السلام الاحتجاج الثالث، وهو

(١) سورة الأنعام: الآية ٨٤-٨٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦١.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٣.

تحريم: ﴿وَحَلَّائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ...﴾^(١)، فالحسن والحسين عليهما السلام من صلب رسول الله صلى الله عليه وآله من ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام.

الاستنتاج:

هدف هذا اللون من المناظرات إقامة الحجة أو البرهان بطريقة سريعة، بحيث يقوم بها بطرح الموضوع بنسيجه المتصل سؤالاً وجواباً، دون انتظار الرد، فهو عرض لموضوع قد أشكل القوم عليه، فيقدمه الإمام بها بمقدماته ونتائجه دفعة واحدة.

(٦)

في البرهان والبرهان التحليلي

ونختم بحث هذا الفصل بالعودة إلى البرهان، لنلاحظ بعض التطبيقات المختصرة في مناظرات الإمام بها في البرهان التحليلي غير المباشر.

والبرهان يُعرّف أيضاً بالعلّة الغائية، وهو برهانٌ ينتج العلم أو المعرفة الضرورية الثابتة، وينقسم إلى قسمين: البرهان اللّمي^(٢)، والبرهان الإني^(٣).

عن حمّان بن أعين، قال: قال الإمام الباقر عليه السلام: «الإيمان ما استقرّ في القلب، وأفضى به إلى الله عزّ وجلّ، وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما

(١) سورة النساء: الآية ٢٣.

(٢) البرهان اللّمي: أن يكون الحد الأوسط علّة لثبوت الأكبر للأصغر، مثلاً: (قطعة حديد انخفضت درجة حرارتها، وكل حديد انخفضت درجة حرارتها فهي متقلصة، فهذه الحديدة متقلصة)، فهو يشتمل على السبب، وعلّة الوجود، أو علّة التصديق والوجود معاً، ويفيد علّة حصول النتيجة.

(٣) البرهان الإني: أن يكون الحد الأوسط معلولاً للأكبر في وجوده في الأصغر لا علّة، وهو عكس البرهان اللّمي، أي البرهان الإني يعطي علّة التصديق فقط، مثلاً: (هذه الحديدة متقلصة، وكل حديدة متقلصة درجة حرارتها منجمدة، فهذه الحديدة درجة حرارتها منجمدة).

ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلها، وبه حُقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك من الكفر، وأضيفوا إلى الإيِّمان، والإسلام لا يشرك الإيِّمان، والإيِّمان يشرك الإسلام، وهما في القول والفعل يجتمعان، كما صارت الكعبة في المسجد [الحرام]، والمسجد [الحرام] ليس في الكعبة، وكذلك الإيِّمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيِّمان، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١)، فقول الله عزَّ وجلَّ أصدق القول».

السائل: فهل للمؤمن فضلٌ على المسلم في شيء من الفضائل والأحكام، والحدود، وغير ذلك؟

الإمام عليه السلام: «لا، هما يجريان في ذلك مجرى واحد، ولكن للمؤمن فضلٌ على المسلم في أعمالهما وما يتقربان به إلى الله عزَّ وجلَّ».

السائل: أليس الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾^(٢)، وزعمت أنهم مجتمعون على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج مع المؤمن؟

الإمام عليه السلام: «أليس قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿... فَيُضَاعَفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾^(٣)؟ فالمؤمنون هم الذين يضاعف الله عزَّ وجلَّ لهم حسناتهم، لكل حسنة سبعون ضعفاً، فهذا فضل المؤمن، ويزيده الله في حسناته على قدر صحة إيمانه أضْعَافًا كَثِيرَةً، ويفعل الله بالمؤمنين ما يشاء من الخير».

السائل: أرايت من دخل في الإسلام أليس هو داخلاً في الإيِّمان؟

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

الإمام عليه السلام: «لا، ولكنه قد أضيف إلى الإيمان، وخرج من الكفر، وسأضرب لك مثلاً تعقل به فضل الإيمان على الإسلام، أرأيت لو بصرت رجلاً في المسجد أكنت تشهد أنك رأيت في الكعبة؟».

السائل: لا يجوز لي ذلك.

الإمام عليه السلام: «فلو بصرت رجلاً في الكعبة أكنت شاهداً أنه قد دخل المسجد الحرام؟».

السائل: نعم.

الإمام: «وكيف ذلك؟».

السائل: إنه لا يصل إلى دخول الكعبة حتى يدخل المسجد [الحرام].

الإمام عليه السلام: قد أصبت وأحسنت، كذلك الإيمان والإسلام^(١).

الدلالات: ملخص مناظرة الإمام عليه السلام حول الإسلام والإيمان ندرجها في النقاط التالية:

- ١ - إن الإيمان هو ما استقر في القلب وصدقه العمل بالطاعة.
- ٢ - إن الإسلام هو ما ظهر من قولٍ أو فعلٍ.
- ٣ - الإسلام لا يشرك الإيمان، بمعنى ربما يكون الإنسان مسلماً بقول الشهادتين، لكن لا عمل له بأحكام الإسلام.
- ٤ - الإيمان يشرك الإسلام، بمعنى أن المؤمن لابد أن يكون مسلماً ابتداءً.
- ٥ - المؤمن بعمله أفضل من المسلم (بالاسم ولا عمل له).

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٢٦ - ٢٧.

٦ - يضاعف الله تعالى الحسنات للمؤمن، أما المسلم بلا عمل صالح ولا إيمان فلا حسنات له.

٧ - لو كان الإيمان مثلاً (الكعبة)، والإسلام (المسجد الحرام)، فلا بد في الوصول إلى الكعبة من الدخول إلى المسجد الحرام، هنا لا بد في الإيمان من الدخول في الإسلام أولاً.

وبالنتيجة فإن الإمام عليه السلام يُقدِّم برهاناً يُنتج معرفة حقيقية حول الفرق بين الإسلام والإيمان، أو الفرق بين الشهادة اللفظية المجردة والعمل الصالح من عبادات ومعاملات.

في البرهان التحليلي غير المباشر:

يتميز هذا البرهان المنطقي بمنهج في الاستدلال العقلي لقضية من القضايا، يختلف هذا البرهان عن البرهان المباشر بالشكل التالي: يستدل على صدق القضية المراد البرهنة عليها بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات معينة لها صلة وثيقة بها، بحيث أن إثبات خطئها يثبت صدق القضية، وهو برهانٌ يلزم العقل بالتسليم لنتائج دون إرجاع القضية المرهن عليها إلى أسباب بديهية، وهي على نوعين:

الأول: برهان الخلف، وهو البرهان المؤدي إلى المحال، ويعني إثبات صحة قضية بإبطال نقيضها.

الثاني: البرهان المنفصل يكون المطلوب افتراضاً من بين عدة افتراضات للقضية، ويثبت فيه صدق المطلوب بإثبات كذب باقي الافتراضات.

ويمكن أن نطبق ذلك على نماذج من مناظراته عليه السلام:

النموذج الأول: يسأل أبو حنيفة الإمام الباقر عليه السلام: أراد الله المعاصي؟ فقال عليه السلام: «أفيعصى قهراً؟»، هنا استدلل الإمام عليه السلام بصدق القضية المراد البرهنة عليها وهي: نفي الجبر والتفويض، بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات السائل، وهي أن الله لم يرد المعصية من العبد، فلو كان الأمر مفروضاً على الله تعالى، لكانت المعصية عليه قهراً، وذلك برهان تحليلي غير مباشر من قبل الإمام الباقر عليه السلام.

النموذج الثاني: قال السائل: أخبرني عن الله عز وجل متى كان؟ قال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً»^(١).

هنا استدلل الإمام عليه السلام بصدق القضية المراد البرهنة عليها وهي نفي التجسيم أيضاً، بطريق غير مباشر بإظهار خطأ مقدمات السائل الزاعمة بأن الله حادث بزمان ما، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ويين له أن الله تعالى أزلي أبدي، ليس كمثله شيء، ولا يشاركه شيء، ولا يشابهه شيء، ف«سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً».

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

الفصل السادس

المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام

مباني المدرسة الفقهية، خصائص المدرسة الفقهية.

المدرسة الفقهية وأهل البيت عليهم السلام.

الدقة في المدرسة الفقهية للإمام عليه السلام. النظام المعرفي.

عناصر النظام المعرفي، مصاديق فقه الإمام الباقر عليه السلام.

المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام

بين المدرستين الفكرية والفقهية

يَرِدُ في هذا الفصل مصطلحان هما: المدرسة الفكرية والمدرسة الفقهية، فلا مفرّ من فهم معانيهما وتمييز الفرق بينهما، ذلك أن الفكر ينبغي أن ينتظم ضمن بناء واحد تشيّده مجموعة مفكرين، أو ربما يشيّده شخص واحد له مواصفات الجميع في آنٍ واحدٍ، وإذا شُيِّدت المدرسة الفكرية على أسس سليمة، فإنها ستقاوم المنعطفات، وستكون صخرة قوية تتكسر عليها الأباطيل، وستبقى ثابتة الاصل.

المدرسة الفكرية: يُطلق لفظ «المدرسة الفكرية» عموماً على آراء مجموعة من العلماء أو المفكرين الذين يشتركون في فكرة متضافرة أو فلسفة معينة منسجمة، فيُحسب لهم وكأنهم في صفٍ واحدٍ يطرحون آراءهم المتضافرة وهي تساند بعضها بعضاً، مثلاً هناك مفكرون يرون أن العقل وحده قادرٌ على استنباط الحقيقة من الأفكار النقية! ويعتقدون بأن قانوني العلية والرياضيات قادران لوحدهما على اكتشاف الحقيقة اليقينية، وتلك آراء بعض فلاسفة أوروبا أمثال: ديكارت، وكانت، ولايبنتز الذين يشكلون ما سُمي بالمدرسة الفلسفية المثالية، وهناك مدارس فكرية عديدة كمدرسة الرأي في القرن الأول الهجري التي قالت بجواز التفسير بالرأي «اعتماداً على ما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، وأن يكون عارفاً بقوانين اللغة، خبيراً بأساليبها...»^(١)، ومدرسة الاعتزال التي قالت بأن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بصورة تلقائية، واختلافها في

(١) مناهل العرفان - الزرقاني: ج ٢ / ص ٤٣.

الحكم على مرتكبي الكبائر، ونحوها.

ويمكن أن توصف أفكار شخص واحد بالمدرسة الفكرية، إذا كانت تلك الأفكار غنية، وجديدة، وشاملة، ومحيطه بكل جوانب الموضوع، والإمام الباقر عليه السلام كان يمثل بمفرده مدرسة فكرية متكاملة المنهج والرؤية، ذلك بفضل علمه الغزير الذي منح الأمة فهماً عظيماً في الفقه، والتفسير، والأصول، والعقائد، والأخلاق، فكان مدرسة فكرية قائمة بذاتها.

مع فرق جوهرية وهو أن مدارسهم الفكرية مدارس تحمل الخطأ والصواب، والحق والباطل، والعلم والجهل، ومدرسة الإمام عليه السلام مدرسة الهية مصدرها اليقين، والعلم القطعي، والشمولية، والإحاطة.

وطالما كان الفقه من معالم تلك المدرسة، فقد أطلقنا عليها المدرسة الفقهية للإمام الباقر عليه السلام، وقبل الخوض في أساسها الفقهي، لابد من تعريف المدرسة الفقهية، وإعطاء لمحة عن أسسها ومبادئها.

المدرسة الفقهية :

نطلق على الأوامر والنواهي والمستحبات والمكروهات والمباحات التي وردت في أحاديث الإمام الباقر عليه السلام بالمدرسة الفقهية للإمام عليه السلام، فهي مجموعة متضافرة من الأحكام الشرعية المنسجمة التي لا تتعارض مع بعضها البعض، حيث نقلها الإمام عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة آبائه الطاهرين عليهم السلام.

وبمجمليها تمثل نظاماً فقهياً دقيقاً محكماً، يقينياً في طبيعته، لا يعتره شك مطلقاً، وللمدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام مبانٍ، ونقصد بالمباني الفقهية: البناء الصلب المتين لأحكام الفقه الإسلامي، المبنى في اللغة: اسمٌ جمعه مبانٍ، والبيت المتين مبنًى

بالحجارة الصلبة.

مباني المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام :

لابد في كل مدرسة فقهية من مبانٍ واضحة قوية، فالمدرسة الفقهية كالبيت المحكم الذي يحمي أفرادَه من تقلبات الزمان، ولنقل أن المدرسة الفقهية للإمام عليه السلام كانت البيت العلمي الذي يأوي إليه أتباع أهل البيت عليهم السلام، فيما يتعلق بفقه الأحكام الشرعية، ومن أساسيات تلك المدرسة:

١ - النظام العلمي الفقهي: تحولت - بفضل علم الإمام عليه السلام - الروايات المتناثرة إلى نظام علمي في الفقه له أقسام وأبواب، وتصانيف تجمع المواضيع تحت عناوين محددة كأحكام الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والخمس، والحج، وأصبحت لعلم الفقه اصطلاحات جديدة تتعامل مع قواعد معالجة الشك، وضرورة اليقين في العمل العبادي، وعدم الإشتغال بعد الفراغ من إداء العمل، ونحوها.

وبفضل العطاء العلمي للإمام الباقر عليه السلام أيضاً تحولت وسائل المعرفة الأساسية كالسؤال والجواب، والإنكار والإمضاء، والتوضيح والاستدلال، والمناظرات إلى نظام علمي معرفي له أصول وأسس.

وقبل ذلك كانت دعوة الإمام عليه السلام للناس إلى التفقه في العلم، وفي ذلك روايات: فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «تفقهوا في الحلال والحرام، وإلا فأنتم أعراب»^(١)، و«متفقه في الدين أشد على الشيطان من عبادة ألف عابد»^(٢)، و«الكمال كل الكمال: التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وتقدير المعيشة»^(٣).

(١) المحاسن: ص ٢٢٧.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٧.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٣٢.

ثم حاول الإمام عليه السلام إرساء نظام معرفي ديني له مشخصات واضحة، منها:

أ - إن لكل شيء حداً: قال عليه السلام مخاطباً مجموعة ممن كان يعتقد بالتشبيه ونحوه: «الحمد لله الذي جعل لكل شيء حداً ينتهي إليه، حتى أن لهذا الخوان^(١) حداً ينتهي إليه»، قيل له: ما حده؟ قال عليه السلام: «إذا وُضِعَ ذُكِرَ الله، وإذا رُفِعَ مُجِدَّ الله»، ثم أتى بكوز^(٢)، فلما صار في يده قال عليه السلام: «الحمد لله الذي جعل لكل شيء حداً ينتهي إليه حتى أن لهذا الكوز حداً ينتهي إليه»، فقيل له: وما حده؟ قال عليه السلام: «يُذكَرُ اسم الله عليه إذا شرب، ويحمد الله إذا فرغ، ولا يشرب من عند عروته ولا من كسران كان فيه...»^(٣).

كان عليه السلام يقصد من هذا المثال البسيط الذي ربما يعرفه أبسط الناس وأقلهم حظاً في العلم أنه وكما لكل شيء حداً، فإن لمعرفة الله تعالى حدوداً ومعالم أيضاً، فلا بد أن يلتزم المسلم بالحدود والمعايير التي وضعها الله تعالى لعباده لمعرفة الأشياء والموجودات.

ب - الوصف والفعل: والمراد به الترجمة العملية للتكاليف الشرعية، قال عليه السلام: «ما أكثر الوصف وأقلّ الفعل، إن أهل الفعل قليل، إن أهل الفعل قليل، ألا وإنا لنعرف أهل الفعل والوصف معاً، وما كان هذا منا تعامياً عليكم، بل لنبلو أخباركم، ونكتب آثاركم»^(٤).

وهنا أراد الإمام عليه السلام أن يكون العلم أداة للعمل، لا لمجرد الترف الفكري، وعبر عنه بالوصف والفعل.

٢ - معاني الزمن: ويمثل لها بالفارق بين الشمس والغيمة، فالساعة ترمز إلى دقة

(١) الخوان: ما يوضع عليه الطعام.

(٢) الكوز: إناء بعروة من فخار يُشرب فيه.

(٣) رجال الكشي: ص ١٩١ - ١٩٢

(٤) الكافي: ج ٨ / ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

مرور الوقت أو ضبط سير الزمن، فنحن نعلم أن الشمس إذا غابت واختفت الحمرة المشرقية مثلاً فقد حلت صلاة المغرب، وهذا ثابت لا يتغير في أي زمان وأي مكان، بينما ترمز الغيمة في مثالنا هنا إلى التغير فقط، فقد تمر الغيمة على سائنا اليوم، ولكننا لا ندري هل ستمر غداً أو لا! ولذلك -والله أعلم- كانت الصلاة اليومية مرتبطة بزوال الشمس وغروبها وشروقها، ولا ترتبط بالغيم، والمكلف يريد أن يعرف النظام الفقهي كما يعرف الشمس، واضحة وثابتة المعالم، لا كالغيمة التي لا يُعرَف متى تأتي ومتى تذهب!

ولتوضيح دقة الوقت في الإسلام نعرض الأمثلة التالية:

سأل زرارَةَ الإمام الباقر عليه السلام عن وقت الظهر، فقال عليه السلام: «ذراع من زوال الشمس، ووقت العصر ذراعان من وقت الظهر، فذاك أربعة أقدام من زوال الشمس»، ثم قال: «إنَّ حائط مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله كان قائمًا، وكان إذا مضى منه ذراع صلى الظهر، وإذا مضى منه ذراعان صلى العصر»، ثم قال: «أندري لمْ جُعِل الذراع والذراعان؟» قلت: لمْ جعل ذلك؟ قال: «لمكان النافلة، لك أن تتنفل من زوال الشمس إلى أن يمضي ذراع، فإذا بلغ فيئك ذراعاً بدأت بالفريضة، وتركت النافلة، وإذا بلغ فيئك ذراعين بدأت الفريضة وتركت النافلة»^(١).

وروايات أخرى تنطرق إلى الزمن كشرط من شروط صحة العبادة، منها:

١ - في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾^(٢) يقول ما ينقص من الليل يدخل في النهار، وما ينقص من النهار يدخل في الليل، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ

(١) من لا يحضره الفقيه ج ١ / ص ٢١٧.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٩.

وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١﴾ يقول كل واحدٍ منهما يجري إلى منتهاه لا يقصر عنه ولا يجاوزه»^(٢).

٢ - قال الباقر عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصلي من النهار شيئاً حتى تزول الشمس، فإذا زالت صلى ثمان ركعات وهي صلاة الأوابين تفتح في تلك الساعة أبواب السماء، ويستجاب الدعاء، وتهب الرياح، وينظر الله إلى خلقه، فإذا فاء الفياء ذراعاً صلى الظهر أربعاً، وصلى بعد الظهر ركعتين، ثم صلى ركعتين أخرتين، ثم صلى العصر أربعاً إذا فاء الفياء ذراعاً.

ثم لا يصلي بعد العصر شيئاً حتى تروب الشمس، فإذا آبت وهو أن تغيب صلى المغرب ثلاثاً، وبعد المغرب أربعاً، ثم لا يصلي شيئاً حتى يسقط الشفق، فإذا سقط الشفق صلى العشاء، ثم آوى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فراشه ولم يصل شيئاً حتى يزول نصف الليل.

فإذا زال نصف الليل صلى ثمان ركعات، وأوتر في الربع الأخير من الليل بثلاث ركعات، فقرأ فيهن فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد، ويفصل بين الثلاث بتسليم، ويتكلم ويأمر بالحاجة، ولا يخرج من مصلاه حتى يصلي الثالثة التي يوتر فيها، ويقنت فيها قبل الركوع، ثم يسلم، ويصلي ركعتي الفجر قبيل الفجر، وعنده، وبُعَيْدَهُ، ثم يصلي ركعتي الصبح وهو الفجر، إذا اعترض الفجر وأضاء حسناً، فهذه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قبضه الله عز وجل عليها»^(٣).

٣ - عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما فرض الله من الصلوات؟ قال عليه السلام: «خمس صلوات في الليل والنهار»، قلت: ساهن الله، وسمى في كتابه لنيبه صلى الله عليه وسلم؟ قال عليه السلام:

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٣.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ / ص ١٦٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه ج ١ / ص ٢٢٧.

«نعم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ...﴾^(١)، ودلوكها زوالها، فيما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل أربع صلوات ساهن، وبينهن ووقتهن، و(غسق الليل) انتصافه، وقال تعالى: ﴿...وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢) هذه الخامسة»^(٣).

٤ - في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٤)، يقول ﷺ: «الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر بالليل، ولا يسبق الليل النهار، يقول: لا يذهب الليل حتى يدركه النهار... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»^(٥)^(٦).

نتعلم من تلك الروايات وما على شاكلتها دقة الإسلام في رصد الزمن، ودقته أيضاً في وضوح الأحكام الشرعية، والاطمئنان بحتمية وقوعها.

٣ - علاقات الأحكام الشرعية بعضها ببعض: إن سير الأحكام الشرعية مع بعضها البعض بالتوازي يعطينا الفرصة للاطمئنان إلى عدم حدوث تصادم فيما بينها، فلا يمكن للحكم الشرعي أن يكون واجباً ومحرمًا في نفس الوقت مثلاً، ولا شك أن التضاد في الأحكام ينفي وجودها، فلا تضاد في الأحكام بل توازي، ف (لا صلاة إلا بطهور)^(٧)، وأطهر المطهرات: الماء، ولكن إذا فُقِدَ الماء كان التراب مطهراً، و(العدّة

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٣) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ٣٠٨.

(٤) سورة يس: الآية ٤٠.

(٥) سورة يس: الآية ٤٠.

(٦) تفسير القمي ج ٢ / ص ٢١٤.

(٧) من لا يحضره الفقيه ج ١ / ص ٣٣.

والحيض إلى النساء^(١)، والطلاق وهو إيقاعٌ من طرف واحد، ربما من الرجل إلا أن عدّة الطلاق بيد المرأة لا الرجل.

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢)، يقول الباقر عليه السلام: «يعني الرجل يكره أهله، فإما أن يمسكها فيعطفه الله عليها، وإما أن يخلي سبيلها فيتزوجها غيره، فيرزقها الله الودّ والولد، ففي ذلك قد جعل الله خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾^(٣)، وذلك إذا كان الرجل هو الكاره للمرأة فنهى الله أن يسيء إليها حتى تفتدي منه بقول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾^(٤)، والإفضاء: المباشرة، يقول الله تعالى: ﴿...وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٥)، والميثاق الغليظ الذي اشترطه الله للنساء على الرجال: ﴿...فَأَمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ...﴾^(٦)»^(٧).

فهذه أحكام شرعية مرتبطة بعضها ببعض، ولا تقبل انفكاكاً ولا تفكيكاً، فالمعاشرة الزوجية، وعدم الإساءة للزوجة، والإفضاء، والميثاق الغليظ ونحوها هي أحكام لا تتعارض فيما بينها، بل تدعم بعضها بعضاً لأنها إنما صدرت من مصدرٍ واحدٍ. وهكذا بقية الأحكام الشرعية، فهي ثوابت متعلقة بعضها ببعض، فالوضوء

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٣٩٨.

(٢) سورة النساء: الآية ١٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٢٠.

(٤) سورة النساء: الآية ٢١.

(٥) سورة النساء: الآية ٢١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

(٧) تفسير القمي: ج ١ / ص ١٣٤.

مرتبطاً بالماء، والتميم مرتبطاً بالتراب، والطلاق مرتبطاً بالزوجية، وكذلك النفقة والمهر، وهكذا، وهذا التوازي وعدم التقاطع من أعظم صفات الأوامر والنواهي في الإسلام.

٤ - فكرة الأحكام الشرعية بالوصف والإدراك: طرح الإمام الباقر عليه السلام الأحكام الشرعية بطريقة وصفية واضحة، مرجعاً العلم إلى مصادره الأولية، فهو عليه السلام لم يتوقف عند حد إعطاء الحكم الشرعي فحسب، بل تعدى إلى كشف طريقة الاستدلال عليه أيضاً.

وفي ذلك ما أورده الكليني، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: أن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك ثم قال: (يا زرارة قاله رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل به الكتاب من الله؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾^(١) فعرفنا أن الوجه كله ينبغي أن يُغسل ثم قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ...﴾ ثم فصل بين الكلام، فقال: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ...﴾ فعرفنا حين قال ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: ﴿...وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلها بالرأس أن المسح على بعضها.

ثم فسّر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله للناس فضيعوه، ثم قال: ﴿...فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ...﴾^(٢)، فلما وضع الوضوء، إن لم تجدوا الماء، أثبت بعض الغسل مسحاً لأنه قال: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ ثم وصل بها ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ ثم قال ﴿مِنْهُ﴾ أي من ذلك التيمم؛ لأنه عَلِمَ أن ذلك أجمع لم يجر على الوجه لأنه يعلق من ذلك الصعيد ببعض الكف ولا يعلق ببعضها، ثم قال: ﴿...مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦.

مِنْ حَرَجٍ... ﴿١﴾ وَالْحَرْجُ الضِّيقُ ﴿٢﴾.

٥ - محاربة الشك في العبادة والاعتقاد: والشك إما أن يكون في العبادة أي في طريقة الوضوء أو الصلاة ونحوها، وإما أن يكون في العقيدة، أو أنه أثرٌ من آثار الرأي الشخصي في الإفتاء.

من أهم عوائق الفكر الديني هو الشك في المعتقد أو في الشك أثناء أداء العبادة، ذلك لأن الشك يزعزع الطمأنينة القلبية والعقلية التي أكد عليها الإسلام في أغلب المسائل الفقهية والاعتقادية.

وطالما كان الشك يعمل في المساحة المخصصة لعقل الإنسان، أضحي الدليل العقلي السلاح الفعّال لمحاربتة والتخلص منه، ومن مصاديق محاربة الشك:

أ - الشك أثناء تأدية العبادة: ومنها الشك في طريقة الوضوء، أو الغسل، أو الصلاة ونحوها، وفي ذلك روايات:

الأول: (في الشك مطلقاً) عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إِذَا كُنْتَ قَاعِداً عَلَى وَضُوءٍ، وَلَمْ تَدْرِ أَغَسَلْتَ ذِرَاعَكَ أَمْ لَا، فَأَعِدْ عَلَيْهَا وَعَلَى جَمِيعِ مَا شَكَّكَتَ فِيهِ أَنْكَ لَمْ تَغْسِلْهُ أَوْ تَمْسَحْهُ مِمَّا سَمَى اللَّهُ مَا دَمْتَ فِي حَالِ الْوَضُوءِ.

فإذا قمتَ من الوضوء وفرغتَ فقد صرتَ في حالٍ أُخْرَى، في صلاةٍ أو غير صلاة، فشككتَ في بعض ما سمى الله مما أوجب الله تعالى عليك فيه وضوءاً، فلا شيء عليك.

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) الكافي: ج ٣/ ص ٣٠.

وإن شككت في مسح رأسك وأصبت في لحيتك بلة فامسح بها عليه وعلى ظهر قدميك، وإن لم تصب بلة فلا تنقض الوضوء بالشك، وامض في صلاتك.

وإن تيقنت أنك لم تتم وضوءك فأعد على ما تركت يقيناً حتى تأتي على الوضوء.

قال زرارة قلت له: رجل ترك بعض ذراعه أو بعض جسده في غسل الجنابة؟ فقال: «إذا شكك ثم كانت به بلة وهو في صلاته مسح بها عليه، وإن كان استيقن رجوع وأعاد عليه الماء ما لم يصب بلة، فإن دخله الشك وقد دخل في حال أخرى فليمض في صلاته ولا شيء عليه، وإن استبان رجوع وأعاد الماء عليه، وإن رآه وبه بلة مسح عليه وأعاد الصلاة باستيقان، وإن كان شاكاً فليس عليه في شكه شيء فليمض في صلاته»^(١).

الثاني: (في الشك بعد الفراغ) عن محمد بن الأشعث أخبرنا محمد، حدثني موسى حدثنا عن أبيه عن جده جعفر بن محمد، عن أبيه قال: «من شك في وضوئه بعد فراغه، فلا شك عليه»^(٢).

الثالث: (في اليقين) عن محمد بن يعقوب، عن علي، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً، عن حماد، عن حريز، عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «تابع بين الوضوء كما قال الله عز وجل ابدأ بالوجه ثم باليدين ثم امسح الرأس والرجلين ولا تقدمن شيئاً بين يدي شيء تخالف ما أمرت به، وإن غسلت الذراع قبل الوجه فابدأ بالوجه وأعد على الذراع، وإن مسحت الرجل قبل الرأس فامسح على الرأس قبل الرجل، ثم أعد على الرجل، ابدأ بما بدأ الله به»^(٣).

ب - الخروج من وقت العبادة هو خروج من الشك: فإن الشك وقت أداء العمل

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٣٣.

(٢) الأشعثيات: ص ٢٠.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٣٤.

العبادي له حكم، وللشك بعد انتهاء زمن العمل العبادي له حكمٌ آخر، بمعنى أن الشك حالة زمنية طارئة تحدث على الإنسان وقت أدائه العمل، فعليه أن يعالج مشكلة الشك حينئذٍ، أما إذا شكَّ بعد انتهاء الصلاة مثلاً، فلا قيمة لشكه، وما قاله عليه السلام في الشك بعد خروج الوقت، وفي التأكد من دخول الوقت في أداء العمل العبادي، روايتان:

الأولى: الطوسي بإسناده، عن علي، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن زرارة والفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «متى ما استيقنت أو شككت في وقت صلاة إنك لم تصلها، أو في وقت فوتها صلّيتها، فإن شككت بعدما خرج وقت الفوت فقد دخل حائلٌ، فلا إعادة عليك من شكٍ حتى تستيقن، فإن استيقنت فعليك إعادة أن تصلّيها في أي حال كنت»^(١).

الثانية: الصدوق بإسناده، قال أبو جعفر عليه السلام: «لأن أصلي بعدما يمضي الوقت أحب إليّ من أن أصلي وأنا في شكٍّ من الوقت وقبل الوقت»^(٢).

من تأثيرات الإفتاء بالرأي الشخصي: لو فتشنا عن جذور عدم اليقين في العقائد، أو في الأحكام لرأينا أن الإفتاء بالرأي الشخصي يلعبُ دوراً في ذلك، وطالما كان الإفتاء بالرأي هو إفتاءٌ بعدم يقين، ازدادت نسبة الشك في ذلك الرأي.

وضع الإمام الباقر عليه السلام أسساً موضوعيةً لمعالجة تلك المشكلة، ندرسها في النقاط التالية:

١ - تحريم فكرة الرأي الشخصي في فهم الدين وإفتاء الناس بها، قال الراغب الأصفهاني (ت ٤٥٠هـ): «والرأي: اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن»^(٣)،

(١) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٢٧٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٢٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني: ص ٢٠٩.

وقال ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ): «وحيقيقته ما يراه القلب بعد فِكرٍ وتأمّلٍ، وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأمارات، فلا يُقال في الأمر الذي لا تختلف فيه العقول، ولا تتعارض فيه الأمارات: إنه رأي»^(١).

لكن الإمام الباقر عليه السلام كان قد أدان الإفتاء بالرأي لأنه تحدّ لحكم الله تعالى، فقال: «من أفتى الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضادَّ الله حيث أحلَّ وحرّم فيما لا يعلم»^(٢)، وعندما سُئِلَ عليه السلام: ما حق الله على العباد؟ قال عليه السلام: «أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عند ما لا يعلمون»^(٣)، و«مَنْ أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ولحقه وزرٌّ من عمل بفتياه»^(٤).

ولاشك أن الاطمئنان إلى المصدر الصحيح هو الذي يؤدي بالإنسان إلى القطع واليقين، وبذلك نقول أنهم هم الصادقون الذين نظمنا لقطعية أقوالهم عليهم السلام، وهذا بحد ذاته يجنّبنا الشك في الأحكام والعقائد.

وفي ذلك ما رواه الشيخ الطوسي، عن علي بن إسماعيل الميثمي، عن فضيل الرسان، عن رقة بن مصقلة قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فسألته عن أشياء، فقال: «إني أراك ممن يفتي في مسجد العراق؟» فقلت: نعم، فقال لي: من أنت؟ فقلت ابن عمّ لصعصعة، فقال: «مرحباً بك يا بن عم صعصعة»، فقلت له: ما تقول في المسح على الخفين، فقال: «كان عمر يراه ثلاثاً للمسافر، ويوماً وليلاً للمقيم، وكان أبي لا يراه في سفر ولا حضر»، فلما خرجت من عنده، فقمّت على عتبة الباب فقال لي: «أقبل يا بن

(١) إعلام الموقعين - ابن قيم الجوزية: ج ١ / ص ٦٦.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٥٧.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٢٣، وأمالي الشيخ الصدوق: ص ٢٥٢.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ٤٢.

عم صعصعة»، فأقبلت عليه فقال: «إن القوم كانوا يقولون برأيهم فيخطئون ويصيبون، وكان أبي لا يقول برأيه»^(١).

بيان: الظاهر أن الإمام عليه السلام عرض على السائل آراء القوم في ذلك، إما أنه اتقاه، وإما أنه أراد أن يطرح الجواب على مبنى المقارنة بين الرأي الشخصي الذي يخطئ ويصيب وبين رأي المعصوم عليه السلام الذي هو الرأي الثابت الموثوق به، ثم حاول عليه السلام إفهامه بأن القول بالرأي الشخصي يمكن أن يخطئ ويصيب، وبذلك فلا يمكن الأخذ به في الدين.

٢ - التشديد على فكرة القطع أو اليقين في فهم الدين وما يتبعه من أحكام شرعية وعقائد، وقد تمَّ ذلك عبر:

أ - تأكيد الإمام عليه السلام بأن ما ينقله لهم مرسلًا هو عن أبيه عليه السلام، عن اسلافه عليهم السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا يورث القطع بصحة المتن والإسناد، روي عنه عليه السلام أنه سُئِلَ عن الحديث ترسله ولا تسنده، فقال: «إذا حَدَّثْتُ الحديث فلم أسنده فسندي فيه أبي، عن جدي، عن أبيه، عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل، عن الله عزَّ وجلَّ»^(٢).

ب - تأكيد النبي صلى الله عليه وآله نفسه على دور محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام في بقر العلم، ونشره بين الناس، وقد ذكرنا حديث جابر بن عبد الله الأنصاري في تنبؤ رسول الله صلى الله عليه وآله في الباقر عليه السلام.

ج - تأكيد فكرة الإمامة بمعناها الشرعي التي تقتضي وجود العصمة والتقوى في الإمام عليه السلام، أي إن الإمام عليه السلام لا بد أن يكون معصوماً عن الجهل، وأن يكون أتقى الناس في زمانه، وهذا يورث في حد ذاته الاطمئنان واليقين، وقد ذكرنا في الفصلين الثاني

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٣٦.

(٢) الإرشاد: ص ٢٥٧.

والثالث أمثلة وافية حول الإمامة الشرعية لأهل البيت عليهم السلام.

خصائص المدرسة الفقهية :

إن النظام الفقهي يعبر عن نظامٍ أعظم وهو النظام الكوني، ودقة نظام الوجود، فالله سبحانه وتعالى جعل الحياة مبنية على النظام، والدقة بها فيها الحياة الفقهية والحقوقية.

وما يدعو إليه الإسلام هو دينٌ مبنيٌّ على نظامٍ علميٍّ يطمئن له القلب والعقل، حتى يُعبد الله بعلمٍ ويقينٍ، وخشوعٍ وخضوعٍ، وتلك قضية أساسية، ولذلك كان تركيز الإمام عليه السلام على الإمامة وحث المسلمين على الالتزام بها التزاماً حرفياً دقيقاً؛ لأن بها يحقق الإنسان الهدف من وجوده في الحياة.

ولا يمكن للمدرسة أن تعطي ثمارها ما لم تتسلح بخصائص واضحة تجذب العقل، وتهذب الروح، وتدفع الإنسان إلى العبادة بقلبٍ مطمئنٍ، ومن تلك الخصائص في مدرسة الإمام الباقر عليه السلام الفقهية:

١ - حسن التعليل: وهو أن يسير التعليل على خطٍ متوازٍ مع الفكرة الشرعية، فإذا كان هناك تراحمٌ -مثلاً- بين الاستحباب والوجوب، يُقدّم الوجوب على الاستحباب، وإذا دخلت السنّة في الفريضة، فإن الأصل وهو الوجوب لا يتأثر بالفرع وهو الاستحباب، كما نلاحظ في الأمثلة التالية:

الأول: الصدوق بإسناده: سأل زرارة أبا جعفر عليه السلام عن الرجل يقلّم أظافيره، ويجزّ شاربته، ويأخذ من شعر لحيته ورأسه هل ينقض ذلك الوضوء؟ فقال: «يا زرارة كلّ هذا سنّة والوضوء فريضة، وليس شيء من السنّة ينقض الفريضة، وإنّ ذلك ليزيده تطهيراً»^(١).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٦٣.

الثاني: الطوسي بإسناده عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن حماد بن عثمان، عن عبيد بن زرارة، عن أبيه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن رجل نسي الأذان والإقامة حتى دخل في الصلاة، قال: «فليمض في صلاته فإنما الأذان سنة»^(١).

الثالث: الصدوق بإسناده، روى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام أنه سأله عن جلد الميتة يلبس في الصلاة إذا دُبغ؟ فقال: «لا وإن دُبغ سبعين مرة»^(٢).

فتلك الأمثلة تبين لنا إن هناك قواعد لها علة عقلائية، فالمستحب لا ينقض الواجب، ولا السنة المستحبة تنقض الفريضة، والميتة نجسة لا يطهرها علاج إلا الإستحالة إلى شيء آخر، والدباغة ليست منها، ومع أن الإمام عليه السلام يعطي الحكم الشرعي في هذه الأمثلة، إلا أنه لا يتوقف عن التعليل أو التحليل.

٢ - ميزان الحكم على الأشياء: ونحن نحكم على صحة الأشياء من خلال الاطمئنان إلى دقة مصادرها، والإمام عليه السلام يضع الأحكام أمام الناس بميزانها الشرعي الصحيح، وفي ذلك أمثلة:

الأول: الطوسي بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن عثمان، عن ابن مسكان، عن سليمان بن خالد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الوضوء بعد الغسل بدعة»^(٣)، في هذا المثال يقطع الإمام الباقر عليه السلام بعدم صحة وجوب الوضوء بعد غسل الجنابة، فهو لم ينفِ صحة الحكم فحسب، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك واعتبره عليه السلام بدعة في الدين.

الثاني: الصدوق بإسناده روى عن زرارة ومحمد بن مسلم، أنها قالوا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام ما تقول في الصلاة في السفر: كيف هي؟ وكم هي؟ فقال: «إن الله عز وجل

(١) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٢٨٥

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٤٧.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٤٠.

يقول: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾^(١)، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر، قالوا: إنا قال الله عز وجل ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ولم يقل: افعلوا، فكيف أو جب ذلك كما أو جب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: أو ليس قد قال الله عز وجل في الصفا والمروة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾^(٢)، ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؛ لأن الله عز وجل ذكره في كتابه وصنعه نبيه عليه السلام، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي عليه السلام وذكره الله تعالى في كتابه^(٣).

٣ - فهم المعاني: حيث تشترك المصطلحات الفقهية مع المصطلحات اللغوية في معانٍ معينة، وقد تختلف معها أحياناً أخرى، فالكعب مثلاً نموذج في الاختلاف بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي.

قال الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ): «والكعبان هما العظمان الناتئان في ظهر القدم عند معقد الشراك»^(٤)، وأشار الأصمعي (ت ٢١٦هـ) إلى أن الكعب «عظم مستدير تحت عظم الساق حيث مفصل الساق والقدم»^(٥)، وهو قول الإمامية، بينما المعنى مختلف في اللغة، حيث قال اللغويون: «الكعب هو العظم الناتئ عند ملتقى الساق والقدم، وفي كل قدم كعبان عن يمتتها وعن يسرتها، والعامّة تسمي العقب كعباً»^(٦)، و«أنكر

(١) سورة النساء: الآية ١٠١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٣٤.

(٤) الانتصار - الشريف المرتضى: ص ١١٥.

(٥) مراعاة المفاتيح: ج ٣ / ص ٣٣٥.

(٦) المعجم الوسيط - مادة (كعب)، وتاج العروس: ج ١ / ص ٤٥٦.

الأصمعي قول الناس أن الكعب في ظهر القدم»^(١).

هنا نحتاج في فقه الوضوء إلى فهم حدود الوجه، واليدين، والمرفقين، والكعبين، ومعرفة المفصل، وعظم الساق، وحدود الذراع، كما نلاحظ في المثال التالي:

عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر ابن أذينة، عن زرارة وبكير أنها سألا أبا جعفر عليه السلام عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله فشرح لهما ذلك كما سيأتي، ثم قال: «إن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(٢) فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلا غسله وأمر بغسل اليدين إلى المرفقين، فليس له أن يدع شيئاً من يديه إلى المرفقين إلا غسله لأن الله يقول: ﴿... فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٣) ثم قال: ﴿... وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(٤) فإذا مسح بشيء من رأسه أو بشيء من قدميه ما بين الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأه.

قال: فقلنا أين الكعبان؟ قال: ههنا، يعني المفصل دون عظم الساق، فقلنا: هذا ما هو؟ فقال: هذا من عظم الساق، والكعب أسفل من ذلك»^(٥).

٤ - تقييم مصدر المعلومات الفقهية: لا مفر من الإطمئنان إلى مصدر الحكم أو الفتوى، والإمام الباقر عليه السلام كان في زمانه نهاية العلم في تصحيح ما يُفترى على رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام من أفكار غريبة، وما اختلط على الناس من ناسخ ومنسوخ،

(١) المعجم الوسيط - مادة (كعب).

(٢) سورة المائدة: الآية ٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٦.

(٥) الكافي: ج ٣/ ص ٢٥.

وكان ﷺ يعطي في كل واقعة أو رد تحليلاً وافياً شافياً، وفي ذلك أمثلة:

الأول: عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي، عن أبيه محمد بن خالد البرقي، عن خلف ابن حمّاد، عن عمرو بن جابر قال: قلت لأبي جعفر ﷺ: كيف اختلف أصحاب النبي ﷺ في المسح على الخفين، فقال: «كان الرجل منهم يسمع من النبي ﷺ الحديث فيغيب عن الناسخ ولا يعرفه، فإذا أنكر ما يخالف في يديه كبر عليه تركه، وقد كان الشيء ينزل على رسول الله ﷺ فيعمل به زماناً، ثم يؤمر بغيره فيأمر به أصحابه وأمته، حتى قال أناس: يا رسول الله ﷺ إنك تأمرنا بالشيء حتى إذا اعتدناه وجرينا عليه أمرتنا بغيره، فسكت النبي ﷺ عنهم فأنزل الله عليه: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(١)»^(٢).

الثاني: محمد بن يعقوب، عن الحسين بن محمد، عن معلى، عن الوشاء، عن أبان بن عثمان، عن إسماعيل الجعفي قال: قلت لأبي جعفر ﷺ: أن المغيرة بن سعيد روى عنك أنك قلت له: إن الحائض تقضي الصلاة؟ فقال: «ما له لا وفقه الله، إن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محرراً، والمحرم للمسجد يدخله ثم لا يخرج منه أبداً» ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣) فلما وضعتها أدخلتها المسجد، فساهمت عليها الأنبياء فأصابته القرعة زكرياً، فلم تخرج من المسجد حتى بلغت، فلما بلغت ما تبلغ النساء خرجت، فهل كانت تقدر على أن تقضي تلك الأيام التي خرجت وهي عليها أن تكون الدهر في المسجد؟»^(٤).

(١) سورة الأحقاف: الآية ٩.

(٢) المحاسن: ص ٢٩٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٤) الكافي: ج ٣/ ص ١٠٥.

الثالث: أبو جعفر الطوسي بإسناده عن محمد بن الحسن الصفّار، عن إبراهيم ابن هاشم، عن يعقوب بن شعيب، عن حريز أو عمّن رواه، عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ أهل الكوفة يروون عن علي عليه السلام أنه كان يأمر بالوضوء قبل الغسل من الجنابة، قال عليه السلام: «كذبوا على علي عليه السلام»، قال الله تعالى: ﴿...وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا...﴾^(١) ﴿١﴾ ^(٢).

الرابع: الطوسي بإسناده عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن محمد بن عيسى اليقطيني، عن النضر بن سويد، عن عمرو بن محمد، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: أتاه رجل فقال له: وقعت فأرة في خاوية فيها سمن أو زيت، فما ترى في أكله؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «لا تأكله»، فقال له الرجل: الفأرة أهون عليّ من أن أترك طعامي من أجلها! فقال له أبو جعفر عليه السلام: «إنك لم تستخف بالفأرة، وإنما استخففت بدينك، إنّ الله حرّم الميتة من كل شيء»^(٣).

٥ - عدم الحياء في العلم الديني: تطرح شتى المواضيع العامة والخاصة، تحت عنوان شامل وهو: لا حياء في تعلم المسائل الشرعية، فهو يتحدث عن آداب الخلاء، والنظافة الشخصية، والتطهير من النجاسة، والعلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، ونحوها، ومن ذلك:

الأول: الصدوق بإسناده سأل زرارة بن أعين أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام عما ينقض الوضوء فقالا: «ما خرج من طرفيك الأسفلين الذكر والدبر من غائط، أو بول، أو مني، أو ريح، والنوم حتى يذهب العقل، ولا ينقض الوضوء ما سوى ذلك من

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٣٩.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٣٦٩.

القيء، والقلس^(١)، والرعا^(٢)، والحجامة، والدمامل، والجروح، والقروح، ولا
يوجب الاستنجاء^(٣).

الثاني: أبو جعفر الطوسي أخبرني الشيخ أيده الله تعالى، عن أحمد بن محمد، عن
أبيه، عن الحسين بن الحسين بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن حماد، عن ربعي بن عبد
الله، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «جمع عمر بن الخطاب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقال
ما تقولون في الرجل يأتي أهله فيخالطها ولا ينزل؟ فقالت الأنصار: الماء من الماء، وقال
المهاجرون: إذا التقى الختانان فقد وجب عليه الغسل.

فقال عمر لعلي عليه السلام ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال علي عليه السلام: أتوجبون عليه الحدّ
والرجم ولا توجبون عليه صاعاً من ماء، إذا التقى الختانان فقد وجب عليه الغسل،
فقال عمر: القول ما قال المهاجرون، ودعوا ما قالت الأنصار^(٤).

المدرسة الفقهية وأهل البيت عليهم السلام :

كيف نستطيع أن نفهم الأحكام الفقهية، ونصحح من أداء عباداتنا ومعاملاتنا؟
وكيف نفترض أن الجواب على أسئلتنا يكون صائباً، خصوصاً إذا وردنا الجواب من
أفراد لا نعلم درجة علمهم؟ جاء الجواب من رسول الله صلى الله عليه وآله عندما أوصى برموز علمية
تعرف الله تعالى، وتعلم رسالته، أسأهم بأهل البيت عليهم السلام، فأمرنا بالأخذ منهم عليهم السلام،
لكن أئمة أهل البيت عليهم السلام واجهوا مشاكل كثيرة من قبل الناس، أقلها مشكلة الجهل
بمقامهم، والتزوير لأحاديثهم، والقول بشأنهم من غلو، أو كراهية، أو نصبٍ ونحوها.

(١) القلس: القيء.

(٢) الرعا: الدم يخرج من الأنف.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٦١.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٢٢.

وأهم مشكلة واجهها الإمام الباقر عليه السلام في المجتمع الإسلامي في القرن الثاني الهجري هي مشكلة الجهل العام بالأحكام الفقهية الذي ساد المجتمع بسبب انهماك السلاطين في تثبيت حكمهم، وعدم الإكتراف بتعليم الناس، إلى درجة أن ابن عباس (ت ٦٨هـ) «خطب في آخر شهر رمضان على منبر البصرة، فقال: أخرجوا صدقة صومكم، فكان الناس لا يعلمون معنى صدقة الفطر، فقال: مَنْ هنا مِنْ أهل المدينة؟ قوموا إلى إخوانكم فعلموهم، فإنهم لا يعلمون مِنْ زكاة الفطرة الواجبة شيئاً»^(١).

وكانت الناس قبل زمن الباقر عليه السلام قليلي العلم بمناسك حجهم، وحلالهم، وحرامهم، حتى جاء زمنه عليه السلام فبين لهم مناسك حجهم، وحلالهم، وحرامهم.

أهل البيت عليهم السلام والمسلمون؛

هناك أربعة أسئلة ينبغي الإجابة عليها قبل الدخول في تفاصيل الأحكام الشرعية، وهي: من هم أئمة أهل البيت عليهم السلام؟ ومن نحن الذين أمرنا الله تعالى باتباعهم عليهم السلام؟ وما هي طبيعة التكليف المنوطة بالقادرين على أدائها؟ وما هي طبيعة المكلفين الذين وجب عليهم الأخذ بها؟

يجيب أهل البيت عليهم السلام على الأسئلة الأربعة الأساسية التي تهتم كل مسلم، ومعظم الأجوبة وردت عن الإمام الباقر عليه السلام، كما يلي:

١ - من هم أئمة أهل البيت عليهم السلام؟

يقول الإمام عليه السلام: «... نحن أهل بيت الرحمة، وشجرة النبوة، ومعدن الحكمة، وموضع الملائكة، ومهبط الوحي»^(٢)، و«نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله،

(١) مراعاة المفاتيح: ج ٦ / ص ٢٠٣.

(٢) الإرشاد: ص ٢٨٤.

ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض»^(١)، وقال عليه السلام: «إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله فإنما يعبده هكذا ضلالاً»^(٢)، قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال عليه السلام: «تصديق الله عزّ وجلّ، وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله، وموالاته علي عليه السلام، والإلتزام به، وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة إلى الله عزّ وجلّ من عدوهم، هكذا يُعرف الله عزّ وجلّ»^(٣).

وعندما سُئل الباقر عليه السلام: لأي شيء يُحتاج إلى النبي صلى الله عليه وآله؟ قال عليه السلام: «لبقاء العالم على صلاحه، ذلك أن الله عزّ وجلّ يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾»^(٤)، وقال النبي صلى الله عليه وآله: النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهل بيتي أمانٌ لأهل الأرض، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عزّ وجلّ طاعتهم بطاعته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾»^(٥)، وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون، ولا يعصون، وهم المؤيدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلادهم، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم يُخرج بركات الأرض، وبهم يُمهّل أهل المعاصي، ولا يُعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، لا يفارقهم روح القدس ولا يفارقونه، ولا يفارقون القرآن ولا يفارقهم، صلوات الله عليهم أجمعين»^(٦).

(١) الكافي: ج ١ / ص ١٩٢.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١٨٠.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ١٨٠.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

(٥) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٦) علل الشرائع: ج ١ / ص ٣٣٨.

سُئِلَ ﷺ: جعلتُ فداك إذا مضى عالمكم أهل البيت بأي شيء يُعرف الذي يجيء من بعده؟ قال ﷺ: «بالهداية، والإطراق، وإقرار آل محمد ﷺ بالفضل، ولا يُسأل عن شيء مما بين دفتين إلا أجاب عنه»^(١).

وقال ﷺ: «أيها الناس إن أهل بيت نبيكم شرفهم الله بكرامته، واستحفظهم لسره، واستودعهم علمه، فهم عماد دينه، شهداء علمه، برأهم الله قبل خلقه، وأظلمهم تحت عرشه، واصطفاهم فجعلهم علم عباده، ودلهم على صراطه، فهم الأئمة المهديّة، والقادة البررة، والأمة الوسطى، عصمة لمن لجأ إليهم، ونجاة لمن اعتمد عليهم.

يُغَبِّطُ من والاهم، ويُهَلِّكُ من عاداهم، ويفوز من تمسك بهم، فيهم نزلت الرسالة، وعليهم هبطت الملائكة، وإليهم نفث الروح الأمين، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، فهم الفروع الطيبة، والشجرة المباركة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وهم أهل بيت الرحمة والبركة، والذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(٢).

وبالإجمال، فأئمة أهل البيت ﷺ هم المعصومون الذين لا يذنبون، وأهل العلم الذين إذا سُئِلُوا ما بين الدفتين أجابوا، وهم المتصلون برسول الله ﷺ، ولا يفارقهم القرآن ولا يفارقونه.

٢ - من نحن الذين أمرنا الله تعالى باتباعهم؟

يقول الباقر ﷺ: «بلية الناس علينا عظيمة إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا، وإن تركناهم لم يبتدوا بغيرنا»^(٣)، وعنه ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: ما نظر الله عز وجل إلى وليٍّ

(١) بصائر الدرجات: ص ٤٨٩.

(٢) بشارة المصطفى - عماد الدين الطبري: ص ١٩٨.

(٣) الإرشاد: ص ٢٦٦.

له يجهد نفسه بالطاعة لإمامه والنصيحة إلا كان معنا في الرفيق الأعلى»^(١).

وقال عليه السلام: «إنما شيعة علي صلوات الله عليه، الشاحبون، الناحلون، الذابلون، ذابلة شفاههم من القيام، خميصة بطونهم، مصفرة ألوانهم، متغيرة وجوههم، إذا جنّهم الليل اتخذوا الأرض فراشاً، واستقبلوها بجباههم، باكية عيونهم، كثيرة دموعهم، صلاتهم كثيرة، ودعاؤهم كثير، تلاوتهم كتاب الله، يُفرحون الناس وهم يحزنون»^(٢).

وبالإجمال، فأتباع أهل البيت عليهم السلام هم المؤمنون الصادقون حقاً: الشاحبون، الناحلون، الذابلون من العبادة والخوف من ربهم، الذين لا تلهيهم الدنيا عن التوجه إلى ربهم بعبادته، وتلاوة كتابه المجيد.

٣ - ما هي طبيعة التكليف التي أمروا أن يوصلوها إلينا؟

قال الباقر عليه السلام: «ذروة الأمر، وسنامه ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضا الرحمن تبارك وتعالى: الطاعة للإمام بعد معرفته، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾»^(٣)^(٤).

ولما قضت مجموعة من الشيعة مناسكهم، دخلوا على الإمام الباقر عليه السلام، وقالوا له أوصنا يا بن رسول الله عليه السلام، فقال عليه السلام: «ليعن قويمكم ضعيفكم، وليعطف غنيكم على فقيركم، ولينصح الرجل أخاه النصيحة لنفسه، واكتموا أسرارنا ولا تحملوا الناس على أعناقنا، وانظروا أمرنا وما جاءكم عنا فإن وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به، وإن لم تجدوه موافقاً فردّوه، وإن اشتبه الأمر عليكم فيه فقفوا عنده، وردّوه إلينا حتى نشرح

(١) الكافي: ج ١ ص ٤٠٤.

(٢) صفات الشيعة - الشيخ الصدوق: ص ٥٢.

(٣) سورة النساء: الآية ٨٠.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ١٨٥.

لكم من ذلك ما شَرَحَ لنا»^(١).

ويتساءل الإمام عليه السلام: «يا جابر أيكثفي من اتخذ التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله واطاعه، وما كانوا يُعرفون إلا بالتواضع والتخشع، وأداء الأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبرّ بالوالدين، والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين، والأيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم في الأشياء»^(٢).

قال السائل: يا بن رسول الله ما نعرف أحداً بهذه الصفة! قال عليه السلام: «لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً عليه السلام وأتولاه، فلو قال إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله، ورسول الله خيرٌ من علي عليه السلام ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتقوا الله، واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله وأكرمهم عليه أتقاهم له وأعملهم بطاعته، يا جابر ما يتقرب العبد إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، ما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحدٍ منكم حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، ولا تُنال ولا يتنا إلا بالعمل والورع»^(٣).

وكان عليه السلام يقول لهم: «عظّموا أصحابكم ووقروهم، ولا يتجهم بعضهم بعضاً، ولا تضارّوا، ولا تحاسدوا، وإياكم والبخل كونوا عباد الله المخلصين»^(٤).

إذن فالتكاليف التي أوصلوها إلينا هي التكاليف الشرعية الإسلامية في ذكر الله تعالى، والصلاة، والصوم، والحج، والبرّ بالوالدين، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن

(١) بشارة المصطفى: ص ١٣٧.

(٢) صفات الشيعة: ص ٥٣.

(٣) صفات الشيعة/ ص ٥٣.

(٤) الكافي: ج ٢/ ص ١٧٣.

ونحوها، وأكدوا عليه السلام على أن طاعة الله تعالى هي الأصل في الموضوع، وطاعتهم عليهم السلام هي طاعة لله تعالى؛ لأنهم عليهم السلام يوصلون الإنسان إلى طاعته تعالى بالعلم، والمعرفة، والقدوة الحسنة.

٤ - ما هي طبيعة المكلفين الذين وجب عليهم الأخذ بالتكاليف؟

قال الباقر عليه السلام: «بُني الإسلام على خمس: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم شهر رمضان، والولاية لنا أهل البيت، فجعل في اربع منها رخصة، ولم يجعل في الولاية رخصة، من لم يكن له مال لم يكن عليه الزكاة، ومن لم يكن عنده مال فليس عليه حج، ومن كان مريضاً صلى قاعداً وأفطر شهر رمضان، والولاية صحيحاً كان أو مريضاً أو ذا مال له فهي لازمة واجبة»^(١).

ويسأله سائل: جعلت فداك إن الشيعة عندنا كثير؟ فقال عليه السلام: «فهل يعطف الغني على الفقير؟ وهل يتجاوز المحسن عن المسيء؟ ويتواسون؟»، فقلت: لا، فقال عليه السلام: «ليس هؤلاء شيعة، الشيعة من يفعل هذا»^(٢).

ويسألهم عليهم السلام: «أبيحى أحدكم إلى أخيه، فيدخل يده في كيسه، فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟»، فقلت: ما أعرف ذلك فينا، فقال عليه السلام: «فلا شيء إذن»، فقلت: فالهلاك إذن، فقال عليه السلام: «إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد»^(٣)، و«من حق المؤمن على أخيه المؤمن، أن يشبع جوعته، ويوارى عورته، ويفرّج عنه كربته، ويقضي دينه، فإذا مات خلفه في أهله وولده»^(٤).

(١) الخصال - الصدوق: ص ٢٧٧.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ١٧٣.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ١٧٣.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ١٦٩.

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أنبئكم بالمؤمن؟ من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم، ألا أنبئكم بالمسلم؟ من سلم المسلمون من لسانه ويده، المهاجر من هجر السيئات، وترك ما حرم الله، والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة»^(١).

إذن، فتكليف الفرد بالإيمان بالولاية لا علاقة له بالمال أو بالقدرة الجسدية، بل هو متعلقٌ بالقدرة العقلية، فالعاقل المكلف هو محطة نشاط الإمام عليه السلام من باب إرشاده إلى الدين، وتكليفه بالعبادات، وحثه على الفضائل الأخلاقية في حسن الاجتماع، ومساعدة الناس.

مزايا المدرسة الفقهية للإمام عليه السلام:

أسس الإمام الباقر عليه السلام مدرسة علمية مبنية على أساس القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان الدليل العلمي هو أساس تلك المدرسة، وكان طلبته يستفيدون من ذلك العمق وتلك الشمولية في فهم الدين، ذلك لأن مدرسته عليه السلام كانت مبنية على المعرفة الالهية، وتتميز مدرسة الإمام عليه السلام بميزتين:

الأولى: الشمولية: ونعني بها تكامل المنهج المعرفي، بحيث أن تلميذ الإمام عليه السلام لا يحتاج إلى أن يذهب إلى مصدر آخر ليستقي معلوماته، وفي ذلك أمثلة:

الأول: محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ألا أحكي لكم وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقلنا: بلى، فدعا بقعب^(٢) فيه شيء

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٢٣٥.

(٢) قَعْبٌ: قدْحٌ ضَخْمٌ غَلِيظٌ.

من ماء ثم وضعه بين يديه ثم حسر عن ذراعيه، ثم غمس فيه كفه اليمنى، ثم قال: هكذا إذا كانت الكفّ طاهرة، ثمّ غرف فملاًها ماء فوضعها على جبينه، ثم قال: بسم الله، وسدّله على أطراف لحيته، ثم أمرّ يده على وجهه وظاهر جبينه مرّة واحدة.

ثمّ غمس يده اليسرى فغرف بها ملاًها، ثمّ وضعه على مرفقه اليمنى وأمرّ كفه على ساعده حتى جرى الماء على أطراف أصابعه، ثمّ غرف بيمينه ملاًها فوضعه على مرفقه اليسرى وأمرّ كفه على ساعده، حتى جرى الماء على أطراف أصابعه ومسح مقدّم رأسه وظهر قدميه ببلّة يساره وبقية بلّة يميناه^(١).

الثاني: الصدوق بإسناده، قال أبو جعفر عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يصلي من النهار شيئاً حتى تزول الشمس، فإذا زالت صلّى ثماني ركعات وهي صلاة الأوابين، تفتح في تلك الساعة أبواب السماء، ويستجاب الدعاء، وتهبّ الرياح، وينظر الله إلى خلقه، فإذا فاء الفياء ذراعاً صلّى الظهر أربعاً، وصلّى بعد الظهر ركعتين، ثم صلّى ركعتين أخروين، ثم صلّى العصر أربعاً إذا فاء الفياء ذراعاً.

ثم لا يصلي بعد العصر شيئاً حتى تروب الشمس، فإذا آبت وهو أن تغيب صلّى المغرب ثلاثاً، وبعد المغرب أربعاً، ثم لا يصلي شيئاً حتى يسقط الشفق، فإذا سقط الشفق صلى العشاء.

ثم آوى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى فراشه ولم يصل شيئاً حتى يزول نصف الليل، فإذا زال نصف الليل صلّى ثماني ركعات وأوتر في الربع الأخير من الليل بثلاث ركعات، فقرأ فيهن فاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد، ويفصل بين الثلاث بتسليمة، ويتكلم، ويأمر بالحاجة، ولا يخرج من مصلاه حتى يصلّي الثالثة التي يوتر فيها ويقنت فيها قبل الركوع

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٢٥.

ثم يسلم.

ويصلي ركعتي الفجر قبيل الفجر، وعنده، وبُعَيْده^(١)، ثم يصلي ركعتي الصبح وهو الفجر إذا اعترض الفجر وأضاء حسناً، فهذه صلاة رسول الله ﷺ التي قبضه الله عز وجل عليها^(٢).

الثانية: الهدفية: بمعنى أن هناك هدفاً وتصميماً لهذا النظام العلمي الذي يطرحه الإمام ﷺ، وهو أن يكون العابد عالماً، والعالم عابداً، فأفضل العبادة هي عبادة الله تعالى بسلك معرفة المعبود عز وجل.

عن الباقر ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: لم يُعبد الله عز وجل لشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشّر منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقل كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرّم بطلاب الحوائج قبّله، الذلُّ أحب إليه من العزّ، والفقر أحب إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحداً إلاّ قال هو خيرٌ مني وأتقى.

إنما الناس رجلان: فرجلٌ هو خيرٌ منه وأتقى، وآخر هو شرٌّ منه وأدنى، فإذا رأى من هو خيرٌ منه وأتقى تواضع له ليلحق به، وإذا لقي الذي هو شرٌّ منه وأدنى، قال: عسى خيرٌ هذا باطنٌ وشرّه ظاهر، وعسى أن يختم له بخير، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وساد أهل زمانه^(٣).

وعنه ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: رأس العقل بعد الدين: التودد إلى الناس،

(١) وتلك نافلة الفجر.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٢٧.

(٣) الخصال: ص ٤٣٣.

واصطناع الخير إلى كلِّ برِّ وفاجر»^(١)، و«العالم بين الجهال كالحي بين الأموات، وإن طالب العلم ليستغفر له كل شيء، حتى حيتان البحر، وهوام الأرض، وسباع البرِّ وأنعامه، فاطلبوا العلم فإنه السبب بينكم وبين الله عزَّ وجلَّ، وأن طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم»^(٢).

وعنه عليه السلام: «إذا جلستَ إلى عالمٍ فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الإستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه»^(٣)، و«العالم كمن معه شمعة تُضيء للناس، فكلَّ من أبصر بشمعته دعا بخير، كذلك العالم معه شمعة تزيل ظلمة الجهل والحيرة، فكلَّ من أضاءت له فخرج بها من حيرة أو نجا بها من جهل فهو من عتقائه من النار، والله يعوضه عن ذلك بكل شعيرة لمن أعتقه ما هو أفضل له من الصدقة بمائة ألف قنطار على الوجه الذي أمر الله عزَّ وجلَّ به، بل تلك الصدقة وبألَّ على صاحبها، لكن يعطيه الله ما هو أفضل من مائة ألف ركعة يصلها من بين يدي الكعبة»^(٤).

فالهدفية هنا هو طلب العلم وتحصيله، فتكون العبادة حينئذٍ عبادةً عالمٍ، لها ميزانٌ يختلف عن ميزان عبادة الجاهل، فعبادة العالم كلها خير، ليس فيها نظرٌ إلى ما في أيدي الناس، بل جلَّ نظره إلى رحمة الله تعالى، وليس فيها طمعٌ بل كلها إثارةٌ، وفيها نورُ العلم وهدايته.

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤ / ص ٤٠٠.

(٢) أمالي الشيخ المفيد: ص ٢٥.

(٣) الإختصاص - المفيد: ص ٢٤٥.

(٤) الاحتجاج: ج ١ / ص ٨.

الدقة في المدرسة الفقهية :

هناك دقة متناهية في الأحكام الشرعية، فكلُّ مسألة لها حدٌّ، وتعريفٌ، وحكمٌ وجوبيٌّ، أو إستجابيٌّ، أو نهيٌّ، أو كراهيةٌ، والله سبحانه أنزل الأحكام الشرعية الأخلاقية بمقادير وموازن محسوبة، وفي ذلك نقاط:

أولاً: الأحكام الفقهية ليست كمًّا من المعلومات، بل هي نظامٌ للمعلومات، وأقصد بالنظام أن المعلومات مرتبة ضمن تصنيف يخص عبادات الإنسان، وحاجاته، ومتطلباته في الحياة، ومنه قول الباقر عليه السلام: «وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١)، قال: إذا أدوا فرائض الله، وأخذوا بسنن رسول الله صلى الله عليه وآله تورعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورغبوا فيما عند الله، واكتسبوا الطيب من رزق الله، لا يريدون به التفاخر والتكاثر، ثم انفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فاولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا، ويثابون على ما قدموا لآخرتهم»^(٢).

فهنا ذكر الفرائض (الواجبات)، والسنن (المستحبات)، والورع عن محارم الله تعالى، والرزق الحلال، والإنفاق، وكلها مرتبة ضمن مواضيع مترابطة، ومتعاضدة، ومنسجمة أشدَّ الإنسجام.

ثانياً: الأحكام الفقهية تفسر بعضها بعضاً إذا جُمعت ضمن تركيبة علمية، كذلك التي شرحها الإمام عليه السلام في طلاق السنّة وطلاق العدة مثلاً.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «كلُّ طلاق لا يكون على السنّة أو طلاق على العدة، فليس بشيء»، فقيل له: فسّر لنا طلاق السنّة، وطلاق العدة؟ قال عليه السلام: «أما

(١) سورة يونس: الآية ٦٢.

(٢) تفسير العياشي: ج ٢ / ص ١٢٤.

طلاق السنّة: فإذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، فلينتظر بها حتى تطمئ وتطهر، فإذا خرجت من طمئتها طلقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين على ذلك، ثم يدعها حتى تطمئ طمئتين فتتقضي عدتها بثلاث حيض، وقد بانث منه، ويكون خاطباً من الخطاب، إن شاءت تزوجته، وإن شاءت لم تتزوج، وعليه نفقتها والسكنى ما دامت في عدتها، وهما يتوارثان حتى تنقضي العدة.

وأما طلاق العدة الذي قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾^(١)، فإذا أراد الرجل منكم أن يطلق امرأته طلاق العدة فلينتظر بها حتى تحيض، وتخرج من حيضها، ثم يطلقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين عدلين، ويراجعها من يومه ذاك إن أحب، أو بعد ذلك بأيام، أو قبل أن تحيض، ويُشهد على رجعتها، ويواقعها، ويكون معها حتى تحيض.

فإذا حاضت وخرجت من حيضها طلقها تطليقة أخرى من غير جماع، ويُشهد على ذلك، ثم يراجعها أيضاً متى شاء قبل أن تحيض، ويشهد على رجعتها ويواقعها، وتكون معه إلى أن تحيض الحيضة الثالثة، فإذا خرجت من حيضتها الثالثة طلقها التطليقة الثالثة بغير جماع، ويُشهد على ذلك، فإذا فعل ذلك فقد بانث منه ولا تصل له حتى تنكح زوجاً غيره»^(٢).

فالمدار في الطلاق هنا هو القروء الثلاثة، ونتيجتها طهارة الأرحام من اختلاط الأنساب، وكذلك تسهيل إرجاع الزوجية وقت العدة إذا رغب الزوجان في ذلك، وبذلك نفهم أن الأحكام الشرعية تفسر بعضها بعضاً ضمن إطار الأخلاق، والرحمة بين البشر.

(١) سورة الطلاق: الآية ١.

(٢) الكافي: ج ٦ / ص ٦٥.

ثالثاً: الأحكام الفقهية متوازية وليست متقاطعة، أي إن كل حكم يساند الحكم الآخر ويعاضده، وليس هناك تناقض في أيٍّ منها، مع الأخذ بالاعتبار سعة محيطها وتناولها جوانب عديدة من الحياة، وفي ذلك أمثلة:

الأول: عن زرارة، قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن الرجل ينسى تكبيرة الإفتتاح [في الصلاة]؟ قال: «يُعيد»^(١).

الثاني: أن الصيام هو الإمتناع عن الطعام والشراب وليس الإمتناع عن التزین، عن محمد بن مسلم قال سألت الباقر عليه السلام عن: الصائم يكتحل؟ قال عليه السلام: «لا بأس به، ليس بطعام ولا شراب»^(٢).

الثالث: عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿...وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...﴾^(٣)، قال عليه السلام: «يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان»^(٤).

فأحكام الصلاة والصيام متوازية، أي ليس هناك تقاطع ولا تضاربٌ بينها، فنسيان تكبيرة الصلاة، التي هي مفتاح الدخول في الصلاة، حكمها الإعادة، والصيام هو عن الطعام والشراب، وليس الاكتحال منها، والأصل في الأشياء إتيانها من وجهها، وهكذا بقية الأحكام، فهي تجري مجرى إنسيابياً، تسهلاً على الإنسان من رب العالمين على أدائها بطريقة صحيحة.

رابعاً: أن الأحكام الشرعية مصممة في تركيب منسجم مع الوجود في قضايا الخلق والتكوين، والعلية والسبب والمسبب، وقضايا الحكمة ونحوها، وفي ذلك أمثلة:

(١) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ١٤٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٤ / ص ٢٥٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٤) المحاسن: ص ٢٢٤.

الأول: الصدوق بإسناده روى زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «إذا زالت الشمس دخل الوقتان الظهر والعصر، فإذا غابت الشمس دخل الوقتان المغرب والعشاء الآخرة»^(١).

الثاني: سأل زرارة الإمام عليه السلام عما فرض الله عز وجل من الصلاة، فقال عليه السلام: «خمس صلوات في الليل والنهار... قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ...﴾^(٢)، ودلوكها زوالها، وفيما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل أربع صلوات ساهن الله، وبينهن، ووقتهن، وغسق الليل هو انتصافه.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿... وَفُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ فُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٣)، فهذه الخامسة، وقال الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ...﴾^(٤)، وطرفاه المغرب والغداة، ﴿... وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ...﴾^(٥)، وهي صلاة العشاء الآخرة، وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٦) وهي صلاة الظهر، وهي أول صلاة صلاها رسول الله عليه السلام، وهي وسط النهار، ووسط الصلاتين بالنهار: صلاة الغداة، وصلاة العصر»^(٧).

فأحكام الصلاة وأوقاتها منسجمة مع تركيبة الكون والوجود، ودوران الأرض حول الشمس، وكون اليوم مقسماً إلى زوال ظل الشمس، وغروبها، وشرقها، وفي كل

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢١٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٤) سورة هود: الآية ١١٤.

(٥) سورة هود: الآية ١١٤.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.

(٧) الكافي: ج ٣ / ص ٢٧١.

حالة من تلك الحالات هناك صلاة الله تعالى، فالعبادة مرتبطة بالزمن، وهذا التيسير في العبادات يقع ضمن تصميم الخالق عز وجل للوجود.

خامساً: عدم استخدام المجاز في التعبيرات الفقهية على عكس التعبيرات العقائدية، ذلك لأن الفقه أحكام محددة يتعين على المكلف الأخذ بها، فلا بد له أن يفهمها فهماً واضحاً، ولذلك فإنَّ التعبيرات الفقهية تعابير حقيقية، لا يلعب فيها المجاز دوراً، أي ليس هناك تعابير مشتركة بين الوجوب والحرمة مثلاً.

وفي الرواية أن لفظ القرآن الكريم: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾^(١) تعني الوجوب، فقد روى الصدوق بإسناده عن زرارة، ومحمد بن مسلم أنها قالوا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر؟ كيف هي وكم هي؟ فقال عليه السلام: «إن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾^(٢)، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في الحضر»، قالوا: قلنا إنما قال الله عز وجل: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾^(٣)، ولم يقل: افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟

فقال عليه السلام: «أو ليس قد قال الله عز وجل في الصفا والمروة: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...﴾^(٤)، ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؛ لأن الله عز وجل ذكره في كتابه، وصنعه نبيه عليه السلام، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي عليه السلام، وذكره الله تعالى في كتابه»^(٥).

(١) سورة النساء: الآية ١٠١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠١.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠١.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٣٤.

هنا استخدم القرآن الكريم لفظة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾^(١) بمعنى الوجوب، وهذه اللغة القرآنية تحتم على المكلف أن يفهما على مبنى الحقيقة.

النظام المعرفي الفقهي:

ساهم الإمام الباقر عليه السلام ضمن أئمة أهل البيت عليهم السلام في عرض نظام معرفي فقهي، بحيث تؤخذ فيه المفردات الفقهية على مبنى اليقين والقطع، ولم يكن الأمر سهلاً في ظروف تواجد قوى فكرية وسياسية اجتمعت للتأسيس لمبدأ الشك في الأفكار الثابتة كالتوحيد والإمامة وأحكام العبادات والمعاملات.

كان من السهل في ذلك الزمان افتراء رواية كاذبة عن النبي صلى الله عليه وآله وجعلها أساساً للعمل بين الناس، ونضرب مثلاً في ذلك رواية: «عن قيس بن الربيع، قال: سألت أبا إسحاق عن المسح، فقال: أدركت الناس يمسحون حتى لقيت رجلاً من بني هاشم لم أر مثله قط: محمد بن علي بن الحسين عليه السلام فسألته عن المسح على الخفين، فنهاني عنه، وقال: «لم يكن أمير المؤمنين علي عليه السلام يمسح عليها»، وكان يقول: «سبق الكتاب المسح على الخفين»، قال أبو إسحاق: فما مسحتُ مذ نهاني عنه»^(٢).

وقف الإمام الباقر عليه السلام جداراً صلباً متماسكاً أمام محاولات تزوير الأحاديث، ووضع الروايات الكاذبة على رسول الله صلى الله عليه وآله بما يناسب توجهات السلطان ذلك الزمان، والنتيجة، وإن انتهت مع الأسف إلى أن الكثير من المسلمين أخذوا بما لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وآله حقيقة، إلا أن المؤمنين التزموا بمنهج الإمام عليه السلام في عرض الحديث الصادق عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعد قرون مديدة فتحنا أعيننا لنرى كيف حفظ الإمام الباقر عليه السلام دين محمد صلى الله عليه وآله من غبار الآراء المفتعلة الدخيلة على الدين السماوي.

(١) سورة النساء: الآية ١٠١.

(٢) الإرشاد: ص ٢٨١.

عناصر النظام المعرفي الفقهي:

لو حللنا العناصر التي تكونها المدرسة الفقهية للإمام الباقر عليه السلام لوجدناها تصل إلى خمسة عناصر:

أولاً: الإطار الفقهي: وهي أن المدرسة مبنية أساساً على مصدرين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والأصل فيها طاعة الله تعالى، واتباع أحكامه، وفي ذلك أمثلة:

١ - عن الباقر عليه السلام قال: «إن الله لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبينه لرسوله عليه السلام، جعل لكلّ شيء حداً، وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه»^(١).

٢ - وعنه عليه السلام أيضاً: «قام رسول الله عليه السلام على الصفا، فقال عليه السلام: يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب: إني رسول الله إليكم، وإني شفيقٌ عليكم، وإن لي عملي ولكلّ رجلٍ منكم عمله، لا تقولوا إن محمداً منا وسندخل مدخله، فلا والله ما أوليائي منكم، ولا من غيركم يا بني عبد المطلب إلا المتقون، ألا فلا أعرفكم يوم القيامة تأتون تحملون الدنيا على ظهوركم، ويأتون الناس يحملون الآخرة، إلا إني قد أعدرت إليكم فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله عزّ وجلّ فيكم»^(٢).

٣ - عنه عليه السلام قال: «لما كان يوم فتح مكة قام رسول الله عليه السلام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال عليه السلام: أيها الناس ليلبّغ الشاهد الغائب إن الله تبارك وتعالى قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية، والتفاخر بأبائها وعشائرها، أيها الناس إنكم من آدم، وادم من طين، ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه اليوم أتقاكم وأطوعكم له، ألا وإن العربية ليست بأبٍ والدٍ ولكنها لسانٌ ناطقٌ، فمن طعن بينكم وعلم أنه يبلغه

(١) بصائر الدرجات: ص ٦.

(٢) الكافي: ج ٨ / ص ١٨٢.

رضوان الله حسبه، ألا وإن كل دم أو مظلمة أو إحنة^(١) كانت في الجاهلية فهي مَطل^(٢) تحت قدمي إلى يوم القيامة»^(٣).

٤ - عنه عليه السلام قال: «سارعوا في طلب العلم، فالذي نفسي بيده لحديث واحد في حلال وحرام، تأخذه عن صادقٍ خيرٌ من الدنيا وما حملت من ذهب وفضّة، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٤)»^(٥).

والأصل في الإطار الفقهي أن الأحكام الشرعية إنما جاءت لتطاع من قبل المكلفين، فطاعة الله تعالى في العبادات، والمعاملات، والأخلاق هي العنصر الأساسي في تشريع الأحكام، كما يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٦)، والطاعة لله تعالى تعني التقوى، أي اتقاء معصيته واتقاء عقابه.

ثانياً: الإطار الزمني: يعني أن الأحكام الفقهية في العبادات لها إطار زمني محدد، فالصلاة مثلاً مرتبطة بشروق الشمس وزوالها وغروبها، وهذا لا يتغير مهما تقدم الزمن، ومهما تبدّل المكان، وأشهر الحج مبنية على حساب الأشهر القمرية، وهذا لن يتغير أيضاً، وكذلك الصوم في شهر رمضان، ونحوها، نعم هناك متغيرات في الحياة تقتضي أحكاماً مستمدة من الأصول المتبعة، وقد بحثنا ذلك في عنوان منفصل فيما مضى.

ثالثاً: منظّم المعلومات: ونعني به السيطرة على تفسير المعلومات، وما يبذل الدين

(١) إحنة: حقد وضغن.

(٢) مَطل: تماطل وتسويف بالوفاء بين الناس.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢١ / ص ١٣٨.

(٤) سورة الحشر: الآية ٧.

(٥) المحاسن: ص ٢٢٧.

(٦) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

إلا التفسير الخاطيء للمعلومات الدينية، حيث يحرف المبادئ عن جادتها، ويغيّر مسيرة الناس عن طريقهم المرسوم.

وفي ذلك روايات، منها:

١ - عن أبي بصير، قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام، فقال له سلام: إن خيثمة بن أبي خيثمة حدثنا أنه سألك عن الإسلام، فقلت له: «إن الإسلام من استقبل قبلتنا، وشهد شهادتنا، ونسك نسكنا، ووالى ولينا، وعادى عدونا، فهو مسلم»، قال عليه السلام: «صدق»، وسألك عن الإيـان، فقلت: «الإيـان بالله، والتصديق بكتابه، وأن أحبّ في الله وأبغض في الله»، فقال عليه السلام: «صدق خيثمة»^(١).

٢ - عن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الإيـان؟ فقال عليه السلام: «الإيـان ما كان في القلب، والإسلام ما كان عليه المناكح، والمواريث، وتحقن به الدماء، والإيـان ليشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيـان»^(٢).

٣ - عنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أنبئكم بالمؤمن؟ المؤمن من ائتمنه المؤمنون على أموالهم وأموالهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السيئات، وترك ما حرّمه الله عليه»^(٣).

٤ - عنه عليه السلام قال: «إن أناساً أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ما أسلموا، فقالوا: يا رسول الله أيؤخذ الرجل منا بما عمل في الجاهلية بعد إسلامه؟ فقال عليه السلام: مَنْ حَسَنَ إسلامه، وصحّ يقين إيمانه، لم يأخذه الله بما عمل في الجاهلية، ومن سَخَفَ إسلامه ولم يصحّ يقين إيمانه

(١) المحاسن: ص ٢٨٤.

(٢) المحاسن: ص ٢٨٥.

(٣) المحاسن: ص ٢٨٥.

أخذه الله بالأول والآخر»^(١).

٥ - في رواية تقول: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين عليه السلام على الإمام الباقر عليه السلام يقال له أبو أيمن، فقال: يا أبا جعفر يغرون الناس، ويقولون: شفاعة محمد! فعضب أبو جعفر عليه السلام حتى تربد وجهه، ثم قال: «ويحك يا أبا أيمن أغرك إن عفت بطنك وفرجك، أما لو قد رأيت أفراع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد عليه السلام، ويلك، فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار، ما أحد من الأولين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد عليه السلام يوم القيامة».

ثم قال عليه السلام: «إن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشفاعة في أمته، ولنا الشفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا الشفاعة في أهاليهم»، ثم قال عليه السلام: «وإن المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، فإن المؤمن ليشفع حتى لخادمه، ويقول: يا ربِّ حقَّ خدمتي، كان يقيني الحرَّ والبرد»^(٢).

سلك الإمام الباقر عليه السلام كمنظّم للمعلومات، فهو عليه السلام صدق ما نسب إليه من قبل خيثة، وفرق بين الإيمان والإسلام وشرح ذلك الفرق، وأوضح معنى الشفاعة، وأدان أبا أيمن الذي استخف بفكرة الشفاعة لجهله بها وبأحوال يوم القيامة.

رابعاً: الإنفتاح على العقل: إن من أهم أصول الاجتهاد هو الإنفتاح على العقل، وطالما كان الفقه يمس الحياة اليومية للإنسان فلا بد له من انفتاح على العقل، وملاحظة التغيرات في الحياة، ولا نعني بذلك تدخل العقل في الأحكام الشرعية، بل أن العقل يساعد الإنسان على عبادة ربه بالصورة الواقعية التي أرادها الله تعالى، فالعابد العالم أفضل من العابد الجاهل.

عن الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لم يُعبد الله عزَّ وجلَّ لشيء أفضل من

(١) المحاسن: ص ٢٥٠.

(٢) تفسير القمي: ج ٢ / ص ٢٠٢.

العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخيرُ منه مأمول، والشَّرُّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلُّ كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرّم بطلاب الحوائج قبْلَه، الذُّلُّ أحبُّ إليه من العزِّ، والفقْرُ أحبُّ إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحداً إلا قال هو خيرٌ مني وأتقى»^(١).

ربط هذا النص العقل المؤمن بحسن السلوك، وحسن التحصيل، وجدية البحث عن الحقائق.

خامساً: الإنسان هو محور النظام الفقهي: إن محور النظام الفقهي هو الإنسان المكلف بتكاليف الدين، وكلُّ شيء مخلوقٌ في خدمته وتسهيل حياته، فالإنسان لديه عقلٌ وروحٌ وجسدٌ، والفقهاء يتعامل مع تلك العوامل بصورة متضافرة.

قال الباقر عليه السلام: «إنما المؤمن الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرج منه سخطه من قول الحق، والذي إذا قدر لم يخرج قدرته إلى التعدي إلى ما ليس له بحق»^(٢)، وعنه عليه السلام قال: «سئل النبي صلى الله عليه وآله عن خيار العباد؟ فقال صلى الله عليه وآله: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا، وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا»^(٣)، وعنه عليه السلام قال: «قال النبي صلى الله عليه وآله: أن خياركم أولو النهي، قيل: يا رسول الله ومن أولو النهي؟ قال صلى الله عليه وآله: هم أولو الأخلاق الحسنة والأحلام الرزينة، وصلة الأرحام، والبررة بالأمهات والآباء، والمتعاهدين للفقراء، والجيران، واليتامى،

(١) الخصال: ص ٤٣٣.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٢٣٤.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٢٤٠.

ويطعمون الطعام، ويفشون السلام في العالم، ويصلّون والناس نيام غافلون»^(١).

قال الباقر عليه السلام: «المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يُستقل منه، والمؤمن لا يُستقل من دينه شيء»^(٢)، و«لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان، حتى يكون فيه ثلاث خصال: حتى يكون الموت أحب إليه من الحياة، والفقير أحب إليه من الغنى، والمرض أحب إليه من الصحة»^(٣)، و«أن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال: العزّ في الدنيا في دينه، والفلح في الآخرة، والمهابة في صدور العالمين»^(٤)، ثم قرأ عليه السلام: ﴿... وَاللَّهُ الْعَزِيزُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٥)، وقرأ عليه السلام: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٦).

وقال عليه السلام: «أحبب أخاك المسلم، وأحبب له ما تحب لنفسك وأكره له ما تكرهه لنفسك، إذا احتجت فاسأله، وإذا سألك فاعطه، ولا تدخر عنه خيراً فإنه لا يدخره عنك، كن له ظهراً فإنه لك ظهر، إن غاب فاحفظه في غيبته، وإن شهد فزده وأجلّه وأكرمه فإنه منك وأنت منه، وإن كان عليك عاتباً فلا تفارقه، حتى تسلّ سخيمته»^(٧) وما

(١) الكافي: ج ٢ / ص ٢٤٠.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٢٤١.

(٣) معاني الأخبار: ص ١٨٩.

(٤) الخصال: ص ١٣٨، و ١٥٢.

(٥) سورة المنافقون: الآية ٨.

(٦) سورة المؤمنون: الآية ١ - ١١.

(٧) تسلّ سخيمته: السخيمة معناها الحقد والضغينة، وتسلسل سخيمته تعني تنتزع حقدك وضغينته.

في نفسه، وإذا أصابه خير فاحمد الله عليه، وإن أتبلي فاعضده وتحلّ عقدة له»^(١).

مصاديق فقه الإمام الباقر عليه السلام :

لا يكتمل هذا البحث إلا بعرض مصاديق من فقه الإمام الباقر عليه السلام، فنحن وإن تحدثنا عن طبيعة مدرسته الفقهية، وأصول نظراته الكلية الشاملة نحو التكليف الشرعي للمكلفين القادرين على إنجاز التكليف، إلا أننا لا بد أن نعرض هنا من فقهه عليه السلام بصورة تفصيلية، ولا يُغنيننا المختصر هنا؛ لأن التفصيل في طريقة عرض الأحكام الشرعية يكشف لنا دقة علمه عليه السلام، وعمقه، واتصاله بخاتم الأنبياء محمد عليه السلام، ونستطيع أن نقسم تلك المصاديق إلى ثلاثة أقسام: أولاً: العبادات، ثانياً: المعاملات، ثالثاً: الأحوال الشخصية.

وهنا لا بد من ملاحظات:

١ - نذكر أسانيد الروايات في هذا الفصل، كما وردت في الكتب الحديثية الأربعة (الكافي، والاستبصار، وتهذيب الأحكام، ومن لا يحضره الفقيه) وغيرها، وذلك أن أسلوب الكتابة في الفقه يقتضي إيراد السند والتأكد من صلاحيته: قوة أو وثاقة أو حتى ضعفاً، وتحليل المتن ومدى مطابقتها للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٢ - كلُّ من يكنى باسم أبي جعفر عليه السلام في هذا الفصل وفي جميع ثنايا الكتاب يُقصد به الإمام الباقر عليه السلام.

أولاً: العبادات

العبادات مساحة واسعة من الأحكام الشرعية، وهي تشمل على كل ما يخصّ المكلف القادر على أداء التكليف من عبادة حقيقية لله الواحد القهار، وهي تشمل

(١) روضة الواعظين - الفتال: ص ٣٢٢.

الصلاة وما يسبقها من طهارة المصلي، ومكانه، ولباسه، والصيام، والزكاة، والخمس، والحج، ونحوها.

كتاب الطهارة:

١ - باب أحكام المياه:

١ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن محمد بن الحسين، عن موسى بن عيسى، عن محمد بن سعيد، عن إسماعيل بن مسلم، عن جعفر عن أبيه عليه السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله أتى الماء فأتاه أهل الماء فقالوا: يا رسول الله إن حياضنا هذه تردها السباع والكلاب والبهائم، قال صلى الله عليه وآله: «لها ما أخذت بأفواهاها ولكم سائر ذلك»^(١).

٢ - باب أن الماء يطهر كل شيء:

١ - الحميري، عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: قال جابر ابن عبد الله الأنصاري: «أن دباغة الصوف والشعر غسله بالماء، وأي شيء أظهر من الماء؟»^(٢).

٣ - باب السواك:

١ - الصدوق بإسناده قال أبو جعفر عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يكثر السواك، وليس بواجب، فلا يضرك تركه في فرط الأيام»^(٣).

٢ - الصدوق، أبي رحمه الله قال: حدثنا علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٤١٤.

(٢) قرب الإسناد: ص ٣٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٥٣.

بالسواك مع كل صلاة»^(١).

٤ - باب أنه لا صلاة إلا بطهور:

١ - الصدوق بإسناده قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إذا دخل الوقت وجب الطهور، والصلاة، ولا صلاة إلا بطهور»^(٢).

٥ - باب أحكام الوضوء:

١ - محمد بن يعقوب بإسناده قال زرارة: قال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله وتر يحب الوتر، فقد يجزيك من الوضوء ثلاث غرفات: واحدة للوجه واثنتان للذراعين، وتمسح ببلة يمينك ناصيتك، وما بقي من بلة يمينك ظهر قدمك اليمنى، وتمسح ببلة يسارك ظهر قدمك اليسرى»^(٣).

٢ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أن أناساً يقولون إن بطن الأذنين من الوجه وظهريهما من الرأس؟ فقال: «ليس عليهما غسل ولا مسح»^(٤).

٣ - محمد بن يعقوب، عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن شاذان بن الخليل النيشابوري، عن معمر بن عمر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يجزي المسح على الرأس موضع ثلاث أصابع، وكذلك الرجل»^(٥).

٤ - الصدوق بإسناده قال زرارة بن أعين لأبي جعفر الباقر عليه السلام: أخبرني عن حدِّ

(١) علل الشرائع: ج ١ / ص ٢٧٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٣٣.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٢٥.

(٤) الكافي: ج ٣ / ص ٢٩.

(٥) الكافي: ج ٣ / ص ٢٩.

الوجه الذي ينبغي أن يتوضأ الذي قال الله عزّ وجلّ؟ فقال: «الوجه الذي قال الله وأمر الله عزّ وجلّ بغسله الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه - إن زاد عليه لم يؤجر وإن نقص منه أثم - ما دارت عليه الوسطى والإبهام من قصاص شعر الرأس إلى الذقن وما جرت عليه الأصبعان مستديراً فهو من الوجه وما سوى ذلك فليس من الوجه.

فقال له: الصدغ من الوجه؟ فقال: لا، قال زرارة: قلت له: أرأيت ما أحاط به الشعر؟ فقال: كلّمّا أحاط به من الشعر فليس على العباد أن يطلبوه ولا يبحثوا عنه ولكن يجري عليه الماء، وحدّ غسل اليدين من المرفق إلى أطراف الأصابع، وحدّ مسح الرأس أن تمسح بثلاث أصابع مضمومة من مقدّم الرأس.

وحدّ مسح الرجلين أن تضع كفّيك على أطراف أصابع رجليك وتمدّهما إلى الكعبين، فتبدأ بالرجل اليمنى في المسح قبل اليسرى ويكون ذلك بما بقى في اليدين من النداءة من غير أن تجدد له ماء، ولا تردّ الشعر في غسل اليدين ولا في مسح الرأس والقديمين»^(١).

٥ - الطوسي قال: أخبرني الشيخ أيده الله تعالى قال: أخبرني أحمد بن محمد، عن أبيه، عن أحمد بن إدريس، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن حمّاد، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا وضعت يدك في الماء فقل: بسم الله وبالله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فإذا فرغت فقل: الحمد لله رب العالمين»^(٢).

٦ - الطوسي قال: أخبرني الشيخ أيده الله تعالى قال: أخبرني أحمد بن محمد، عن

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٤.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٧٦.

أبيه، عن أحمد بن إدريس وسعد بن عبد الله، عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي عبد الله، عن حماد، عن محمد بن النعمان، عن غالب بن الهذيل قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿...وَأْمَسُّوْا بِرُّءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾^(١) على الخفض هي أم على النصب؟ قال عليه السلام: «بل هي على الخفض»^(٢).

٧ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن محمد بن علي بن محبوب، عن العباس بن معروف، عن القاسم بن عروة عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليس المضمضة والإستنشاق فريضة ولا سنة، إنما عليك أن تغسل ما ظهر»^(٣).

٦ - باب أحكام الجنابة:

١ - أبو جعفر الطوسي أخبرني الشيخ أيده الله تعالى، عن أحمد بن محمد، عن أبيه، عن الحسين بن الحسين بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن حماد، عن ربعي بن عبد الله، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «جمع عمر بن الخطاب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقال ما تقولون في الرجل يأتي أهله فيخالطها ولا ينزل؟ فقالت الأنصار: الماء من الماء، وقال المهاجرون: إذا التقى الختانان فقد وجب عليه الغسل.

فقال عمر لعلي عليه السلام ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال علي عليه السلام: أتوجبون عليه الحد والرجم ولا توجبون عليه صاعاً من ماء، إذا التقى الختانان فقد وجب عليه الغسل، فقال عمر: القول ما قال المهاجرون، ودعوا ما قالت الأنصار»^(٤).

٢ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن فضالة، عن العلا، عن محمد بن مسلم، قال

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٧٠.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٧٨.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٢٢.

سألت أبا جعفر عليه السلام عن الجنب به الجرح، فيتخوف الماء إن أصابه، قال عليه السلام: «فلا يغسله إن يخشى على نفسه»^(١).

٧ - باب الحيض والنفاس:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا كانت المرأة طامثاً فلا تحلُّ لها الصلاة وعليها أن تتوضأ وضوء الصلاة عند وقت كل صلاة، ثم تقعد في موضع طاهر وتذكر الله عزَّ وجلَّ وتسبحه وتحمده وتهلله كمقدار صلاتها، ثم تفرغ لحاجتها»^(٢).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قضاء الحائض الصلاة ثم تقضي الصوم، قال: «ليس عليها أن تقضي الصلاة، وعليها أن تقضي صوم شهر رمضان»، ثم أقبل عليّ، وقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بذلك فاطمة عليها السلام وكانت تأمر بذلك المؤمنات»^(٣).

٣ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن أحمد بن الحسن، عن أبيه وعلاء بن زرین، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام في المرأة تطهر في أول النهار في رمضان أتفطر أم أو تصوم؟ قال: «تفطر»، وفي المرأة ترى الدم في أول النهار في شهر رمضان أتفطر أم تصوم؟ قال عليه السلام: «تفطر، إنها فطرها من الدم»^(٤).

٤ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن علي بن الحسن بن فضال، عن محمد بن إسماعيل،

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٣٦٣.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ١٠١.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ١٠٤.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٥٣.

عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا حاضت المرأة وهي جنب أجزأها غسل واحد»^(١).

٥ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن جميل ابن درّاج، عن زرارة قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «العدّة والحيض إلى النساء»^(٢).

٦ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن عمرو بن عثمان عن الحسن بن محبوب، عن علي ابن رئاب، عن مالك بن أعين قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن المستحاضة كيف يغشاها زوجها؟ قال عليه السلام: «ينظر الأيام التي كانت تحيض فيها، وحيضتها مستقيمة، فلا يقرها في عدّة تلك الأيام من ذلك الشهر، ويغشيها فيما سوى ذلك من الأيام، ولا يغشاها حتى يأمرها فتغتسل ثمّ يغشاها إن أراد»^(٣).

٨ - باب البدن والثوب تصيبه النجاسة:

١ - أبو جعفر الطوسي أخبرني الشيخ أيده الله تعالى، عن أحمد بن محمد، عن أبيه محمد بن يحيى والحسين بن عبيد الله، عن أحمد بن محمد بن يحيى، عن أبيه محمد بن يحيى، عن محمد بن علي بن محبوب، عن الحسين بن الحسن، عن جعفر بن بشير، عن إسماعيل الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «في الدم يكون في الثوب إن كان أقل من قدر درهم فلا يعيد الصلاة، وإن كان أكثر من قدر الدرهم وكان رآه فلم يغسله حتى صلى فليعد صلاته، وإن لم يكن رآه حتى صلى فلا يعيد الصلاة»^(٤).

٢ - أبو جعفر الطوسي أخبرني الشيخ أيده الله تعالى، عن أحمد بن محمد، عن أبيه،

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٣٩٥.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٣٩٨.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٤٠٢.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٢٥٥.

عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن عثمان بن عبد الملك، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا أبا بكر ما أشرقت عليه الشمس فقد طُهر»^(١).

٩ - باب التيمم:

١ - الطوسي بإسناده، عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن عروة، عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في التيمم قال: «اضرب بكفيك الأرض ثم تنفضها وتمسح وجهك ويديك»^(٢).

٢ - الطوسي بإسناده، عن الحسين بن سعيد، عن حماد، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: كيف التيمم؟ قال: «هو ضربٌ واحدٌ للوضوء والغسل من الجنابة، تضرب بيدك مرتين، ثم تنفضها نفضة للوجه ومرة لليدين، ومتى أصبت الماء فعليك الغسل إن كنت جنباً، والوضوء إن لم تكن جنباً»^(٣).

٣ - الطوسي أخبرني الشيخ رحمه الله، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن حماد، عن حريز، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام يصلي الرجل بتيمم واحد صلاة الليل والنهار كلها فقال: «نعم ما لم يحدث أو يصيب الماء»^(٤).

١٠ - باب الأغسال:

١ - محمد بن الأشعث أخبرنا موسى، حدثنا أبي، عن أبيه، عن جدّه جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: «حدثنا جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا

(١) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٢٧٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ٢١٢.

(٣) تهذيب الأحكام / ج ١ / ص ٢١٠.

(٤) الاستبصار - الشيخ الطوسي: ج ١ / ص ١٦٣.

اغتسل من الجنابة يغرف على رأسه ثلاث مرات»^(١).

٢ - أبو جعفر الطوسي أخبرني الشيخ أيده الله تعالى، عن أحمد بن محمد، عن أبيه، عن الحسين بن الحسن بن أبان، عن الحسين بن سعيد بن القاسم بن عروة، عن عبد الحميد، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الغسل من الجنابة، وغسل الجمعة، والعيدين، ويوم عرفة، وثلاث ليال في شهر رمضان، وحين تدخل الحرم، وإذا أردت دخول مسجد الرسول صلى الله عليه وآله، ومن غسل الميت»^(٢).

٣ - الطوسي بإسناده، عن الحسين بن سعيد، عن حمادة، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوضأ بمُدّ ويغتسل بصاع، والمُدّ رطل ونصف، والصاع ستة أرطال»^(٣).

٤ - الطوسي أخبرني الشيخ أيده الله تعالى عن أحمد بن محمد، عن أبيه، عن سعد ابن عبد الله، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن علي بن فضال، عن عبد الله بن بكير والحسين بن سعيد، عن صفوان بن يحيى ومحمد بن خالد الأشعري، عن الحسن بن علي بن فضال، عن عبد الله بن بكير، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن غسل الجنابة فقال: «أفض على رأسك ثلاث أكفّ، وعن يمينك وعن يسارك، إنها يكفيك مثل الدهن»^(٤).

(١) الأشعثيات: ص ٢٢.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٠٥.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٣٦.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ١ / ص ١٣٧.

كتاب الصلاة:

١ - باب فضل المساجد وأحكامها:

١ - الصدوق قال أبو جعفر عليه السلام: «من بنى مسجداً كمحفص قطة^(١) بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢).

٢ - الصدوق قال أبو جعفر عليه السلام: «إذا أخرج أحدكم الحصاة من المسجد فليردّها في مكانها أو في مسجد آخر فإنها تسبّح»^(٣).

بيان: وكانوا يصلّون على الحصو والحصباء في المساجد حتى فرّش عبد الملك ابن مروان المسجد الأموي في الشام بالفرش والسجاد، فكانت مخالفةً للسنة النبوية، وانتشرت بين المسلمين لحد اليوم.

٣ - الصدوق عن أبي رحمه الله قال: حدثني علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال محمد بن علي الباقر عليه السلام: «صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في غيره من المساجد»^(٤).

٤ - الطوسي بإسناده، عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن إبراهيم بن هاشم، عن النوفلي، عن السكوني، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من كان القرآن حديثه، والمسجد بيته، بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٥).

٥ - الطوسي بإسناده، عن محمد بن أبي الصهبان، عن محمد بن سنان، عن العلاء

(١) محفص قطة: قطة واحدة قطا، وهو طائر من أنواع الياهم، ومحفص قطة عش ذلك الطائر.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٣٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٣٧.

(٤) ثواب الأعمال: ص ٤٩.

(٥) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٢٥٥.

ابن فضيل، عن رواه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا دخلت المسجد، وأنت تريد أن تجلس فلا تدخله إلا طاهراً، وإذا دخلت فاستقبل القبلة، ثم ادعُ الله واسأله، وسمّ حين تدخله واحمد الله وصلّ على النبي صلى الله عليه وآله»^(١).

٢ - باب فرض الصلاة وفضلها:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن الحسن، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله إليه - أو قال أقبل الله عليه - حتى ينصرف، وأظلته الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء، والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء، ووكل الله به ملكاً قائماً على رأسه، يقول له: أيها المصلي لو تعلم من ينظر إليك، ومن تناجي ما التفتت ولا زلت من موضعك أبداً»^(٢).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد ومحمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا ما أدى الرجل صلاة واحدة تامة، قبلت جميع صلاته وإن كن غير تامات، وإن أفسدها كلها لم يقبل منه شيء منها، ولم يحسب له نافلة ولا فريضة، وإنما تقبل النافلة بعد قبول الفريضة، وإذا لم يؤدّ الرجل الفريضة لم يقبل منه النافلة، وإنما جعلت النافلة لئتم بها ما أفسد من الفريضة»^(٣).

٣ - المجلسي عن كتاب الإمامة والتبصرة: عن الحسن بن حمزة العلوي، عن علي بن محمد بن أبي القاسم، عن أبيه، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة،

(١) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٢٦٣.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ٢٦٥.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٢٦٩.

عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة خيرٌ موضوع، فمن شاء استقلَّ ومن شاء استكثر»^(١).

٣ - باب آداب المصلي:

١ - الصدوق، حدثنا محمد بن علي ما جيلويه، قال: حدثنا علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «عليك بالإقبال على صلواتك فإنما يحسب لكل منها ما أقبلت عليه منها بقلبك، ولا تعبت فيها بيدك، ولا برأسك، ولا بلحيتك، ولا تحدث نفسك، ولا تتأب ولا تتمطّ ولا تكفر فإنما يفعل ذلك المجوس، ولا تقولنّ إذا فرغت من قراءتك آمين، فإن شئت قلت: الحمد لله رب العالمين».

وقال: «لا تلثم ولا تحتفي»^(٢)، ولا تقع على قدميك ولا تفتش ذراعيك، ولا تفرع أصابعك، فإن ذلك كله نقصان في الصلاة»، وقال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً، ولا متناعساً، ولا متثاقلاً، فإنها من خلال النفاق»^(٣).

وقد نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم، وقال للمنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤)»^(٥).

٢ - الطوسي بإسناده عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن

(١) بحار الأنوار: ج ٨٢ / ص ٣٠٨.

(٢) لا تلثم ولا تحتفي: أي لا تشد على فمك نقاباً ولا على وجهك.

(٣) من خلال النفاق: أي من صفات النفاق.

(٤) سورة النساء: الآية ١٤٢.

(٥) علل الشرائع: ج ٢ / ص ٤٧.

حمّاد بن عيسى ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، ومحمد بن يحيى، عن أحمد ابن محمد، جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا قمتَ في الصلاة فلا تلتصق قدمك بالأخرى، ودع بينها فصلاً أصبعاً أقل ذلك إلى شبرٍ أكثره، وأسدل منكبيك، وأرسل يديك ولا تشبك أصابعك، ولتكونا على فخذيك قبالة ركبتك، وليكن نظرك إلى موضع سجودك.

فإذا ركعتَ فصفّ في ركوعك بين قدميك، تجعل بينها قدر شبر، وتمكّن راحتك من ركبتك، وتضع يدك اليمنى على ركبتك اليمنى قبل اليسرى، وبلغْ بأطراف أصابعك عين الركبة، وفرّج أصابعك إذا وضعتها على ركبتك.

فإن وصلت أطراف أصابعك في ركوعك إلى ركبتك أجزاءً ذلك، وأحبّ إليّ أن تمكّن كفيك من ركبتك فتجعل أصابعك في عين الركبة وتفرج بينها، وأقم صلبك، ومدّ عنقك، وليكن نظرك إلى ما بين قدميك.

فإذا أردت أن تسجد فارفع يديك بالتكبير، وخرّ ساجداً، وابدأ بيديك فضعهما على الأرض قبل ركبتك تضمهما معاً، ولا تفرش ذراعيك افتراش السبع ذراعيه، ولا تضعن ذراعيك على ركبتك وفخذيك، ولكن تجنب بمرفقيك، ولا تلتزق كفيك بركبتك، ولا تدنهما من وجهك، بين ذلك حيال منكبيك، ولا تجعلهما بين يدي ركبتك ولكن تحرفهما عن ذلك شيئاً، وابسطهما على الأرض بسطاً، واقبضهما إليك قبضاً وإن كان تحتهما ثوب، فلا يضرك، وإن أفضيت بهما إلى الأرض، فهو أفضل، ولا تفرجهن بين أصابعك في سجودك ولكن اضممهن جميعاً.

فإذا قعدت في تشهدك، فألصق ركبتك بالأرض وفرّج بينها شيئاً، وليكن ظاهر قدمك اليسرى على الأرض، وظاهر قدمك اليمنى على باطن قدمك اليسرى، وأليّتاك

على الأرض، وطرف إبهامك اليمنى على الأرض، وإياك والقعود على قدميك فتتأذى بذلك، ولا تكون قاعداً على الأرض فتكون إنما قعد بعضك على بعض فلا تصبر للتشهد والدعاء»^(١).

٤ - باب الأذان والإقامة:

١ - محمد بن يعقوب، عن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا زرارة تفتح الأذان بأربع تكبيرات وتختمه بتكبيرتين وتهليلتين»^(٢).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إذا أذنت فافصح الألف والهاء، وصلّ على النبي كلما ذكرته، أو ذكره ذاكر في أذان وغيره»^(٣).

٣ - الطوسي بإسناده روى الحسين بن سعيد، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن رهطٍ منهم: الفضيل وزرارة، عن أبي جعفر عليه السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين، وجمع بين المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين»^(٤).

٥ - باب لباس المصلي:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن ابن رثاب، عن زياد بن سوقة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا بأس أن يصلي أحدكم في

(١) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٨٣.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٣٠٣.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٣٠٣.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ١٨.

الثوب الواحد وإزاره محللة، إن دين محمد ﷺ حنيف»^(١).

٢ - الصدوق بإسناده قال محمد بن مسلم لأبي جعفر عليه السلام: الدم يكون في الثوب عليّ وأنا في الصلاة؟ فقال: «إن رأيتك وعليك ثوب غيره فاطرحه، وصلّ في غيره، وإن لم يكن عليك ثوب غيره فأمض في صلاتك ولا إعادة عليك ما لم يزد على مقدار درهم، فإن كان أقل من درهم فليس بشيء رأيتك أو لم تره، إذا كنت قد رأيتك وهو أكثر من مقدار الدرهم فضيّعت غسله وصليت فيه صلوات كثيرة فأعد ما صليت فيه، وليس ذلك بمنزلة المنى والبول».

ثم قال عليه السلام: «إن رأيت المنى قبل أو بعد فعليك الإعادة»^(٢)، وإن نظرت في ثوبك فلم تصبه فصلّيت فيه، فلا إعادة عليك، وكذا البول»^(٣).

٦ - باب مواقيت الصلاة:

١ - محمد بن يعقوب، عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن الحسن بن علان، عن حماد بن عيسى وصفوان بن يحيى، عن ربعي بن عبد الله، عن فضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ من الأشياء: أشياء موسعة وأشياء مضيّقة، فالصلاة مما وسّع فيه تُقدّم مرة وتؤخر أخرى، والجمعة مما ضيّق فيها، فإن وقتها يوم الجمعة ساعة تزول [الشمس]، ووقت العصر فيها وقت الظهر في غيرها»^(٤).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر ابن أذينة، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أصلحك الله وقت كل صلاة أول

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٣٩٥.

(٢) أي إعادة الصلاة.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٤٩.

(٤) الكافي: ج ٣ / ص ٢٧٤.

الوقت أفضل أو أوسطه أو آخره؟ فقال: «أوله إن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يحب من الخير ما يعجل»^(١).

٣ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن حماد، عن حريز، عن زرارة، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «إعلم أن أول الوقت أبداً أفضل، فعجل بالخير ما استطعت، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل ما داوم العبد عليه وإن قل»^(٢).

٧ - باب القبلة:

١ - الحميري بإسناده عن أبي البخترى، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس سبعة عشر شهراً ثم صُرف إلى الكعبة، وهو في صلاة العصر»^(٣).

٢ - الصدوق بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ثم استقبل بوجهك ولا تقلّب بوجهك عن القبلة فتفسد صلاتك، فإن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ في الفريضة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾^(٤)، فقم منتصباً، فإن رسول الله ﷺ قال: من لم يقم صليبه فلا صلاة له، واخشع ببصرك لله عز وجل ولا ترفعه إلى السماء، وليكن حذاء وجهك في موضع سجودك»^(٥).

٣ - الصدوق بإسناده، قال عليه السلام لزrارة: «لا تعاد الصلاة إلا من خمسة: الطهور،

(١) الكافي: ج ٣/ ص ٢٧٣.

(٢) الكافي: ج ١/ ص ٢٧٤.

(٣) قرب الإسناد: ص ٦٩.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٤٩.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ج ١/ ص ٢٧٨.

والوقت، والقبلة، والركوع، والسجود»^(١).

٤ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن أحمد، عن الحسين، عن فضالة، عن أبان، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا صلّيت على غير القبلة، فاستبان لك قبل أن تصبح أنك صلّيت على غير القبلة فأعد صلاتك»^(٢).

٨ - باب التكبير في الصلاة:

١ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد، عن علي ابن حديد، وعبد الرحمن بن أبي نجران، والحسين بن سعيد، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز بن عبد الله، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يجزيك في الصلاة من الكلام في التوجه إلى الله أن تقول: وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، ويجزيك تكبيرة واحدة»^(٣).

٩ - باب القراءة في الصلاة:

١ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن محمد بن عيسى، عن يوسف بن عقيل، عن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا صلّى يقرأ في الأولتين من صلاة الظهر سرّاً ويسبّح في الأخيرتين من صلاة الظهر على نحو من صلاة العشاء، وكان يقرأ في الأولتين من صلاة العصر سرّاً ويسبّح في الأخيرتين على نحوه من صلاة العشاء...»^(٤).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٢٧٩.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٤٨.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٦٧.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٩٧.

٢ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن يعقوب، عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما يجزي من قول في الركعتين الأخيرتين؟ قال: «أن تقولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتكبر وتركع»^(١).

٣ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن الذي لا يقرأ بفاتحة الكتاب في صلاته؟ قال: «لا صلاة له، إلا أن يقرأ بها في جهر أو إخفات»^(٢).

١٠ - باب الجهر والإخفات:

١ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن حريز، عن أبي جعفر عليه السلام، في رجل جهر فيما لا ينبغي الإجهار فيه، أو أخفى فيما لا ينبغي الإخفاء فيه؟ فقال: «أي ذلك فعل متمملاً فقد نقص صلاته وعليه الإعادة، وإن فعل ذلك ناسياً أو ساهياً أو لا يدري فلا شيء عليه، وقد تمت صلاته»^(٣).

١١ - باب الركوع والسجود:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن حماد ابن عيسى، عن حريز، عن زرارة وعلي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا أردت أن تركع، فقل وأنت منتصب: الله أكبر، ثم اركع وقل: اللهم لك ركعتُ ولك أسلمتُ وبك آمنتُ وعليك توكلت، وأنت ربي خشع لك قلبي وسمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي ونخي وعظامي

(١) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٩٨.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٣٥٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ١٦٢.

وعصبي وما أفلته قدماي غير مستنكفٍ ولا مستكبرٍ ولا مستحسرٍ، سبحان ربي العظيم وبحمده، ثلاث مرّات في ترتيل.

وتصفّ في ركوعك بين قدميك، تجعل بينهما قدر شبر وتمكّن راحتيك من ركبتيك وتضع يدك اليمنى على ركبتك اليمنى قبل اليسرى وبلّغ بأطراف أصابعك عن الركبة وفرّج أصابعك إذا وضعتها على ركبتيك، وأقم صلبك ومدّ عنقك وليكن نظرك بين قدميك، ثم قل: سمع الله لمن حمده، وأنت منتصبٌ قائمٌ: الحمد لله رب العالمين أهل الجبروت والكبرياء والعظمة لله رب العالمين، تجهر بها صوتك، ثم ترفع يديك بالتكبير وتخرّ ساجداً^(١).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، جميعاً عن حماد بن عيسى، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: أسجد على الزفت؟ يعني القير، فقال: «لا، ولا على الثوب الكرسف^(٢) ولا على الصوف، ولا على شيء من الحيوان، ولا على طعام ولا شيء من ثمار الأرض ولا على شيء من الرياش^(٣)»^(٤).

٣ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الجبهة كلها من قصاص شعر الرأس، إلى الحاجبين موضع السجود فأبياً سقط من ذلك إلى الأرض أجزأك مقدار الدرهم ومقدار طرف الأنملة»^(٥).

(١) الكافي: ج ٣/ ص ٣١٩.

(٢) الكرسف: القطن.

(٣) الرياش: اللباس الفاخر، أو الأثاث.

(٤) الكافي: ج ٣/ ص ٣٣٠.

(٥) الكافي: ج ٣/ ص ٣٣٣.

٤ - الطوسي بإسناده، عن محمد بن علي بن محبوب، عن أحمد بن محمد، عن ابن أبي نجران، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أعظم الجبهة واليدين، والركبتين والإبهامين وترغم بأنفك إرغاماً، فأما الفرض فهذه السبعة، وأما الإرغام بالأنف فسنة من النبي صلى الله عليه وآله»^(١).

١٢ - باب القنوت:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «القنوت في كل صلاة في الركعة الثانية قبل الركوع»^(٢).

٢ - الصدوق بإسناده روى عن زرارة أنه قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «القنوت كله جهار»^(٣).

٣ - روى المجلسي عن جامع البزنطي، نقلاً من خط بعض الأفاضل، عن جميل، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تقول في القنوت: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني إنك على كل شيء قدير»^(٤).

١٣ - باب التشهد:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحجاج، عن ثعلبة بن ميمون، عن يحيى بن طلحة، عن سورة بن كليب، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن أدنى ما يجزئ من التشهد، فقال: «الشهادتان»^(٥).

(١) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٢٩٩.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٣٤٠.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٣١٨.

(٤) بحار الأنوار: ج ٨٥ / ص ٢٠٣.

(٥) الكافي: ج ٣ / ص ٣٣٧.

١٤ - باب صلاة الجمعة:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة قال: قال أبو جعفر: «لا تدع الغسل يوم الجمعة فإنه سنة، وشمّ الطيب، والبس صالح ثيابك، وليكن فراغك من الغسل قبل الزوال، فإذا زالت فقم وعليك السكينة والوقار»^(١).

٢ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن حماد بن عيسى، عن الحسين بن المختار، عن أبي بصير، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما طلعت الشمس بيومٍ أفضل من يوم الجمعة»^(٢).

٣ - محمد بن يعقوب، عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن زرارة قال: كان أبو جعفر عليه السلام يقول: «لا تكون الخطبة والجمعة وصلاة ركعتين على أقل من خمسة رهط، الإمام وأربعة»^(٣).

٤ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن إساعيل، عن الفضل بن شاذان وعلي بن إبراهيم، عن أبيه جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فرض الله على الناس من الجمعة إلى الجمعة، خمساً وثلاثين صلاة منها صلاة واحدة فرضها الله في جماعة وهي الجمعة ووضعها عن الصغير، والكبير، والمجنون، والمسافر، والعبد، والمرأة، والأعمى، ومن كان على رأس فرسخين»^(٤).

٥ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن المغيرة، عن

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٤١٧.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٤١٣.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٤١٩.

(٤) الكافي: ج ٣ / ص ٤١٩.

جميل، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يكون بين الجماعتين ثلاثة أميال، يعني لا يكون جمعة إلا فيما بينه وبين ثلاثة أميال، وليس تكون جمعة إلا بخطبة»، وقال عليه السلام: «فإذا كان بين الجماعتين في الجمعة ثلاثة أميال فلا بأس بأن يجمع هؤلاء ويجمع هؤلاء»^(١).

٦ - الصدوق بإسناده، قال أبو جعفر عليه السلام: «إنما وضعت الركعتان اللتان أضافهما النبي صلى الله عليه وآله يوم الجمعة للمقيم بمكان الخطبتين مع الإمام، فمن صلى يوم الجمعة في غير جماعة فليصلها أربعاً كصلاة الظهر في سائر الأيام»^(٢).

بيان: والمعنى أن صلاة الجمعة تصلى بموجب هذه الرواية بكل الأحوال، لأن الذي يصليها في بيته مثلاً وقت الزوال ومن دون خطبة، إنما يصليها أربعاً مثلما يصلي صلاة الظهر، فجميع من ينطبق عليهم التكليف يصلون صلاة الجمعة، والظاهر أن صلاة الجمعة جماعةً بشرطها خطبتان مع الركعتين، وفي حال عدم توفر شروطها تصلى أربع ركعات كصلاة الظهر، فهنا كاف التشبيه «... أربعاً كصلاة الظهر في سائر الأيام» توحى بأن المكلف يصلي صلاة الجمعة في كل الأحوال، والله أعلم.

٧ - الصدوق بإسناده قال عليه السلام: «وقت صلاة الجمعة يوم الجمعة ساعة تزول الشمس، ووقتها في السفر والحضر واحد وهو المضيّق، وصلاة العصر يوم الجمعة وقت الأولى في سائر الأيام»^(٣).

٨ - الصدوق، حدثني محمد بن الحسن رضي الله عنه، قال: حدثني محمد بن الحسن الصفار، عن يعقوب بن يزيد، عن حماد بن عيسى، عن حريز وفضيل، عن زرارة، عن

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٤١٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤١٢.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤١٢.

أبي جعفر عليه السلام قال: «صلاة الجمعة فريضة، والاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علة ثلاث جمع، فقد ترك ثلاث فرائض، ولا يدع ثلاث فرائض من غير علة إلا منافق»، وقال: «ومن ترك الجماعة رغبةً عنها، وعن جماعة المؤمنين من غير علة فلا صلاة له»^(١).

٩ - الطوسي بإسناده عن محمد بن يعقوب، عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان وعلي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فرض الله على الناس من الجمعة إلى الجمعة خمساً وثلاثين صلاة منها صلاة واحدة فرضها الله عز وجل في جماعة وهي الجمعة، ووضعها عن تسعة عن الصغير، والكبير، والمجنون، والمسافر، والعبد، والمرأة، والمريض، والأعمى، ومن كان على رأس فرسخين، وهؤلاء الذين وضع الله عنهم الجمعة متى حضرها ولم يزلهم الدخول فيها وأن يصلوها كغيرهم ويلزمهم استماع الخطبة والصلاة ركعتين ومتى لم يحضروها لم يجب عليهم وكان عليهم الصلاة أربع ركعات، كفرضهم في سائر الأيام»^(٢).

١٠ - الطوسي بإسناده، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن يحيى، عن طلحة بن زيد ابن جعفر عليه السلام عن أبيه عليه السلام، عن علي عليه السلام قال: «لا جمعة إلا في مصر تقام فيه الحدود»^(٣).

١١ - الطوسي بإسناده عن أحمد، عن علي بن الحكم، عن سيف بن عميرة، عن أبي بكر الحضرمي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كيف تصنع أنت يوم الجمعة؟ قال: «كيف تصنع أنت؟» قلت: أصلي في منزلي، ثم أخرج فأصلي معهم، قال: «كذلك أصنع أنا»^(٤).

(١) ثواب الأعمال: ص ٣٧٧.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٢١.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٢٣٩.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٢٤٦.

بيان: صحة صلاة الجمعة مشروطة بعدالة الإمام وبسط يده، وهو ما لم يتحقق زمن الإمام الباقر عليه السلام.

١٥ - باب صلاة الجماعة:

١ - محمد بن يعقوب، عن الحسين بن محمد الأشعري، عن معلى بن محمد، عن الوشاء، عن المفصل بن صالح، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليكن الذين يلون الإمام أولي الأحلام منكم، والنهي، فإن نسي الإمام أو تعايا قوموه، وأفضل الصفوف أولها، وأفضل أولها ما دنا من الإمام، وفضل صلاة الجماعة على صلاة الرجل فذا خمس وعشرون درجة في الجنة»^(١).

٢ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن حديد، عن جميل بن درّاج، عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلتُ فداك إنا نصلي مع هؤلاء يوم الجمعة، وهم يصلّون في الوقت فكيف نصنع؟ فقال: «صلّوا معهم»، فخرج حمران إلى زرارة، فقال له: قد أمرنا أن نصليّ معهم بصلاتهم، فقال زرارة: ما يكون هذا إلا بتأويل، فقال له حمران: قم حتى نسمع منه.

قال: فدخلنا عليه، فقال له زرارة: جعلتُ فداك إن حمران زعم أنك أمرتنا أن نصليّ معهم فأنكرتُ ذلك، فقال لنا: «كان علي بن الحسين صلوات الله عليهما يصليّ معهم الركعتين، فإذا فرغوا قام فأضاف إليهما ركعتين»^(٢).

٣ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن صلى قوم وبينهم وبين الإمام ما لا يتخطى، فليس

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٣٧٢.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٣٧٥.

ذلك الإمام لهم بإمام، وأي صفٍّ كان أهله يصلون بصلاة إمام وبينهم وبين الصف الذي يتقدمهم قدر ما لا يتخطى فليس تلك لهم، فإن كان بينهم سترة أو جدار فليست تلك لهم بصلاة إلا من كان من حيال الباب».

ثم قال: «هذه المقاصير^(١) لم يكن في زمان أحد من الناس، وإنما أحدثها الجبارون، ليست لمن صلى خلفها مقتدياً بصلاة من فيها صلاة»، وقال أبو جعفر عليه السلام: «ينبغي أن تكون الصفوف تامة متواصلة بعضها إلى بعض، لا يكون بين صفين ما لا يتخطى، يكون قدر ذلك مسقط جسد الإنسان»^(٢).

٤ - الطوسي بإسناده عن حماد بن عيسى، عن حريز بن عبد الله، عن زرارة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قومٍ صلّى بهم إمامهم، وهو غير طاهر، أتجوز صلاتهم أم يعيدونها؟ فقال: «لا إعادة عليهم، تمت صلاتهم وعليه هو الإعادة، وليس عليه أن يعلمهم، هذا عنه موضوع»^(٣).

٥ - روى المجلسي، عن كتاب عاصم بن حميد، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا أدركت التكبيرة قبل أن يركع الإمام، فقد أدركت الصلاة»^(٤).

١٦ - باب صلاة العيدين:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر ابن أذينة، عن زرارة، قال أبو جعفر عليه السلام: «ليس في يوم الفطر والأضحى أذان ولا إقامة،

(١) المقاصير: جمع مقصورة، وهي حجرة خاصة مفصولة أحدثها خلفاء بني أمية، يصلي فيها الخليفة أو السلطان إماماً للجماعة.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٣٨٥.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ٣٩.

(٤) بحار الأنوار: ج ٨٨ / ص ٧٥.

أذانها طلوع الشمس، إذا طلعت خرجوا وليس قبلهما ولا بعدهما صلاة، ومن لم يصل مع إمام في جماعة فلا صلاة له ولا قضاء عليه»^(١).

٢ - الصدوق بإسناده، روى زرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا صلاة يوم الفطر والأضحى إلا مع إمام عادل»^(٢).

٣ - الصدوق بإسناده روى حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا تخرج يوم الفطر حتى تطعم شيئاً، ولا تأكل يوم الأضحى شيئاً إلا من هديك وأضحيتك إن قويت عليه، وإن لم تقوَ فمعدور»، وقال أبو جعفر عليه السلام: «كان أمير المؤمنين عليه السلام لا يأكل يوم الأضحى شيئاً حتى يأكل من أضحيته، ولا يخرج يوم الفطر حتى يطعم ويؤدي الفطرة»، ثم قال: «وكذلك نحن»^(٣).

٤ - الطوسي، عن الحسين بن سعيد، عن أحمد بن عبد الله القروي، عن أبان بن عثمان، عن إسماعيل الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام في صلاة العيدين قال: «يكبر واحدة ويفتح بها الصلاة، ثم يقرأ أم الكتاب وسورة، ثم يكبر خمساً يقنت بينهن، ثم يكبر واحدة، ويركع بها، ثم يقوم فيقرأ أم القرآن، وسورة، يقرأ في الأولى: سبح اسم ربك الأعلى، وفي الثانية: والشمس وضحاها، ثم يكبر أربعاً، ويقنت بينهن، ثم يركع بالخمسة»^(٤).

١٧ - باب صلاة النوافل (التطوع):

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن زرارة، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: الركعتان اللتان قبل الغداة، أين موضعهما؟

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٤٥٩.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٥٠٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٥٠٨.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ١٣٢.

فقال: «قبل طلوع الفجر، فإذا طلع الفجر فقد دخل وقت الغداة»^(١).

٢ - الصدوق، عن أبي رحمه الله قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن أبيه، عن زرعة، عن سامة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: تنفلوا في ساعة الغفلة، ولو بركتين خفيفتين فإنها يورثان دار الكرامة»^(٢).

٣ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن علي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن علي بن مهزيار قال: قرأت في كتاب رجلٍ إلى أبي جعفر عليه السلام: الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر من صلاة الليل هي أم من صلاة النهار؟ وفي أي وقت أصليهما؟ فكتب بخطه: «إحشوهما في صلاة الليل حشواً»^(٣).

بيان: معنى الحشو: الملء، ويُقال: حشا اللحاف بالصوف أي ملأه، والمعنى هنا هو إلحاق نافلة الفجر بصلاة الليل، والله أعلم.

٤ - الطوسي بإسناده، روى معاوية بن عمار، عن نجية قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: تدركني الصلاة، فابدأ بالنافلة؟ قال: «لا، ابدأ بالفريضة، واقضِ النافلة»^(٤).

بيان: يقصد السائل إذا أدركته الصلاة الواجبة، كصلاة الفجر مثلاً، قرب انتهاء وقتها، وهو طلوع الشمس، فلا بد أن يصلي الفريضة وهي صلاة الفجر، ثم يقضي نافلة الفجر.

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٤٤٨.

(٢) علل الشرايع: ج ٢ / ص ٣١.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ١٣٢.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٢٤٧.

١٨ - باب صلاة الليل:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة، منها الوتر وركعتا الفجر في السفر والحضر»^(١).

٢ - الصدوق بإسناده، روى بريد بن معاوية العجلي، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «أفضل قضاء صلاة الليل في الساعة التي فاتتك آخر الليل، وليس بأس أن تقضيها بالنهار قبل أن تزول الشمس»^(٢).

١٩ - باب صلاة الخسوف والكسوف:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة ومحمد بن مسلم قالوا: سألنا أبا جعفر عليه السلام عن صلاة الكسوف، كم ركعة هي، وكيف نصليها؟ فقال: «عشر ركعات وأربع سجعات، تفتح الصلاة بتكبيرة، وتركع بتكبيرة، وترفع رأسك بتكبيرة إلا في الخامسة التي تسجد فيها وتقول: سمع الله لمن حمده، وتقنت في كل ركعتين قبل الركوع تطيل القنوت والركوع على قدر القراءة والركوع والسجود، فإن فرغت قبل أن ينجلي، فاقعد وادع الله عز وجل حتى ينجلي، وإن إنجلي قبل أن تفرغ من صلاتك فأتّم ما بقي وتجهر بالقراءة».

قال عليه السلام: «وكان يستحب أن يقرأ فيها بالكهف والحجر إلا أن يكون إماماً يشقّ على من خلفه، وإن استطعت أن تكون صلاتك بارزاً لا يجنّك بيت فافعل، وصلاة كسوف

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٤٤٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٩٨.

الشمس أطول من صلاة خسوف القمر وهما سواء في القراءة والركوع والسجود»^(١).

٢ - محمد بن يعقوب بإسناده، عن حماد، عن حريز، عن زرارة ومحمد بن مسلم، قالوا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام: هذه الرياح والظلم التي تكون هل يصلّي لها؟ فقال: «كل أخاويف السماء من ظلمة أو ريح أو فزع فصلّ له صلاة الكسوف حتى يسكن»^(٢).

٢٠ - باب صلاة المسافر:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «التقصير في بريد، والبريد أربعة فراسخ»^(٣).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، ومحمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، ومحمد بن إسحاق، عن الفضل بن شاذان، جميعاً، عن حماد بن عيسى، عن حريز بن عبد الله، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: رأيت من قدم بلدة إلى متى ينبغي له أن يكون مقصراً ومتى ينبغي له أن يتم؟ قال: «إذا دخلت أرضاً فأيقنت أن لك بها مقاماً عشرة أيام فأتّم الصلاة، وإن لم تدر ما مقامك لها تقول غداً أخرج أو بعد غد فقصر ما بينك وبين أن يمضي شهر، فإذا تمّ لك شهر فأتّم الصلاة وإن أردت أن تخرج من ساعتك»^(٤).

٣ - الصدوق بإسناده، روى موسى بن بكر، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا نسي الرجل صلاةً أو صلاها بغير طهور وهو مقيم أو مسافر فذكرها فليقض الذي وجب عليه لا يزيد على ذلك ولا ينقص، ومن نسي أربعاً قضى أربعاً حين يذكرها مسافراً

(١) الكافي: ج ٣/ ص ٤٦٣.

(٢) الكافي: ج ٣/ ص ٤٦٤.

(٣) الكافي: ج ٣/ ص ٤٣٢.

(٤) الكافي: ج ٣/ ص ٤٣٥.

كان أو مقيماً، وإن نسي ركعتين صلّى ركعتين حين يذكرها مسافراً كان أو مقيماً»^(١).

٤ - الصدوق، حدثنا جعفر بن علي بن الحسن بن علي بن عبد الله بن المغيرة الكوفي رضي الله عنه، قال: حدثني جدي الحسن بن علي، عن جده عبد الله بن المغيرة، عن إسماعيل بن أبي زياد، عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: «سبعة لا يقصرون الصلاة: الجابي الذي يدور في جبايته، والأمير الذي يدور أمارته، والتاجر الذي يدور في تجارته من سوق إلى سوق، والراعي والبدوي الذي يطلب مواضع القطر ومنبت الشجر، والرجل الذي يطلب الصيد يريد به هو الدنيا، والمحارب الذي يقطع السبيل»^(٢).

٥ - الصدوق حدثنا أبي رضي الله عنه قال: حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى أهدى إليّ وإلى أمّتي هدية لم يهد إلى أحدٍ من الأمم، كرامة من الله لنا، قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: الإفطار في السفر، والتقشير في الصلاة، فمن لم يفعل ذلك فقد ردّ على الله عزّ وجلّ هديته»^(٣).

٢١- باب القراءة في الركعتين الأخيرتين:

محمد بن يعقوب، عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما يجزي من القول في الركعتين الأخيرتين؟ قال: «أن تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتكبّر وتركع»^(٤).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٤٤١.

(٢) الخصال: ص ٤٠٣.

(٣) الخصال: ص ١١٢.

(٤) الكافي: ج ٣ / ص ٣١٩.

٢٢ - باب الشك والسهو:

١ - البرقي، عن يعقوب بن يزيد وأبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن بكير ابن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلتُ له: رجلٌ شكَّ ولم يدرِ أربعاً صلَّى أو اثنتين، وهو قاعد؟ قال: «يركع ركعتين وأربع سجّادات وهو جالس»^(١).

٢ - الصدوق بإسناده عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في رجلٍ جهر فيما لا ينبغي الجهر فيه أو أخفى فيما لا ينبغي الإخفاء فيه؟ فقال: «أي ذلك فعل متعمداً فقد نقض صلاته وعليه الإعادة، وإن فعل ذلك ناسياً أو ساهياً أو لا يدري فلا شيء عليه، وقد تمت صلاته...»^(٢).

٣ - الطوسي بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن صفوان، عن العلاء، عن محمد عن أبي جعفر عليه السلام قال: سُئل عن رجل دخل مع الإمام في صلاته وقد سبقه بركعة فلما فرغ الإمام، خرج مع الناس، ثم ذكر بعد ذلك أنه فاتته ركعة قال: «يعيدها ركعة واحدة»^(٣).

٤ - الطوسي بإسناده، عن أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن عبد الله بن بكير، عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام: هل سجد رسول الله صلى الله عليه وآله سجدة السهو قط؟ فقال: «لا ولا يسجدهما فقيه»^(٤).

٢٣ - باب الخشوع في الصلاة:

محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن أبي

(١) المحاسن: ص ٣٣١.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٣٤٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٣٥٠.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ٣٥٠.

جعفر عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة بوجهك فلا تقلّب وجهك عن القبلة، فتفسد صلاتك فإن الله عزّ وجلّ قال لنبيه عليه السلام في الفريضة: ﴿...فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾^(١)، واخشع ببصرك ولا ترفعه إلى السماء وليكن حذاء وجهك في موضع سجودك»^(٢).

٢٤ - باب تعقيب الصلاة:

١ - الكليني بإسناده، عن صالح بن عقبة، عن عقبة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما عُبدَ الله بشيء من التحميد أفضل من تسبيح فاطمة عليها السلام ولو كان شيء أفضل منه لنحله رسول الله عليه السلام فاطمة عليها السلام»^(٣).

٢ - الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، قال أبو جعفر عليه السلام: «لا تنسوا الموجبتين - أو قال: عليكم بالموجبتين - في دبر كل صلاة»، قلت: وما الموجبتان؟ قال: «تسأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار»^(٤).

٣ - الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسين بن سعيد، عن فضالة، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن التسبيح؟ فقال: «ما علمتُ شيئاً موقوفاً غير تسبيح فاطمة صلوات الله عليها، وعشر مرات بعد الغداة تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويُميت، ويُميت ويحيي، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ولكن الإنسان يسبح ما شاء تطوعاً»^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

(٢) الكافي: ج ٣/ ص ٣٠٠.

(٣) الكافي: ج ٣/ ص ٣٤٣.

(٤) الكافي: ج ٣/ ص ٣٤٣.

(٥) الكافي: ج ٣/ ص ٣٤٥.

٤ - الصدوق بإسناده قال أبو جعفر عليه السلام: «تقول في دبر كل صلاة: اللهم اهديني من عندك، وافض علي من فضلك، وانشر علي من رحمتك، وأنزل علي من بركاتك»^(١).

٥ - الطوسي بإسناده، عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أقل ما يجزيك من الدعاء بعد الفريضة أن تقول: اللهم إني أسألك من كل خير أحاط به علمك، وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك، اللهم إني أسألك عافيتك في أموري كلها وأعوذ بك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»^(٢).

٢٥ - باب صلاة القضاء:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، جميعاً، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا نسيت صلاة أو صلّيتها بغير وضوء، وكان عليك قضاء صلوات فابدأ بأولهنّ فأذن لها وأقم ثم صلّها، ثم صلّ ما بعدها بإقامة لكلّ صلاة»، وقال أبو جعفر عليه السلام: «وإن كنت قد صلّيت الظهر وقد فاتتك الغداة فذكرتها فصلّ أي ساعة ذكرتها ولو بعد العصر ومتى ما ذكرت صلاة فاتتك صلّيتها...»^(٣).

٢٦ - باب في الصلاة غير المنصوصة:

١ - الصدوق بإسناده، روى بكر بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله الضحى قط»^(٤).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٣٢٤.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٢ / ص ١٠٧.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٣ / ص ١٥٨.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٥٦٥.

٢ - الصدوق بإسناده، روى عبد الواحد بن المختار الأسدي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن صلاة الضحى؟ فقال: «أول من صلاها قومك إنهم كانوا من الغافلين فيصلونها ولم يصلها رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: إن علياً عليه السلام مرَّ على رجلٍ وهو يصلها، فقال علي عليه السلام: ما هذه الصلاة؟ فقال: أدعها يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أكون أنهى عبداً إذا صلى»^(١).

كتاب الصوم:

١ - باب فضائل شهر رمضان:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، وغيره، عن أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن أبي أيوب، عن أبي الورد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه وآله الناس في آخر جمعة من شعبان فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس إنه قد أظلكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، وهو شهر رمضان، فرض الله صيامه، وجعل قيام ليلة فيه بتطوع صلاة كتطوع صلاة سبعين ليلة فيما سواه من الشهور، وجعل لمن تطوع فيه بخصلة من خصال الخير والبر كأجر من أدى فريضة من فرائض الله عزَّ وجلَّ، ومن أدى فريضة من فرائض الله كان كمن أدى سبعين فريضة من فرائض الله فيما سواه من الشهور، وهو شهر الصبر، وإنَّ الصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وهو شهر يزيد الله في رزق المؤمن فيه، ومن فطر فيه مؤمناً صائماً كان له بذلك عند الله عتق رقبة، ومغفرة لذنوبه فيما مضى.

قيل: يا رسول الله ليس كلنا يقدر على أن يفطر صائماً، فقال صلى الله عليه وآله: إنَّ الله كريم يعطي هذا الثواب، من لم يقدر إلاَّ مذقة من لبن يفطر بها صائماً، أو شربة من ماء عذب، أو

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١ / ص ٥٦٦.

تمرات لا يقدر على أكثر من ذلك، ومن خفف فيه عن مملوكه خفف الله عنه حسابه، وهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره الإجابة والعتق من النار، ولا غنى بكم عن أربع خصال: خصلتين ترضون الله بهما، وخصلتين لا غنى بكم عنهما، فأما اللتان ترضون الله عزّ وجلّ بهما فشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله فيه حوائجكم والجنة، وتسألون العافية، وتعوذون به من النار»^(١).

٢ - الصدوق، بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن الفضيل، وزرارة، عن محمد بن مسلم، عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^(٢)، قال عليه السلام: «نعم هي ليلة القدر، وهي من كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٣)، في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل من خيرٍ أو شرٍّ، أو طاعة أو معصية، أو مولود، أو أجل أو رزق، فما قُدر في تلك الليلة وقضى فهو من المحتوم، والله فيه المشيئة».

قلتُ له: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٤)، أي شيء عنى بها؟ قال عليه السلام: «العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير، خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، ولولا ما يضاعف الله للمؤمنين ما بلغوا، ولكن الله عزّ وجلّ يضاعف لهم الحسنات»^(٥).

(١) الكافي: ج ٤ / ص ٦٦.

(٢) سورة الدخان: الآية ٣.

(٣) سورة الدخان: الآية ٤.

(٤) سورة القدر: الآية ٣.

(٥) ثواب الأعمال: ص ٩٢.

٢ - باب رؤية الهلال:

١ - الكليني، عن أحمد، عن علي بن الحكم، عن أبي أيوب الخزاز، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فافطروا، وليس بالرأي ولا بالتظني، وليس الرؤية أن يقوم عشرة نفر فيقول واحد: هو ذا، وينظر تسعة فلا يرونه، لكن إذا رآه واحد رآه ألف»^(١).

٢ - الصدوق بإسناده، روى جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أهل هلال شهر رمضان استقبل القبلة بوجهه، ثم قال: اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والعافية المجللة، والرزق الواسع، ودفع الأسقام، وتلاوة القرآن، والعون على الصيام، اللهم سلّمنا لشهر رمضان، وسلّمه لنا، وسلّمه منا، حتى ينقضي شهر رمضان وقد غفرت لنا.

ثم يقبل بوجهه على الناس، فيقول: يا معشر الناس إذا طلع هلال شهر رمضان غلّت مردة الشياطين، وفتحت أبواب السماء، وأبواب الجنان، وأبواب الرحمة، وغلقت أبواب النار، وأستجيب الدعاء، وكان لله تبارك وتعالى عند كل فطر عتقاء يعتقهم من النار، وينادي منادٍ كل ليلة: هل من تائب، هل من سائل، هل من مستغفرٍ؟ اللهم أعط كل منفق خلفاً، وأعط كل ممسك تلفاً، حتى إذا طلع هلال شوال نودي المؤمنون: اغدوا إلى جوائزكم فهو يوم الجائزة، أما والذي نفسي بيده ما هي بجائزة الدنانير والدرهم»^(٢).

٣ - باب أن نوم الصائم عبادة:

١ - الحميري بإسناده، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

(١) الكافي: ج ٤ / ص ٧٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج ٢ / ص ٩٦.

«نوم الصائم عبادة، ونَفْسَه تسبيح»^(١).

٢ - البرقي بإسناده، عن أبي عبد الله عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: «ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أن على كل شيء زكاة، وزكاة الأجساد الصيام»^(٢).

٤ - باب صوم الحامل والمرضع والشيخ:

١ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن العلاء بن رزين، عن محمد بن مسلم، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «الحامل المُقرب، والمرضع القليلة اللبن لا حرج عليهما أن تفترا في شهر رمضان؛ لأنهما لا تطيقان الصوم، وعليهما أن يتصدق كل واحد منهما في كل يوم يفطر فيه بمُدٍّ من طعام، وعليهما قضاء كل يوم أفطرتا فيه تقضيانه بعد»^(٣).

٢ - الصدوق بإسناده، روى العلاء، عن محمد بن مسلم قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «الشيخ الكبير، والذي به العطاش لا حرج عليهما أن يفطرا في شهر رمضان، ويتصدق كل واحدٍ منهما في كل يوم بمُدٍّ من طعام، ولا قضاء عليهما، فإن لم يقدر فلا شيء عليهما»^(٤).

٥ - باب صوم التطوع:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن علي بن الحسن بن فضال، عن هارون بن مسلم وسعدان، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليه السلام: «أن علياً عليه السلام قال: الصائم

(١) قرب الإسناد: ص ٤٦.

(٢) المحاسن: ص ٧٢.

(٣) الكافي: ج ٤ / ص ١١٧.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ / ص ١٣٣.

تطوعاً بالخيار ما بينه وبين نصف النهار، فإذا انتصف النهار فقد وجب الصوم»^(١).

٦ - ما يقال عند الإفطار:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا أفطر قال: اللهم لك صمنا، وعلى رزقك أفطرنا فتقبله منا، ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وبقي الأجر»^(٢).

٧ - باب ما ينقض الصوم:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن يعقوب بن يزيد، عن محمد بن أبي عمير، عن حماد، عن محمد بن مسلم، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما يضرّ الصائم ما صنع إذا اجتنب أربع خصال: الطعام، والشراب، والنساء، والإرتماس في الماء»^(٣).

٨ - باب الصائم أتى أهله:

الصدوق بإسناده، روى عبد المؤمن بن القاسم الأنصاري، عن أبي جعفر عليه السلام: «أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: هلكت وأهلك! فقال صلى الله عليه وآله: «وما أهلكك؟»، قال: أتيت امرأتى في شهر رمضان وأنا صائم! فقال النبي صلى الله عليه وآله: «اعتق رقبة»، قال: لا أجد، قال صلى الله عليه وآله: «فصم شهرين متتابعين»، قال: لا أطيق! قال صلى الله عليه وآله: «تصدق على ستين مسكيناً»، قال: لا أجد، فأتى النبي صلى الله عليه وآله بعددٍ في مكنل فيه خمسة عشر صاعاً من تمر، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «خذها فتصدق بها»، فقال: والذي بعثك بالحق نبياً ما بين لابتيتها أهل بيتٍ أحوج إليه

(١) تهذيب الأحكام: ج ٤ / ص ٢٨١.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٤ / ص ١٩٩.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٤ / ص ٣١٨.

منّا! فقال ﷺ: حذّه فكله أنت وأهلك، فإنه كفّارة لك»^(١).

٩ - باب الصلاة عند الإفطار:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، روى زرارة وفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام: «في شهر رمضان تصلي، ثم تفطر، إلا أن تكون مع قوم ينتظرون الإفطار، فإن كنت معهم فلا تخالف عليهم، وافطر ثم صلّ، وإلا فابدأ بالصلاة».

قلت: ولم ذلك؟ قال عليه السلام: «لأنه قد حضرك فرضان: الإفطار، والصلاة، فابدأ بأفضلها، وأفضلها الصلاة. تصلي وأنت صائم فتكتب صلاتك تلك، فتختتم بالصوم أحبُّ إليّ»^(٢).

كتاب الزكاة والخمس:

١ - باب فرض الزكاة:

الصدوق بإسناده، عن معروف بن خرّبوذ، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ﴾^(٣)، فمن أقام الصلاة ولم يؤتِ الزكاة فكأنه لم يقيم الصلاة»^(٤).

٢ - باب فضل الصدقة:

١ - محمد بن يعقوب، عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي عبد الله، عن أبيه، عن خلف بن حماد، عن إسماعيل الجوهري، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ / ص ١١٥.

(٢) مصباح المتهجد: ص ٤٣٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ / ص ١٠.

«لأن أحج حجة أحب إليّ من أن أعتق رقبة ورقبة حتى انتهى إلى عشرة ومثلها حتى انتهى إلى سبعين، ولأن أعول أهل بيت من المسلمين أشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكفّ وجوههم من الناس أحب إليّ من أحج حجة وحجة وحجة حتى انتهى إلى عشر وعشر وعشر ومثلها حتى انتهى إلى سبعين»^(١).

٢ - المجلسي، عن كتاب الإمامة والتبصرة، عن الحسن بن حمزة العلوي، عن علي ابن محمد بن أبي القاسم، عن أبيه، عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن الصادق، عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصدقة على مسكين صدقة، وهي على ذي رحم صدقة وصلة»^(٢).

٣ - عنه بهذا الإسناد قال: «الصدقة تدفع البلاء، وهي أنجع دواء، وتدفع القضاء وقد أبرم إبراماً، ولا يذهب بالأدواء إلا الدعاء والصدقة»^(٣).

٤ - عنه بهذا الإسناد قال: «الصدقة في السر تطفىء غضب الرب»^(٤).

٥ - عنه، عن دعوات الراوندي، قال أبو جعفر عليه السلام: «الحج ينفي الفقر، والصدقة تدفع البلية، والبرّ يزيد في العمر»^(٥).

٦ - أبو جعفر الصدوق مرسلًا، قال أبو جعفر عليه السلام: «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة»^(٦).

(١) الكافي: ج ٤ / ص ٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٦ / ص ١٣٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ٩٦ / ص ١٣٧.

(٤) بحار الأنوار: ج ٩٦ / ص ١٣٧.

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٤ / ص ٨٥.

(٦) الاختصاص: ص ٢٥.

٣ - باب زكاة الدين

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد، عن حريز، عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: رجل دفع إلى رجل مالاً قرضاً، على مَنْ زكاته على المقرض أو على المقرض؟ قال عليه السلام: «لا، بل زكاتها إن كانت موضوعة عنده حولاً على المقرض»، قلت: فليس على المقرض زكاتها؟ قال عليه السلام: «لا، لا يزكي المال من وجهين في عام واحد، وليس على الدافع شيء لأنه ليس في يده شيء لأن المال في يد الآخر، فمن كان المال في يده زكاه»، قلت: أفيزكي مال غيره من ماله؟ قال عليه السلام: «إنه ماله ما دام في يده، وليس ذلك المال لأحدٍ غيره، يا زرارة أرأيت وضعية ذلك المال وربحه لمن هو؟ وعلى من؟»، قلت: للمقرض، قال عليه السلام: «فله الفضل، وعليه النقصان، وله أن يلبس وينكح، ويأكل منه، ولا ينبغي له أن لا يزكيه، بل يزكيه فإنه عليه»^(١).

٤ - باب زكاة الأنعام:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، ومحمد بن مسلم، وأبي بصير، وبريد العجلي، والفضيل عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: «في البقر في كل ثلاثين بقرة تبيع حواليّ وليس في أقل من ذلك شيء، وفي أربعين بقرة بقرة مسنة وليس فيما بين الثلاثين إلى الأربعين شيء حتى تبلغ أربعين، فإذا بلغت أربعين ففيها مسنة، وليس فيما بين الأربعين إلى الستين شيء فإذا بلغت الستين ففيها تبيعان إلى سبعين.

فإذا بلغت سبعين ففيها تبيع ومسنة إلى ثمانين، فإذا بلغت ثمانين ففي كل أربعين مسنة إلى تسعين، فإذا بلغت تسعين ففيها ثلاث تباع حوليات، فإذا بلغت عشرين ومائة

(١) تهذيب الأحكام ج ٤ / ص ٣٣.

ففي كل أربعين مسنة، ثم ترجع البقر على أسنانها، وليس على النيف شيء، ولا على الكسور شيء، ولا على العوامل شيء إنما الصدقة على السائمة الراعية وكل ما لم يحلّ عليه الحول عند ربّه فلا شيء عليه، حتى يحول عليه الحول فإذا حال عليه الحول وجب عليه»^(١).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، ومحمد بن مسلم، وأبي بصير، وبريد، والفضيل عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «في الشاة في كل أربعين شاة شاة، وليس فيها دون الأربعين شيء، ثم ليس فيها شيء حتى تبلغ عشرين ومائة، فإذا بلغت عشرين ومائة ففيها مثل ذلك شاة واحدة، فإذا زادت على مائة وعشرين ففيها شاتان، وليس فيها أكثر من شاتين حتى تبلغ مائتين، فإذا بلغت المائتين ففيها مثل ذلك، فإذا زادت على المائتين شاة واحدة ففيها ثلاث شياه.

ثم ليس فيها شيء أكثر من ذلك حتى تبلغ ثلاثمائة، فإذا بلغت ثلاثمائة ففيها مثل ذلك ثلاث شياه، فإذا زادت واحدة ففيها أربع شياه حتى تبلغ أربعمائة، فإذا تمت أربعمائة كان على كل مائة شاة وسقط الأمر الأول، وليس على ما دون المائة بعد ذلك شيء وليس في النيف شيء، كل ما لم يحلّ عليه الحول عند ربه فلا شيء عليه فإذا حال عليه الحول وجب عليه»^(٢).

٣ - الصدوق بإسناده، عن عمر بن أذينة، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليس فيها دون الخمس من الإبل شيء، فإذا كانت خمساً ففيها شاة إلى عشر، فإذا كانت عشراً ففيها شاتان، فإذا بلغت خمس عشرة ففيها ثلاث من الغنم، فإذا بلغت عشرين ففيها أربع من الغنم، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها خمس من الغنم، فإذا زادت واحدة

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٥٣٤.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٥٣٤.

ففيها ابنة مخاض إلى خمس وثلاثين، فإن لم يكن عنده ابنة مخاض فابن لبون ذكر، فإذا زادت على خمس وثلاثين بواحدة ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين.

فإذا زادت واحدة ففيها حقّة، وإنما سُمّيت حقّة لأنها استحققت أن يركب ظهرها إلى ستين، فإن زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين، فإن زادت واحدة فحقتان إلى عشرين ومائة، فإن زادت على العشرين والمائة واحدة ففي كل خمس حقّة وفي كل أربعين بنت لبون، وكلّ من وجبت عليه جذعة ولم تكن عنده وكانت عنده حقّة دفعها ودفع معها شاتين أو عشرين درهماً، ومن وجبت عليه حقّة ولم تكن عنده، وكانت عنده جذعة دفعها وأخذ من المصدّق شاتين أو عشرين درهماً.

من وجبت عليه حقّة ولم تكن عنده، وكانت عنده ابنة لبون دفعها ودفع معها شاتين أو عشرين درهماً، ومن وجبت عليه ابنة لبون ولم تكن عنده وكانت عنده حقّة دفعها وأعطاه المصدّق شاتين أو عشرين درهماً، ومن وجبت عليه ابنة لبون ولم تكن عنده ابنة مخاض دفعها وأعطى معها شاتين أو عشرين درهماً، ومن وجبت عليه ابنة مخاض ولم تكن عنده وكانت عنده ابنة لبون دفعها وأعطاه المصدّق شاتين أو عشرين درهماً، ومن وجبت عليه ابنة مخاض ولم تكن عنده وكان عنده ابن لبون ذكر فإنه يقبل منه ابن لبون وليس يدفع معه شيئاً^(١).

٤ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن أبي الصهبان، عن ابن أبي نجران، عن محمد بن سباعة، عن رجل، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا يزكّي من الإبل والبقر والغنم إلا ما حال عليه الحول، وما لم يحل عليه الحول فكأنه لم يكن»^(٢).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ / ص ٢٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٤ / ص ٤٣.

٥ - باب من تحلّ له الزكاة:

١ - محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد ابن أبي نصر، عن عتبية بن عبد الملك بن عجلان السكوني، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «أني ربا قسمت الشيء بين أصحابي أصلهم به، فكيف أعطيهم؟» فقال عليه السلام: «أعطيهم على الهجرة في الدين والعقل والفقه»^(١).

٢ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن يحيى بن عمران، عن ابن مسكان، عن ضريس، قال: سألت المدائني أبا جعفر عليه السلام: «أن لنا زكاة نخرجها من أموالنا، ففيمن نضعها؟» فقال عليه السلام: «(في أهل ولايتك)، فقال: إني في بلادٍ ليس فيها أحدٌ من أوليائك، فقال عليه السلام: «ابعث بها إلى بلدهم، ترفع إليهم، ولا تدفعها إلى قومٍ إن دعوتهم غداً إلى أمرٍ لم يجيبوك، وكان والله الذبيح»^(٢).

٣ - محمد بن يعقوب، عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن عاصم بن حميد، عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: الرجل من أصحابنا يستحي أن يأخذ من الزكاة، أفأعطيه من الزكاة ولا أسمى له أنها من الزكاة؟ فقال عليه السلام: «أعطه ولا تُسمِّ له، ولا تذلل المؤمن»^(٣).

٤ - الصدوق، حدثنا أبي رحمه الله قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي، ولا لمحترف، ولا لقوي»، قلنا: وما

(١) الكافي: ج ٣ / ص ٥٤٩.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٥٥٥.

(٣) الكافي: ج ٣ / ص ٥٦٣.

معنى هذا؟ قال عليه السلام: «لا يحل له أن يأخذها وهو يقدر على أن يكف نفسه عنها»^(١).

٦ - باب زكاة الذهب والفضة:

محمد بن يعقوب، عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن علي بن عقبة، وعدة من أصحابنا، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: «ليس فيما دون العشرين مثقالاً من الذهب شيء، فإذا كملت عشرين مثقالاً ففيها نصف مثقال إلى أربعة وعشرين، فإذا كملت أربعة وعشرين ففيها ثلاثة أخماس دينار إلى ثمانية وعشرين، فعلى هذا الحساب كلما زاد أربعة»^(٢).

٧ - باب الخمس:

١ - الصدوق بإسناده، سأل محمد بن مسلم أبا جعفر عليه السلام عن الملاحه؟ فقال عليه السلام: «ما الملاحه؟»، فقلت: أرض سبخة مالحه يجتمع فيها الماء فيصير ملحاً، فقال عليه السلام: «مثل المعدن فيه الخمس»، قلت: فالكبريت والنفط يخرج من الأرض؟ فقال عليه السلام: «هذا وأشباهه فيه الخمس»^(٣).

٢ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن علي بن محبوب، عن العباس بن معروف، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن المعادن ما فيها؟ فقال عليه السلام: «كلما كان ركازاً ففيه الخمس، وما عاجلته بهالك ففيه مما أخرج الله منه من حجارته مصفى الخمس»^(٤).

(١) معاني الأخبار: ص ٢٦٢.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٥١٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ / ص ٤١.

(٤) تهذيب الأحكام: ج ٤ / ص ١٢٢.

كتاب الحج:

١ - باب فضل الحج:

الصدوق، حدثنا أبي رضي الله عنه قال: حدثنا سعد بن عبد الله، عن أحمد بن محمد ابن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البنظي، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، وزرارة بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحاج على ثلاثة وجوه: رجل أفرد الحج بسياق الهدى، ورجل أفرد الحج ولم يسق، ورجل تمتع بالعمرة إلى الحج»^(١).

٢ - باب وقت الحج:

محمد بن يعقوب، عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن مثنى، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحج أشهر معلومات: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة ليس لأحد أن يحرم بالحجّ في سواهنّ، وليس لأحد أن يحرم دون الوقت الذي وقته رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنما مثل ذلك مثل من صلّى في السفر أربعاً وترك اثنتين»^(٢).

٣ - باب التلبية والإحرام:

محمد بن الأشعث بإسناده، عن جعفر بن محمد عليه السلام: أخبرني أبي عليه السلام، عن جابر بن عبد الله: «أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وآله كانت ليبيك اللهم ليبيك، لا شريك لك ليبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»^(٣).

(١) الخصال: ص ١٤٧.

(٢) الكافي: ج ٤ / ص ٣٢١.

(٣) الأشعثيات: ص ٦٤.

٤ - باب الطواف:

١ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن حماد بن عيسى، عن حريز بن عبد الله عن زرارة بن أعين، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: كيف أتمتع؟ قال عليه السلام: «تأتي الوقت فتلبي بالتحجّ، فإذا دخلت مكة طففتَ بالبيت، وصلّيت الركعتين خلف المقام، وسعيتَ بين الصفا والمروة، وقصّرت، وأحللت من كل شيء، وليس لك أن تخرج من مكة حتى تحجّ»^(١).

٢ - أبو جعفر الطوسي، عن عدّة من أصحابنا، عن سهل، عن ابن محبوب، عن أبي جعفر عليه السلام أنه سُئل: أتسك المناسك على غير وضوء؟ فقال عليه السلام: «نعم، إلّا الطواف بالبيت فإن فيه صلاة»^(٢).

٥ - باب السعي:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن يعقوب، عن أحمد بن محمد، عن محمد ابن يحيى، عن غياث بن إبراهيم، عن جعفر، عن أبيه عليه السلام قال: «كان أبي عليه السلام يسعى بين الصفا والمروة، ما بين باب ابن عباد وإلى أن يرفع قدميه من الميل لا يبلغ زقاق آل أبي حسين»^(٣).

٦ - باب الأضاحي:

١ - الصدوق بإسناده، قال: كان علي بن الحسين، وأبو جعفر عليهما السلام يتصدقان بثلثٍ على جيرانهما، وبثلثٍ على السؤال، وبثلثٍ يمساكنه لأهل البيت عليهم السلام^(٤).

(١) تهذيب الأحكام: ج ٥ / ص ٨٦.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٥ / ص ١١٦.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٥ / ص ١٤٩.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ / ص ٤٩٣.

٢ - الصدوق بإسناده عن علي بن مهزيار، عن الحسين بن سعيد، عن صفوان، عن سيف الثمار، قال أبو عبد الله عليه السلام: «أن سعيد بن عبد الملك قدم حاجباً فلقي أبي عليه السلام فقال: إني سقتُ هدياً، فكيف أصنع؟ فقال عليه السلام: أطمع أهلك ثلثاً، وأطمع القانع ثلثاً، وأطمع المسكين ثلثاً»، قلتُ: المسكين هو السائل؟ قال: «نعم، القانع يقنع بما أرسلتَ إليه من البضعة فما فوقها، والمعتري يعتريك لا يسألك»^(١).

ثانياً: المعاملات

وهي مساحة واسعة من الأحكام الشرعية تشمل أحكام التجارة، والوديعة، والعارية، والدين، والرهن ونحوها، ونعرض لنماذج مختصرة من أقوال الإمام الباقر عليه السلام:

كتاب المعيشة:

١ - باب الإجارة:

١ - الصدوق بإسناده، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام في رجل اكرت داراً، وفيها بستان، فزرع في البستان، وغرس نخلاً وأشجاراً وفاكهةً وغيرها، ولم يستأمر في ذلك صاحب الدار؟ قال عليه السلام: «عليه الكري، ويقوم صاحب الدار ذلك الغرس والزرع، فيعطيه الغارس إن كان استأمره في ذلك، وإن لم يكن استأمره فعليه الكري، وله الغرس والزرع يقلعه ويذهب به حيث شاء»^(٢).

٢ - أبو جعفر الطوسي بإسناده عن علي بن الحكم، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: سألته عن الرجل يتقبل العمل، فلا يعمل

(١) معاني الأخبار: ص ٢٠٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٣/ ص ٢٤٦.

فيه، ويدفعه إلى آخر يريح فيه، قال عليه السلام: «لا»^(١).

٢ - باب إحياء الأرض الموات:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمد ابن حمران، عن محمد بن مسلم، قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول: «أيما قوم أحيوا شيئاً من الأرض وعمروها، فهم أحقّ بها وهي لهم»^(٢).

٢ - محمد بن يعقوب بإسناده، عن حماد، عن حريز، عن زرارة ومحمد بن مسلم، وأبي بصير، وبكير، وحمران، وعبد الرحمن بن أبي عبد الله، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحيأ مواتاً فهي له»^(٣).

٣ - باب مال الوالد والولد

محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لرجل: أنت ومالك لأبيك، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: وما أحبّ له أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج إليه مما لا بدّ منه، إن الله عزّ وجلّ لا يحبّ الفساد»^(٤).

٤ - باب الوديعة والعارية

محمد بن يعقوب، عن الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن الحسن بن علي، عن أبان، عن محمد، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن العارية يستعيرها الإنسان فتهلك

(١) تهذيب الأحكام: ج ٧ / ص ٢١٠.

(٢) الكافي: ج ٥ / ص ٢٧٩.

(٣) الكافي: ج ٥ / ص ٢٧٩.

(٤) الكافي: ج ٥ / ص ١٣٥.

أو تُسرق؟ فقال ﷺ: «إذا كان أميناً فلا غرمَ عليه»، قال: وسألته عن الذي يستبضع المال فيهلك أو يُسرق أعلى صاحبه ضمان؟ فقال ﷺ: «ليس عليه غرم بعد ان يكون الرجل أميناً»^(١).

٥ - باب الدَّين:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن عيسى، عن عبد الله بن المغيرة، عن إسماعيل بن أبي زياد، عن جعفر عن أبيه ﷺ في دَين الميت، قال ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: أن أول ما يبدأ به من المال: الكفن، ثم الدَّين، ثم الوصية، ثم الميراث»^(٢).

٦ - باب الرهن:

أبو جعفر الطوسي، عن ابن أبي نجران، عن عاصم بن حميد، عن محمد بن قيس، عن أبي جعفر ﷺ: «أن أمير المؤمنين ﷺ قال في الأرض البور يرتهنها الرجل ليس فيها ثمرة، فيزرعها وينفق عليها من ماله: أنه يحسب له نفقته وعمله خالصاً، ثم ينظر نصيب الأرض فيحسبه من ماله الذي ارتهن به الأرض حتى يستوفي من ماله، فإذا استوفي من ماله فليدفع الأرض إلى صاحبها»^(٣).

٧ - باب لا ضرر ولا ضرار:

محمد بن يعقوب، عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن عبد الله بن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر ﷺ قال: «أن سمرة بن جندب كان له عذق في حائط لرجلٍ من الأنصار، وكان منزل الأنصاري بباب البستان، وكان يمرّ به

(١) الكافي: ج ٥ / ص ٢٣٨.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٦ / ص ١٨٨.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٧ / ص ١٦٩.

إلى نخلته ولا يستأذن فكلّمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء فأبى سمرة، فلما تأبى جاء الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه، وخبره الخبر.

فأرسل إليه رسول الله ﷺ، وخبره بقول الأنصاري، وما شكّا، وقال: إن أردت الدخول فاستأذن فأبى، فلما أبى ساومه حتى بلغ به من الثمن ما شاء الله فأبى أن يبيع، فقال: لك بها عذقٌ يمدّ لك في الجنة فأبى أن يقبل، فقال رسول الله ﷺ للأنصاري: اذهب فاقلعها وارم بها إليه، فإنه لا ضرر ولا ضرار^(١).

ثالثاً: الأحوال الشخصية

وهي مساحة واسعة في الفقه تشمل النكاح، والطلاق، والإيلاء ونحوها، ونعرض لنماذج من أقوال الإمام الباقر عليه السلام:

كتاب النكاح:

١ - باب فضل الزواج:

١ - الحميري بإسناده، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن جعفر عليه السلام، عن أبيه عليه السلام قال: «ما أفاد عبداً فائدة خيراً من زوجةٍ صالحَةٍ إذا رآها سرتة، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله»^(٢).

٢ - الصدوق بإسناده، عن عبد الله بن الحكم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: ما بُني بناءٌ في الإسلام أحبّ إلى الله تعالى من التزويج»^(٣).

٣ - عنه بإسناده، عن عبد الله بن ميمون، عن جعفر بن محمد عليه السلام، عن أبيه عليه السلام

(١) الكافي: ج ٥ / ص ٢٩٢.

(٢) قرب الإسناد: ص ١١.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ / ص ٣٨٣.

قال: «ركعتان يصليهما متزوج أفضل من سبعين ركعة يصليهما أعزب»^(١).

٤ - عنه بإسناده: «قال النبي ﷺ: ركعتان يصليهما متزوج أفضل من رجل أعزب يقوم ليله، ويصوم نهاره»^(٢).

٢ - باب خير النساء

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن الحسن بن علي بن يوسف، عن معاذ بن ثابت الجوهري، عن عمرو بن جميع، عن أبي عبد الله ﷺ، عن أبيه ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: خير نساءكم الطيبة الريح، الطيبة الطعام التي إذا أنفقت أنفقت بمعروفٍ، وإذا أمسكت أمسكت بمعروفٍ، وتلك من عمال الله، وعامل الله لا يخيب»^(٣).

٣ - باب المهر:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسماعيل بن مزار، عن يونس، عن النضر بن سويد، عن موسى بن بكر، عن زرارة بن أعين، عن أبي جعفر ﷺ قال: «الصداق كل شيءٍ تراضى عليه الناس، قل أو أكثر...»^(٤).

٢ - عنه، عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن داود بن سرحان، عن زرارة، عن أبي جعفر ﷺ قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿...وَأَمْرًا مُمِئَةً إِنَّ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ...﴾^(٥)؟ فقال ﷺ: «لا تحل الهبة إلا لرسول

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ / ص ٣٨٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ / ص ٣٨٤.

(٣) تهذيب الأحكام: ج ٧ / ص ٤٠٢.

(٤) الكافي: ج ٥ / ص ٣٧٧.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

الله ﷺ، وأما غيره فلا يصلح نكاح إلا بمهر»^(١).

٤ - باب الشهادة على النكاح:

البرقي، عن أبيه، عن يونس، عن ابن مسكان، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما وضعت الشهادة للنكاح لمكان الميراث»^(٢).

كتاب الطلاق:

١ - باب الخلع والمبارأة:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «المبارأة يؤخذ منها دون الصداق، والمختلعة يؤخذ منها ما شاء أو ما تراضيا عليه من صداق أو أكثر، وإنما صارت المبارئة يؤخذ منها دون المهر، والمختلعة يؤخذ منها ما شاء لأن المختلعة تعندي في الكلام، وتكلم بما لا يجل لها»^(٣).

٢ - محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن العلاء، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لا طلاق، ولا خلع، ولا مبارأة، ولا خيار إلا على طهر من غير جماع»^(٤).

٢ - باب نفقة الحبلى:

محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي نجران، عن عاصم بن

(١) الكافي: ج ٥ / ص ٣٨٤.

(٢) المحاسن: ص ٣١٩.

(٣) الكافي: ج ٦ / ص ١٤٢.

(٤) الكافي: ج ٦ / ص ١٤٣.

حميد، عن محمد بن قيس، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الحاملُ أجلها أن تضع حملها، وعليه نفقتها بالمعروف حتى تضع حملها»^(١).

٣- باب المطلقة ثلاثاً:

أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن صفوان، عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «في الرجل يطلق امرأته تطليقة، ثم يراجعها بعد انقضاء عدتها، فإذا طلقها ثلاثاً لم تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره، فإذا تزوجها غيره ولم يدخل بها وطلقها أو مات عنها لم تحلّ لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها»^(٢).

٤ - باب وقت انقضاء العدة:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر ابن أذينة، عن زرارة، قلت لأبي جعفر عليه السلام: أصلحك الله رجلٌ طلق امرأته على طهرٍ من غير جماع، بشهادة عدلين؟ قال عليه السلام: «إذا دخلت في الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها، وحلت للأزواج»، قلت له: أصلحك الله إن أهل العراق يروون عن علي عليه السلام أنه قال: هو أحقّ برجعته ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة؟ قال عليه السلام: «فقد كذبوا»^(٣).

٢ - محمد بن يعقوب، عن صفوان، عن موسى بن بكر، عن زرارة، قلت لأبي جعفر عليه السلام: إني سمعتُ ربيعة الرأي يقول: إذا رأت الدم من الحيضة الثالثة بانت منه، وإنما القرء ما بين الحيضتين وزعم أنه إنما أخذ ذلك برأيه! فقال أبو جعفر عليه السلام: «كذب لعمرى، ما قال ذلك برأيه ولكنه أخذه عن علي عليه السلام»، قلت: وما قال فيها علي عليه السلام? قال عليه السلام: «كان يقول إذا رأت الدم من الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها، ولا سبيل

(١) الكافي: ج ٦ / ص ١٠٣.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٨ / ص ٣٣.

(٣) الكافي: ج ٦ / ص ٨٦.

له عليها، وإنما القرء ما بين الحيضتين، وليس لها أن تتزوج حتى تغتسل من الحيضة الثالثة»^(١).

٣ - أبو جعفر الطوسي بإسناده، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن موسى بن بكر، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «عدّة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين؛ لأنّ عليها أن تحدّ أربعة أشهر وعشراً، وليس عليها في الطلاق أن تحدّ»^(٢).

٥ - باب الإشهاد عند الطلاق:

١ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر ابن أذينة، عن زرارة، ومحمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أن الطلاق لا يكون بغير شهود، وإنّ الرجعة بغير شهود رجعة، ولكن يُشهد بعد فهو أفضل»^(٣).

٢ - محمد بن يعقوب، عن الحسين بن محمد، عن معلّى بن محمد، عن بعض أصحابه، عن أبان، عن محمد بن مسلم قال: سُئِلَ أبو جعفر عليه السلام عن رجلٍ طَلَّقَ امرأته [تطليقة] واحدة ثم راجعها قبل أن تنقضي عدّتها، ولم يُشهد على رجعتها؟ قال عليه السلام: «هي امرأته ما لم تنقض عدّتها، وقد كان ينبغي له أن يُشهد على رجعتها، فإن جهل ذلك فليُشهد حين علم، ولا أرى بالذي صنع بأساً، وإن كثيراً من الناس لو أرادوا البيّنة على نكاحهم اليوم لم يجدوا أحداً يثبت الشهادة على ما كان من أمرهما، ولا أرى بالذي صنع بأساً وإن يُشهد فهو أحسن»^(٤).

٣ - الصدوق بإسناده، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قام رجلٌ إلى

(١) الكافي: ج ٦ / ص ٨٨.

(٢) تهذيب الأحكام: ج ٨ / ص ١٥٠.

(٣) الكافي: ج ٦ / ص ٧٣.

(٤) الكافي: ج ٦ / ص ٧٣.

أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «إني طَلَّقْتُ امرأتِي للعدَّةِ بغيرِ شهود؟ فقال: ليس طلاقك بطلاق، فارجع إلى أهلِكَ»^(١).

٦ - باب طلاق اليائس:

١ - محمد بن يعقوب، عن أبي علي الأشعري، عن محمد بن عبد الجبار، والرَّازي، عن أيوب بن نوح، وحميد بن زياد، عن ابن سِاعةٍ جميعاً عن صفوان، عن محمد بن حكيم، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «التي لا تحبل مثلها لا عدَّة عليها»^(٢).

٢ - الصدوق بإسناده، عن محمد بن مسلم، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في التي قد يئست من المحيض يطلِّقها زوجها، قال: «بانت منه ولا عدَّة عليها»^(٣).

كتاب الأولاد:

١ - باب الأسماء:

١ - الحميري بإسناده، عن جعفر، عن أبيه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يغيِّر الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان»^(٤).

٢ - محمد بن يعقوب، عدَّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن أبي إسحاق ثعلبة بن ميمون، عن رجل قد سماه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أصدق الأسماء ما سُمِّي بالعبودية، وأفضلها أسماء الأنبياء»^(٥).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ / ص ٤٩٧.

(٢) الكافي: ج ٦ / ص ٨٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ / ص ٥١٢.

(٤) قرب الإسناد: ص ٤٥.

(٥) الكافي: ج ٦ / ص ١٨.

٢ - باب العقيدة:

١ - محمد بن يعقوب بإسناده، عن رجل، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم السابع وقد ولد لأحدكم غلام أو جارية فليعق عنه كبشاً، عن الذكر ذكراً، وعن الأنثى مثل ذلك»^(١).

٢ - محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسماعيل بن مزار، عن يونس، عن بعض أصحابه عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا ذبحت فقل: بسم الله، وبالله، والحمد لله، والله أكبر إيماناً بالله، وثناءً على رسول الله صلى الله عليه وآله، والعصمة لأمره، والشكر لرزقه، والمعرفة بفضلته علينا أهل البيت، فإن كان ذكراً فقل: اللهم إنك وهبت لنا ذكراً، وأنت أعلم بما وهبت، ومنك ما أعطيت وكل ما صنعنا، فتقبله منا على سنتك، وسنة نبيك ورسولك صلى الله عليه وآله، واخسأ عنا الشيطان الرجيم، لك سُفكت الدماء، لا شريك لك، والحمد لله رب العالمين»^(٢).

٣ - باب الإختتان:

روى الطبرسي عن الباقر عليه السلام قال: «ختن رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام لسبعة أيام، وحلق رؤوسهما، وتصدق بزنة الشعر فضة، وعقّ عنهما، وأعطى القابلة طرائف»^(٣).

إشارة: في نهاية هذا الفصل أودّ أن أشير إلى أننا عرضنا نماذج مختصرة لفقهِ الإمام الباقر عليه السلام، وإلا فإن فقهِ الإمام عليه السلام أوسع من ذلك خصوصاً فيما لم يذكر من مواضع:

(١) الكافي: ج ٦ / ص ٢٧.

(٢) الكافي: ج ٦ / ص ٣٠.

(٣) الطرائف: من طريف وهو المال أو أعيان لها قيمة مالية.

(٤) مكارم الأخلاق: ص ٦٤.

كالقضاء والشهادات، والحدود والديات، والوصايا، والموارث، وما يتعلق بالجنائز وتجهيز الميت، وما يتعلق بالأطعمة والأشربة، والتجمل، والعتق ونحوها.

وقد أنتخت الروايات الفقهية المروية عن الإمام الباقر عليه السلام بطريقة تطابق الرأي المشهور بين فقهاء أهل البيت عليهم السلام.

الفصل السابع

الفكر المضاد

(١) مقدمة. (٢) فوضى الأفكار والتصدي لها. (٣) القياس. (٤) الجبر والتفويض.

(٥) الإرجاء. (٦) الغلو. (٧) التجسيم والتشبيه.

الفكر المضاد

(١)

مقدمة

انتشرت أفكارٌ غريبةٌ على الإسلام في القرنين الهجريين الأول والثاني كالإرجاء، والجبر، والتفويض، والتجسيم والتشبيه، وكثرت الشبهات حول التوحيد وماهية الخالق عزّ وجل وذاته، وتلونت تيارات الغلو والإلحاد، والتناسخ والحلول، والزندقة. وكانت أفكارهم تدور حول إسقاط الثواب والعقاب، وإنكار البعث والنشور، وتزوير الروايات، وإختلاق فضائل مزعومة، وإنكار فضائل مثبتة، ورُوِّجت نظرية عدالة جميع من رأى رسول الله ﷺ أو صحبته بخلاف نص القرآن الكريم الذي أدان المنافقين والمتخلفين عن القتال زمن النبي ﷺ.

وانتشرت ظواهر أخرى جديدة على الفكر الإسلامي مثل الإفتاء بالرأي، والقياس في الأحكام الشرعية، وتفسير القرآن الكريم بما يناسب توجهات المذاهب المختلفة، والإعتزال عن الحياة الاجتماعية.

وبكلمة، فقد كانت الساحة الفكرية في زمن الإمام ﷺ تعجُّ بالأفكار والمذاهب، نلخص أقوالهم بما يلي:

أولاً: أهل الإرجاء، قالوا: أن الإيمان قولٌ بلا عمل، أي إن الإقرار بالإيمان يجزي عن العمل في العبادات والمعاملات.

ثانياً: الجهمية، قالوا: أن الإيمان هو المعرفة بلا قولٍ ولا عملٍ.

ثالثاً: الخوارج، قالوا: أن مرتكب الكبيرة كافرٌ مخلدٌ في النار، فالعمل مؤثر في الإيمان، بحيث يكون تارك العمل العبادي كالصلاة مثلاً كافراً.

رابعاً: المعتزلة، قالت: أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمنٌ ولا هو فاسقٌ، بل في منزلة بين الأمرين، وهو قولٌ وسطٌ بزعمهم بين المرجئة والخوارج، وصاحب الكبيرة يستحق العقوبة، إذا لم يتب، وإن مات بلا توبة يدخل النار.

خامساً: الأشاعرة، قالت: أن من عصى الله من أهل الشهادتين فهو مؤمن.

سادساً: بقية المسلمين وعلى رأسهم أهل البيت عليهم السلام قالوا: إن الإيمان هو المعرفة والقول والعمل، ومرتكب الكبيرة ربما كان مؤمناً قبل المعصية، لكنه فاسقٌ وقت ارتكاب المعصية.

(٢)

فوضى الأفكار والتصدي لها

لا يستطيع المؤرخ أن يتصور الحياة الفكرية في زمن الإمام الباقر عليه السلام أكثر مما تصوره الرواية المروية في كتاب (الكافي) لثقة الإسلام الشيخ الكليني (ت ٣٢٩هـ)، وفحوى الرواية هو سؤال سفيان الثوري للإمام الصادق عليه السلام عن خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف، فيمليها الإمام عليه السلام عليه ويكتبها، لكن الراوي يستوقفه مقطع من الخطبة يريد أن يعرفه ويستوعبه، فيقول مشيراً إلى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في الخطبة: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم»^(١)، فيقول الراوي: عرفنا إخلاص العمل لله تعالى، ولكن: من هؤلاء الأئمة

(١) الكافي: ج ١ / ص ٤٠٣.

الذين يجب علينا نصيحتهم؟ معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم؟! وكل من لا تجوز الصلاة خلفه؟ وقوله ﷺ: واللزوم لجماعتهم، فأى الجماعة؟ مرجئ يقول: من لم يصل، ولم يصم، ولم يغتسل من جنابة، وهدم الكعبة، ونكح أمه فهو على إيمان جبرئيل وميكائيل؟! أو قدرئ يقول: لا يكون ما شاء الله عز وجل ويكون ما شاء إبليس؟! أو حروري^(١) يتبرأ من علي بن أبي طالب، ويشهد عليه بالكفر؟! أو جهمي^(٢) يقول: إنما هي معرفة الله وحده ليس الإيمان شيئاً غيرها!؟

يصل الراوي إلى نتيجة مفادها: أن علي بن أبي طالب ﷺ هو الإمام الذي وجب علينا نصيحتته، ولزوم جماعتهم: أهل البيت ﷺ^(٣).

وتلك الرواية تكشف الوضع الفكري العقائدي في مجتمع المسلمين زمن الإمام الباقر ﷺ من حيث اعتقاد شريحة واسعة من الناس بأفكار الإرجاء، والجبر والتفويض، والغلو، والتجسيم، وكانت هناك مخالافات فقهية في إستحداث القياس، والقول بالرأي في الشريعة.

وطالما تصدى جميع أئمة أهل البيت ﷺ لتلك الأفكار، فإننا ملزمون بذكر آرائهم مع الإشارة إلى أقوال الإمام الباقر ﷺ بهذا الخصوص، أينما وردت.

(٣)

القياس

وهو من مستحدثات القرنين الأول والثاني الهجري، وأول من قال به أبو حنيفة

(١) حروري: نسبة إلى الحرورية وهي طائفة من الخوارج، التي مرقت عن الدين، وتنسب إلى حروراء بقرب الكوفة.

(٢) جهمي: نسبة إلى الجهم بن صفوان، من المجبرة.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٤٠٣.

النعمان (ت ١٥٠هـ)، وللقياس أصلٌ فلسفي طُبِّقَ على أحكام الشريعة في مخالفة واضحة للسنة النبوية الشريفة.

فالقياص في المنطق هو: قولٌ مركبٌ من قضيتين أو أكثر، ومتى ما سلّمنا به لزمنا عنه قولاً آخر، مثلاً: إذا قلنا كلُّ إنسانٍ حيوان (مقدمة صغرى)، وكلُّ حيوانٍ جسمٌ (مقدمة كبرى)، إذن كلُّ إنسانٍ جسمٌ (النتيجة).

و«القياص في الدين هو: إلحاقُ أمرٍ غير منصوص على حكمه الشرعي بأمرٍ منصوص على حكمه لاشتراكهما في علة الحكم»^(١)، مثلاً: كلُّ مسكرٍ حرام، وكلُّ نبيذٍ مسكر، فالنتيجة كلُّ نبيذٍ حرام.

وتعريفٌ آخر لابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) هو: «القياص: حملُ فرعٍ على أصلٍ في حكم جامع بينهما»^(٢).

وقد أُستندَ في حجّيته على أدلة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، إلا أنها خارجة عن موضوعه، فمن القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يَوْمَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(٣)، ووجه الاستدلال من ذلك «أن الاعتبار من العبور وهو المجاوزة وهو ذاته معنى القياص، أي العبور من حكم الأصل إلى حكم الفرع»^(٤)، وهذا تخصيص بدون مخصّص، وتقييد بدون مقيد!

(١) روضة الناظر وجنة المناظر - ابن قدامة: ج ٣ / ص ٧٦٦.

(٢) روضة الناظر: ج ٢ / ص ٢٥٢.

(٣) سورة الحشر: الآية ٢.

(٤) إرشاد الفحول - الشوكاني: ص ١٧٦.

ومن السنّة النبوية الشريفة استدلوا بحديث معاذ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن، فقال ﷺ: «يا معاذ بم تقضي؟» قال: أقضي بكتاب الله، قال ﷺ: «فإن جاء أمرٌ ليس في كتاب الله، ولم يقض فيه نبي، ولم يقض فيه الصالحون؟» ﷺ، قال: أؤم جهدي، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي جعل رسولَ رسولِ الله أن يقضي ما رضي به رسول الله»^(١)، و«وجه الدلالة من ذلك أن القياس جزءٌ من الاجتهاد»^(٢)، والاستدلال في هذا الحديث - إن صحّ - هو استدلال على الاجتهاد في القضاء وليس على القياس في الأحكام الشرعية!

ووضِعَ للقياس أربعة أركان أساسية، وهي:

- ١ - الأصل: محل الحكم الذي ثبت بالنص أو الإجماع.
- ٢ - الفرع: المحل الذي لم يرد فيه نص ولا إجماع.
- ٣ - العلة: الوصف الجامع بين الأصل والفرع.
- ٤ - حكم الأصل: الحكم الشرعي الذي ورد به النص في الأصل^(٣)، وقيس عليه الحكم الجديد.

مثال: قياس النبيذ على الخمر بجامع الإسكار، الأصل: الخمر، الفرع: النبيذ، العلة: الإسكار، حكم الأصل: التحريم.

أقسام القياس:

تقسيمات القياس كثيرة، أهمها، على مبني الشافعية:

- ١ - قياس الأولى: أن يكون الفرع فيه أولى بالحكم من الأصل لقوة العلة فيه، مثل:

(١) سنن الترمذي - حديث رقم ١٣٢٧: ج ٤ / ص ٤٦٣.

(٢) إرشاد الفحول: ص ١٧٧.

(٣) المستصفى: ج ٢ / ص ٥٤.

قياس الضرب للوالدين على التأفيف بجامع الإيذاء.

٢ - قياس المساوي: ما كان الفرع فيه مساوياً للأصل في الحكم من غير ترجيح، مثل: قياس إحراق مال اليتيم على أكله بجامع التلف في كل منهما.

٣ - قياس الأدنى: أن يكون الفرع فيه أضعف من في علّة الحكم من الأصل، أي أقل ارتباطاً بالحكم من الأصل، مثل: إلحاق النبيذ بالخمير في تحريم الشرب وإيجاب الحد^(١).

موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام من القياس:

شنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام حملةً شديدةً على فكرة القياس باعتبار «أن دين الله لم يوضع في الرأي والقياس»^(٢)، و«أن السنّة إذا قيست مُحقّق الدين»^(٣)، ومع أن القائلين بالقياس اشتروا فيه أن يكون الأصل معلوماً من الناحية الشرعية والفرع مجهولاً، إلا أن تطبيق القياس على جزء من الأحكام سوف يُسلب الشريعة من ارتباطها بالله تعالى وبخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، وينزلها إلى مستوى عقل الفقيه الذي يعتقد بصحة القياس في الدين!

فالقياس الذي اخترعته مدرسة الرأي، كان يشكل خطراً كبيراً على الشريعة؛ لأنه لو قُدِّرَ لتلك الفكرة بالانتشار دون معارضة لانفسح المجال للتلاعب بأحكام الشرع بحجة موافقة القياس أو مخالفته، فيتبدل حكم الله عزّ وجلّ في ميراث الرجل - بموجب القياس - من سهمين إلى سهم واحد؛ لأن الذكر أقوى من الأنثى ولا يحتاج إلى سهمين، ويتبدل حكم الله عزّ وجلّ في الحائض - بموجب القياس - إلى

(١) الإحكام في أصول الأحكام - الأمدي: ج ٣ / ص ١٤١ وص ٢٥٨.

(٢) وسائل الشيعة - الحر العاملي: ج ١٨ / ص ٢٩.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٥٧.

قضاء الصلاة بدل قضاء الصوم؛ لأن الصلاة أكبر من الصوم، ويتبدل حكم الله في الوضوء للبول والغسل للمني - بموجب القياس - إلى غُسل للبول ووضوء للمني؛ لأن البول أنجس من المني، وهكذا، خصوصاً وأن الكثير من الأحكام الشرعية سندها السنّة النبوية الشريفة، ويمكن أن تُغيّر حتى تطابق القياس! وهذا الطريق مخالفٌ تماماً للأصول الشرعية في فهم الأحكام.

فإننا كبشر لا نستطيع أن ندرك جميع علل الأحكام الشرعية، وهذا هو معنى قوله ﷺ: «إن دين الله لم يوضع في الرأي والقياس»^(١)؛ لأن ملاكات الأحكام أمور توفيقية من وضع الشارع، ولا تدرك بالنظر العقلي إلا من طريق الملازمات العقلية القطعية، والقياس يُشك بحجته، على أقل التقادير، والشك في الحجية كافٍ للقطع بعدمها.

وقد وردت رواية مناظرة بين الإمام ﷺ وأبي حنيفة، ذكرت مرةً أنه الإمام الباقر ﷺ^(٢)، وأخرى أنه الإمام الصادق ﷺ^(٣)، وطالما أن ما يهمننا هو فكرة المناظرة، فإننا سنذكرها لنستفيد من أفكارها، وتجدر الإشارة هنا أن الإشتباه ربما يقع لإطلاق تسمية الصادقين أو الباقرين على الباقر والصادق ﷺ، والمهم الذي ينبغي أن نعرفه هو أن مدرسة القياس كانت نشطة زمن أيام الإمام الباقر ﷺ، وأن أبا حنيفة كان قد بلغ من العمر سنة وفاة الإمام الباقر ﷺ حوالي (٣٤) سنة، فهناك دلائل على أن مناظرة مشابهة ربما وقعت أيام الباقر ﷺ الذي قام بتقويض فكرة القياس في الشريعة.

(١) وسائل الشيعة: ج ١٨ / ص ٢٩.

(٢) مناقب أبي حنيفة - المكي: ص ١٤٣.

(٣) عيون أخبار الرضا ﷺ: ج ٢ / ص ٢٧٦، وبحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٨٧.

الإمام الباقر عليه السلام مع أبي حنيفة :

يسأل الإمام عليه السلام أبا حنيفة: بلغني أنك تقول بالقياس؟

قلتُ: نعم.

قال الإمام عليه السلام: «ويحك يا نعمان، أول من قاس إبليس، حين أمر بالسجود لآدم فأبى، وقال: ﴿...أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١)، أيهما أكبر يا نعمان، القتل أم الزنى؟».

قلتُ: القتل.

قال الإمام عليه السلام: «فلم جعل الله في القتل شاهدين، وفي الزنى أربعة، أيقاس لك هذا؟»

قلتُ: لا.

قال الإمام عليه السلام: فأيهما أكبر البول أو المنى؟

قلتُ: البول.

قال عليه السلام: فلم أمر الله في البول بالوضوء، وفي المنى بال غسل، أيقاس لك هذا؟

قلتُ: لا.

قال عليه السلام: فأيهما أكبر الصلاة أم الصوم؟

قلتُ: الصلاة.

قال عليه السلام: فلم وجب على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، أيقاس ذلك؟

(١) سورة ص: الآية ٧٦.

قلتُ: لا.

قال ﷺ: فأيهما أضعف المرأة أم الرجل؟

قلتُ: المرأة.

قال ﷺ: فلمَ جعل الله تعالى في الميراث للرجل سهمين، وللمرأة سهماً، أيقاس

ذلك؟

قلتُ: لا^(١).

الدلالات:

١ - قوَّض الإمام ﷺ أصل فكرة القياس بفكرة أساسية وهي أن العلل والأسباب تكون في أغلب الأحيان مستورة عن الإنسان، أو لا يستطيع إدراكها، ومن ذلك قوله ﷺ: «أول من قاس إبليس، حين أمر بالسجود لآدم فأبى، وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين»^(٢)، فهذا قياسٌ للظاهر بين النار والطين.

ولكن الواقع تبيَّنهُ الرواية التالية: عن عيسى بن عبد الله القرشي قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله، فقال له: يا أبا حنيفة بلغني أنك تقيس؟ قال: نعم، قال ﷺ: «لا تقس، فإن أول من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فقاس ما بين النار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النار، لعرف فضل ما بين النورين، واصفاً أحدهما»^(٣).

فأجرى إبليس القياس الظاهر بين النار والطين، وتوصَّل إلى أفضلية النار على

(١) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٨٧.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ٥٨.

(٣) الكافي: ج ١ / ص ٥٨.

الطين، ولكنه لو كان يعلم ما أضمره الله عزّ وجلّ لذلك المخلوق الجديد لما اعترض إبليس على ذلك، وهو أن نورية آدم أعظم وأجلّ من نورية النار، فكان القياس خاطئاً بالمعايير الإلهية، وهذا يؤكد أن «ما من أمرٍ يختلف فيه إثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»^(١).

٢ - فنَدَّ الإمام عليه السلام أربعة أحكام شرعية لو أخذت بالقياس لأضحت إلى نقيضها، وهي:

- أ - حكم الشهادة في القتل وفيه شاهدان، بينما في شهادة الزنا أربعة شهود.
 - ب - حكم الوضوء وهو للبول، وحكم الغُسل للمني.
 - ج - حكم قضاء الصوم للحائض، وعدم القضاء في الصلاة.
 - د - حكم الميراث للرجل سهان، وللمرأة سهم واحد.
- ولو طُبِّق القياس على تلك الأحكام لانعكس الحكم تماماً.
- ٣ - فكان من آثار كلام الصادقين عليهم السلام أن مدرسة الرأي استحدثت شروطاً جديدةً للقياس، ومنها أن يكون الحكم الأولي قد ورد فيه نص في الأصل^(٢)، وأن تكون العلة وصفاً جامعاً بين الأصل والفرع، وبذلك ضُمَّت دائرة القياس إلى حدّ كبير، وأصبح القياس مصطلحاً لا يتسع للكثير من المصاديق.

(٤)

الجبر والتفويض

والبحث فيها هو بحثٌ في مسألة حرية الإرادة أو الاختيار عند الإنسان.

(١) الكافي: ج ١ / ص ٤٨.

(٢) المستصفى: ج ٢ / ص ٥٤.

ترتبط مسألة الجبر والتفويض أو القضاء والقدر بأمرين:

الأول: مسألة التوحيد، وعلاقتها بأفعال الإنسان.

الثاني: مسألة العدل الإلهي، وعلاقة القدرة السماوية بفعل الإنسان.

فقد انقسم من قال بحرية الإرادة من عدمها إلى قسمين:

الأول: المجبرة: وهي الفرقة التي آمنت بأن جميع أفعال الإنسان هي أفعال الله

تعالى، والإنسان هو واحد في مجموع، فأفعال سائر المخلوقات في الكون هي أفعال الله

تعالى، فليس للإنسان مشيئة إرادة أو مشيئة فعل، وبذلك أنكرت حرية الإنسان في

الاختيار، وأسماها المتأخرون بأصالة نفي الاختيار.

واستندت في دعواها إلى القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ

يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي

السَّمَاءِ...﴾^(١)، ﴿...فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾^(٢)، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ

وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

الثاني: المفوضة: التي آمنت بأن أفعال الإنسان هي أفعال حقيقية اختارها بإرادته

دون أن يكون لله عليه قهر، أو جبر، أو إرادة فيها، والتفويض هو أصالة اختيار الإنسان

بملاء إرادته، ولا دخل لله تعالى في أفعاله.

واستدلَّت في دعواها على القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٢) سورة فاطر: الآية ٨.

(٣) سورة الصافات: الآية ٩٦.

بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ...»^(١)، «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...»^(٢)، و«...كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ»^(٣)، و«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»^(٤).

ويعني التفويض بزعمها: الحرية المطلقة بمعزلٍ عن إرادة الله تعالى، وتلك الفكرة قد صُوِّرت بشكل يزعم بأن الله تعالى خلق الإنسان، وجعله ذا إرادة مستقلة غير مرتبطة بالأسباب والعلل الإلهية.

الصراع بين المفوضة والمجبّرة:

بدأ الصراع بين المفوضة والمجبّرة من اللحظات الأولى لنشوء فكريتها، ذلك لأن الطرفين سمعا بحديث رسول الله ﷺ القائل ب: «أن القدرية مجوس هذه الأمة»^(٥)، و«القدرية خصماء الله في القدر»^(٦)، فحاول كل طرف نسبة القدرية إلى الأخرى، وبالنهاية تكفيرها.

فالمجبّرة أطلقوا على المفوضة بالقدرية، واتهموهم بأنهم ينكرون القدر، وينفون الإرادة الإلهية في فعل الإنسان بحيث أصبح مختاراً اختياراً تاماً في أفعاله، فقالت المجبّرة إن إنكاركم للقدر يعني أنكم قدريون!

ولم تقبل المفوضة بهذا الاتهام، فقالت أن المجبّرة يثبتون القدر لله، وبذلك سلبت

(١) سورة غافر: الآية ١٧.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٣) سورة الطور: الآية ٢١.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٥) عوالي اللآلي - ابن جمهور: ج ١ / ص ١٦٦.

(٦) بحار الأنوار: ج ٥ / ص ٦.

إرادة الإنسان، وثبتت أن أفعال الإنسان مخلوقة من قبل الله، فقالت المفوضة إن إثباتكم للقدر يعني أنكم قدريون!

فأصبح القدر، نفيًا وإيجابًا، هو محط الإيمان ومحط التهمة أيضًا، وهكذا وصل فهمهم للإسلام إلى هذا المستوى.

والواقع، أن إيمان كلا الطرفين قريبٌ من المجوسية، فالمجبرة تنسب جميع أفعال الإنسان إلى الله، وبضمنها الخير والشر، والطاعة والمعصية.

والمفوضة تنسب الاختيار التام إلى الإنسان في أفعاله، فلا دخل لإرادة الله فيها، والمشهور بين أهل العلم أن هذا يوافق المجوسية بأن أصل الخلق والوجود هو النور والظلمة^(٧)، ولا دخل لله تعالى في أفعال الخلق!

ومما زاد في هذا الصراع الفكري هو اصطفاف المعتزلة مع القدرية الفائلين بالاختيار (المفوضة)، وكان من روادهم: معبد الجهني، والحسن البصري، وغيلان الدمشقي، وواصل بن عطاء، وإصطفاف الأشاعرة والفقهاء من أهل الحديث والسنة مع القدرية الفائلين بالجبر (المجبرة)، وكان من روادهم: الجعد بن درهم مولى بني الحكم، والجهم ابن صفوان.

وكانت فكرة الجبر علاجاً أمويًا ناجعاً لإشغال «عقل المسلم» بقضية الحكم والمحكومين، فقد أباح تلك الفكرة الحكم والسلطة لهم باسم الدين، بل زعموا أنهم مجبورون على ذلك، ولا خيار لهم إلا حكم الناس، والتمتع بثروات المجتمع، وظلم الأمة، وتلك إرادة الله تعالى ولا أحد يستطيع أن يقف أمام إرادته تعالى، كما يزعمون!

يقول الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ): «إن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف

(٧) الملل والنحل - الشهرستاني: ج ١ / ص ٢٢٤.

بالإستطاعة، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجهادات،
وتُنسب إليه الأفعال مجازاً، كما تُنسب إلى الجهادات...

والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً
كان جبراً.

وعلى هذا لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه؛ لأن ذلك
يقتضي تشبيهاً، فنفي كونه: حياً، عالماً، وأثبت كونه: قادراً، فاعلاً، خالقاً؛ لأنه لا
يوصف بشيء من خلقه بالقدرة، والفعل، والخلق^(١).

وقال آخر منهم: «أن الباري تعالى عالمٌ قادرٌ على معنى أنه ليس بجاهلٍ ولا عاجزٍ،
وأن أفعال العباد مخلوقة للباري تعالى حقيقة، والعبد مكتسبها حقيقة، وجوز لذلك
حصول فعل بين فاعلين»^(٢).

والأشاعرة قالوا بأن أعمال العباد مخلوقة ومقدرة منه لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، و«أخصَّ وصفه تعالى هو القدرة على الإختراع، الإيذان والطاعة
بتوفيق الله تعالى، والكفر والمعصية بخذلانه، والتوفيق عنده هو خلق القدرة على
الطاعة، والخذلان عنده هو خلق القدرة على المعصية»^(٤).

واتخذ الصراع منحىً خطيراً عندما أصبح الاستدلال مبنياً على آيات القرآن المجيد،
كلٌّ يفهمها حسب رأيه الشخصي، ومذاقه العرفي.

(١) الملل والنحل: ج ١ / ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) الملل والنحل: ج ١ / ص ٨١ - ٨٢، وهو قول: ضرار بن عمرو.

(٣) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٤) الملل والنحل: ج ١ / ص ٩٣.

الاستدلال والاستدلال المضاد:

استدلَّ القائلون بالجبر، بثلاثة مبادئ:

الأول: إن الإنسان غير قادر على تأدية أفعاله بنفسه أصلاً، ولو كان قادراً لاجتمعت قدرتان: قدرة الإنسان، وقدرة الله تعالى، وهذا باطل لإجماع النقيضين، وإن وقع أحدهما دون الآخر أدى إلى ترجيح أحدهما وترك الآخر بدون مرجح، وذلك باطل، إذن فلا بد أن تكون أفعال العبد مخلوقة من قبل الله تعالى.

الثاني: أن الأفعال التي تصدر من العباد لا بد أن يكون لها مرجح نهائي وهو الله تعالى، ولو افترضنا أن الترجيح كان من العبد، لاحتاج ذلك الترجيح إلى ترجيح ثانٍ، والترجح الثاني يفتقر إلى ترجيح ثالث، وهكذا، وهذا باطل لأنه تسلسل، فلا بد أن تكون أفعال العباد بترجح خارجي نهائي صادر من الله تعالى.

الثالث: لما كان الله تعالى قادراً على كل شيء قدرة مطلقة، فلا مجال للقول بقدرة العبد، وقدرة العبد لا تساوي شيئاً أمام القدرة المطلقة لله عزّ وجلّ، فالقول بقدرة العبد أمام قدرة الله هو وصف الله عزّ وجلّ بالعجز والتعطيل، وهذا لا يستقيم مع قدرته تعالى.

وكان الرد عليهم من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، بالمبادئ التالية:

الأول: إن من أهم الأدلة على كون أفعال الإنسان بإرادته هو الثواب والعقاب، ولو كانت أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأن الإنسان مجبور عليها لبطل الثواب والعقاب، وهذا خلاف صريح القرآن الكريم، حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١)،

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١)، و﴿...هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، و﴿...إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾^(٤).

الثاني: أن الهدف من بعث الأنبياء والرسول ﷺ هو هداية الناس، وإنذارهم بالعقاب، وتبشيرهم بالثواب، فإذا كان العبد مجبراً على الأفعال، فما فائدة الأنبياء والرسول ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾^(٥)، و﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٦).

الثالث: أن التكليف الالهي من وجوب وحرمة متناسب مع قدرة الإنسان على تأديته، وعلى قوته في الاختيار، فإذا كانت الأفعال مجبوراً عليها أو مخلوقة لله تعالى، فسوف يؤدي ذلك إلى التكليف بما لا يطاق، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾^(٧)، شرح الإمام الصادق ﷺ الآية بالقول: «الله أكرم من أن يكلف الناس بما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد»^(٨).

(١) سورة الزلزلة: الآية ٧ - ٨.

(٢) سورة النمل: الآية ٩٠.

(٣) سورة يس: الآية ٥٤.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٦) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

(٨) الكافي: ج ١ / ص ١٦٠.

الرابع: من صفات الخالق عز وجل العدالة المطلقة، فهو عادلٌ مع جميع من خلق، فإذا أجبر الله الناس على أفعالهم، كان عقابه للعاصي ظليماً؛ لأن العبد مجبورٌ على فعله، والظلم قبيحٌ بحقه تعالى، قال سبحانه: ﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١)، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾^(٢).

الخامس: أن الحجة النهائية يوم الحساب هي الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣)، وإذا كان العباد مجبورين على أفعالهم، انتفت حجة الله على عباده في إرتكاب المعصية، بينما يقرر القرآن غير ذلك، يقول تعالى: ﴿مَا سَأَلَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤)، فالفعل صدر بإرادة الإنسان، وهو مسؤول عنه، والحجة النهائية لله تعالى.

موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام وبالخصوص الإمام الباقر عليه السلام :

كان موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام هو أن الأمر بين أمرين، لا جبر ولا تفويض، فلإنسان أفعاله التي يفعلها باختياره، ولكن بالقدرة التي أودعها الله تعالى فيه، فإذا وجد الداعي وارتفع المحذور صدر الفعل من فاعله، ونسب إليه الفعل الصادر عنه، وأقرب مثال على ذلك هو الإحراق للنار من حيث قيام العلة بعلته، فالنار محرقة، ولكن تحتاج إلى إنسان عاقل يقوم بإشعالها.

وأفعال الإنسان الإرادية مرتبطة به كمخلوق لأنها صادرة عنه، لكنها فيضٌ من

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٧.

(٢) سورة هود: الآية ١١٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٤٩.

(٤) سورة المدثر: الآية ٤٢ - ٤٦.

قدرته تعالى على الإنسان بإعطائه القدرة على الفعل، فالإنسان مسلح بالإرادة والدافع نحو الفعل، ولكنها لا تتقاطع مع إرادة الله تعالى، فهي سلسلة من الأسباب المترابطة، فأرادة الله هي الإرادة النهائية ولا تتنافى مع حرية الإنسان في الاختيار لفعله، وبالاختيار يُثاب على فعله أو يُعاقب على معصيته، وقد قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(١)، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾^(٢).

قال الإمام الباقر عليه السلام: «لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبعة: بمشيئة، وإرادة، وقدرة، وقضاء، وإذن، وكتاب، وأجل، فمن زعم أنه يقدر على نقص واحدة منهن فقد كفر»^(٣)، وقال عليه السلام أيضاً: «أن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب، ثم يعدّ بهم عليها، والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون»، فسئل عليه السلام: هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟ قال عليه السلام: «نعم أوسع مما بين السماء والأرض»^(٤)، وقال أيضاً: «ما يستطيع أهل القدر أن يقولوا: والله لقد خلق الله آدم للدينا وأسكنه الجنة ليعصيه فيردّه إلى ما خلقه له»^(٥).

وعندما سُئل الإمام الرضا عليه السلام عن توضيح معنى: أمرٌ بين أمرين؟

قال عليه السلام: «وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه».

فقال السائل: هل لله عزّ وجلّ مشيئة وإرادة في ذلك؟

قال عليه السلام: «فأما الطاعات فأرادة الله ومشيئته فيها: الأمر بها، والرضا لها، والمعاونة

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) سورة التكوير: الآية ٢٧ - ٢٨.

(٣) المحاسن: ص ٢٤٤.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ١٥٩.

(٥) علل الشرائع: ج ٢ / ص ٢٦٥.

عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي: النهي عنها، والسخط لها، والخذلان عليها».

قال السائل: فهل لله فيها قضاء؟

قال ﷺ: «نعم ما من فعل يفعله العباد من خيرٍ أو شرٍّ إلا والله فيه قضاء».

قال السائل: ما معنى هذا القضاء؟

قال ﷺ: «الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة»^(١).

وفي رواية ثانية، أن الإمام الرضا ﷺ وضع أصلاً في مسألة الجبر والتفويض، فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يُطع بإكراه ولم يعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدروا عليه، فإن ائتمروا بطاعته لم يكن الله عنها صادراً ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يُحوّل بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يُحَلْ ففعلوا فليس هو الذي أدخلهم فيه»^(٢)، ثم قال ﷺ: «من يضبط حدود هذا الكلام فقد خَصِمَ من خالفه»^(٣).

ومن المأثور عن أمير المؤمنين علي ﷺ أن شيخاً سأله بعد رجوعه من صفين: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال ﷺ: «أجل يا شيخ ما علوتم تلعة»^(٤) ولا هبطتم بطنٍ وإلا أبقضاء من الله وقدر».

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين؟ قال ﷺ: «مه يا شيخ»^(٥).

(١) عيون أخبار الرضا ﷺ - الشيخ الصدوق: ج ١ / ص ١٢٤.

(٢) عيون أخبار الرضا ﷺ: ج ١ / ص ١٤٤.

(٣) عيون أخبار الرضا ﷺ: ج ١ / ص ١٤٤.

(٤) التلعة: ما ارتفع من الأرض.

(٥) مه: اسم فعل أمر، معناه: اكفأ.

فوالله لقد عظم الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين»^(١).

فقال الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه [مرغمين]، كان قضاءً حتماً وقدراً لازماً؟ قال عليه السلام: «لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي، والأجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب ولا محمداً للمحسن، والمحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وحزب الشيطان، وقدرية هذه الأمة، ومجوسها، إن الله تبارك وتعالى كلف تخيراً، ونهى تحذيراً. وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطعَ مُكرهاً، ولم يملك مفوضاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار»^(٢).

يقول الإمام الباقر عليه السلام مخاطباً الحسن البصري: «زعموا أنك تقول: أن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم؟»، ثم وضح عليه السلام له بطلان القول بالتفويض، وحذره قائلاً: «وإياك أن تقول بالتفويض، فإن الله عز وجل لم يفوض الأمر إلى خلقه، وهنأ منه وضعفاً، ولا أجبرهم على معاصيه ظلماً»^(٣). وقول الباقر عليه السلام هو زبدة القول، وجوهرة الفكر في رد فكرة التفويض.

(١) نهج البلاغة - شرح محمد عبده: ج ٤ / ص ١٧.

(٢) نهج البلاغة: ج ٤ / ص ١٧.

(٣) الاحتجاج: ج ٢ / ص ١٨٤.

(٥)

الإرجاء

الإرجاء هو التأخير، ومنه أطلق على من قدّم الإيمان، وأخرّ العمل بالمرجئة، فالمرجئة لغةً: من الإرجاء، وهو التأخير والإمهال، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(١)، أي أمهله.

وفي الإصطلاح أنهم قومٌ قالوا: الإيمان قولٌ بلا عمل، والمرجئ «فيمن كان من قوله: الإيمان قولٌ بلا عمل، وفيمن كان من مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان، وأن الإيمان إنما هو التصديق بالقول دون العمل المُصدِّق بوجوبه»^(٢)، وكان شعارهم: «لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة»^(٣).

اعتقادات المُرجئة:

ويمكننا تلخيص اعتقادات المُرجئة بالنقاط التالية:

- ١ - إن الإيمان هو التصديق بالقلب، أو تصديق القلب ونطق باللسان فقط، ثم تطورت تلك الفكرة وأصبح الإيمان هو المعرفة بعينها.
- ٢ - لا يدخل العمل في حقيقة الإيمان، ولا هو جزء منه، وترك العمل العبادي أو عدم الإتيان به لا ينفي الإيمان، ولا يتنافى معه.
- ٣ - إن أصحاب المعاصي (الكبائر) مؤمنون حقيقة، اكتمل إيمانهم بكمال تصديقهم، فالمرجئة ترى العاصي مؤمناً وإن ترك الصلاة، والصوم، وبقية الواجبات لكفاية التصديق القلبي أو كفاية الإقرار باللسان.

(١) سورة الشعراء: الآية ٣٦.

(٢) تهذيب الآثار - الطبري: ج ٢ / ص ٦٦١.

(٣) الملل والنحل - الشهرستاني: ج ١ / ص ١٣٩.

٤ - إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأن التصديق بالشيء والجزم به لا يدخله زيادة ولا نقصان أولاً، ولأن أمر التصديق دائر بين الوجود والعدم ثانياً.

٥ - لا يخلد مرتكب الكبيرة في النار وإن لم يتب، ولا يُحكم عليه بالوعيد والعذاب لاحتفال شمول عفوهِ تعالى له.

يقول الجهم بن صفوان: «أن الإيمان هو المعرفة، وفرعون يعرف الله في قرارة نفسه، قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١)، فهو يعرف الله في قلبه، فيكون مؤمناً، ويقول تعالى عن الكافرين: ﴿...فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٢)، فهم يعرفون أن الرسول ﷺ صادق، فمعنى هذا أنهم كلهم مؤمنون»^(٣).

طرب حكام بني أمية لفكرة الإرجاء القائلة بتقديم الإيمان وتأخير العمل، فليكن قلبك مؤمناً بالله وافعل ما شئت من عصيانٍ وفسادٍ وظلمٍ، والإقرارُ باللسان، أو الإذعان بالقلب لا ينافي - بزعمهم - شرب الخمر، وترك الصلاة، وفعل الفاحشة.

وقف أئمة أهل البيت عليهم السلام من هذه الفكرة الهدامة موقفاً قوياً، فحث الإمام عليه السلام الشيعة على الإنتباه من تلك الأفكار، وأوجب عليهم تعليم أولادهم الإسلام الصحيح من بداية شبابهم، فقال عليه السلام: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»^(٤).

الرد على المرجئة :

لم تخلُ الساحة الإسلامية من ردود عديدة على المرجئة، منها:

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٣.

(٣) مقالات الإسلاميين: ج ١ / ص ٢١٤.

(٤) الكافي: ج ٦ / ص ٤٧.

١ - الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١﴾ «أن المرجئة يتمسكون بهذه الآية في أنه لا وعيد إلا على الكفار! قال القاضي: ولا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها، ويدل ذلك [مخلصاً] على ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يقتضي أن لا يدخل النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

وثانيها: أن هذا إغراءً بالمعاصي.

وثالثها: معلومٌ من حال الفاسق أنه ليس بأشقى»^(٢).

٢ - القاضي النعمان (ت ٣٦٣هـ) قال: «روينا عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: «الإيمان قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان»، وهذا الذي لا يصحُّ غيره، لا كما زعمت المرجئة أن الإيمان قولٌ بلا عمل، ولا كالذي قالت الجماعة من العامة أن الإيمان قولٌ وعملٌ فقط، وكيف يكون ما قالت المرجئة أنه قولٌ بلا عمل، وهم والأمة مجمعون على أن من ترك العمل بفريضة من فرائض الله عزَّ وجلَّ التي افترضها على عباده منكرًا لها أنه كافر حلال الدم ما كان مصرًّا على ذلك، وإن أقرَّ بالله ووحده وصدق رسوله بلسانه، إلا أنه يقول هذه الفريضة ليست مما جاء به، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿...وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٣)، فأخرجهم من الإيمان بمنعهم الزكاة، وبذلك استحل القوم أجمعون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم دماء بني حنيفة وسبي ذراريهم، وسموهم أهل الردة إذ منعوهم الزكاة»^(٤).

(١) سورة الليل: الآية ١٥.

(٢) التفسير الكبير: ج ٣١ / ص ٢٠٣.

(٣) سورة فصلت: الآية ٦ - ٧.

(٤) دعائم الإسلام: القاضي النعمان: ج ١ / ص ٣.

كان الإمام الباقر عليه السلام يقول: «اللهم العن المرجئة، فإنهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»^(١).

(٦)

الغلو

انتشرت ظاهرة الغلو كفكرة في العقد الثاني من القرن الأول الهجري، ثم تطورت كمذهب وتيار، خصوصاً زمن الإمامين الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام.

ومعنى الغلو هو تجاوز الحد، وكان يطلق على أناسٍ تجاوزوا الحد في وصف أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنشأ الكلمة نابعٌ من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...﴾^(٢).

وكان الكذب هو المحطة أو العتبة الأولى للصعود إلى سلم الغلو، فعن طريق الكذب يستطيع الراوي الكاذب الإفتاء بما شاء على أئمة أهل البيت عليهم السلام، بقضيتين: شخصياتهم عليهم السلام، وأفكارهم.

يعرض الإمام الصادق عليه السلام جانباً من تلك الصورة الأليمة لواقع الناس، فيقول عليه السلام: «إن الناس قد أولعوا بالكذب علينا وإني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه، وذلك أنهم كانوا لا يطلبون بأحاديثنا ما عند الله،

(١) بحار الأنوار: ج ٤٦ / ص ٢٩١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٧١.

وإنما يطلبون الدنيا وكلُّ يجبُ أن يكون رئيساً^(١)، وفي الحديث دلالات مهمة تكشف أهداف الغلو، منها:

١ - كان هدف الكذب دنيا يصيبها الكاذبون، أي إنهم ليسوا بأهل دين، ولم يكن همهم فهم الدين أو الالتزام به، بل كانوا يطلبون أمراً دنيوياً.

٢ - كانت صفتهم الرئيسية: الكذب، فقد «أولعوا بالكذب علينا...»^(٢)، ووضعوا أحاديث لم يحدث بها الإمام عليه السلام، قال الصادق عليه السلام أيضاً: «إن المغيرة بن سعيد دس في كتب اصحاب أبي [الباقر عليه السلام] أحاديث لم يحدث بها»^(٣). فالإمام الصادق عليه السلام يؤكد بأن المغيرة بن سعيد دس في كتب الإمام الباقر عليه السلام أحاديث مزورة لم يحدث بها الإمام عليه السلام أصلاً، من أجل الغلو في أمرهم عليهم السلام.

٣ - تأويلهم الاحاديث، كما صرح عليه السلام: «إني أحدث أحدهم بالحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير وجهه»^(٤)، ومن ذلك سأل أحدهم أبا عبد الله عليه السلام: يا بن رسول الله، قد بلغنا عنك أنك قلت: إذا عرفتم فاعملوا ما شئتم؟ قال عليه السلام: «إني قلتُ فاعملوا من الطاعات ما شئتم فإنه يقبل منكم»^(٥)، فكان التزوير: حذف كلمة (من الطاعات)، فبدّلوا فهم الحديث، وأولوه تأويلاً بعيداً، والرواية تعكس مدى خطورة المشكلة على أصول الدين وفروعه!

(١) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٤٦.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٤٦.

(٣) تحف العقول: ص ٣١٠، ودلائل الإمامة: ص ٢٨١.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٤٦.

(٥) بحار الأنوار: ج ٦٨ / ص ٣٥٦.

مصاديق الغلو:

غَلَّتْ مجموعة من الأشخاص في أهل البيت عليهم السلام غلواً مفرطاً، وأدَعَوْ لهم الألوهية، فحاربهم الإمام علي عليه السلام وأحرقهم بالنار بعد أن استتابهم فلم يتوبوا، وهكذا استمرت القضية لحد زمن الإمام الرضا عليه السلام وما بعده، وجذور القضية نشأت في زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قال: «ألا وإنه يهلك في حُبِّ مفرط يُقرظني بما ليس فيّ، ومبغضٌ يحمله شنائي على أن يبهتني، ألا إني لستُ نبياً ولا يوحى إلي ولكني أعمل بكتاب الله ما استطعتُ، فما أمرتكم من طاعة الله فحقُّ عليكم طاعتي فيما أحببتم وفيما كرهتكم، وما أمرتكم به أو غيري من معصية الله فلا طاعة في المعصية، الطاعة في المعروف، الطاعة في المعروف، الطاعة في المعروف»^(١).

ولم ينج الإمام السجاد عليه السلام من تلك الظاهرة الكافرة، فقال عليه السلام: «لعن الله من كذب علينا، إني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي، لقد ادعى أمراً عظيماً، ما له لعنه الله؟ كان علي عليه السلام والله عبداً لله صالحاً، أخو رسول الله صلى الله عليه وآله ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله صلى الله عليه وآله الكرامة من الله إلا بطاعته»^(٢).

ثم الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي [الباقر عليه السلام] فسلبه الله الإيمان، وإن قوماً كذبوا عليّ ما لهم أذاقهم الله حرَّ الحديد، فوالله ما نحن إلا عبيدُ الذي خلقنا واصطفانا ما نقدر على ضُرٍّ ولا نفع، إن رَحِمْنَا فبرحمتِهِ، وإن عَذَّبْنَا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وإنا لميتون، ومقبورون، ومنشرون، ومبعوثون، وموقوفون، ومسؤولون، ويلهم ما لهم لعنهم الله فلقد آذوا الله

(١) كنز العمال - المتقي الهندي: ج ١١ / ص ٦٢٣، وج ١٣ / ص ١٢٥.

(٢) رجال الكشي: ص ١٠٨.

وآذوا رسوله ﷺ في قبره وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي ؑ، وها أنا ذا بين أظهركم لحم رسول الله وجلد رسول الله أبيت على فراشي خائفاً وجلاً مرعوباً، يأمنون وأفرع، وينامون على فرشهم وأنا خائف ساهر وجل، أتقلقل بين الجبال والبراري، أبرأ إلى الله مما قال في الأجدع البراد^(١) عبد بني أسد: أبو الخطاب لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب ألا يقبلوه، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً أستعدي الله عليهم، وأتبرأ إلى الله منهم، أشهدكم أي امرؤ ولدني رسول الله ﷺ وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً، أو أشدَّ عذابه^(٢).

ثم الإمام الرضا ؑ، قال في دعائه: «اللهم إني بريءٌ من الحول والقوة ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إني أعوذ بك وأبرأ إليك من الذين ادَّعوا ما ليس لنا بحق، اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللهم لك الخلق ومنك الرزق وإياك نعبد وإياك نستعين، اللهم أنت خالق الأولين وخالق آبائنا الآخرين، اللهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا تصلح الإلوهية إلا لك...، اللهم إنا عبيدك وأبناء عبيدك لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، اللهم من زعم إنا أربابٌ فنحن منه براء، ومن زعم أن إلينا الخلق وعلينا الرزق فنحن براءً منه...»^(٣).

ويلخص الإمام الرضا ؑ وضع الناس عندما يسأله سائل عن أخبارٍ تأتي من مخالفيهم، فيجيبه ؑ: «إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا

(١) الأجدع: مقطوع الأنف، والبراد: من احترق البرادة.

(٢) رجال الكشي: ص ١٧١.

(٣) الاعتقادات - الشيخ الصدوق: ص ٧٤.

سمع الناس الغلو فينا كَفَرُوا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسائهم وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾^(١) [وضعوا مثالبهم علينا]، يابن أبي محمود إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا فإنه من لَزَمْنَا لزمناه، ومن فَارَقْنَا فارقناه، إن أدنى ما يخرج الرجل عن الإيِّان أن يقول للحصاة هذه نواة، ثم يدين بذلك ويبرأ ممن خالفه، يابن أبي محمود احفظ ما حدثتك به فقد جمعت لك فيه خير الدنيا والآخرة^(٢).

وقد قال تعالى في العمل والجزاء: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣)، ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٤)، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا* وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(٥).

فإن أدنى ما يعتقد به الإنسان ويخرجه عن الإيِّان بالحقيقة هو اعتقاده بأن الحصاة الجامدة الصلدة هي نواة لها قابلية على الإنبات والإثمار، وهذا تصويرٌ رائعٌ لظاهرة الغلو، فالغلو هو اعتقادٌ خاطئٌ لأمرٍ غير حقيقي، وإنزاله من قبل الإنسان الخاطيء بمنزلة الحقيقة.

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

(٢) عيون أخبار الرضا: ج ١ / ص ٣٠٤.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥.

(٥) سورة النساء: الآية ١٢٣ - ١٢٤.

التعامل مع الغلو:

وضع الإمام علي عليه السلام القاعدة الأساسية في مواجهة الغلو، ثم سار عليها بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهي: «إياكم والغلو فينا، قولوا إنا عبيدٌ مربوبون، وقولوا في فضلنا ما شئتم»^(١)، فأهل البيت عليهم السلام عبيدٌ لله تعالى، ولكن لهم فضلاً عظيماً في العلم، والإيمان، والتقوى، والإمامة.

ولأنه تزويرٌ للحقائق وتلفيقٌ للوقائع، لم يكن هناك طريقٌ فكريٌّ لمواجهة الغلو، إلا القيام بمنهجٍ من ثلاثة مبادئٍ لمعالجته، وهي:

١ - البراءة من الغلاة: تبرأ الإمام علي عليه السلام من الغلاة، وقال فيهم: «اللهم إني بريءٌ من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى [الذين يشركون مع الله تعالى عيسى وروح القدس]، اللهم اخذهم أبداً، ولا تنصر منهم أحداً»^(٢).

وتبرأ الإمام الباقر عليه السلام منهم، وخصَّ عليه السلام أحدهم، وقال فيه: «لعن الله بيان البيان...»^(٣).

وكذلك فعل الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله سدير الصيرفي عنهم، قال: «يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برى الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ودين آبائي، والله لا يجمعني وإياهم يوم إلا وهو عليهم ساخط»^(٤).

وقال الصادق عليه السلام مخاطباً مرازم بن حكيم، بخصوص شخص من سكنة الكوفة أظهر غلواً، اسمه بشار الشعيري: «يا مرازم إن اليهود قالوا ووحداً الله، وإن النصارى

(١) بحار الأنوار: ج ٢٥ / ص ٢٧٠.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٥٠.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٥ / ص ٢٦٣.

(٤) الكافي: ج ١ / ص ٢٦٩.

قالوا ووحدوا الله، وإن بشاراً قال قولاً عظيماً، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له: يقول لك جعفر بن محمد: يا فاسق، يا كافر، يا مشرك، أنا بريء منك^(١)، وقال الصادق عليه السلام أيضاً: «اللهم أني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا»^(٢).

٢ - فضحهم على الملأ بأسمائهم وصفاتهم: فضح الإمام الباقر عليه السلام الغلاة بأسمائهم، أمثال: من ذكرهم الصادق عليه السلام: الحارث الشامي، وبنان، فقال: «كانا يكذبان على علي بن الحسين عليه السلام»، ثم ذكر المغيرة بن سعيد، وبزيغاً، والسري، وأبا الخطاب، ومعمراً، وبشار الشعيري، وحمة الترمذي، وصائد النهدي، فقال: لعنهم الله، إنا لا نخلو من كذاب يكذب علينا أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤونة كل كذاب، وأذاهم حرّ الحديد»^(٣).

قال الباقر عليه السلام للمفضل بن يزيد: «يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تصافحوهم ولا توارثوهم»^(٤)، و«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم، فإن الغلاة شرّ خلق الله، يصغرون عظمة الله، ويدعون الربوبية لعباد الله، والله إن الغلاة شرّ من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا»^(٥).

ثم قال عليه السلام: «إلينا يرجع الغالي فلا نقبله، وبنا يلحق المقصّر فنقبله»، فقيل له: كيف ذلك يابن رسول الله؟ قال: «لأن الغالي قد اعتاد ترك الصلاة والزكاة والصيام والحج، فلا يقدر على ترك عاداته، وعلى الرجوع إلى طاعة الله عزّ وجلّ أبداً، وإن المقصّر إذا عرف عمل وأطاع»^(٦).

(١) بحار الأنوار: ج ٢٥ / ص ٣٠٤.

(٢) الاعتقادات - الشيخ الصدوق: ص ٧٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٥ / ص ٢٦٣.

(٤) رجال الكشي: ص ٢٥٢.

(٥) أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٥٠.

(٦) أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٥٠.

٣ - ذكر الحقائق الخاصة بأهل بيت النبوة ﷺ: شرح أئمة أهل البيت ﷺ الحقائق الخاصة بهم، وأظهروا للناس أنهم حملة علم النبي ﷺ حقيقة، في وقت انتشرت فيه الأفكار المناوئة لأصل الإسلام وما جاء به خاتم الأنبياء ﷺ.

قال الإمام الباقر (ع): «نحن جنب الله تعالى [أي طاعة الله تعالى]، نحن صفوة الله، نحن أمناء الله، نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن جبل الله المتين، نحن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)، نحن رحمة الله للمؤمنين، بنا يفتح الله، وبنا يختم الله، من تمسك بنا نجا، ومن تخلف عنا غوى، نحن قادة الغر المحجلون، من عرفنا وعرف حقنا، وأخذ بأمرنا فهو منا وإلينا»^(٢).

ووضع الصادق (ع) منهجاً في معرفة الدين حقيقة: «ما أتاكم عنا من حديث لا يصدقه كتاب الله فهو باطل»^(٣)، فجعل الميزان في قضية الألوهية والعبودية: كتاب الله المجيد، الذي لا يأتيه الباطل أبداً.

الغلو في فرق المسلمين عامة: ولم تسلم أي فرقة من فرق المسلمين من الغلو في الفكرة، أو في تهويل العناوين، أو في تمجيد الأشخاص ووضعهم فوق مستوى الفضيلة، والغلو هو تقييم خاطئ للشخص المراد تقييمه، بحيث ينهر الجاهل انبهاراً يخرج عن المعقول، ولا شك أن الغلو أكبر جناية بحق الدين، وبحق الله سبحانه وتعالى، وبحق رسول الله ﷺ، وبحق الإمام (ع)، وإن أراد البعض أن يقول بأن الغلو محصورٌ بأصحاب أئمة أهل البيت ﷺ فهذا غير صحيح، بل هو موجود في كل مذهب، إلا أن نصيب

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) غاية المرام: ص ١٣٦.

(٣) المحاسن: ج ١ / ص ٢٢١.

أئمة أهل البيت عليهم السلام كان أكبر لأنهم أهل علم لا يقارن، وتقوى، فعندما قال عليه السلام: «...نحن صفوة الله، نحن أمناء الله، نحن مستودع مواريث الأنبياء، نحن حجج الله، نحن حبل الله المتين...»^(١)، لا بد أن تُحمل بعض تلك الكلمات على غير محلها.

ونعرض فيما قيل بعبيد الله تعالى، ونبدأهم بسيد المخلوقات وخاتم الأنبياء محمد عليه السلام:

أولاً: كُذِّبَ على رسول الله عليه السلام: عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله عليه السلام أصدق الناس لهجة، وأصدق البرية كلها، وكان مسليمة يكذب عليه»^(٢).

ثانياً: ما قيل في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من الغلو: استتاب الإمام علي عليه السلام جماعة، مدة ثلاثة أيام، ليتوبوا إلى الله من كفرهم وغلوهم فيه، فلم يتوبوا فأحرقهم بالنار^(٣)، قال الصادق عليه السلام: «كان والله أمير المؤمنين عبداً لله طائعاً...»^(٤).

ثالثاً: ما قيل في أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ) من الغلو: «أن الله خصَّ أبا حنيفة بالشرعية والكرامة، ومن كرامته أن الخضر عليه السلام كان يجيء إليه كل يوم وقت الصبح ويتعلَّم منه أحكام الشريعة إلى خمس سنين، فلما مات أبو حنيفة ناجى الخضر ربه، وقال: إلهي، إن كان لي عندك منزلة فأذن لأبي حنيفة حتى يعلمني من القبر على حسب عادته حتى أتعلَّم شرع محمد عليه السلام على الكمال فأحياه الله، وتعلَّم منه العلم إلى خمس وعشرين سنة، وبعد أن أكمل الخضر دراسته، أمره الله أن يذهب إلى القشيري ويعلمه ما تعلَّم من أبي حنيفة، وصنَّف القشيري ألف كتاب، وهي لا تزال وديعة في نهر جيحون، إلى رجوع المسيح،

(١) غاية المرام ص ١٣٦.

(٢) رجال الكشي: ص ٣٢٤ رقم ١٧٤.

(٣) رجال الكشي: ج ١ / ص ٣٢٣، رقم ١٧٠.

(٤) رجال الكشي: ج ١ / ص ٣٢٤ رقم ١٧٤.

فيحكم بتلك الكتب، لأنه يأتي في زمان ليس فيه من كتب شرع محمد ﷺ فيتسلم المسيح أمانة نهر جيحون، وهي كتب القشيري»^(١).

رابعاً: ما قيل في مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) من الغلو: «أن النبي ﷺ هو الذي سمى كتاب مالك بالموطأ، وأنه سُئل ﷺ في المنام: أن مالكا والليث يختلفان في المسألة فأيهما أعلم؟ فقال: مالك وارثُ جدِّي يعني إبراهيم ﷺ»^(٢)، وأنه سُئل ﷺ مرة أخرى في المنام: «من نسأل بعدك يا رسول الله؟ فقال: مالك بن أنس»^(٣)، وروي قول إسماعيل ابن مزاحم المروزي: «رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس»^(٤). وتلك الروايات مروية عن أحلام ورؤى، فهي ليست من السيرة النبوية.

خامساً: ما قيل في أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) من الغلو: «أحمد بن حنبل إمام المسلمين وسيد المؤمنين، وبه نحيا ونموت، وبه نُبعث، فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين»^(٥)، وأُسنَد إلى الشافعي أنه قال: من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، فقيل له: تطلق عليه اسم الكفر بالله العظيم؟ فقال: نعم، من أبغض أحمد بن حنبل قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أبغض النبي، ومن أبغض النبي كفر بالله العظيم»^(٦).

وتلك نماذج من الغلو، تباينت فيها أهداف المغالين وأساليبهم، وقد حكم فقهاء أهل البيت ﷺ على الغلاة من الذين غلوا في أهل البيت ﷺ بالكفر، بعد أن شكَّك

(١) الياقوتة - ابن الجوزي: ص ٤٥.

(٢) صفوة الصفوة: ج ١ / ص ٢٨.

(٣) حلية الأولياء: ج ٦ / ص ٣١٧.

(٤) حلية الأولياء: ج ٦ / ص ٣١٧.

(٥) ذيل طبقات الحنابلة - ابن رجب: ج ١ / ص ١٣٦.

(٦) طبقات الحنابلة - ابن أبي يعلى: ج ١ / ص ١٣.

في ولائهم إلى الإسلام.

قال الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ): «اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنهم كفار بالله جل جلاله، وأنهم شرُّ من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة»^(١).

والشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) قال: «والغلاة من المتظاهرين بالإسلام، هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته إلى الإلهوية والنبوة ووصفوهم بالفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا من القصد، وهم ضلال، كفار، حكّم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة بالإكفار والخروج عن الإسلام»^(٢).

والمحقق الحلي (ت ٦٧٦هـ): «وأما الغلاة فخارجون عن الإسلام وإن انحلوه»^(٣).

والنراقي (ت ١٢٠٩هـ): «لا ينبغي الريب في نجاسة الغلاة، وهم القائلون بألوهية علي أو أحد من الناس»^(٤)، و«كذا لا تجوز الصلاة على النواصب والخوارج والغلاة، وإن كانوا من المنتحلين للإسلام بالإجماع»^(٥).

والنجفي مصنف (جواهر الكلام) (ت ١٢٦٦هـ): «أما الغلاة والخوارج والنواصب وغيرهم من علم منهم الإنكار لضروريات الدين، فلا يرثون المسلمين قولاً واحداً»^(٦).

(١) الاعتقادات - الصدوق: ص ١٠٩.

(٢) تصحيح اعتقادات الإمامية - الشيخ المفيد: ص ٦٣.

(٣) المعتبر - المحقق الحلي: ج ١ / ص ٩٨.

(٤) مستند الشيعة - النراقي: ج ١ / ص ٢٠٤.

(٥) مستند الشيعة: ج ٦ / ص ٢٧٠.

(٦) جواهر الكلام - النجفي: ج ٣٩ / ص ٣٢.

الإمام الباقر عليه السلام والغلاة:

ولم يتوقف الإمام الباقر عليه السلام عن مواجهة الغلاة والبراءة منهم، باعتبارهم منتهكين صريحين لمبدأ الدين السماوي، وجاهلين بأصول التوحيد، بل حاول إرشاد الناس إلى الحق، قائلاً لهم: «لا تضعوا علياً عليه السلام دون ما وضعه الله، ولا ترفعه فوق ما رفعه الله»^(١).

وكان عليه السلام يدعو إلى الاعتدال، ويخاطب شيعة أهل البيت عليهم السلام: «يا معشر شيعة آل محمد كونوا النمرقة الوسطى: يرجع إليكم الغالي، ويلحق بكم التالي»^(٢)، أي كونوا أقرب الناس إلى الدين الإلهي بفكركم وسلوككم حتى يرجع إليكم من خلط الحقيقة بالوهم، ويرجع إليكم من حاد عن الجادة والصراط.

(٧)

التجسيم والتشبيه

التجسيم: فكرة تزعم بأن الله عز وجل يحده العرش، وأنه موجود في جهة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ومن آمن بالتجسيم سُمِّيَ مجسِّماً، فالمجسِّمة فرقة زعمت بأن إثبات الصفات الذاتية لله سبحانه مستلزمٌ لوصفه بالأبعاد الثلاثة، أي تخيلهم بأن الله تعالى على شكلٍ من الأشكال، كأن يكون إنساناً جالساً على كرسي الملك، أو جالساً على العرش، والتجسيم والتشبيه ألفاظ مترادفة.

والجسْمُ هو ما يقبل فرض الأبعاد الثلاثة، وهي: الطول والعرض والارتفاع، فالتجسيم في عقيدة من قال به هو الاعتقاد بأن الله جسم، والجسْمُ لغةً: يدلُّ على التجمع والتشخص والتركيب، و«الجيم والسين والميم يدلُّ على تجمع الشيء، فالجسم كل شخص مُدْرَك، كذا قال ابن دريد، والجسيم: العظيم الجسم، وكذلك الجسم،

(١) بحار الأنوار: ج ٢٥ / ص ٢٨٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٧ / ص ١٠١.

والجسمان: الشخص»^(١).

وللخالق عز وجل صفات ثبوتية جمالية وأخرى سلبية جلالية، وكل ما ينسب إليه إثباتاً للواقع هو ثبوتي مثل القدرة والعلم والحياة والخالقية، وكل ما يعتبر نقصاً عليه فينبغي أن يسلب، والتجسيم يعدُّ نقصاً خطيراً، لا بد من سلبه من صفاته تعالى.

ثبت المشبهون والمجسمة لله تعالى صفات المحدثات والأجسام، كصفات اليد، والوجه، والساق، والقدم، والرجل، والعين، والجلوس، والحركة، والحد، والجهة، واستدلوا بذلك على آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في اليد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢)، وفي الوجه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣)، وفي الساق: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٤)، وفي الجلوس: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥).

وتلك الآيات الكريمة لها معانٍ تنزيهية، وهي مشتركات لغوية على أية حال، فاليد تعني القدرة، والعرش: العلم والتدبير، والوجه: الدين، والساق: الحد، إلا أن المجسمة لم يأخذوا بذلك، بل فهموا الآيات على ظاهرها، فكان له تعالى يد، وساق، ووجه ونحوه مما هو للمخلوق! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وطالما كان الجسم بأبعاده الثلاثة محدوداً بحدود الزمان والمكان، أصبح محتاجاً إلى

(١) معجم مقاييس اللغة: ج ١ / ص ٤٥٧.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٤) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٥) سورة طه: الآية ٥.

المادة والصورة، متقوماً بغيره، ومخلوقاً، بينما تميز الخالق عزّ وجلّ بالخالقية، والوحدانية، والغنى المطلق، وعدم الحاجة مطلقاً، والتحيّز بالمكان والتقيّد من صفات المخلوقات، لا من صفات الخالق عزّ وجلّ.

وبذلك انقسمت مدرسة الرأي إلى قسمين: قسمٌ قال بثبوت التجسيم بتلميحٍ أو بتصريحٍ، والقسم الثاني نفى التجسيم ونأى بنفسه عنه.

من أثبت التجسيم:

أكثر من عرض قضية التجسيم، وجعلها حقيقةً ثابتةً، ونظر لها هو ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، ثم ذكره الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، وابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، وكان البخاري (ت ٢٥٦هـ) من قبلهم قد ذكر روايات تدلُّ على التجسيم.

ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) قال: «ولا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط»^(١).

وقال أيضاً: «وكذلك الحديث الذي رواه أهل العلم أنه ﷺ قال رأيت ربي في صورة كذا وكذا، يروى من طريق ابن عباس ومن طريق أم الطفيل وغيرها، فعلم أن هذا الحديث رؤيا منام بالمدينة، كما جاء مفسراً في كثير من طرقه أنه كان رؤيا منام مع أن رؤيا الأنبياء وحي، لم يكن رؤيا يقظة ليلة المعراج»^(٢).

وفي مكان ثالث قال: «فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عياناً، وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه لكن يُرى في المنام ويحصل للقلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها، ومن الناس من تقوى مشاهدة

(١) مجموعة الرسائل الكبرى - ابن تيمية: ص ١٣٦.

(٢) مجموعة الفتاوى - ابن تيمية: ج ٣ / ص ٣٨٧.

قلبه حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه»^(١).

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) قال: «كان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في فنون، إلا أن في عقله شيئاً..، وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر»^(٢).

والبخاري (ت ٢٥٦هـ) قال: «أخرج الشيخان من طريق ابن شهاب عن أبي عبد الله الأغر وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث آخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفري فأغفر له»^(٣).

والهيثمي (ت ٨٠٧هـ) قال: «عن ابن عباس أنه كان يقول أن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين: مرة ببصره ومرة بفؤاده، رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح خلا جمهور بن منصور الكوفي، وجمهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات، وعن ابن عباس قال: نظر محمد ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى!! قال عكرمة: فقلت لابن عباس: نظر محمد إلى ربه؟ قال: نعم، جعل الكلام لموسى، والحلّة لإبراهيم، والنظر لمحمد ﷺ!!!»^(٤).

وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) في ذكر النزول يوم عرفة، قال: «عن أسماء قالت: قال رسول الله ﷺ: رأيتُ ربي عزّ وجلّ على جبلٍ أحمر عليه إزار وهو يقول: قد سمحتُ، قد غفرتُ، إلا المظالم، فإذا كانت ليلة المزدلفة لم يصعد إلى السماء الدنيا

(١) مجموعة الفتاوى: ج ٢ / ص ٣٣٦.

(٢) رحلة ابن بطوطة: ص ١٢.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الدعوات، باب الدعاء نصف الليل حديث رقم ٦٣٢١.

(٤) مجمع الزوائد - الهيثمي: ج ١ / ص ٧٨.

وتنصرف الناس إلى مني»^(١).

من نفي التجسيم:

والملفت للنظر أن أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) قد نفي التجسيم بصورة قاطعة، وكذلك فعل الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، وذكروا بأن الفوقية في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢) هي فوقية بمعنى القهر، وأكدوا على وجود القرينة في ذكر المتشابهات، وهذا مطابقاً لأفكار أهل البيت عليهم السلام.

أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) قال: «إنما الأسماء مأخوذة بالشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الأسم على كل ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف، والله تعالى خارج عن ذلك كله فلم يجوز أن يسمى جسماً لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجز في الشريعة ذلك، فبطل»^(٣).

والغزالي (ت ٥٠٥هـ) قال: «إذا سمع لفظ الفوق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٤)، وفي قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٥)، فيعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين: أحدهما نسبة جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل، يعني أن الأعلى من جانب رأس الأسفل، وقد يطلق لفوقية الرتبة، وبهذا المعنى يقال: الخليفة فوق السلطان، والسلطان فوق الوزير، وكما يقال: العلم فوق العمل، والأول يستدعي جسماً ينسب إلى جسم، والثاني لا

(١) لسان الميزان - ابن حجر: ج ٢ / ص ٢٣٨.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٠.

(٣) طبقات الحنابلة: ج ٢ / ص ٢٩٨.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٨.

(٥) سورة النحل: الآية ٥٠.

يستدعيه، فليعتقد المؤمن قطعاً أن الأول غير مراد، وأنه على الله تعالى محال، فإنه من لوازم الأجسام أو لوازم أعراض الأجسام، وإذا عرف نفي هذا المحال فلا عليه أن يعرف أنه لماذا أطلق وماذا أريد؟ ففس على ما ذكرناه ما لم نذكره»^(١).

الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في إثبات أن القرينة اللفظية تمنع إرادة المعنى الظاهر، قال: «... الفرع الرابع [في تعاريف مذهب السلف]: أنه كما لا يجوز الجمع بين متفرق، فكذلك لا يجوز التفرق بين مجتمع، فقول تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٢) لا يدل على جواز أن يقال: أنه تعالى فوق لأنه لما ذكر (القاهر) قبله ظهر أن المراد بهذه الفوقية: الفوقية بمعنى القهر لا بمعنى الجهة، بل لا يجوز أن يقال وهو القاهر فوق غيره بل ينبغي أن يقال فوق عباده؛ لأن ذكر العبودية عند وصف الله تعالى بالفوقية يدل على أن المراد من تلك الفوقية فوقية السيادة والإلهية...

واعلم أن الله تعالى لم يذكر لفظ المتشابهات إلا وقرن بها قرينة تدل على زوال الوهم الباطل، مثاله: أنه تعالى قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٣) ذكر بعده آية قرآنية فأضاف النور إلى نفسه، ولو كان تعالى نفس النور لما أضاف النور إلى نفسه؛ لأن إضافة الشيء إلى نفسه ممتنعة، ولما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٤) ذكر قبله ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾^(٥)، وبعده ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾^(٦) فقد ذكر أن هاتين الآيتين تدل على أن كل ما كان

(١) إجماع العوام - الغزالي: ص ٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٨.

(٣) سورة النور: الآية ٣٥.

(٤) سورة طه: الآية ٥.

(٥) سورة طه: الآية ٤.

(٦) سورة طه: الآية ٦.

مختصاً بجهة الفوقية مخلوق محدث»^(١).

الآيات الرئيسية في التجسيم:

هذه الآيات التي أُستدل بها على إثبات الجسم والهيئة للخالق تعالى عن ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٢)، ويراد منه جدّة الأمر وحدّته، فمن قام بعمل وهو جاد كشف عن ساقه أو شمّر عن ثوبه، وفي اللغة: شمّر للأمر: أرادته وتهبأ له بجده.

وفي تفسير ابن كثير: «قال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قال: شدة الأمر وجدّه، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ هو الأمر الشديد المفضع من الهول يوم القيامة»^(٣).

لكن ابن كثير في نفس تفسير الآية يذكر الرواية التالية التي تدلّ على التجسيم: «وقد قال البخاري هاهنا: حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»^(٤).

(١) أساس التقديس - الفخر الرازي: ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ج ٨ / ص ١٩٩.

(٤) تفسير ابن كثير: ج ٨ / ص ١٩٩.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١)، وقد أطنب الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ووصل الى نتيجة مفادها أن وجه ربك هي ذات الله^(٢)، قال: «الوجه يطلق على الذات، والمجسم يحمل الوجه على العضو، وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣)، يدل على أنه لا يبقى إلا وجه الله تعالى، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء وهو كذلك، وعلى قول المجسم يلزم أن لا تبقى يده التي أثبتها ورجله التي قال بها، لا يقال: فعلى قولكم أيضا يلزم أن لا يبقى علم الله ولا قدرة الله؛ لأن الوجه جعلتموه ذاتاً، والذات غير الصفات فإذا قلت: كل شيء هالك إلا حقيقة الله، خرجت الصفات عنها، فيكون قولكم نفياً للصفات، نقول: الجواب عنه بالعقل والنقل^(٤)، واستدلاله في غاية الضعف، فهو أراد أن يبرهن بأن وجه الله تعالى هو ذاته! بدليل مزعوم أننا نعرف ذات الإنسان من معرفة وجهه!

بينما التفسير الصحيح هو ما نقل عن الإمام الباقر^(٥) عندما سُئل عن: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٥)، قال^(٦): «الله أعظم من أن يوصف، ولكن معناها كل شيء هالك إلا دينه...»^(٦).

(١) سورة الرحمن: الآية ٢٧.

(٢) التفسير الكبير: ج ٧ / ص ٤٩٤.

(٣) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٤) التفسير الكبير ج ٢٩ / ص ٩٣.

(٥) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٦) الدمعة السابكة: ج ٧ / ص ١٥٤.

٣ - قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾^(٣)، والإستواء على العرش يعني التدبير، فبعد أن خلق الخلق قام بتدبير أمورهم كما تشير الآية التالية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ...﴾^(٤).

قالت المجسمة: «أصل الإستواء على العرش: ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل، على كل نبي أرسل»^(٥)، وبذلك «نؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، إستواءً حقيقياً يليق بجلاله سبحانه، ليس كإستواء البشر، ولكن كيفية الإستواء مجهولة بالنسبة لنا، ولذا، فإننا نفوض كيفية إلى الله، كما قال الإمام مالك وغيره لما سُئِلَ عن الإستواء: الإستواء معلوم، والكيفية مجهولة»^(٦).

«وأما قولك: كيف استوى، فإن الله لا يجري عليه (كيف)، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف ذلك، ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأته، وحرّم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون، فأمنوا بخبره عن الإستواء، ثم ردوا علم (كيف استوى) إلى الله»^(٧)، ونفوا أن يكون معنى الإستواء بمعنى الإستيلاء.

(١) سورة طه: الآية ٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٤، وسورة يونس: الآية ٣، وسورة الرعد: الآية ٢، وسورة الفرقان:

الآية ٥٩، وسورة السجدة: الآية ٤، وسورة الحديد: الآية ٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٤) سورة يونس: الآية ٣.

(٥) مجموعة الفتاوى: ج ٢ / ص ١٨٨.

(٦) مجموعة الفتاوى: ج ٣ / ص ٢٥.

(٧) درء تعارض العقل والنقل - ابن تيمية: ج ٦ / ص ١١٨.

وبخصوص آية ﴿...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾^(١) قال الطبراني: «عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يُقَدَّرُ قدرُهُ، وقال الحاكم عقبه: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»^(٢).

تعالى الله عن جميع العوارض والحوادث، من ذهابٍ، وحركةٍ، وانتقالٍ، وصعودٍ، ونزولٍ، ومجيءٍ، وذهابٍ.

الإمام الباقر عليه السلام يردُّ على فكرة التجسيم:

ردَّ الإمام الباقر عليه السلام على فكرة التجسيم في مواضع متعددة، وكان رواد مدرسة الرأي يطرحون الفكرة عليه عليه السلام بمختلف الأساليب، ومنها:

١ - بخصوص أنه تعالى لا يشغله حيِّز، يسأله المناظر: ماهو الله؟ يقول عليه السلام: «الأوحد»، كيف هو؟ يجيب عليه السلام: «ملكٌ قادرٌ»، أين هو؟ يجيب عليه السلام: «بالمرصاد»، فيقول السائل: ليس عن هذا أسألك! قال الإمام عليه السلام: «ما أجبتك به هو صفة الحق، فأما غيره فصفة الخلق»^(٣).

٢ - في غضب الله تعالى، قال الباقر عليه السلام في جوابه عن معنى: ﴿...وَمَنْ يَجْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(٤): «الغضب: العذاب، وإنما يغضب المخلوق الذي يأتيه الشيء فيستفزه ويغيِّره عن الحال التي هو بها لغيره، فمن زعم أن الله يغيِّره الغضب والرضا، ويزول عن هذا، فقد وصفه بصفة المخلوق»^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) المعجم الكبير - الطبراني ج ١٢ / ص ٣٩، حديث رقم ١٢٤٠٤، رواه الحاكم رقم ٣١١٦.

(٣) التوفيق الرباني: ص ١٦٦.

(٤) سورة طه: الآية ٨١.

(٥) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٩.

٣ - بخصوص أنه تعالى لا يحده حدُّ زمني، يُسأل: أخبرني عن الله عزَّ وجلَّ متى كان؟ قال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً»^(١).

٤ - وعندما يسأله السائل: هل رأيت ربك الذي تعبد؟ يُجيب عليه السلام: «بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبهه بالناس، موصوفٌ بالآيات، معروفٌ بالدلالات، لا يجور في حكمه ذلك الله لا إله إلا الله»^(٢).

٥ - وفي وصف الله تعالى قال الإمام الباقر عليه السلام: «أن الله عزَّ وجلَّ لا يوصف، وكيف يوصف وقد قال في كتابه: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣)، فلا يوصف بقدرة إلا كان أعظم من ذلك»^(٤).

٦ - وفي صفة القديم، قال الباقر عليه السلام: «أنه واحدٌ صمدٌ أحدي المعنى، ليس بمعاني كثيرة مختلفة»، قلتُ: جعلتُ فذاك يزعم قومٌ من أهل العراق أنه يسمع بغير الذي يبصر، ويبصر بغير الذي يسمع؟ قال عليه السلام: «كذبوا، وألحدوا، وشبهوا تعالى الله عن ذلك، إنه سميعٌ بصيرٌ، يسمع بما يبصر، ويبصر بما يسمع»، قلتُ: يزعمون أنه بصير على ما يعقلونه؟ قال عليه السلام: «تعالى الله إنما يعقل ما كان بصفة المخلوق، وليس الله كذلك»^(٥).

٧ - عن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على

(١) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٢) الاحتجاج: ج ٢ / ص ٤٨.

(٣) سورة الحج: الآية ٧٤.

(٤) التوحيد: ص ١٢٧.

(٥) الكافي: ج ١ / ص ١٠٨.

صورته؟ فقال ﷺ: «هي صورة محدثة، مخلوقة، اصطفاه الله واختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه، كما أضاف الكعبة إلى نفسه، والروح إلى نفسه، فقال: بيتي، ونفختُ فيه من روحي»^(١).

٨ - عن الباقر ﷺ: «قال رسول الله ﷺ في بعض خطبه:

الحمد لله الذي كان في أوليته وحدانياً، وفي أزليته متعظماً بالإلهية، متكبراً بكبريائه وجبروته، ابتداءً ما ابتدع، وأنشأ ما خلق، على غير مثال كان سبق، بشيء مما خلق، ربنا القديم بلطف ربوبيته وبعلم خبره فتق، وبأحكام قدرته خلق جميع ما خلق، وبنور الإصباح فلق، فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه، ولا معقب لحكمه، ولا رادّ لأمره، ولا مستزاح عن دعوته، ولا زوال لملكه، ولا انقطاع لمدته، وهو الكينون أولاً، والديموم أبداً.

المحتجب بنوره دون خلقه في الأفق الطامح، والعزّ الشامخ، والملك الباذخ، فوق كلّ شيء علا، ومن كلّ شيء دنا، فتجلّى لخلقه من غير أن يكون يُرى، وهو بالمنظر الأعلى، فأحبّ الإختصاص بالتوحيد، إذ احتجب بنوره، وسما في علوه، واستتر عن خلقه، وبعث إليهم الرسل لتكون له الحجة البالغة على خلقه، ويكون رسله إليهم شهداء عليهم، وابتعث فيهم النبيين مبشرين ومنذرين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروا، ويوحّدوه بالإلهية بعد ما عضدوا»^(٢).

(١) الكافي: ج ١ / ص ١٣٤.

(٢) التوحيد: ص ٤٤.

(٨)

البديل

عندما نفى الإمام عليه السلام الغلو والإرجاء والجبر والتفويض والتشبيه والتجسيم، عرض مقومات التوحيد، عبر الروايات التالية:

١ - سُئل الإمام الباقر عليه السلام عن التوحيد، قال السائل: أتوهم شيئاً؟ فقال عليه السلام: «نعم، غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل، وخلاف ما يتصور في الأوهام؟ إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود»^(١).

٢ - قال عليه السلام: «أن الله تبارك وتعالى خلّو من خلقه، وخلقه خلّو منه، وكلّ ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله عزّ وجلّ فهو مخلوق، والله تعالى خالق كل شيء»^(٢).

٣ - عن أبي بصير، قال: جاء رجلٌ إلى الإمام الباقر عليه السلام فقال له: أخبرني عن ربك متى كان؟ فقال عليه السلام: «ويلك إنما يُقال لشيء لم يكن: متى كان، إن ربي تبارك وتعالى كان، ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون، كيف ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كوّن الأشياء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً.

ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مذكوراً، ولا كان خلّواً من الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلّواً بعد ذهابه، لم يزل حياً بلا حياة، وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً، وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيف، ولا له أين، ولا له حدٌّ، ولا يعرف بشيء يشبهه، ولا يهرم لطول البقاء، ولا يصعق لشيء، بل لخوفه تصعق

(١) الكافي: ج ١ / ص ٨٢.

(٢) التوحيد: ص ١٠٥.

الأشياء كلها، كان حياً بلا حياة حادثة، ولا كونٌ موصوفٌ، ولا كيفٌ محدودٌ، ولا أينٌ موقوفٌ عليه، ولا مكانٌ جاور شيئاً.

بل حيٌّ يُعرَفُ، ومملكٌ لم تنزل له القدرة والمملك، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئة، لا يحد ولا يُبعض ولا يفنى، كان أولاً بلا كيف، ويكون آخراً بلا أين، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

ويلك أيها السائل إن ربي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار، ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يُسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، وما بينهما وما تحت الثرى»^(١).

٤ - قال عليه السلام لجابر بن يزيد: «... إن الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيهه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلٌّ عن أوهام المتوهمين، واحتجب عن أعين الناظرين، لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الآفلين، ليس كمثله شيء، هو السميع العليم»^(٢).

٥ - قال عليه السلام: «كان الله ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما كوّن، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد ما كوّنه»^(٣).

٦ - عن زرارة قلتُ للباقر عليه السلام: فطرة الله التي فطر الناس عليها؟ قال عليه السلام: «التوحيد»^(٤).

٧ - قال عليه السلام: «ليس على الناس أن يعلموا حتى يكون الله هو المعلم لهم، فإذا علمهم

(١) الكافي: ج ١ / ص ٨٨.

(٢) التوحيد: ص ١٧٩.

(٣) التوحيد: ص ١٤٥.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ج ٢ / ص ٢٧٤.

فعليهم أن يعلموا»^(١).

٨ - قال ﷺ: «ما من شيء أعظم من شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن الله لم يعدله شيء، ولا يشركه في الأمور أحد»^(٢).

٩ - قال ﷺ: «أن الله تباركت أسماؤه التي يدعى بها، وتعالى في علوِّ كنهه أحد، توحد بالتوحيد في توحد ثم أجراه على خلقه، فهو أحد صمد، قدّوس يعبده كل شيء وبصمد إليه، وفوق الذي عيننا تبلغ، وسع كل شيء علماً»^(٣).

١٠ - قال ﷺ: «أن الله تبارك وتعالى كان، وليس شيء غيره نور إلا ظلامٌ فيه، وصدقاً لا كذب فيه، وعلماً لا جهل فيه، وحياة لا موت فيه، وكذلك هو اليوم، وكذلك لا يزال أبداً»^(٤).

١١ - قال ﷺ: «العجب كلُّ العجب للشَّاك في قدرة الله وهو يرى خلق الله، والعجب كلُّ العجب للمكذِّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، والعجب كلُّ العجب للمصدِّق بدار الخلود وهو يعمل لدار الغرور، والعجب كلُّ العجب للمختال الفخور الذي خلق من نطفة ثم يصير جيفة، وهو فيما بين ذلك لا يدري كيف يصنع»^(٥).

١٢ - في الرواية أن وفداً من أهل فلسطين قدِمَ على الإمام الباقر ﷺ فسألوه عن مسائل فأجابهم، ثم سألوه عن الصمد، فقال ﷺ: «تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرف:

فالألف دليل على إنَّيته وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ

(١) المحاسن: ص ٢٠٠.

(٢) المحاسن: ص ٣٠.

(٣) المحاسن: ص ٢٤١.

(٤) المحاسن: ص ٢٤٢.

(٥) المحاسن: ص ٢٤٢.

وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾، وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس.

واللام دليل على إلهيته بأنه هو الله.

والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان، ولا يقعان في السمع، ويظهران في الكتابة دليلان على أن إلهيته بلطفه خافية لا تدرك بالحواس، ولا تقع في لسان واصف، ولا أذن سامع، لأن تفسير الإله هو الذي أله الخلق عن درك ماهيته وكيفيته بحس أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواس، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة، دليل على أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبدٌ إلى نفسه لم يرَ روحه كما أن لام الصمد لا تتبين، ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكّر العبد في ماهية الباري وكيفيته أله فيه وتحير ولم تحط فكرته بشيء يتصور له، لأنه عز وجل خالق الصور، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم ومركب أرواحهم في أجسادهم.

وأما الصاد، فدليل على أنه عز وجل صادق وقوله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى إتباع الصدق بالصدق، ووعد بالصدق دار الصدق.

وأما الميم فدليل على ملكه، وأنه الملك الحق، لم يزل ولا يزال، ولا يزول ملكه.

وأما الدال فدليل على دوام ملكه، وأنه عز وجل دائم تعالى عن الكون والزوال، بل هو عز وجل يكون الكائنات الذي كان بتكوينه كل كائن^(٢).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨.

(٢) التوحيد: ص ٩٢.

ثم قال الباقر عليه السلام: «الحمد لله الذي منّ علينا ووفّقنا لعبادته، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وجنبنا عبادة الأوثان، حمداً سرمداً، وشكراً واصباً، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(١) يقول: لم يلد عزّ وجلّ فيكون له ولد يرثه، ولم يولد فيكون له والد يشركه في ربوبيته وملكه، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢)، فيعاونه في سلطانه»^(٣).

١٣ - وفي مناسبة أخرى، سُئِلَ ما الصمد؟ فأجاب عليه السلام اختصاراً: «السيد المصمود إليه في القليل والكثير»^(٤).

١٤ - في جوابه لمن سأله عن جواز القول بأن الله شيء، قال: «نعم، تخرجه من الحديين: حدّ التعطيل وحدّ التشبيه»^(٥).

١٥ - في صفات الله تعالى: قال عليه السلام: «ياذا الذي كان قبل كل شيء، ثم خلق كل شيء، ثم يبقى كل شيء، وياذا الذي ليس في السموات العلى ولا فوقهنّ، ولا بينهنّ ولا تحتهنّ إله يعبد غيره»^(٦)، وقال عليه السلام: «إن ربي تبارك وتعالى كان لم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء، ولا كان على شيء، ولا ابتدع له مكاناً»^(٧).

١٦ - في العبودية الخالصة لله تعالى، قال عليه السلام: «لو أنّ عبداً عمل عملاً يطلب به

(١) سورة التوحيد: الآية ٣.

(٢) سورة التوحيد: الآية ٤.

(٣) التوحيد: ص ٩٢.

(٤) التوحيد: ص ٩٤.

(٥) الكافي: ج ١ / ص ٨٥.

(٦) بحار الأنوار: ج ٣ / ص ٣٨٥.

(٧) بحار الأنوار: ج ٣ / ص ٣٢٦.

وجه الله عزّ وجلّ والدار الآخرة، فأدخل فيه رضا أحدٍ من الناس كان مشركاً^(١)، وفي الإنقطاع عن الخلق إليه، قال ﷺ: «لا يكون العبدُ عابداً لله حق عبادته، حتى ينقطع عن الخلق كله إليه»^(٢).

(١) بحار الأنوار: ج ٦٩ / ص ٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٧ / ص ٢١١.

الفصل الثامن

المعالم الاجتماعية

- (١) مقدمة (٢) الدولة تحت حكم بني أمية (٣) تزوير الحقيقة (٤) الإمام الباقر عليه السلام
والدرهم الإسلامي (٥) حكم الدولة زمن الإمام الباقر عليه السلام (٦) الاستنتاج.

(١)

مقدمة

بسبب سلوك خلفاء بني أمية تبدلت طبيعة المجتمع الإسلامي تبديلاً جذرياً، فلم يعد الخليفة في الحقيقة خليفة رسول الله ﷺ، بل أصبح ملكاً له امتيازات الملوك وفسادهم، وقد قال تعالى على لسان بلقيس: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١)، ولم تعد الأمة أمة ذات رأي مستقل، وتفكير نقدي تنتقد من خلاله الحاكم إذا أخطأ، بل أصبحت قطعاً يُدار من قبل الراعي الفاسد، ولم يعد المقاتلون في الدولة مجاهدين في سبيل الله، بل أصبحوا جنوداً يستلمون رواتبهم ويدينون بالولاء للنظام الحاكم مهما تبدل أو تغير، ظلم أو عدل، وأصبحت الضرائب المُجباة من خراج أو جزية تذهب إلى خزانة الخليفة الأموي وحاشيته، لا إلى صالح الأمة.

وكان ما يغيظ الناس في حياة البذخ والترف واللهو والفجور للخلفاء الأمويين الذين كان يفترض فيهم أن يكونوا القدوة، هو أنهم كانوا يتحدثون باسم الدين، ويحكمون الناس باسم الخلافة الشرعية على الأرض، لقد كانوا فعلاً مثل السوء في الفسق، والفجور، والرذيلة.

وأفضل ما يعكس فساد خلفاء بني أمية هو ما أوجزه المسعودي (ت ٣٤٦هـ) في رواية له عن سبب سقوط بني أمية، قال: «سُئِلَ بعضُ شيوخ بني أمية ومُحَصِّلِها عقيبُ زوال المُلْك عنهم إلى بني العباس: ما كان سببُ زوال مُلْكِكُم؟ فقال: إنا شُغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمننا، فظلمنا رعيتنا، فبئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منّا،

(١) سورة النمل: الآية ٣٤.

وتحوّل على أهل خراجنا، فتخلّوا عنا، وخربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فأثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جنودنا، فزالت طاعتهم عنا...»^(١).

ووصل حبّهم للملك والخلافة أنهم جعلوا أبناءهم ولاية للعهد، فمعاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ) خصّ الخلافة في ابنه يزيد، ولما سُئِلَ عن ذلك ولم حرم آخرين منها، قال لهم: «إبني أحبُّ إليّ من أبنائهم!»^(٢)، وفيما قاله مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) لمعاوية حينما طلب منه مبايعة يزيد: «إهدأ، وتروّ، ولا تُسرّع من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك في قومك نظراً، وأن لهم على مناوأتك وزراً»^(٣).

وكرر عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) تطبيق تلك السياسة المستحدثة المخالفة لسياسة النبي ﷺ، فقام بتخصيص ولاية العهد لابنه الوليد، محاولاً عزل أخيه عبد العزيز عن تلك الولاية، ثم قتل ابن عمه عمرو بن سعيد بن العاص، ثم توجه إلى خالد وعبد الله ابني يزيد بن معاوية يسألها: «يا بنيّ يزيد، أتجبان أن أقيلكما بيعة الوليد؟ فقالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين، قال: لو قتلتما غير ذلك لأمرتُ بقتلكما!»^(٤).

والوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ) أخذ البيعة بولاية العهد لولديه: الحكم وعثمان على الرغم من صغر سنهما، يقول أحد مساعديه: «دخلتُ عليه وقد عقد لابنيه بعده، فقلتُ له: يا أمير المؤمنين، أقول قول الموثوق بنصيحته أو يسعني السكوت؟ قال: قول الموثوق به، فقلتُ: إنّ الناس قد أنكروا ما فعلت، وقالوا: يبايع لمن لم يحتلم،

(١) مروج الذهب - المسعودي: ج ١ / ص ٤٤٦.

(٢) الفتوح - ابن أعمش: ج ٢ / ص ٢٢٨.

(٣) الإمامة والسياسة - ابن قتيبة: ج ١ / ص ١٩٩.

(٤) الأخبار الطوال - الدينوري: ص ٣٢٥.

وقد سمعتُ ما أكرهُ فيك! قال: أفأَدْخَلُ بيني وبين ابني غيري، فيلقى منه كما لقيتُ من الأحوال [يعني عمه هشاماً] بعد أبي»^(١)!

وبسبب ظلمهم للناس، خشي بنو أمية من الناس، فكان أحدهم يحذر الآخر من إمكانية فقدانهم الملك لأنه لم يكن مستنداً على أساس ديني أو علمي، بل على أساس مطامع شخصية، ولا يفتأ التاريخ يذكرنا بمشاهد تكالبهم على السلطة، وإستقتالهم للحفاظ عليها، فعندما أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد، جمع بني أمية، وقال لهم: «لأخبرنكم عني يا بني أمية، لن يبرح هذا الأمر فيكم ما عظمتم ملوككم، فإذا تمناها كل إمري منكم لنفسه وثب بنو عبد المطلب في أقطارها، وقال الناس: آل الرسول ﷺ! فكانت الخلافة فيكم كحجر المنجنيق، يذهب أمامه ولا يرجع وراءه»^(٢).

ثم قبل هلاكه، جمعهم معاوية وقال لهم: «يا معشر بني أمية، إني لما خفتُ أن يسبقكم الموت إليَّ سبقتُهُ بالموعظة إليكم، لا لأردَّ قدرًا ولكن لأبلغُ عُذراً، إن الذي أُخلف لكم من دنياي أمرٌ، ستشاركون فيه وتُغلبون عليه، والذي أُخلف لكم من رأيٍ أمرٍ مقصودٌ لكم نفعه إن فعلتموه، مخوفٌ عليكم ضرره إن ضيعتموه..، إن دولتكم ستطول، وكل طويل مملول، وكل مملول مخذول، فإذا كان ذلك كذلك، كان سببه اختلافكم فيما بينكم، واجتماع المختلفين عليكم، فيدبر الأمرُ بضدِّ ما أقبلَ به»^(٣).

ولم يدم ملكهم أكثر من سبعين عاماً ونيف بعد معاوية.

(١) الأغاني - الأصفهاني: ج ٧ / ص ٦٩.

(٢) الأوائل - العسكري: ج ١ / ص ٧١.

(٣) أنساب الأشراف: ج ٢ / ص ٤٤٢.

(٢)

الدولة تحت حكم بني أمية

أظهر المؤرخون المواليون لبني أمية إنجازات الخلفاء في الفتوحات، وحاولوا ستر عيوبهم فيما يخص اهتمامهم باللهو والفساد، والبطش والظلم الاجتماعي، والقهر والقتل، وإغفالهم العدل بين الناس والإحسان إلى الرعية، ولم ينج مفصل من مفصل الدولة من ذلك الفساد: في بيت المال، والقضاء، والاقتصاد، والسياسة، والمجتمع.

المجتمع:

بلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها زمن الإمام الباقر عليه السلام، أي في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ)، حيث امتدت من أطراف الصين شرقاً إلى جنوب أوروبا غرباً، بالإضافة إلى أفريقيا والأندلس وبلاد السند، ولكن إمتداد الدولة وسعتها لا يعني أنها كانت تسع العدالة مع الناس بسعة المكان، أو أنها تحكم باسم الإسلام والقرآن، بل العكس من ذلك.

فقد كان مجتمع المسلمين زمن الإمام عليه السلام أقرب إلى المجتمع الطبقي منه إلى مجتمع العدالة الإسلامية الذي قام رسول الله صلى الله عليه وآله بتأسيسه، وكان زهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خير شاهد على مصداقية الإسلام في العدالة الاجتماعية، وضرورة مساواة الراعي بالرعية أو الحاكم بالمحكومين.

تميزت الطبقات الاجتماعية الثلاث زمن عبد الملك بن مروان ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية بميزات تكدس الثروة في طبقة وحرمانها في أخرى، فالطبقات الاجتماعية زمن بني أمية كانت كالتالي:

الأولى: طبقة الخلفاء والأمراء وحواشيهم: فهم أصحاب السلطة والنفوذ، وهم

الكلمة الأخيرة، والصلاحيات المطلقة، وكانت لهم مجموعة كبيرة من الخدم، والجواري، اتسمت حياتهم بالترف، وبشراء ضمائر الناس بالمال من أجل الولاء، وكانت سياستهم هي تكميم الأفواه، والتكتم على فساد الحكام ومن أحاط بهم.

الثانية: طبقة علماء البلاط، وفقهاء السلاطين، والقضاة، والتجار الكبار، وكانت تلك الطبقة تتميز بامتيازين: الأول: إنها مع خط السلطة، فلا يقلقها امتداد ظلم الحاكم، فكانوا في مأمن من وصول الظلم إليهم، وكان الحاكم يُغدق عليهم بالهبات والعطايا؛ لأنه يعلم أنهم المحرك الرئيسي في الحياة السياسية للناس، والثاني: أن العامة من الناس تكنُّ للعلماء والفقهاء عموماً احتراماً ومحبةً مع جهلهم بما يدور في الدهاليز السياسية، وربما تجهل طبيعة تحريف بعضهم لمعاني الدين بما يناسب طموحات السلطان!

الثالثة: عامة الناس من الفقراء من كسبة، وأناس يكدحون كل يوم من أجل قوت يومهم، وكرامة عيشتهم، وكانوا الغالبية العظمى من الناس.

وتبدلت حياة العرب عموماً في المدينة المنورة التي كان يسكنها الإمام الباقر عليه السلام في تلك الفترة خصوصاً في الطبقة الاجتماعية الأولى والثانية، فمن شظف العيش وبساطته إلى ترف الحياة والبذخ فيها، خصوصاً بعد توسع الفتوحات في العصر الأموي وازدهار الحال، وكثرة الغنائم، فاقتبسوا من عادات الأعاجم كالروم والفرس وغيرهم الكثير من العادات في الطعام، والفرش، واستجلبوا الجواري، والخدم.

وبات الناس يتطلعون إلى اللهو والاهتمام بالهوامش خصوصاً أيام الأعياد والأعراس، كان الخليفة يخرج يوم العيد ومعه موكب ضخم من حاشيته وجنده لأداء صلاة العيد، أما الأعراس فكانت مدعاةً للفخر والتباهي والتبذير حيث يُصرف على الزينة والطعام ما لم يكن يحلم به السابقون، ومما لا نظير له ولا شبيه في اللاحقين،

وأصبح السفر واللهو بالصيد من ميزات سلوك الملوك زمن بني أمية، وكذلك شرب الخمر، والغناء والموسيقى كانتا من علامات مجالس الخلفاء والولاة، وأداة من أدوات لهوهم وطربهم.

التجارة والاقتصاد:

كان من السياسة الاقتصادية تعريب النقود، وقد قام الإمام الباقر عليه السلام بدوره في ذلك، كما قرأنا سابقاً.

وطالما اتسعت الدولة الأموية في القرن الأول، فإن اقتصادها قد تطور أيضاً بسبب كثرة الغنائم من الفتوحات، ومن زيادة الضرائب المفروضة على الغلات، فأخذ الناس من الطبقات العليا يأكلون بأواني الخزف المصنوعة في الصين أجود الطعام، ويلبسون الحرير المحاك بالذهب والفضة وربما المرصع بالأحجار الكريمة، و«كان من قطع الملابس التي ارتداها الأمويون: القباء (رداء أو زي خارجي مفتوح عند الرقبة أو يقفل بإزار وهو ضيق الكمين وفي بعض الأحيان متوسط الإتساع)، والدراعة (جبة مشقوقة من الأمام)، والطيلسان (قطعة من القماش تغطي الرأس)، والغلالة (ثوب رقيق يشبه القميص تلبسه المرأة)، والملحفة، والإزار، والشاشية (قبعة)، والتكة (رباط السروال)»^(١).

ولاشك أن استخدام الألبسة بتلك الطريقة اقتضى إنشاء معامل خاصة بالنسيج المطرز بالذهب والفضة زمن هشام بن عبد الملك.

وبحسب استقراء الروايات يبقى مستوى المعيشة في ذلك الزمان لغزاً، فلا نستطيع أن نقول أن المجتمع كان كله غنياً، ولا نجزم بأن المجتمع كان برمته فقيراً. فقد، كان

(١) تاريخ الملابس عبر العصور: ص ٨٤ - ٨٥.

الاقتصاد مزدهراً للبعض، ولكن الثروات كانت بيد القلّة من أفراد الطبقة الحاكمة ومواليهم، وكان الفقراء يطرقون باب الإمام الباقر عليه السلام، فكان يعطيهم ويطعمهم، وربما كانت قلّة موارد الإمام عليه السلام تفصح عن أن الناس كانوا لا يلتزمون كثيراً بدفع الحقوق الشرعية من زكاة، وخمس مقارنةً بزمان بقية أئمة الهدى عليهم السلام كالحسن والحسين عليهما السلام.

كان سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) قاسياً في جمع الخراج، وكان شعاره: «احلب الدرّ حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم»، وعندما قدم عليه أحد الجبابرة، قال له: «إني ما جئتك حتى نُهكت الرعية وُجهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفّه عليها، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها فافعل، فإنه يُستدرك ذلك في العام المقبل! فقال له سليمان: هبلتكم أمك احلب الدرّ، فإذا انقطع فاحلب الدم»^(١).

ولا نعلم مدى صحة ما قيل من أن عمال الصدقات زمن الخليفة الأموي عمر ابن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) كانوا يبحثون عن فقراء ليعطوهم المال فلا يجدونهم! وربما كان البحث مقتصرأ على الموالين للسلطة الأموية، إلا أن حال الإمام الباقر عليه السلام وشيعته كانت تحكي وضعاً آخر مخالفاً لما قيل!

ومع وجود الثروات الواردة من الغنائم، إلا أن الإضطراب المالي للدولة الأموية كان قائماً نتيجة سوء توزيع الثروة، فمن طرف كانت هناك قسوة في جباية الخراج وفرض الجزية، ومن طرف آخر كانت الدائرة الحاكمة تحصر المال بها في بناء القصور الفخمة، وشراء الجواري، وسفريات صيد الغزلان، واللهو والمجون، والبذخ الذي لا حدود له.

(١) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٨٠.

القضاء:

لم يُطبّق القضاء الشرعي في الدولة الأموية، كما كان الحال أيام حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث عيّن شريحاً القاضي، وقد قال عليه السلام له لما عينه قاضياً: «لقد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي، أو وصي نبي، أو شقي»^(١)، ثم أوصاه بالقول: «قم واس بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك، حتى لا يطمع قريبك في حيفك، ولا ييأس عدوك من عدلك»^(٢)، ولم يعد النظام القضائي العادل زمن الإمام علي عليه السلام قائماً أيام الدولة الأموية.

فقد كان القضاء يعيّنون من قبل الخليفة مباشرة لميولهم السياسية لا لعلمهم بالقضاء أو نزاهتهم، وكان القتل يتم مباشرة بأوامر من الخليفة أو الولاة، وأفضل صوره كان زمن الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ) والي العراق زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، ولو كان هناك قضاء لأخذ المدانون إلى منصة القضاء لسماع الدعوى بحضور شهود، ولم يكن ذلك متاحاً أبداً، فكان المعارض للدولة الأموية يمثّل أمام الخليفة أو الوالي، فيأمر عندها بضرب عنقه.

وأفضل مثال على ذلك هو أمر عبد الملك بن مروان عامه على المدينة المنورة بتقييد الإمام الباقر عليه السلام وإحضاره إلى دمشق لحبسه، لكن عامل الخليفة على المدينة كتب إليه يقول: «ليس كتابي هذا خلافاً عليك يا أمير المؤمنين ولا رداً لأمرك، ولكن رأيت أن أراجعك في الكتاب نصيحة لك، وشفقة عليك، إن الرجل الذي أردته ليس اليوم على وجه الأرض أعفّ منه، ولا أزهّد ولا أروع منه، وإنه من أعلم الناس، وأرقّ الناس، وأشدّ الناس اجتهاداً وعبادةً، وكرهتُ لأمير المؤمنين التعرض له، ف﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا

(١) تهذيب الأحكام: ج ٦ / ص ٢١٧.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١٨ / ص ١٥٥.

بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿١﴾ (٢).

بيت المال:

لم يخضع بيت المال زمن بني أمية لرقابة قضائية، أو حرمة دينية تمنع الإنسان مهما كان منصبه من الأخذ منه، ولم يكن هناك فارق بين الأموال العامة في بيت المال والأموال الخاصة بالخلفاء والولاة، فأصبحوا يأخذون منه ما يشاؤون ويغدقون على أمورهم الخاصة ولذاتهم، وأصبحوا أثرياً أثرياء المجتمع، وكان من أبرز قضاة بني أمية: عامر ابن شراحبيل الشعبي، وعبد الله بن عامر بن يزيد وغيرهم، ذكر المسعودي (ت ٣٤٦هـ) أموال من اقترب من السلطة أو شاركها إمتيازاتها في العقد الثالث من القرن الأول، وكانت أموالاً هائلة أخذت كلها من بيت المال، فقال: «كانت ثروة عبد الله بن الزبير خمسين ألف دينار ذهباً وألف فرس، وألف عبد، وضياعاً وخططاً في البصرة والكوفة ومصر والإسكندرية، وثروة طلحة بن عبيد الله من العراق كل يوم ألف دينار، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة، وحين مات زيد بن ثابت خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار، أما عثمان فكان له يوم قُتِل، عند خازنه مائة وخمسون ألف دينار ومليون درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلّف خيلاً كثيراً وإبلًا» (٣)، بينما لم يترك رسول الله ﷺ عند وفاته شيئاً من الذهب أو الفضة، ولم يترك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شيئاً من الدراهم أو الدينانير.

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) الدر النظيم: ص ١٨٨.

(٣) مروج الذهب: ج ٢ / ص ٣٤١.

ثم تعجب الناس من عدّ ثروة الأثرياء الجدد، فقلما تجد مصدرًا يعدد ثروات من كان في محيط السلطان الأموي في نهاية القرن الأول الهجري.

السياسة :

كانت اللغة العربية هي لغة الدولة الأموية، إلا أن حركة التعريب والترجمة لم تكن نشطة بل كانت محدودة، فيتوقع المرء أن تكون الأفكار الإسلامية مصونة من التأثيرات الفكرية الخارجية، إلا أن العكس هو الذي حصل، فقد أثرت أفكار الذين دخلوا الإسلام حديثاً على النظام الفكري للمسلمين، وشجعت البعض على تبني الأفكار الجديدة المخالفة لتعاليم الإسلام، كالبحث في الذات الإلهية وقضايا العقائد المختلفة كالإرجاء ونحوها.

اهتم بنو أمية ببناء القصور الفخمة في الشام، وترميم المساجد لأهداف سياسية في الشام، فكان الجامع الأموي الذي كان بالأصل كنيسة يوحنا المعمدان الذي يُشار إليه على كونه مرقد النبي يحيى عليه السلام قد حولت إلى مسجد، وأصبح الجامع الأموي معلماً من معالم الدولة الأموية، وكان يستقبل المصلين، والخليفة وحاشيته، والأسارى الذين يتم جلبهم مقيدون من الولايات البعيدة، ولعل أعظم مشهد شهده الجامع الأموي هو أسارى أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله سنة ٦١ هجرية.

وأهمل الجامع الأموي زمن الدولة العباسية التي نقلت عاصمتها إلى بغداد سنة ١٤٤ هجرية.

ومسجد قبة الصخرة في القدس الذي بُني سنة ٦٦ - ٧٢ هـ، أيام سيطرة عبد الله بن الزبير على مكة، فشجع عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) المسلمين على الحج إلى مسجد قبة الصخرة، و«صرفهم بذلك عن الحج إلى بيت الله الحرام، وصيّره إلى بيت المقدس،

وقد استغل الصخرة التي فيه، وروى فيها أن رسول الله ﷺ قد وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء، فأقامها لهم مقام الكعبة فبنى عليها قبة وعلى فوقها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة^(١).

كان الخلفاء من آل أبي سفيان وآل مروان يعيشون حياة الملوك، فاتخذ كل خليفة عرشاً له، وأقام الشرطة لحراسته، وبنوا مقصورة خاصة في المسجد يُصلي بها منفرداً عن الناس.

وقد أشار الإمام الباقر عليه السلام إلى تلك المقاصير، وقال عليه السلام: «هذه المقاصير لم يكن في زمان أحدٍ من الناس، وإنما أحدثها الجبارون، ليست لمن صلى خلفها مقتدياً بصلاة من فيها صلاة»^(٢).

ومن تركت معاوية بن أبي سفيان أنه جعل نظام الخلافة مُلكاً وراثياً يتداوله الأبناء بعد آبائهم لا لمرجح شرعيٍّ أو عقليٍّ، بل لإبقاء السلطة في ذريته، فجمع الخليفة جميع السلطات في شخصه، فهو الحاكم، والقاضي، والمقنن، والمتصرف ببيت المال، والأمر والناهي، وقائد الجيش ونحوها.

واشتهر من الولاة الذين عينوهم أيام بني أمية أربعة أذاقوا الناس المحن والويلات وهم: عمرو بن العاص والي مصر، وزيايد بن أبيه والي العراق، وعبيد الله بن زياد والي الكوفة، والحجاج بن يوسف والي العراق أيضاً، وكانت سلطة الولاة شبه مطلقة على مناطقهم، وكانت مهمتهم بالإضافة إلى قتل المعارضين بالسيف لمجرد التهمة ودون محاكمة، إمامتهم الصلاة، وقيادة الجيش في الولاية، وجباية الخراج، وإدارة البريد.

(١) تاريخ يعقوبي: ج ٢ / ص ٣١١.

(٢) الكافي: ج ٣ / ص ٣٨٥.

وأصبح للخليفة كاتبٌ يعتمد عليه في إنشاء الرسائل والأوامر المكتوبة إلى الولاة وغيرهم، وأصبحت الكتابة في بلاط السلطان صناعة ذات قواعد وشروط، وثروة طائلة، وسلطة لا حدود لها.

كان الإمام الباقر عليه السلام يتعامل مع الدولة تعامل الإمام الحكيم الذي امتلك قلوب الناس، يعلمهم أصول الدين وفروعه، ويردُّ الانحراف ويعدّل مسار الأمة من الناحية الفكرية والعبادية، ولم يقترب من السلاطين أبداً، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز عندما ردَّ فداً إليه عليه السلام، وبكلمة، كان الإمام عليه السلام الشاهد على التاريخ في تلك الحقبة، بفكره، وسلوكه، وتقواه، وعصمته في الدين، فكان دوره عليه السلام عظيماً في حفظ أصول الدين ومبانيه العقائدية والفقهية.

(٣)

تزوير الحقيقة

أن أكثر كتب التاريخ عندنا مكتوبة بأقلام أدباء البلاط وفقهائهم، وقلما تجد كتباً تاريخية تذكر الحقيقة خصوصاً بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، فكيف لنا أن نعرف حقيقة ما جرى من أحداث بعد تلك الفترة الزمنية الطويلة، فنحن نفتش هنا عن أمرين: الأول: الدليل التاريخي على صحة ما كُتِبَ في كتب التاريخ المشهورة.

الثاني: الموضوعية في الحكم على الأحداث بدون تحيز إلى طرفٍ دون آخر.

فعندما نتحدث عن الوضع الاجتماعي زمن الإمام الباقر عليه السلام تبرز المشكلة وهي كيف نتحقق من صحة الماضي في كتب ابن عساكر، والطبري، وابن كثير؟ علماً أنهم كانوا في خط السلطة الأموية، وما هي مكوناته التي زورها السلطان الأموي؟ بحيث جعل تأريخه هو التأريخ الصحيح الناصح، وما عداه حوادث وشخصيات لا وجود لها،

أو لا وزن لها في الأحداث!

لعلنا نبحت هذا الموضوع في كتابٍ آخر بإذنه تعالى إلا أن ما يهمننا هنا هو تزوير متعمد للحقائق التاريخية الخاصة بأئمة أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم وتلامذتهم.

تزوير الحقائق التاريخية :

نعرض فيما يلي نماذج للتزوير الذي عاصره الإمام الباقر عليه السلام وابنه جعفر الصادق عليه السلام، والتُّهم الموجهة إلى أصحاب الإمام عليه السلام: هشام بن الحكم، وهشام بن سالم وغيرهم.

١ - الكذب على الإمام الباقر عليه السلام: من الروايات الكاذبة على الباقر عليه السلام ما رواه أبو البخخري، قال: «أن أبا حنيفة دخل على الإمام أبي جعفر عليه السلام فقال له الإمام عليه السلام: كأي بك وأنت تحيي سنة جدي، وقد اندرست، وتكونَ معيناً لكل ملهوف، وغيثاً لكل مهموم، يسلك بك المتحIRON، تهديهم إلى الواضح من الطريق إذا تحيروا، فلك من الله العون والتوفيق حتى تشارك الربانيين في الطريق»^(١)، وأبو البخخري من أكذب من في البرية، كما ورد في ترجمته^(٢)، وتلك الرواية من أكاذيبه.

فيما يلي روايتان أحدهما مفتعلة بين الإمام الباقر عليه السلام وأبي حنيفة.

الرواية الأولى: «قال الإمام الباقر عليه السلام: أنت الذي حولت دين جدي وأحاديثه إلى القياس، قال أبو حنيفة: اجلس في مكانك كما يحقُّ لك حتى أجلس كما يحقُّ لي، فإن لك عندي حرمة كحرمة جدك عليه السلام في حياته على أصحابه، فجلس أبو جعفر، ثم جثأ أبو حنيفة بين يديه.

(١) مناقب أبي حنيفة - ابن البزاز: ج ١ / ص ٣١.

(٢) منتهى المطلب - العلامة الخلي: ج ١ / ص ١٦٣.

ثم قال لأبي جعفر: أني أسألك عن ثلاث كلمات، فأجبني، فقال له أبو حنيفة: الرجل أضعف أم المرأة؟ قال الباقر عليه السلام: المرأة أضعف، قال أبو حنيفة: كم سهماً للرجل وكم سهماً للمرأة [في الميراث]؟ قال الباقر عليه السلام: للرجل سهمان وللمرأة سهم، قال أبو حنيفة: هذا قولُ جدك، ولو حولت دين جدك لكان ينبغي القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان؛ لأن المرأة أضعف من الرجل.

ثم قال: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال عليه السلام: الصلاة أفضل، قال: هذا قولُ جدك، ولو حولت دين جدك، فالقياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضي الصلاة ولا تقضي الصوم، ثم قال: البول أنجس أم النطفة؟ قال أبو جعفر عليه السلام: البول أنجس، قال: فلو كنت حولت دين جدك بالقياس، لكنتُ أمرتُ أن يغتسل من البول ويتوضأ من النطفة؛ لأن البول أقدر من النطفة، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس، فقام أبو جعفر فعانقه ^(١).

محور الوضع في الرواية :

أولاً: كان أبو حنيفة يعمل بالقياس في النصوص الشرعية، ولا يستطيع أحد إنكار ذلك، إلا أن ما أجاده مخلق الرواية هو نفي تهمة القياس عن أبي حنيفة، والمعروف أن مدرسة الرأي عملت بالقياس في الأحكام الشرعية التي فيها نص واضح، لكنها لاحقاً حصرت القياس بها لا نص فيه.

ثانياً: أن مناط الحكم في قياس أبي حنيفة كانت علة جعل السهمين للمرأة أنها أضعف من الرجل، وهو جوهر قياسه.

وهذا المنحى بالخصوص هو الذي حرّمه أئمة أهل البيت عليهم السلام من خلال تحريمهم

(١) مناقب أبي حنيفة: ص ١٤٣.

عملية القياس في الاستنباط.

الرواية الثانية: محاورة جرت بين الإمام الصادق عليه السلام وأبي حنيفة ومفادها أن أبا حنيفة دخل على الإمام الصادق عليه السلام في قصة:

«قال الإمام عليه السلام له: «اتق الله ولا تقس في الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس، إلى أن قال: ويحك أيها أعظم: قتل النفس أو الزنا؟ قال أبو حنيفة: قتل النفس، قال عليه السلام: فإن الله عز وجل قد قبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلا أربعة، ثم أيها أعظم: الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة، قال عليه السلام: فما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة؟ فكيف يقوم لك القياس، فاتق الله ولا تقس»^(١).

٢ - الكذب على أصحاب الإمام عليه السلام: تهمة التجسيم على هشام بن الحكم وهشام ابن سالم:

شخص مجهول الحال بين علماء الرجال اسمه عبد الملك بن هشام الحنّاط نسب القول بالتجسيم إلى اثنين من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وهما براء منه، وهما: هشام ابن الحكم، وهشام بن سالم.

أما هشام بن الحكم (ت ١٩٩ هـ) فقد اتفق الأصحاب على وثاقته، وجلالته، وعظيم قدره عند أئمة أهل البيت عليهم السلام^(٢)، و«كان من أكبر أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، وكان تقياً روى حديثاً كثيراً، وصحب أبا عبد الله عليه السلام وبعده الإمام الكاظم عليه السلام، وبلغ من مرتبته وعلوه عند أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه بمنى وهو غلام أول ما اختط عارضاه، وفي مجلسه شيوخ الشيعة كحمران بن أعين، وقيس الماصر، ويونس بن يعقوب، وأبي

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج ١/ ص ١١ - ١٣، ووسائل الشيعة: ج ١٨/ ص ٢٩.

(٢) تنقيح المقال - المامقاني: ج ٣/ ص ٢٩٤.

جعفر الأحوال وغيرهم فرفعه على جماعتهم، وليس فيه إلا من هو أكبر منه سنّاً...»^(١)، مدحه الإمام عليه السلام بأجمل العبارات: «هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده»^(٢)، وهذا «رائد حقنا وسابق قولنا، المؤيد لصدقنا، والدماغ لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أثره تبعنا، ومن خالفه وألحد فيه عادانا وألحد فينا»^(٣).

أما هشام بن سالم الجواليقي الجعفي فهو من أصحاب الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام وكان له أصل وله كتاب، وهو ثقة بلا ريب، وردت فيه روايات دامة من قبل فقهاء السلطان ونسبوه إلى القول بالتجسيم!

الدلائل:

١ - تميزت شخصية الإمام الباقر عليه السلام بصفتين هما: العلم، والصدق، فقد كان عالماً بالحقائق الشرعية، وكان صادقاً فيما ينقله عن أجداده عليهم السلام، وهاتان الصفتان جعلته سداً منيعاً ضد التحريف والتزوير، فلم يستطيعوا إخراجهم في مسألة علمية، خصوصاً في المناظرات المختلفة، فعمدوا إلى وضع الروايات الملفقة المزورة عنه عليه السلام وعن أصحابه الأتقياء النجباء، وذلك سلاح الضعيف بلاشك!

٢ - في الروايات الخاصة بالقياس، وقف الإمام الباقر عليه السلام ومن بعده الصادق عليه السلام موقفاً قوياً حاسماً ضد حرمة القياس، خصوصاً في الأحكام المنصوصة، كالإرث وتخصيص الذكر مثل حظ الأنثيين، وصوم القضاء بالنسبة للحائض دون صلاتها، وعدد الشهود في القتل أثنان، وفي الزنا أربعة، وكان من ثمره ذلك الموقف تعديل فكرة القياس من الأحكام المنصوصة إلى الأحكام غير المنصوصة.

(١) الكافي: ج ١ / ص ١٧٢.

(٢) الكافي: ج ١ / ص ١٧٢.

(٣) معجم رجال الحديث: ج ٢ / ص ٣٠٠.

جعلوا الرواية الموضوعة توحى وكأن موقف الإمام الباقر عليه السلام كان ضعيفاً أمام صاحب فكرة القياس، وكأن الإمام عليه السلام يدافع عن نفسه، بحيث يكون أبو حنيفة هو السائل والإمام عليه السلام يجيب، وهو خلاف الواقع، يتبين ذلك لكل من درس حياة الإمام الباقر عليه السلام.

٣- ولما كانت فكرة التجسيم من الأفكار الشيعة عند الخالق عز وجل، نتيجتها عدم فهم القرآن، وكان موقف الإمام الباقر عليه السلام قوياً منها، اتهموا أجلاً أصحابه بتهمة الإيهان بالتجسيم، ولولا تماسك علماء أهل البيت عليهم السلام في الذب عن أصحاب الإمام عليه السلام لانطلت الكثير من الأكاذيب على الناس.

(٤)

الإمام الباقر عليه السلام والدرهم الإسلامي

ذكرنا موضوع النقد الإسلامي ودور الإمام الباقر عليه السلام فيه في الفصل الأول، ونزيد هنا بحثاً في حسابات الدرهم الإسلامي، في البداية نُجمل تعريفاً للموازن التي سوف تُذكر في البحث بالإصطلاحات التالية:

أ - الدرهم: اسمٌ لما ضرب من الفضة على شكل مخصوص، وهو وحدة نقدية وزنها ٩٧٥، ٢ غراماً عند الجمهور^(١).

ب - الدينار: اسمٌ للقطعة من الذهب المضروبة، وتقدر بمئقال وهو ٢٥، ٤ غراماً عند أغلب المذاهب الإسلامية.

ج - الحبة: وهي واحدة من الحبوب المختلفة كحبات الشعير، وهي وزن للنوع

(١) المبدع في شرح المقنع - ابن مفلح: ج ٢ / ص ٣٦٤، والميزان في الأقيسة والأوزان - علي باشا مبارك ص: ٤٣.

التي يتركب منها الدرهم والدينار، والحبة تساوي واحداً من اثنين وسبعين من المثقال أو الدينار.

د - الدائِقُ: مقداره سدس الدرهم، وكذلك وزنه.

هـ - القيراط: جزءٌ من أجزاء الدينار، عند الجمهور ١ / ٢٤ من الدينار، فالقيراط: (٤٢٥ ÷ ٢٤ = ١٧٧١.٠) غراماً^(١).

حسابات الدرهم الإسلامي:

كان الدرهم هو أساس الأوزان الإسلامية عامة، أما المثقال فكان وزن الذهب، وكان نسبة وزن المثقال إلى الدرهم شرعاً كنسبة (٧:١٠).

أما الدرهم الشرعي فهو ما قُدِّرَت به نُصَب الزكاة، ومقدار الجزية، والديات ونحوها، وكان مقدار الدرهم «ستة دوانيق، قال العلامة في التحرير: والدرهم في صدر الإسلام كانت صنفين بغلية وهي السود، وكل درهم ثمانية دوانيق، وطبرية كل درهم أربعة دوانيق، فجمعاً في صدر الإسلام وجعلاً درهمن متساويين، ووزن كل درهم ستة دوانيق، ونحوه قاله في التذكرة والمنتهى، وقال المحقق في [كتاب] المعتبر: والمعتبر كون الدرهم ستة دوانيق بحيث يكون كل عشرة منها سبعة مثاقيل، وهو الوزن المعدل، فإنه يقال: أن السود كانت ثمانية دوانيق، والطبرية أربعة دوانيق، فجمعاً وجعلاً درهمن، وذلك موافقٌ لسنة النبي ﷺ، قال الرافعي: وأما الدراهم فإنها كانت مختلفة الأوزان، واستقر في الإسلام على أن وزن الدرهم الواحد ستة دوانيق، وكل عشرة [دراهم] منها سبعة مثاقيل ذهب، وفي المغرب تكون العشرة وزن سبعة مثاقيل»^(٢).

(١) المكايل والموازين الشرعية: ص ٢٣.

(٢) رسالة أوزان المقادير - المجلسي: ص ١٣٢ - ١٣٤.

أما البلاذري (ت ٢٩٧هـ) فقال: «أن النقود على عهد الخليفة الثاني على مراتب ثلاث، كما ذكر ذلك في المبسوط، فكان بعضها ٢٠ قيراطاً، وبعضها ١٢ قيراطاً، وبعضها ١٠ قيراط، فالأولى وزن الدرهم وزن الدينار، والثانية وزن كل ١٠ دراهم ستة مثاقيل، والثالثة كل ١٠ دراهم خمسة مثاقيل»^(١).

ثم قال: «أن الدراهم كانت من ضرب الأعاجم مختلفة كباراً وصغاراً، فكانوا يضربون منها وزن مثقال وهو وزن ٢٠ قيراطاً، ويضربون منها وزن ١٢ قيراطاً، ويضربون ١٠ قيراط وهي أنصاف المثاقيل، فلما من الله بالإسلام وأحتيج في أداء الزكاة إلى الأمر الوسط أخذوا ٢٠ قيراطاً و ١٢ قيراطاً و ١٠ قيراط، فصار المجموع اثنين وأربعين قيراطاً فضربوا على وزن الثلث من ذلك وهو ١٤ قيراطاً، فوزن الدرهم العربي ١٤ قيراطاً من قيراط الدينار فصار وزن كل ١٠ دراهم سبعة مثاقيل، والظاهر أن ذلك كان في زمن عبد الملك حينما ضرب السكة الإسلامية ومنع التعامل بغيرها»^(٢).

قال المسعودي (ت ٣٤٦هـ): «إنما جعل كل عشرة دراهم بوزن سبعة مثاقيل من الذهب؛ لأن الذهب أوزن من الفضة، وكأنهم ضربوا مقداراً من الفضة ومثله من الذهب فوزنوهما، فكان وزن الذهب زائداً على وزن الفضة بمثل ثلاثة أسباعها، واستقرت الدراهم في الإسلام على أن كل درهم نصف مثقال وخمسه»^(٣)، ويوزن «الدرهم الشرعي بثمان وأربعين حبة من أوسط حب الشعير»^(٤).

وقال النووي (ت ٦٧٦هـ): «فأما المثقال معروف، ولم يختلف قدره في الجاهلية ولا

(١) فتوح البلدان - البلاذري: ج ٣ / ص ٥٧١.

(٢) فتوح البلدان: ج ٣ / ص ٥٧١.

(٣) مروج الذهب: ج ٣ / ص ١١٣.

(٤) جواهر الكلام: ج ٢٧ / ص ١٥.

في الإسلام، وأما الفضة فالمراد دراهم الإسلام، وزن الدرهم ستة دوانيق، وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ذهب، وقد أجمع أهل العصر الأول على هذا التقدير^(١).

أُعيدَ سكّ الدراهم في زمن عبد الملك بن مروان بإشارة من الإمام زين العابدين عليه السلام أو الإمام الباقر عليه السلام، واستقر أمر المسلمين على المعاملة بهذا الدرهم، قال الشهيد الأول (ت ٧٨٦هـ): «والمعتبر في الدينار بزنة المثقال، وهو لم يختلف في الإسلام ولا قبله، وفي الدرهم ما استقر عليه في زمن بني أمية بإشارة زين العابدين عليه السلام بضمّ الدرهم البغلي إلى الطبري وقسمتها نصفين، فصار الدرهم ستة دوانيق»^(٢).

والمتفق عليه بين خبراء النقد الإسلامي هو أن الدراهم قبل الإسلام «كانت مختلفة، فكان منها ما كل ١٠ دراهم ٦ مثاقيل، وما كل ١٠ وزن ٥، وما كان وزن الدرهم وزن الدينار، وإنّ وزن ١٠ دراهم ٧ مثاقيل حدث في الإسلام وصار لا يتعامل إلاّ بها من ابتداء زمن عبد الملك...، وعلى ذلك فوزن درهم عبد الملك الذي نعتمد عليه ونعتبره في حساباتنا هو ٩٥، ٢ غرام، ووزن الدينار ٢٢، ٤ غرام، وذلك مطابق لما اتفق عليه علماء الإسلام من أن عشرة الدراهم سبعة مثاقيل»^(٣)، قال المقرئ (ت ٨٤٥هـ): «إن عبد الملك بن مروان ضرب الدنانير والدراهم فجعل وزن الدينار ٢٢ قيراطاً إلاّ حبة بالشامي، وجعل وزن الدرهم ١٥ قيراطاً سواء، والقيراط أربع حبات، وكل دانق قيراطان ونصف»^(٤).

يعتقد السيوطي (ت ٩١١هـ) أن أوزان الدراهم كانت معلومة قبل زمن عبد الملك

(١) روضة الطالبين - النووي: ج ٢ / ص ٢٥٧.

(٢) البيان - الشهيد الأول: ص ١٨٥.

(٣) الميزان في الأقيسة والأوزان: ص ٤٣.

(٤) شذور العقود - المقرئ: ص ٧.

ابن مروان، فهو يحاول بشكل غير مباشر نفي أن يكون للإمام عليه السلام دورٌ في ترتيب النقد الإسلامي عبر نفيه لدور عبد الملك بن مروان في ذلك، فيقول «أن القاضي عياض قال: لا يصح أن تكون الأوقية والدرهم مجهولة زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يوجب الزكاة في أعداد منها وتقع بها المبايعات والأنكحة، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، وهذا يبين أن قول من زعم أن الدرهم لم تكن معلومة إلى زمن عبد الملك بن مروان، وأنه جمعها برأي العلماء، وجعل كل عشرة وزن سبعة مثاقيل، ووزن الدرهم ستة دوانيق قولٌ باطلٌ، وإنما معنى ما نقل من ذلك أنه لم يكن منها شيء ضرب في الإسلام، وعلى صفة لا تختلف، بل كان مجموعات من ضرب فارس والروم، صغاراً وكباراً، وقطع فضة غير مضروبة، ولا منقوشة، ويمنية ومغربية، فأوا صرفها إلى ضرب الإسلام ونقشه، وتصييرها وزناً واحداً، وأحياناً يستغنى بها عن الموازين، فجمعوا أكبرها وأصغرها، وضربوه على وزنهم»^(١).

والظاهر أن السيوطي (ت ٩١١هـ) خالف الكثير من سبقوه من المدرسة الإمامية ومدرسة الرأي، مثل البلاذري (ت ٢٩٧هـ)، والمسعودي (ت ٣٤٦هـ)، والنوي (ت ٦٧٦هـ)، والشهيد الأول (ت ٧٨٦هـ) وغيرهم من الذين قالوا بأن الإمام السجاد عليه السلام أو الباقر عليه السلام أشارا على عبد الملك بن مروان على تصميم النقد الإسلامي.

والنتيجة، ومن خلال استقراء الروايات الخاصة بالإمام الباقر عليه السلام، ومن خلال دراسة تطور النقد الإسلامي تاريخياً، نعتقد بأن الإمام الباقر عليه السلام قد دُعي من قبل عبد الملك بن مروان لحل مشكلة النقد، وما قدّمه كان حلاً أصيلاً لمشكلة واقعية واجهتها الدولة في ذلك الزمان، وما ظهر من أصوات متناقضة تريد نفي ذلك فهذا أمرٌ طبيعي واجهه أهل البيت عليهم السلام على طول التاريخ، فقد حاول بعض أعدائهم نفي الفضائل

(١) الحاوي للفتاوي. السيوطي: ج ١ / ص ١٥٩.

العلمية عنهم!

(٥)

حكام عصر الإمام الباقر

شهد الإمام الباقر في حياته خلفاء بني أمية يتساقطون الواحد تلو الآخر، فما أن يهلك ظالم حتى يستلم الحكم من هو أظلم منه فكانت الرعية تختنق بظلامية حكامها وظلمهم، ومن هؤلاء:

١ - مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ):

أبوه الحكم بن أبي العاص الأموي، ومروان رابع خلفاء الدولة الأموية في دمشق، حكم بين سنة ٦٤-٦٥هـ، ولّاه معاوية بن أبي سفيان على المدينة ثم عزله، ثم ولّاه ثانية ثم عزله^(١).

بويع له بالخلافة من قبل بني أمية بعد موت معاوية بن يزيد، حينئذ كان نفوذ الأمويين على الدولة قد ضعف بعد أن قوي نفوذ عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق ومصر.

أخذ مروان أسيراً يوم الجمل في البصرة سنة ٣٦هـ، فاستشفع الحسن والحسين إلى أمير المؤمنين فكلماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: «يباعك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته، إنها كف يهودية، لو بايعني بكف لغدر بسبته، أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر»^(٢)، فكان كما قال.

(١) الطبقات الكبرى: ج ٥ / ص ٣٨.

(٢) نهج البلاغة - الخطبة ٧٠.

٢ - عبد الملك بن مروان (ت ٨٦٦هـ):

تقلد الخلافة الأموية سنة ٦٥هـ بعد موت مروان بن الحكم، واستمر حكمه ٢١ سنة، وكان يُظهر النسك والعبادة، فلما جاءه خبر المُلك «أطبق المصحف الذي في يده، وقال: هذا آخر العهد بك، أو قال: هذا فراقُ بيني وبينك»^(١).

وكان فتاكاً لا يعرف العدل ولا الرحمة، وقد بالغ في إراقة الدماء وسفكها بغير حق، قالت له أم الدرداء: بلغني أنك شربت الطلى (أي الخمر) بعد العبادة والنسك، أجابها غير متأثم: أي والله والدماء شربتها»^(٢)، و«هو أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء»^(٣).

وعندما أمر بقتل عبد الله بن الزبير، قال في خطبته: «لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربت عنقه»^(٤).

وكان بخيلاً، بحيث «سمي بد (رشح الحجارة) لشدة شحّه وبخله»^(٥)، وهل للحجارة أن ترشح شيئاً!

قال اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في تاريخه: «خاف عبد الملك أن يتصل عبد الله بن الزبير بأهل الشام فيفسدهم عليه فمنعهم من الحج، فقالوا له: أتمنعنا من الحج وهو فريضة فرضها الله، فقال: قال ابن شهاب الزهري إن رسول الله ﷺ قال: لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس!

(١) تاريخ ابن كثير: ج ٨ ص / ٢٦٠.

(٢) مختصر تاريخ دمشق: ج ١٥ / ص ٢١٩ ترجمة عبد الملك بن مروان رقم ٢١٠.

(٣) تاريخ الخلفاء - السيوطي: ص ٢١٨.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص ٢١٩.

(٥) تاريخ القضاة: ص ٧٢.

وصرفهم بذلك عن الحج إلى بيت الله الحرام، وصيّره إلى بيت المقدس، وقد استغل الصخرة التي فيه، وروى فيها أن رسول الله ﷺ قد وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء، فأقامها لهم مقام الكعبة فبنى عليها قبة وعلى فوقها ستور الديباج، وأقام لها سدنة، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة^(١)، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

الحجاج بن يوسف (ت ٩٥هـ):

ولي عبد الملك بن مروان أحد رجاله المعروفين بسفك الدماء وهو الحجاج بن يوسف الثقفي على الحجاز سنة ٧٣هـ ثم على العراق سنة ٧٥هـ، و«كان سفاكاً سفاحاً مربعاً باتفاق معظم المؤرخين، عُرف بالمبير أي المبيد»^(٢)، قالت له «أسماء بنت أبي بكر: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: أنه يخرج من ثقيف رجلان: الكذاب والمبير، وأما الكذاب^(٣) فقد رأيناه، وأما المبير فلا أظنه سواك»^(٤).

عندما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير وصلبه، أرسل إلى أمه أن تأتيه فأبت، فأرسل إليها: لتأتين أو لأبعثن من يسحبك بقرونك، فأرسلت إليه: والله لا آتيك حتى تبعث إليّ من يسحبني بقروني، فلما رأى ذلك أتى إليها، فقال: كيف رأيتني صنعتُ بعبد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، وقد بلغني أنك كنت تعيره بابين ذات النطاقين، فقد كان لي نطاق أعطي به طعام رسول الله ﷺ من النمل، ونطاق لا بد للنساء منه»^(٥).

-
- (١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ / ص ٣١١.
 (٢) تاريخ دمشق: ج ٤ / ص ٨٢.
 (٣) اختلف فيمن يكون الكذاب!
 (٤) البداية والنهاية: ج ٩ / ص ١٣٨.
 (٥) تاريخ دمشق: ج ٤ / ص ٨٢.

أقول: كيف تجرأ الحجاج على احدى الصحابييات، ومع ذلك لا يُتهم بذلك بالتعرض للصحابة، بل كان مدح فقهاء مدرسة الرأي له أكثر من ذمهم إياه، كالذهبي وابن كثير ونحوهم، ولم ينتقدوا أفعاله الفظيعة في قتل الأبرياء من التابعين المؤمنين!

قال الذهبي (ت ٥٧٤هـ): «كان ظلوماً جباراً خبيثاً سفكاً للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن... إلى أن قال: فلا نسبة ولا نجبة، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيوان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه! وأمره إلى الله وله توحيدٌ في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء»^(١).

وقال ابن كثير (ت ٥٧٧هـ): «كان فيه شهامة عظيمة، وفي سيفه رهق»^(٢)، وكان يغضب غضب الملوك! وقال أيضاً: وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باقٍ في عهدتها، ولكن يُخشى أنها رويت عنه بنوعٍ من زيادةٍ عليه!...، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطيخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء، فلا نكفر الحجاج ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله»^(٣).

أقول: إلى هنا انتهت الموازين، أين كلام الله المجيد في عدم الركون إلى الظالم ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(٤)، وأين حديث رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(٥)، ولا نطالب

(١) سير أعلام النبلاء: ج ٤ / ص ٣٤٣.

(٢) الرهق: الهلاك والظلم.

(٣) البداية والنهاية: ج ١٢ / ص ٥١٧.

(٤) سورة هود: الآية ١١٣.

(٥) الكافي: ج ٥ / ص ٥٩.

بأكثر من كلمة حتى بعد موت الظالم الجائر بسنين، مات الحجاج سنة ٩٥هـ، ومات الذهبي سنة ٧٤٨هـ، وابن كثير سنة ٧٧٤هـ، أي إن بينها ستة قرون هجرية، ويعلم أن قتل من المؤمنين الكثير وعلى رأسهم التابعي الجليل سعيد بن جبير، وهل البغض في الله يجعلهم يصفونه بالشجاعة والإقدام؟

قال الدميري (ت ٨٠٨هـ): «كان الحجاج لا يصبر على سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته إراقتة للدماء، وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره»^(١).

وقد «بالغ في قتل الناس بغير حق، فقد بلغ عدد من قتلهم صبراً - سوى من قتل في حروبه - مائة وعشرين ألفاً»^(٢)، و«قيل مائة وثلاثين ألفاً»^(٣).

وكان من جملة من قتلهم صبراً سعيد بن جبير أبرز علماء الكوفة، وزهادها، ولما بلغ الحسن البصري نبأ قتله قال: «والله لقد مات سعيد بن جبير يوم مات، وأهل الأرض من مشرقها إلى مغربها محتاجون لعلمه»^(٤).

واتخذ الحجاج سجوناً لا تقي من حرّ ولا برد، وكان يعذب هؤلاء الأبرياء بأقسى ألوان العذاب، حتى «أنه مات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألفاً مجردات، وكان يجبس الرجال والنساء في موضع واحد»^(٥)، و«أحصي في محبسه ثلاثة وثلاثون ألف سجين لم يجبسوا في دَيْن ولا تبعة»^(٦)، وكان يقول لأهل

(١) حياة الحيوان: ج ١ / ص ١٦٧.

(٢) التنبيه والأشراف: ص ٣١٨.

(٣) حياة الحيوان: ج ١ / ص ١٧٠.

(٤) حياة الحيوان: ج ١ / ص ١٧١.

(٥) حياة الحيوان: ج ١ / ص ١٧٠.

(٦) معجم البلدان: ج ٥ / ص ٣٤٩.

السجن: «أخسؤوا فيها ولا تتكلموا»^(١)، تشبيهاً لهم بأهل النار، وتشبيهاً لنفسه بالخالق عز وجل.

خطبة الحجاج في الكوفة :

عندما ولي الحجاج الكوفة أرسل من أمر الناس بالإجتماع في المسجد، ثم دخل المسجد مثلماً بعمامة حمراء، واعتلى المنبر فجلس وأصبعه على فمه، ناظراً إلى المجتمعين في المسجد، فلما ضجوا من سكوته خلع عمامته فجأة، وقال في خطبته التي بدأها بقول:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
ثم قال: «أما والله فإني لأحمل الشر بثقله وأحدوه بنعله وأجزيه بمثله، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمام واللحى، ثم قال: والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرها عوداً، وأشدّها مكسراً، فوجهني إليكم، ورماكم بي.

يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوي الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسنتم سنن الغي، وأيم الله لأخونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي وهذه الزرافات، وقال ما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟

يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من رها، فاستوسقوا، واعتدلوا، ولا

(١) تهذيب التهذيب: ج ٢ / ص ٢١٢.

تميلوا، واسمعوا، وأطيعوا، وشايعوا، وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار، والإبذار، والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعيبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه، ولينهبن ماله.

ثم التفت إلى أهل الشام، فقال: يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة، والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأزفر وإنما أنتم كما قال الله: ﴿...ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١).

والتفت إلى أهل العراق فقال: لريحكم أنتم من ريح الأبخر، وإنما أنتم كما قال الله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢).

اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام: فقال القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله، فسكتوا، فقال الحجاج من فوق المنبر: «اسكت يا غلام»، فسكت، فقال: «يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق، ومساوي الأخلاق، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل أمرئ منكم في جسده، وفي نفسه شغلاً».

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٤.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٦.

أقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأناه ودخل قصر الإمارة^(١).

أقول: إنما أوردنا الخطبة بطولها ليتبين للقارئ مدى فظاعة هذا الإنسان الذي عاث في الأرض فساداً، وكيف يتحرز المتحرز من ذكر سيئاته، بدعوى أن له حسناتٍ مغمورةً في بحر ذنوبه!!

٣ - الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ):

حكّم بعد موت أبيه في النصف من شوال سنة ٨٦هـ، وكانت مدة حكمه عشر سنوات وبضعة أشهر، مات سنة ٩٦هـ.

ومع أن فتوحات بلاد ما رواء النهر (خراسان، بخارى، سمرقند)، وبلاد السند (شمال غرب الهند وأفغانستان)، وبلاد المغرب (ليبيا وموريتانيا) قد تمت في عهده، إلا أن الأرض مُلئت خلال حكمه ظلماً وجوراً^(٢).

يقول المؤرخون أنه كان منهمكاً في لذاته، وكان كثير النكاح والطلاق، فقد تزوج ثلاثاً وستين امرأة^(٣) غير الإماء.

وفسخ للحجاج الثقفي بإذاعة الناس الويلات، ومنها قتله صبراً سعيد بن جبير التابعي الجليل.

وكان يغلب عليه اللحن، وقد خطب في المسجد النبوي مصدراً حديثه: يا أهل

(١) الإمامة والسياسة: ج ٢ / ص ٣٢.

(٢) تاريخ الخلفاء - السيوطي: ص ٢٢٣.

(٣) الإنافة في مآثر الخلافة: ج ١ / ص ١٣٣.

المدينة - بالضم - مع أن قواعد اللغة العربية تقتضي نصبه لأنه منادى مضاف.

عاتبه أبوه على لحنه في اللغة، وقال له: لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم، فجمع له أهل النحو، ولم يفلح في تعلم القواعد^(١) لإنشغاله بالملذات.

يطنب الأمويون ومن والاهم في مدحه لاهتمامه بشؤون العمران، وإنشاء الطرق، وبناء الدولة! ويغمضون العين عن مظالمه التي يندى لها الجبين!

٤ - سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ):

تقلد الحكم سنة (٩٦هـ)، وبقي فيه سنتين وخمسة أشهر ومات سنة ٩٩هـ^(٢)، وشهد عصره الانتقام من الحجاج الثقفي، ومن كل من والاه.

فقد نكّل تنكيلاً شديداً بآل الحجاج، وعهد بتعذيبهم إلى عبد الملك بن المهلب، فعزل جميع عمال الحجاج، وأطلق في يوم واحد من سجنه واحداً وثمانين ألفاً، وأمرهم أن يلحقوا بأهاليهم، ووجد في السجن ثلاثين ألفاً ممن لا ذنب لهم، وثلاثين ألف امرأة^(٣).

كان سليمان بن عبد الملك قاسياً في جمع الخراج كما ذكرنا ذلك سابقاً، وكان شعاره: «احلب الدرّ حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم»، وعندما قدم عليه أحد الجبابرة، قال له: «إني ما جئتك حتى نُهكت الرعية وجُهدت، فإن رأيت أن ترفق بها وترفّه عليها، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها فافعل، فإنه يُستدرك ذلك في العام المقبل! فقال له سليمان: هببتك أمك احلب الدرّ، فإذا انقطع فاحلب الدم»^(٤).

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ١٣٨.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ١٥١.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ١٣٨.

(٤) تاريخ دمشق: ج ٥ / ص ٨٠.

٥ - عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) :

تقلد الحكم سنة ٩٩ هـ^(١)، وكسر أشرس قوانين الدولة الأموية وهي سب الإمام علي عليه السلام من على المنابر والمآذن، وهي بدعة أقامها معاوية بن أبي سفيان بسب أحد أهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

فأمر عمر بن عبد العزيز بترك سب الإمام علي عليه السلام، وأن يُقرأ عوض ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

قال عمر بن عبد العزيز عن نفسه: «كان أبي إذا خطب، فنال من علي عليه السلام تلجلج، فقلت: يا أبت أنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عليه السلام عرفت منك تقصيراً، قال: أو فطنت لذلك؟ قلت: نعم، فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي عليه السلام ما نعلمه تفرقوا عنا إلى أولاده، فلما ولي عمر الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا مثل إبطال سب الإمام عليه السلام»^(٣).

ثم ردّ فداً إلى آل محمد صلى الله عليه وآله، فكتب: «هذا ما ردّ عمر بن عبد العزيز ظلامه محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بفدك»^(٤).

وكان قبل ذلك قد جمع قريشاً ووجوه الناس، وقال لهم: «إن فداً كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يضعها حيث أراه الله، ثم وليها أبو بكر كذلك، ثم عمر كذلك، ثم أقطعها [عثمان] مروان، ثم إنها صارت إليّ، ولم تكن من مالي أعود علي، وإني أشهدكم أنني قد

(١) نهاية الأرب: ج ٢١ / ص ٣٥٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٣) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ١٥٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ٤ / ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

رددتها على ما كانت عليه عهد رسول الله ﷺ»^(١).

عندها أُثير عليه اللغظ، وقالت بنو أمية له: نَقَمْتَ على الشيخين - يعني الخليفين الأول والثاني - فعلهما وطعنت عليهما، ونسبتهما إلى الظلم، فقال: «قد صحَّ عندي وعندكم أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ادعت فداكاً، وكانت في يدها، وما كانت لتكذب على رسول الله ﷺ مع شهادة علي عليه السلام، وأم أيمن، وأم سلمة، وفاطمة عليها السلام عندي صادقة فيما تدعي، وإن لم تُقم البيّنة وهي سيدة نساء الجنّة، فأنا اليوم أردّها على ورثتها أتقرب بذلك إلى رسول الله ﷺ، وأرجو أن تكون فاطمة والحسن والحسين يشفعون لي يوم القيامة، ولو كنتُ بدل أبي بكر وادّعتُ فاطمة عليها السلام كنتُ أصدّقها على دعوتها، ثم سلّمها إلى الإمام الباقر عليه السلام»^(٢).

٦ - يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ):

استلم الخلافة سنة ١٠١هـ بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، وبعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، ومات سنة ١٠٥هـ، فكانت خلافته أربع سنوات.

أقام أربعين يوماً يسير بالناس بسياسة عمر بن عبد العزيز، فشقَّ ذلك على بني أمية، فأتوه بأربعين شيخاً فشهدوا بأنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب، والظاهر أن هؤلاء المشايخ من المرجئة؛ لأن هذا هو جوهر فكرة الإرجاء! فعدل عن سياسة سلفه، وساس الناس بالظلم والجبروت، وكتب إلى عماله: «أما بعد، فإن عمر بن عبد العزيز كان مغروراً، فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا...»^(٣).

(١) الكامل في التاريخ: ج ٤ / ص ١٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٩ / ص ٢٠٩.

(٣) العقد الفريد: ج ٣ / ص ١٨٠.

وكان «يزيد بن عبد الملك مسرفاً في اللهو والمجون، وجاهلاً، ولا يحترم العلماء، وعندما ماتت مَنْ أحبها، تركها ثلاثة أيام لم يدفنها، حتى أنتنت، وهو يشمها ويقبلها، وينظر إليها ويبكي، فكُلَّم في أمرها حتى أذن في دفنها، وعاد إلى قصره كئيباً حزيناً»^(١).

٧ - هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) :

استلم الخلافة سنة ١٠٥هـ، وحكم البلاد مدة عشرين سنة، وكان طاغية قاسياً مع أهل البيت عليهم السلام بالخصوص، غلب عليه البخل، وقد عُدَّ من البخلاء في كتاب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

ومن مظاهر بخله أنه كان يُردد: «ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً»^(٢)، وقد جمع من المال ما لم يجمعه خليفة قبله»^(٣).

والمأثور عنه أنه قال: «ما ندمتُ على شيءٍ ندامتي على ما أهب، إن الخلافة تحتاج إلى الأموال كإحتياج المريض إلى الدواء»^(٤).

ومن فظائع أعماله قتله الشهيد زيد بن علي سنة ١٢٢هـ أخا الإمام الباقر عليه السلام.
ترايدت في عهده العصبية القبلية بين المضرية واليمانية من العشائر العربية، واشتعلت الثورات في أنحاء الدولة الأموية بسبب ظلمهم لأهل البيت عليهم السلام وللناس عموماً، فكانت ثورة زيد بن علي، وثورة البربر في المغرب، ومظالم أخرى في أرجاء البلاد.

(١) الكامل في التاريخ: ج ٥ / ص ١٢١.

(٢) البخلاء: ص ١٥٠.

(٣) أخبار الدول: ج ٢ / ص ٢٠٠.

(٤) أنساب الأشراف: ج ٨ / ص ٣٩٩.

قال منصوره أنه اهتمّ بالعمران، وفتح العديد من البلدان خصوصاً في الهند والسند وداغستان، وربما بدأت بوادر الترجمة في زمنه.

ويروي ممن والى الأمويين أوجهاً من محاسنه، وما هي إلا مثالب في واقع الحال، منها: «أن هشاماً شتم رجلاً من الأشراف، فوبّخه ذلك الرجل، وقال: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحي منه، وقال: أقتصّ مني، فقال: إذن أنا سفيةٌ مثلك، قال: فخذ عوضاً من المال، قال: ما كنتُ أفعل، فقال: فهبها لله، قال: هي لله ثم لك»^(١).

ولكن هشام بن عبد الملك حارب أئمة أهل البيت عليهم السلام أشد محاربةً من أسلافه، وهو الذي أمر إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بسمّ الإمام الباقر عليه السلام.

وكان هشام بن عبد الملك مشهوراً بشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة، وكانت له مجالس يدار فيها الخمر والمجون!^(٢)

(٦)

الاستنتاج

من مقولة علماء التاريخ: أن التاريخ يكتبه دائماً المنتصر في الحرب، وإذا كان الصراع على السلطة والخلافة بمثابة الحرب، فإن الذي تربع على عرش السلطة والخلافة خلال الأزمان الماضية صرف المال من أجل أن يكتب التاريخ كما يريد هو، لا كما وقعت أحداث التاريخ ودارت عجلته، وهكذا نرى، وبعد حقبة طويلة من الزمن، أن التاريخ كُتب بعين واحدة ترى طرفاً ولا ترى الآخر، أي إن أصحاب التواريخ كتبوا تاريخاً يمجّد الملوك والسلطين، وخلفاء الله على الأرض الذين ما أن ينهوا إمامة صلاة الجمعة حتى

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ / ص ٣٩٣.

(٢) البداية والنهاية: ج ١٠ / ص ١٨٠.

يسرعوا إلى تناول الخمر، كما ورد عن هشام بن عبد الملك.

كان بنو أمية يخشون على ملكهم من الزوال، ولذلك كانوا يستخدمون أبشع الأساليب في محاربة من لا يدين لهم بالولاء، أو من يرونه خطراً عليهم، وكانوا يخشون أئمة أهل البيت عليهم السلام أشد خشية، ويرون أن آل محمد عليهم السلام هم الخطر الأعظم على ملكهم، لا لأن أهل البيت عليهم السلام كانوا يملكون السلطة المادية، بل لأنهم كانوا يملكون السلطة الروحية على الناس، ويملكون الحق والصلاحية الشرعية في إدارة المجتمع الإسلامي، ويملكون أمضى سلطة في الدنيا وأدومها وهي سلطة العلم الديني الذي تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

توسعت الدولة الأموية توسعاً كبيراً بفضل الفتوحات، إلا أن جسدها كان منحوراً من الداخل، فلم تكن قيادتها قيادة دينية رشيدة كما كان حال الدولة في عهد النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكن العدل مبسوطاً فيها، بل كان الظلم والقتل والسجن سياسة منهجية من سياساتهم، خصوصاً زمن عبید الله بن زياد، والحجاج ونحوهم من ولاة السوء.

وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام محارِبين، مطارِدِين، لكن الإمام الباقر عليه السلام أثبت أن العلم، والتقوى، والإمامة الشرعية أقوى من الظلم، وأبقى من الظالمين المسرفين.

الفصل التاسع

نصوصٌ منتقاةٌ

التوحيد، النبوة، الإمامة، القرآن الكريم، المؤمنون، مكارم
الدنيا والآخرة، الحث على الفضائل، النهي عن الرذائل.
في العقل، الآداب الاجتماعية، الدار الدنيا، العلم، الإنسان
المال، الحاجة والسؤال، العلاقات الإنسانية، شيعة أهل البيت عليهم السلام.

نصوصٌ منتقاةٌ

مقدمة

هذه مجموعةٌ منتخبةٌ من أقوال الإمام الباقر عليه السلام، انتخبناها لأنها تجري مجاري الحكمة من آل بيت المصطفى عليه السلام، وهي -على تنوعها- تعكس إمام الإمام الباقر عليه السلام بالعلوم الإلهية، ومنابع الفيض السماوي.

(١)

التوحيد

الإخلاص في التوحيد: عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أتاني جبرئيل بين الصفا والمروة فقال: يا محمد طوبى لمن قال من أمتك: «لا إله إلا الله» مخلصاً»^(١).

عبادة الأحرار: «أن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»^(٢)، وهذا القول مطابقٌ لقول أمير المؤمنين عليه السلام، والظاهر أن الإمام الباقر عليه السلام يرفعه إليه عليه السلام.

عدم استصغار الطاعة والمعصية: «عن الإمام أبي جعفر عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: أن الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة:

أخفى رضاه في طاعته، فلا تستصغرن شيئاً من طاعته، فربما وافق رضاه وأنت لا

تعلم.

(١) التوحيد: ص ٢١.

(٢) نهج البلاغة: ج ٤ / ص ٥٣.

وأخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغرن شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه وأنت لا تعلم.

وأخفى إجابته في دعوته، فلا تستصغرن شيئاً من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم.

وأخفى وليه في عباده، فلا تستصغرن عبداً من عباد الله، فربما يكون وليه وأنت لا تعلم^(١).

في قضاء الله تعالى: «في كل قضاء الله خيرةً للمؤمن»^(٢).
ما أعظم شهادة التوحيد: «ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلا الله؛ لأن الله تعالى لا يقدره شيء، ولا يشركه في الأمر أحد»^(٣).

(٢)

النبوة

تقدم المصطفى محمد ﷺ على الأنبياء ﷺ: سُئِلَ ﷺ عن كيفية تقدم نبينا محمد ﷺ على الأنبياء ﷺ وهو آخر من بُعث؟ قال ﷺ: «إن الله تعالى لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ كان محمد ﷺ أول من قال بلى، ولذلك صار يتقدم الأنبياء ﷺ، وهو آخر من بُعث»^(٤).

(٣)

الإمامة

عدم خلو الأرض من الإمام: «والله ما ترك الله الأرض منذ قبض الله آدم إلا وفيها

(١) معاني الأخبار: ص ١١٢.

(٢) التوحيد: ص ٣٧١.

(٣) التوحيد: ص ١٩.

(٤) المواهب اللدنية - القسطلاني: ج ١ / ص ٦١.

إمام يهتدى به إلى الله تعالى، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده»^(١).

في غيبة الإمام عليه السلام: «يأتي على الناس زمان يغيب عنهم إمامهم، فطوبى للثابتين على أمرنا في ذلك الزمان، إن أدنى ما يكون لهم من الثواب أن يناديهم الله جلّ وعزّ: عبادي أمّنتم بسرّي، وصدقتم بغيبتي، فابشروا بحسن الثواب مني، فأنتم عبادي وأمنائي حقاً، منكم أتقبل وعنكم أعفو ولكم أغفر، بكم أسقي عبادي الغيث، وادفع عنهم البلاء، ولولاكم لأنزلت عليهم عذابي»^(٢).

إمتحان الناس بالإمامة: «بليّة الناس علينا عظيمة، إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا»^(٣).

دعائم الإسلام: «بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، ولم يناد بشيءٍ كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربع، وتركوا هذه»^(٤)، يعني الولاية.

كمالية علم الإمام عليه السلام: «لا والله، لا يكون عالمٌ جاهلاً أبداً، عالمٌ بشيءٍ جاهلٌ بشيءٍ؟! الله أجلّ وأعزّ وأعظم وأكرم من أن يفرض طاعة عبدٍ يجب عنه علم سائته وأرضه، لا يجب ذلك عنه»^(٥).

حجة الله: «إن الحجة لا تقوم لله عزّ وجلّ على خلقه إلا بإمام حي يعرفونه»^(٦).

أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ضاحت الأرض بسبعةٍ، بهم ترزقون وبهم تنصرون

(١) الإمامة والتبصرة - الشيخ الصدوق: ص ٢٩.

(٢) كمال الدين: ص ٣٣٠.

(٣) الإرشاد: ص ٢٦٦.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٢٢٨.

(٥) بحار الأنوار: ج ٢٦ / ص ١٠٩.

(٦) بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٠.

وبهم تطرون، منهم: سلمان، والمقداد، وأبو ذر، وعمّار، وحذيفة رحمة الله عليهم، وكان علي عليه السلام يقول: وأنا إمامهم وهم الذين صلوا على فاطمة عليها السلام»^(١).

(٤)

القرآن الكريم

في قراءة القرآن: «إذا قرأت: قل هو الله أحد، فقل: أنت الله الأحد الصمد؛ وإذا قرأت: قل أعوذ برب الفلق، فقل: أعوذ برب الفلق؛ وإذا قرأت: قل أعوذ برب الناس، فقل: أعوذ برب الناس»^(٢).

(٥)

المؤمنون

سنّة الهدى: «أيما عبد من عباد الله سنّ سنّة هدى كان له أجر مثل من عمل بذلك من غير أن ينقص من أجورهم شيء»^(٣).

صدق اللسان: «مَنْ صَدَّقَ لِسَانَهُ زَكَرَ عَمَلُهُ، وَحَسُنَتْ نَيْتُهُ وَزُيِدَ فِي رِزْقِهِ، وَمَنْ حَسَنَ بَرُّهُ بِأَهْلِهِ زُيِدَ فِي عَمْرٍ»^(٤).

أشدّ الأعمال: «أشدّ الأعمال ثلاثة: ذكر الله على كل حال، وإنصافك من نفسك، ومواساة الأخ في المال»^(٥).

خصال المؤمن: «المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه، ولا يحرمه، ولا يُبَيِّء به الظن»^(٦)، و«أن الله عزّ وجلّ أعطى المؤمن ثلاث خصال: العزّة في الدنيا، والفلاح في الآخرة،

(١) رجال الكشي: ص ١٢.

(٢) غاية النهاية - الجزري ج ٢ / ص ٢٠٢، ترجمة رقم ٣٢٥٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧١ / ص ٢٥٨.

(٤) الخصال: ص ٨٧.

(٥) حلية الأولياء: ج ٣ / ص ١٨٣.

(٦) بحار الأنوار: ج ٧٨ / ص ١٧٦.

والمهابة في صدور الظالمين، ﴿...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾^(١) ﴿٢﴾.

عزّ المسلم: «ثلاث لا يزيد بهن المرء المسلم إلا عزّاً: الصّبح عمّن ظلمه، وإعطاء من حرّمه، والصلة لمن قطعه»^(٣).

الأخوة في الله: «من استفاد أخاً في الله، على إيمانٍ بالله، ووفاءً بأخائه طلباً لمرضاة الله فقد استفاد شعاعاً من نور الله، وأماناً من عذاب الله، وحجة يفلح بها يوم القيامة، وعزاً باقياً، وذكرًا نامياً»^(٤)، و«اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك»^(٥).

ابتلاء المؤمن: «إن الله يتعهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعهد الغائب أهله بالهدية، ويحميه عن الدنيا كما يحمي الطبيب المريض»^(٦).

(٦)

مكارم الدنيا والآخرة

من مكارم الدنيا والآخرة: «ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عمّن ظلمك، وتصلّ من قطعك، وتحلم إذا جهلّ عليك»^(٧).

(٧)

البحث على الفضائل

محبوبة الرفق: «أن الله عزّ وجلّ رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

(٢) الخصال: ج ١ / ص ٣٠.

(٣) الفصول المهمة: ص ٢١٠.

(٤) تحف العقول: ص ٢٩٥.

(٥) نور الأبصار - الشبلنجي: ص ٢٠٩.

(٦) الكافي: ج ٢ / ص ١٩٨.

(٧) بحار الأنوار: ج ٧٨ / ص ١٧٣.

على العنف»^(١).

زينة الرفق: «قال رسول الله ﷺ: أن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»^(٢).

قفل الإيمان: «أن لكل شيء قفلاً، وقفل الإيمان الرفق، ومن قسم له الرفق قسم له الإيمان»^(٣).

الغلبة بالخير: «الغلبة بالخير فضيلة، وبالشر قبيحة»^(٤).

حسن التفضل على الناس: «صنائع المعروف تدفع مصارع السوء»^(٥)، و«إن استطعت ألا تعامل أحداً إلا ولك الفضل عليه فافعل»^(٦).

العفو أولاً: «الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة»^(٧).

فضيلة الصبر: «مروءة الصبر في حالة الحاجة والفاقة والتعفف والغنى أكثر من مروءة الإيعاء»^(٨).

كمال الدنيا: «كل الكمال: التفقه في الدين، والصبر على النائية، وتقدير المعيشة»^(٩).

كنوز البر: «أربع من كنوز البر: كتمان الحاجة، وكتمان الصدقة، وكتمان الوجع، وكتمان المصيبة»^(١٠).

(١) الكافي: ج ٢ / ص ١١٩.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ١٢٠.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ١٢٠.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٥ / ص ١٨٨.

(٥) الكافي: ج ٤ / ص ٢٩.

(٦) تحف العقول: ص ٢٩٣.

(٧) الكافي: ج ٢ / ص ١٠٧.

(٨) الكافي: ج ٣ / ص ٢٢٣.

(٩) تاريخ مدينة دمشق: ج ٥٤ / ص ٣٣٧.

(١٠) تحف العقول: ص ٢٩٥.

أداء الأمانة مطلقاً: «عليكم بالورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً كان أو فاجراً»^(١).

تعريف المروءة: «المروءة أن لا تطمع فُتُدَلَّ، ولا تسأل فُتُقَلَّ، ولا تبخل فُتُشتم، ولا تجهل فُتُخصم»^(٢).

الصبر الجميل: «الصبر الجميل: ذلك الصبر الذي ليس فيه شكوى إلى الناس»^(٣).

(٨)

النهى عن الرذائل

الواعظ لغيره دون نفسه: «إنَّ أشدَّ الناس حسرةً يوم القيامة عبداً وصفَ عدلاً ثم خالفه إلى غيره»^(٤).

الخصومة: «إياك والخصومة، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن»^(٥).

الكِبَر: «ما دخل قلب امرئ من الكِبَر إلا نَقَصَّ من عقله مثل ذلك»^(٦)، و«المتكبر ينازع الله رداءه»^(٧).

ذو الوجهين وصاحب اللسانين: «بئس العبد أن يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه في الله شاهداً، ويأكله غائباً، إن أُعطي حسده، وإن ابتلي خذله»^(٨).

(١) الكافي: ج ٥ ص ١٣٣.

(٢) تحف العقول: ص ٢١٣.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٩٣.

(٤) الكافي: ج ٢ / ص ٢٧.

(٥) الكافي: ج ٢ / ص ٣٠٠.

(٦) بحار الأنوار: ج ٧٥ / ص ١٨٦.

(٧) الكافي: ج ٢ / ص ٣٠٩.

(٨) الكافي: ج ٢ / ص ٣٤٣.

إختلال الجوارح: «ثلاث قاصمات الظهر: رجل استكثر عمله، ونسي ذنبه، وأعجب برأيه»^(١).

وبال خصال السيئة: «ثلاث خصال لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها..، وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم ليزدان الديار بلاقع»^(٢) من أهلها»^(٣).

أنواع الظلم: «الظلم ثلاثة: ظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه الله فالمدائنة بين العباد»^(٤).
مبغوضية الفحش: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش»^(٥).

(٩)

في العقل

عن الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لم يُعبد الله عزّ وجلّ لشيء أفضل من العقل، ولا يكون المؤمن عاقلاً حتى يجتمع فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشّر منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه، ولا يسأم من طلب العلم طول عمره، ولا يتبرّم بطلاب الحوائج قبّله، الذلُّ أحبُّ إليه من العزّ، والفقير أحبُّ إليه من الغنى، نصيبه من الدنيا القوت، والعاشرة وما العاشرة لا يرى أحداً إلاّ قال هو خيرٌ مني وأتقى»^(٦).

(١) الخصال: ص ١١١.

(٢) بلاقع: جمع بلقع، البلّقع: المكان الخالي من كل شيء.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٣٤٧.

(٤) وسائل الشيعة: ج ١١ / ص ٣٤٢.

(٥) الكافي: ج ٢ / ص ٣٢٤.

(٦) الخصال: ص ٤٣٣.

(١٠)

الآداب الاجتماعية

في الآداب الاجتماعية: «قُمْ بالحق، ولا تعرض لما فاتك، واعتزل ما لا يعينك، وتجنب عدوك، واحذر صديقك من الأقسام إلا الأمين من خشية الله، ولا تصحب الفاجر، ولا تطلعه على شرك، واستشر في أمرك الذين يخشون ربهم»^(١).
 صلة الرحم: «صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأحوال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسى في الأجل»^(٢)، «... وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم، وأن القوم ليكونون فجاراً فيتواصلون فتنمو أموالهم ويثرون...»^(٣).
 في التواضع: «التواضع: الرضا بالمجلس دون شرفك، وأن تسلّم على من لقيت، وأن تترك المرء وإن كنت مُحَقَّقاً»^(٤).

(١١)

الدار الدنيا

في الكسل والمسألة: «لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحد أحداً، ولو يعلم المعطي ما في العطية ما ردّ أحد أحداً»^(٥).
 أشكال الناس في الدنيا: «إنّ لله عبداً ميامين مياسير يعيشون ويعيش الناس في أكنافهم وهم في عباده بمنزلة القطر، والله عزّ وجلّ عباد ملاعين مناكير لا يعيشون ولا يعيش الناس في أكنافهم، وهم في عباد الله بمنزلة الجراد لا يقعون على شيء إلا أتوا

(١) علل الشرائع: ج ٢ / ص ٥٥٩.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ١٥٠.

(٣) الكافي: ج ٢ / ص ٣٤٧.

(٤) تحف العقول: ص ٢٩٦.

(٥) الكافي: ج ٤ / ص ٢٠.

عليه^(١).

(١٢)

العلم

أهمية العالم: «لموت عالمٍ أحبُّ إلى إبليس من موت سبعين عابداً»^(٢).

آفة العلم: «آفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان»^(٣).

العالم الحقيقي: «لا يكون العبد عالماً حتى لا يكون حاسداً لمن فوقه، ولا محقراً لمن

دونه»^(٤).

جوهر التعليم وأجره: «من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمِلَ به ولا ينقص

أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلال كان عليه مثل أوزار من عمل به ولا

ينقص أولئك من أوزارهم شيئاً»^(٥).

العلم أحسن العبادة: «تذاكر العلم ساعة خيرٌ من قيام ليل»^(٦).

آداب الجلوس إلى عالم: «إذا جلست إلى عالم فكن على أن تسمع أحرص منك على

أن تقول، وتعلّم حسن الإستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحدٍ حديثه»^(٧).

(١٣)

الإنسان

أخلاقية التعامل مع الله تعالى: «يا بُنَيَّ إذا أنعم الله عليك بنعمةٍ فقل: الحمد لله، وإذا

(١) الكافي: ج ٨ / ص ٢٤٧.

(٢) كشف الغمة: ج ٢ / ص ٣٤٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٤ / ص ١٦٨.

(٤) تحف العقول: ص ٢٩٤.

(٥) الكافي: ج ١ / ص ٣٥.

(٦) الاختصاص: ص ٢٤٥.

(٧) كشف الغمة: ص ٢٦٥.

أحزنتك أمرٌ فقل: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، وإذا أبطأ عنك رزقٌ فقل: استغفر الله»^(١).
 الطرق في عذاب العاصي: «...، وقال الله عزَّ وجلَّ وعزتي لا أخرج لي عبداً من الدنيا
 وأريد عذابه إلا استوفيت كل حسنةٍ له، إما بالسعة في رزقه، أو بالصحة في جسده، وإما
 بأمنٍ أدخله عليه، فإن بقي عليه شيءٌ هوَّنتُ عليه الموت»^(٢).
 الواعظ الذاتي: «مَنْ لم يجعل الله له من نفسه واعظاً فإنَّ مواعظ الناس لن تُغني عنه
 شيئاً»^(٣).

ما بين دين الظالم ودنيا المظلوم: «يأخذ المظلوم من دين الظالم، أكثر مما يأخذ الظالم
 من دنيا المظلوم»^(٤).

العمل الصالح وترقب الموت: «توقِّي الصرعة خيراً من سؤال الرجعة»^(٥).
 بين طلاقة الوجه وعبوسه: «البِشْرُ الحسن وطلاقةُ الوجه مكسبةٌ للمحبة، وقربةٌ
 من الله، وعبوس الوجه وسوء البِشْرِ مكسبةٌ للمقت وبعدَّ عن الله»^(٦).
 كظم الغيظ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وأماناً يوم
 القيامة»^(٧).

الظاهر والباطن: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خفَّ ميزانه»^(٨).

(١) كشف الغمة: ص ١٥٠.

(٢) (كتاب) المؤمن - الحسين بن سعيد: ص ١٨.

(٣) تحف العقول: ص ٢٩٤.

(٤) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٣٢٦.

(٥) بحار الأنوار: ج ٧٣ / ص ٣٦٤.

(٦) تحف العقول: ص ٢٩٦.

(٧) الكافي: ج ٢ ص ١١٠.

(٨) تفسير نور الثقلين: ج ٥ / ص ٦٦٠.

تلازم الحياء والإيمان: «الحياء والإيمان مقرونان في قرن^(١) فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»^(٢).

اللسان مفتاح الخير والشر: «أن هذا اللسان مفتاح كل خيرٍ وشرٍّ فينبغي للمؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضته فإن رسول الله ﷺ قال: رحم الله مؤمناً أمسك لسانه من كل شر، فإن ذلك صدقة منه على نفسه، ثم قال: لا يسلم أحد من الذنوب حتى يخزن لسانه، وإن الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وإن البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه»^(٣).

عقوبة القلب والبدن: «أن لله عقوباتٍ في القلوب والأبدان: ضنكٌ في المعيشة، ووهنٌ في العبادة، وما ضرب عبدٌ بعقوبةٍ أعظم من قسوة القلب، يقول الله تعالى: يا بن آدم اجتنب ما حرمتُ عليك تكن من أروع الناس»^(٤).
في نعم الله تعالى وآثارها: «من أنعم عليه نعمةً فأنعم على الناس فقد أخذ أماناً من الدم، وخلع ربقة سوء العواقب من عنقه»^(٥).

(١٤)

المال

الصدقة والمحبة: «ألا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه يبعد السلطان والشيطان منكم؟... عليكم بالصدقة، فبكروا بها فإنها تسود وجه إبليس وتكسر شره السلطان الظالم عنكم في يومكم ذلك، وعليكم بالحب في الله والتودد والمؤازرة على العمل الصالح فإنه يقطع

(١) القرن: جبلٌ يجمع به الجملان.

(٢) الكافي: ج ٢ / ص ١٠٦.

(٣) تحف العقول: ص ٢٩٨.

(٤) تحف العقول: ص ٢٩٦.

(٥) ربيع الأبرار - الزمخشري ج ٤ / ص ٣٢٨.

دابرهما^(١) وألحوا في الاستغفار فإنه ممحاةٌ للذنوب^(٢).

(١٥)

الحاجة والسؤال

معوونة أخيك المسلم: «ما من عبدٍ يمتنع من معونة أخيه المسلم والسعي في حاجته فُضيت أو لم تقصَّ إلا أُبتلي بالسعي في حاجة من يؤثم عليه ولا يؤجر، وما من عبدٍ يبخل بنفقةٍ ينفقها فيما يرضي الله إلا أُبتلي بأن ينفق أضعافها فيما أسخط الله»^(٣).

الإلحاح على الله في الطلب: «إن الله كره الإلحاح الناس على بعضهم في المسألة، وأحبَّ ذلك لنفسه، إن الله جلَّ ذكره يحب أن يُسأل ويطلب ما عنده»^(٤).

آفات طلب الحاجة: «إنما مثل الحاجة إلى من أصاب ماله حديثاً كمثل الدرهم في فم الأفعى أنت إليه محوج وأنت منها على خطر»^(٥).

(١٦)

العلاقات الإنسانية

الخطاب الجميل بين الناس: «قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم فإن الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين الفاحش المتفحش، السائل الملحف، ويجب الحليم العفيف المتعفف»^(٦)، و«إن الله يحب إفشاء السلام»^(٧)، و«في قول الله عزَّ وجلَّ:

(١) يقطع دابرهما: يعني السلطان والشيطان.

(٢) تحف العقول: ص ٢٩٨.

(٣) تحف العقول: ص ٢٩٣.

(٤) عدة الداعي - ابن فهد الحلبي: ص ١٤٣.

(٥) تهذيب الأحكام: ج ٦ / ص ٣٢٩.

(٦) أمالي الشيخ الصدوق: ص ٣٢٦.

(٧) التحفة السنوية - السيد الجزائري: ص ٣١٩.

﴿... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا...﴾^(١)، قولوا: للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم^(٢).
 عدم الاستغناء عن الأخوان: قال له رجل كان عنده: اللهم اغننا عن جميع خلقك،
 فقال أبو جعفر عليه السلام: «لا تقل هكذا، ولكن قل: اللهم اغننا عن شرار خلقك، فإن المؤمن
 لا يستغني عن أخيه»^(٣).

(١٧)

شيعة أهل البيت عليهم السلام

الوصول إلى الله تعالى بالطاعة: يقول عليه السلام جابر: «بلغ شيعتي عني السلام واعلمهم
 أنه لا قرابة بيننا وبين الله عز وجل، ولا يتقرب إليه إلا بالطاعة له، يا جابر: من أطاع الله
 وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا»^(٤)، «شيعتنا من أطاع الله عز وجل»^(٥).
 صفات شيعة أهل البيت عليهم السلام: «والله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما
 كانوا يُعرفون إلا بالتواضع والتخشع وأداء الأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة،
 والبر بالوالدين، وتعهد الجيران من الفقراء وذوي المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق
 الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائريهم
 في الأشياء»^(٦)، و«أبلغ شيعتنا أنهم إذا قاموا بما أمروا أنهم هم الفائزون يوم القيامة»^(٧).
 والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج ١ / ص ٩٤.

(٣) تحف العقول: ص ٢٧٨.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ / ص ١٨٣.

(٥) حلية الأولياء: ج ٣ / ص ١٨٤.

(٦) الكافي: ج ٢ / ص ٧٢.

(٧) وسائل الشيعة: ج ١ / ص ٩٣.



المصادر والفهرست

المصادر

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الإتحاف بحب الأشراف، عبد الله بن محمد الشبراوي (ت ١١٧١هـ)، بيروت: مؤسسة الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٢م.
- ٣ - الإتيقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م.
- ٤ - إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق: علاء الدين الأعلمي، بيروت: الأعلمي، ٢٠٠٤م.
- ٥ - إجماع العوام عن علم الكلام، أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، بومبي: طبعة حجرية، بدون تاريخ الطبع.
- ٦ - الاحتجاج على أهل اللجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٦٢٠هـ)، تحقيق: إبراهيم البهادري ومحمد هادي به، طهران: دار الأسوة، ١٤١٣هـ.
- ٧ - الإحكام في أصول الأحكام، علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الأمدي (ت ٦٣١هـ)، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ.
- ٨ - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، أحمد بن يوسف القرماني (ت ١٠١٩هـ)، تحقيق: فهمي سعد وأحمد حطيظ، بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٢م.
- ٩ - الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ)، القاهرة: دار إحياء الكتاب العربي، ١٩٦٠م.
- ١٠ - الاختصاص، المنسوب إلى محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٤هـ.
- ١١ - الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح بن محمد المقدسي (ت ٧٦٣هـ)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م.
- ١٢ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)،

بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.

١٣ - الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، تحقيق ونشر، ١٤٠٣هـ.

١٤ - أساس التقديس، محمد بن عمر بن الحسين المعروف بالفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ)، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦م.

١٥ - الاستبصار، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، طهران: الكتب الإسلامية، ١٣٩٠هـ.

١٦ - إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وفضائل أهل بيته الطاهرين عليهم السلام، محمد علي الصبان (ت ١٢٠٦هـ)، طباعة مصر بهامش نور الأبصار، ١٣٢٤هـ.

١٧ - الإشاعة لأشراط الساعة، محمد بن عبد الرسول البرزنجي (ت ١١٠٣هـ)، مخطوطة في مكتبة جامعة الرياض تحت رقم ٤٩٩٠ ف ١٠٩٧-٥.

١٨ - الأشباه والنظائر، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.

١٩ - الأشعثيات (أو الجعفریات)، إسحاق بن موسى عن رواية محمد بن الأشعث (توفي في القرن الرابع الهجري)، طهران: مكتبة نينوى الحديثة، بدون تاريخ.

٢٠ - الأصمعيات، عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع المعروف بالأصمعي (ت ٢١٦هـ)، مصر: دار المعارف، ١٩٩٣م.

٢١ - الاعتقادات، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، قم المشرفة: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.

٢٢ - الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي (ت ١٣٩٦هـ)، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

٢٣ - إلام الوري بأعلام الهدى، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، ١٣٩٠هـ.

٢٤ - إلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١م.

- ٢٥ - إغاثة الأمة بكشف الغمة، أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥هـ)، تحقيق: كرم حلمي فرحات، مصر: عين للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٧م.
- ٢٦ - الأغاني، علي بن الحسين بن محمد المعروف بأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٥هـ.
- ٢٧ - أمالي الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٤٠٠هـ.
- ٢٨ - الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، بيروت: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨١هـ.
- ٢٩ - الأمالي، محمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، بيروت: دار التيار الجديد ودار المرتضى، بدون تاريخ.
- ٣٠ - الإمامة والتبصرة، علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٢٩هـ)، قم المشرفة: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٤هـ.
- ٣١ - الإمامة والسياسة (تاريخ الخفاء)، عبد الله بن عبد المجيد بن قتيبة الدينوري (ت ٨٢٨هـ)، قم المشرفة: الشريف الرضي، ١٤١٣هـ.
- ٣٢ - الأمان من أخطار الأسفار والأزمان، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٤٠٩هـ.
- ٣٣ - الانتصار، علي بن الحسين بن موسى المعروف بالشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)، قم المشرفة: جماعة المدرسين، ١٤١٥هـ.
- ٣٤ - أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م.
- ٣٥ - الأوائل، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٩٥هـ)، طنطا: دار البشير، ١٤٠٨هـ.
- ٣٦ - الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر المعروف بالخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١١هـ.
- ٣٧ - بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، محمد باقر بن الشيخ محمد تقي ملا مقصود على المجلسي الاصفهاني (ت ١١١١هـ)، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية.
- ٣٨ - البخلاء، عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، بيروت: دار الهلال، ١٤١٩هـ.

- ٣٩ - البداية والنهاية، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: أحمد جاد، القاهرة: دار الحديث، بدون تاريخ.
- ٤٠ - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- ٤١ - بشارة المصطفى ﷺ لشيعته المرتضى ﷺ، عماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري الإمامي (من علماء القرن السادس الهجري)، قم المشرفة: جماعة المدرسين، ١٤٢٢هـ.
- ٤٢ - بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ الصفار (ت ٢٩٠هـ)، بيروت: الأعلمي، ٢٠١٠م.
- ٤٣ - البلد الأمين والدرع الحصين، إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي (ت ٩٠٠هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٩٧م.
- ٤٤ - البيان، محمد بن جمال الدين مكّي العاملي المعروف بالشهيد الأول (ت ٧٨٦هـ).
- ٤٥ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت: دار صعب، ١٩٦٨م.
- ٤٦ - تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ.
- ٤٧ - تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ.
- ٤٨ - تاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، مكة المكرمة: مكتبة الباز، ١٤٢٥هـ.
- ٤٩ - تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف.
- ٥٠ - تاريخ القضاعي (عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف)، أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت ٤٥٤هـ)، تحقيق: جميل محمد عبد الله، مصر: مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٥م.
- ٥١ - تاريخ مدينة دمشق (تاريخ دمشق)، علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة، بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ.

- ٥٢ - تأريخ وتطور الملابس عبر العصور، سامية إبراهيم السمان وعزة إبراهيم علي، الأسكندرية: جامعة الأسكندرية، ١٩٩٢ م.
- ٥٣ - تأريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، بيروت: دار صادر، بدون تأريخ.
- ٥٤ - التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تأريخ.
- ٥٥ - التحفة السنية، عبد الله بن نعمة الله الجزائري (ت ١٢١٣هـ)، نسخة خطية موقوفة في أستانة قدس سنة ١٣٠٧هـ.
- ٥٦ - تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، أبو محمد الحسن بن علي الحراني المعروف بابن شعبة (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٤هـ.
- ٥٧ - تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م.
- ٥٨ - تذكرة الخواص، المعروف ب(تذكرة خواص الأمة في خصائص الأئمة)، شمس الدين سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، طهران: مكتبة نينوى، بدون تأريخ.
- ٥٩ - تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، حسان علي حلاق، القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٨٦ م.
- ٦٠ - التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣ م.
- ٦١ - تصحيح اعتقادات الإمامية، محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، قم المشرفة: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ.
- ٦٢ - تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.
- ٦٣ - تفسير البيضاوي المعروف ب(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله ابن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.
- ٦٤ - تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ.

- ٦٥ - (مقدمة) تفسير الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، مصر: جامعة طنطا، ١٩٩٩م.
- ٦٦ - تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مصر: دار المعارف، بدون تأريخ.
- ٦٧ - تفسير عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.
- ٦٨ - تفسير العياشي، أبو النضر محمد بن مسعود السمرقندي (توفي في القرن الثالث الهجري)، طهران: المطبعة العلمية الإسلامية، ١٣٨٠هـ.
- ٦٩ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤م.
- ٧٠ - تفسير القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (توفي في القرن الرابع الهجري)، قم المشرفة: دار الكتاب، ١٤٠٤هـ.
- ٧١ - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين المعروف بالفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ)، بيروت: دار الفكر، ١٩٨١م.
- ٧٢ - تفسير الكشاف (عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.
- ٧٣ - تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة الحويزي (ت ١٠٥٣هـ)، تحقيق: هاشم الرسولي، قم المشرفة: إسماعيليان، ١٤١٢هـ.
- ٧٤ - تفسير النيسابوري المسمى بد(غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، نظام الدين الحسن بن محمد ابن حسين النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.
- ٧٥ - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام)، أبو الحسن ورام بن أبي فراس بن حمدان (ت ٦٠٥هـ)، قم المشرفة: مكتبة الفقيه، بدون تأريخ.
- ٧٦ - تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل بالباطل، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٥هـ.
- ٧٧ - تنقيح المقال في علم الرجال، عبد الله المامقاني (ت ١٣٥١هـ)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت (عليه السلام)، ١٤٢٣هـ.
- ٧٨ - تهذيب الآثار، محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ)، دمشق: دار المأمون، ١٩٩٥م.

- ٧٩ - تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، الهند: دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٦هـ.
- ٨٠ - تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للمفيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، طهران: الكتب الإسلامية، ١٣٩٠هـ.
- ٨١ - تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- ٨٢ - التوحيد، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- ٨٣ - التوفيق الرباني في الرد على ابن تيمية الحرائي، جماعة من العلماء، مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٨٢٣ ب، كُتبت بخط ابن قاضي شهبه، لم أجد لها إشارة في مصادرنا.
- ٨٤ - ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، قم المشرفة: طليعة نور، بدون تاريخ.
- ٨٥ - جامع بيان العلم وفضله، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، الدمام: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤م.
- ٨٦ - جامع السعادات، محمد مهدي النراقي (ت ١١٢٨هـ)، قم المشرفة: إسماعيليان، ١٣٧٩هـ.
- ٨٧ - جامع كرامات الأولياء، يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠هـ)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، الهند: مركز أهل سنة بركات رضا، ٢٠٠١م.
- ٨٨ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٤م.
- ٨٩ - جوهرة اللغة، محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ)، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- ٩٠ - جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦هـ)، تحقيق: محمود القوجاني، طهران: الكتب الإسلامية، بدون تاريخ.
- ٩١ - الحاوي للفتاوي، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٤م.
- ٩٢ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ.

- ٩٣ - حياة الحيوان الكبرى، محمد بن موسى بن عيسى الدميري الشافعي (ت ٨٠٨هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.
- ٩٤ - الخرايج والجرايح في معجزة الأئمة، قطب الدين سعيد بن هبة الراوندي (ت ٥٧٣هـ)، بومبي: طبعة حجرية.
- ٩٥ - خزانة الأدب ولبّ لُباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م.
- ٩٦ - الخصال، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٧٦هـ.
- ٩٧ - الدر المنثور في التاويل بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ.
- ٩٨ - الدرّ النظيم في خواص القرآن الكريم، عبد الله بن أسعد اليمني اليافعي (ت ٧٦٨هـ)، القاهرة: المكتبة العلامة، بدون تاريخ.
- ٩٩ - درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، الرياض: جامعة محمد بن سعود، ١٩٩١م.
- ١٠٠ - دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، النعمان بن محمد بن منصور المعروف بالقاضي النعمان (ت ٣٦٣هـ)، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م.
- ١٠١ - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني النحوي (ت ٤٧٤هـ)، القاهرة: مكتبة الخانجي، بدون تاريخ.
- ١٠٢ - دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رُستم الطبري (من أعلام القرن الرابع الهجري)، بيروت: الأعلمي، ١٩٨٨م.
- ١٠٣ - الدمعة الساكبة في أحوال النبي ﷺ والعترة الطاهرة ﷺ، محمد باقر بن عبد الكريم البهبهاني (ت ١٢٨٥هـ)، بيروت: الأعلمي.
- ١٠٤ - ديوان (شيخ الأباطح) أبي طالب (رضوان الله عليه)، جمع أبو هفان عبد الله بن أحمد المهزومي (ت ٢٥٧هـ)، قم المشرفة: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، بدون تاريخ.
- ١٠٥ - ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح: محمد نبيل طريقي، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٠م.

- ١٠٦ - الذريعة إلى مكارم الشريعة، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٧م.
- ١٠٧ - ذيل طبقات الحنابلة، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ.
- ١٠٨ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: سليم النعيمي، بغداد: مطبعة العاني، ١٩٥٦م.
- ١٠٩ - رجال الطوسي، محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: جواد القيومي، قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٧٣هـ.
- ١١٠ - رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال)، أبو جعفر محمد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: مهدي الرجائي، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليه السلام، ١٤٠٤هـ.
- ١١١ - رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي النجاشي الأسدي (ت ٤٥٠هـ)، بيروت: الأعلمي، ٢٠١٠م.
- ١١٢ - رحلة ابن بطوطة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، محمد بن عبد الله ابن محمد بن إبراهيم بن بطوطة (ت ٧٧٩هـ)، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٨٧م.
- ١١٣ - رسالة أوزان المقادير، محمد بن باقر بن الشيخ محمد تقي المجلسي (ت ١١١١هـ)، ضمن بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، بيروت: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ.
- ١١٤ - روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الخونساري الأصفهاني (ت ١٣١٣هـ)، بيروت: الدار الإسلامية، ١٩٩١م.
- ١١٥ - روضة الطالبين وعمدة المفتين، أبو زكريا محيي الدين بن يحيى النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩١م.
- ١١٦ - روضة الناظر وجنة المناظر (في أصول الفقه على مذهب أحمد بن حنبل)، عبد الله بن أحمد ابن محمد المعروف بابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، بيروت: الريان للطباعة، ١٤٢٣هـ.
- ١١٧ - روضة الواعظين، محمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨هـ)، تحقيق: غلام حسين مجيدي ومجتبي فرجي، قم المشرفة: دليل ما، ١٣٨١هـ.
- ١١٨ - سراج الملوك، محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطروشني (ت ٥٢٠هـ)، مصر: المطبعة الخيرية، ١٨٧٢م.

- ١١٩ - (كتاب) سليم بن قيس، التابعي سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦هـ)، تحقيق: محمد باقر الأنصاري، قم المشرفة: مطبعة الهادي، ١٤٢٠هـ.
- ١٢٠ - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ.
- ١٢١ - سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٧هـ.
- ١٢٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ)، بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٦م.
- ١٢٣ - شذور العقود في ذكر النقود، أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥هـ)، القاهرة: مطبعة إلياس، ١٩٣٩م.
- ١٢٤ - شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١هـ)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ.
- ١٢٥ - شرح شافية أبي فراس في مناقب الرسول ﷺ ومناقب بني العباس، القاضي محمد بن عبد الملك بن أحمد العقيلي (ت ٥٦٥هـ)، طهران: ١٤١٦هـ.
- ١٢٦ - شرح العقائد النسفية، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني (ت ٧٩٣هـ)، مصر: أفندي شاعر الكتبي، ١٣٣١هـ.
- ١٢٧ - شرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنة، عمر بن أحمد بن عثمان المعروف بابن شاهين (ت ٣٨٥هـ)، السعودية: مؤسسة قرطبة، ١٩٩٩م.
- ١٢٨ - شرح نهج البلاغة، عز الدين عبد الحميد بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي المعروف بابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار إحياء التراث، ١٣٨٧هـ.
- ١٢٩ - الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- ١٣٠ - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤١٠هـ.
- ١٣١ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم الشقيري (ت ٢٦١هـ)، القاهرة: مؤسسة محمد صبيح وأولاده، بدون تاريخ.

- ١٣٢ - الصحيفة السجادية - الجامعة لأدعية الإمام علي بن الحسين عليه السلام، إشراف: محمد باقر الأبطحي، قم المشرفة: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤١١هـ.
- ١٣٣ - صفات الشيعة ومصادقة الإخوان، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، طهران: عابدي، بدون تاريخ.
- ١٣٤ - صفوة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
- ١٣٥ - الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، أحمد بن حجر الهيتمي الكوفي (ت ٩٧٤هـ)، إعداد: عبد الوهاب عبد اللطيف، مصر: مكتبة القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- ١٣٦ - صيد الخاطر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دمشق: دار العلم، ٢٠٠٤هـ.
- ١٣٧ - طبقات الحنابلة، محمد بن محمد بن أبي يعلى (ت ٥٢٦هـ)، بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- ١٣٨ - الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م.
- ١٣٩ - عدة الداعي ونجاح الساعي، أحمد بن فهد الحلي (ت ٨٤١هـ)، قم المشرفة: مكتبة الوجداني، بدون تاريخ.
- ١٤٠ - العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.
- ١٤١ - علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٠٨هـ.
- ١٤٢ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي الحسيني المعروف بابن عنبه (ت ٨٢٨هـ)، النجف الأشرف: الحيدرية، ١٩٦١م.
- ١٤٣ - عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.
- ١٤٤ - عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، قم المشرفة: الشريف الرضي، ١٣٧٨هـ، ش.

- ١٤٥ - عيون الأخبار و فنون الآثار، ادريس بن الحسين بن الأنف القرشي الإسماعيلي (ت ٨٧٢هـ)، بيروت: دار الأندلس، بدون تاريخ.
- ١٤٦ - غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام، السيد هاشم بن سليمان البحراني (ت ١١٠٧هـ)، تحقيق: علي عاشور، قم المشرفة: الكتب العقائدية، ١٤٢١هـ.
- ١٤٧ - غاية النهاية في طبقات القراء، أبو الخير محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.
- ١٤٨ - عوالي اللئالي العزيفية في الأحاديث الدينية، محمد بن علي بن إبراهيم الإحسائي المعروف بابن جمهور (ت ٩٠٩هـ)، قم المشرفة: سيد الشهداء، ١٤٠٣هـ.
- ١٤٩ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي العسقلاني الشافعي المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- ١٥٠ - الفتوح، أحمد بن محمد بن علي بن أعثم (ت ٣١٤هـ)، تحقيق: علي شيري، بيروت: دار الأضواء، ١٩٩١م.
- ١٥١ - فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، بيروت: المعارف، ١٩٨٧م.
- ١٥٢ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، فخر الدين محمد بن نقيب النقباء تاج الدين أبي الحسن علي المعروف بأبي الطقطقي (ت ٧٠٩هـ)، طباعة بيروت، بدون تاريخ.
- ١٥٣ - فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين عليه السلام، إبراهيم بن محمد بن المؤيد الجويني (ت ٧٢٢هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، بيروت: المحمودي للطباعة، ١٩٧٨م.
- ١٥٤ - فرق الشيعة، الحسن بن موسى النوبختي (ت ٣١١هـ)، طبعة استانبول، ١٩٣١م.
- ١٥٥ - الفروق اللغوية (معجم)، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)، القاهرة: دار العلم والثقافة، بدون تاريخ.
- ١٥٦ - الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي المعروف بابن الصباغ (ت ٨٥٥هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٤٠٨هـ.
- ١٥٧ - القاموس المحيط، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦هـ.
- ١٥٨ - قرب الإسناد، عبد الله بن جعفر الحميري (من أعلام القرن الثالث الهجري)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٩٩٣م.

- ١٥٩ - قصص الأنبياء ﷺ، قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣هـ)، تحقيق: غلام رضا عرفانيان، مشهد: مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٠٩هـ.
- ١٦٠ - قصص العرب، إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.
- ١٦١ - الكافي: الأصول والفروع والروضة، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن أسحاق الكليني (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٩هـ.
- ١٦٢ - الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الشافعي، المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ.
- ١٦٣ - كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٣هـ)، بيروت: دار الأضواء، بدون تأريخ.
- ١٦٤ - كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، أبو القاسم علي بن محمد الخزاز القمي الرازي (ت ٤٠٠هـ)، تحقيق: عبد اللطيف الكوهكمري، قم المشرقة: بيدار، ١٤٠١هـ.
- ١٦٥ - كمال الدين وتمام النعمة، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٩١م.
- ١٦٦ - الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ)، قم المشرقة: جماعة المدرسين، ١٤٣٩هـ.
- ١٦٧ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، بيروت: مؤسسة الرسالة، بدون تأريخ.
- ١٦٨ - لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم المشهور بالخازن (ت ٧٢٥هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.
- ١٦٩ - لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت ٧١١هـ)، بيروت: دار صادر، ١٤١٠هـ.
- ١٧٠ - لسان الميزان، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٧١م.
- ١٧١ - اللهوف في قتلى الطفوف، ويسمى أيضا: (الملهوف على قتلى الطفوف)، رضي الدين علي ابن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٦٩هـ.
- ١٧٢ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت ٨٢١هـ)، تحقيق: عبد

- الستار أحمد، الكويت: مطبعة الحكومة، ١٩٨٥ م.
- ١٧٣ - مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) إمام دار الهجرة، عبد الغني الدقر، دمشق: دار القلم، ١٩٩٨ م، سلسلة أعلام المسلمين رقم ٢٣.
- ١٧٤ - المبدع في شرح المقنع، إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح (ت ٨٨٤ هـ)، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٧ م.
- ١٧٥ - مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، بيروت: دار العلوم للتحقيق، ٢٠٠٥ م.
- ١٧٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ)، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٩٩٤ م.
- ١٧٧ - مجموعة الرسائل الكبرى، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، الرسالة الوسطية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- ١٧٨ - مجموعة الفتاوى، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، القاهرة: دار الوفاء، ١٩٩٧ م.
- ١٧٩ - مجموعة وفيات الأئمة عليهم السلام، مجموعة من العلماء الأعلام، بيروت: دار البلاغة، ١٩٩١ م.
- ١٨٠ - المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤ هـ)، تحقيق: مهدي الرجائي، قم المشرفة: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ١٤١٣ هـ.
- ١٨١ - المحاسن والأصداد، إبراهيم بن محمد البيهقي (ت ٤١٨ هـ)، القاهرة: نهضة مصر، ١٩٦٦ م.
- ١٨٢ - المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٨٣ م.
- ١٨٣ - مختصر تأريخ دمشق، محمد بن مكرم بن علي المعروف بابن عساكر (ت ٧١١ هـ)، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤ م.
- ١٨٤ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨ هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧ م.
- ١٨٥ - مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول عليهم السلام، محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٤ هـ.

- ١٨٦ - مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، عبيد الله بن محمد بن عبد السلام المباركفوري (ت ١٤١٤هـ)، الهند: إدارة البحوث العلمية، ١٩٨٤ م.
- ١٨٧ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تحقيق: أسعد داغر، قم المشرفة: دار الهجرة، ١٤٠٩هـ.
- ١٨٨ - المسائل الفقهية، السيد عبد الحسين شرف الدين (ت ١٣٧٧هـ)، طهران: الإعلام الإسلامي، ١٤٠٧هـ.
- ١٨٩ - المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م.
- ١٩٠ - مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، الميرزا حسين النوري الطبرسي المعروف بالمحدث النوري (ت ١٣٢٠هـ)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليه السلام، ١٩٩١ م.
- ١٩١ - المستصفي، محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣ م.
- ١٩٢ - مستند الشيعة في أحكام الشريعة، أحمد بن محمد مهدي النراقي (ت ١٢٠٩هـ)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ١٤٢٩هـ.
- ١٩٣ - مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١ م.
- ١٩٤ - مصباح الكفعمي (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية)، تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥هـ)، النجف الأشرف: دار الكتب العلمية، ١٣٤٩هـ.
- ١٩٥ - مصباح التهجد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٩٨ م.
- ١٩٦ - مطالب السؤول في مناقب آل الرسول عليه السلام، محمد بن طلحة (ت ٦٥٢هـ)، بيروت: مؤسسة البلاغ، ١٩٩٩ م.
- ١٩٧ - معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم المشرفة: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٦١هـ، ش.
- ١٩٨ - المُعْتَبَر فِي شَرْحِ الْمُخْتَصَرِ، جعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلي (ت ٦٧٦هـ)، قم المشرفة: مؤسسة سيد الشهداء عليه السلام، ١٣٦٤هـ، ش.

- ١٩٩ - المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥هـ.
- ٢٠٠ - معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م.
- ٢٠١ - معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت ١٤١٣هـ)، بيروت: الطبعة الخامسة، ١٩٩٢م.
- ٢٠٢ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.
- ٢٠٣ - مقاييس اللغة (معجم)، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني المعروف بابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م.
- ٢٠٤ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، بيروت: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م.
- ٢٠٥ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- ٢٠٦ - مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني (ت ٤٥٠هـ)، بيروت: دار القلم، ٢٠٠٩م.
- ٢٠٧ - مقاتل الطالبين، علي بن الحسين بن محمد المعروف بأبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ)، بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- ٢٠٨ - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م.
- ٢٠٩ - مقالات الإسلاميين، علي بن إسحاق بن إسحاق الأشعري (ت ٣٢٤هـ)، المانيا: دار فرانز شتاير، ١٩٨٠م.
- ٢١٠ - مقالات الأصول، الشيخ ضياء الدين العراقي (ت ١٣٦١هـ)، قم المشرفة: مجمع الفكر الإسلامي، ١٤٢٠هـ.
- ٢١١ - مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي المعروف بالخوازمي (ت ٥٦٨هـ)، قم المشرفة: أنوار الهدى، ١٤٢٣هـ.
- ٢١٢ - مكارم الأخلاق، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، بيروت: الأعلمي،

١٩٨٢م.

٢١٣ - المكايل والموازين الشرعية، علي جمعة محمد، القاهرة: القدس للإعلان والنشر، ٢٠٠١م.

٢١٤ - الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، تحقيق: محمد سعيد كيلاني،

مصر: الحلبي، ١٩٦٧م.

٢١٥ - المناقب، موفق بن أحمد بن محمد الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ)، قم المشرقة: جماعة المدرسين،

١٤١١هـ.

٢١٦ - مناقب أبي حنيفة، أحمد بن سعيد المكي (ت ٥٦٨هـ)، حيدرآباد: دائرة المعارف العثمانية،

١٣١١هـ.

٢١٧ - مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني (ت ٥٨٨هـ)، قم

المشرقة: المطبعة العلمية، بدون تاريخ.

٢١٨ - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد بن عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ)، القاهرة:

البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.

٢١٩ - المنتظم في تأريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي المعروف بابن

الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م.

٢٢٠ - منتهى المطلب في تحقيق المذهب، حسن بن يوسف بن مطهر المعروف بالعلامة الحلي

(ت ٧٢٦هـ)، مشهد: مجمع البحوث الإسلامية، ١٤١٢هـ.

٢٢١ - من لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق

(ت ٣٨١هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٤٠٨هـ.

٢٢٢ - منهاج السنّة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، الرياض: جامعة محمد بن

سعود، ١٤٠٦هـ.

٢٢٣ - منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، جمال الدين بن يوسف بن علي بن مطهر المعروف

بالعلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ)، تحقيق: عبد الرحيم مبارك، إيران: مؤسسة عاشوراء ١٣٧٩هـ، ش.

٢٢٤ - مَهْج الدعوات ومنهج العبادات، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)،

بيروت: الأعلمي، ١٩٩٤م.

٢٢٥ - المواهب اللدنية، أحمد بن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣هـ)، تحقيق: صالح أحمد الشامي،

بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى.

- ٢٢٦ - (كتاب) المؤمن، الحسين بن سعيد الكوفي الأهوازي (من أصحاب الأئمة: الرضا، والجاد، والهادي عليهم السلام)، قم المشرفة: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، ١٤٠٤ هـ.
- ٢٢٧ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣ م.
- ٢٢٨ - الميزان في الأقيسة والأوزان، علي باشا مبارك (ت ١٣١٠ هـ)، القاهرة: المطبعة الأميرية الكبرى، ١٨٩٢ م.
- ٢٢٩ - الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٠ هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٧٣ م.
- ٢٣٠ - نثر الدر، أبو منصور بن الحسين الآبي (ت ٤٢١ هـ)، تحقيق: محمد علي قرنة، مصر: الهيئة المصرية للكتاب.
- ٢٣١ - نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، عباس بن علي بن نور الدين الحسيني المكي (ت ١١٨٠ هـ)، النجف الأشرف: الحيدرية، ١٩٦٧ م.
- ٢٣٢ - نقد الرجال، مصطفى بن الحسين الحسيني التفرشي (من أعلام القرن الحادي عشر الهجري)، قم المشرفة: تحقيق وطبع مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٣٧٦ هـ، ش.
- ٢٣٣ - النقود الإسلامية، المسمى بـ (شذور العقود في ذكر النقود)، أحمد بن علي المقرزي (ت ٨٤٥ هـ)، ضمن ثلاث رسائل، القسطنطينية: مطبعة الجوائب، ١٢٩٨ هـ.
- ٢٣٤ - النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك محمد بن محمد الجزائري ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)، بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٧٩ م.
- ٢٣٥ - نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري (ت ٧٣٣ هـ)، القاهرة: دار الكتب والوثائق، ١٤٢٣ هـ.
- ٢٣٦ - نهج البلاغة (مجموعة خطب مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأوامره وكتبه ورسائله)، جمع محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، قم المشرفة: مركز الأبحاث العقائدية، ١٤١٩ هـ.
- ٢٣٧ - نهج البلاغة (ما اختاره الشريف الرضي من أقوال الإمام علي عليه السلام)، شرح محمد عبده (ت ١٣٢٢ هـ)، بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ.
- ٢٣٨ - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار عليهم السلام، مؤمن بن حسن الشبلنجي (من علماء القرن الثالث عشر الهجري)، قم المشرفة: الشريف الرضي.

- ٢٣٩ - نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار عليه السلام، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ)، القاهرة: دار الحديث، بدون تاريخ.
- ٢٤٠ - الهداية (في الأصول والفروع)، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ)، قم المشرفة: مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، ١٤١٨هـ.
- ٢٤١ - (تفصيل) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، قم المشرفة: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ١٩٩٥م.
- ٢٤٢ - وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.
- ٢٤٣ - الياقوتة (مواظ ابن الجوزي)، عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، طنطا: دار الصحابة للتراث، ١٩٩٠م.
- ٢٤٤ - ينابيع المودة، سليمان بن إبراهيم الحسيني القندوزي (ت ١٢٩٤هـ)، بيروت: الأعلمي، ١٩٩٧م.

المحتويات

الفصل الأول / الترجمة التاريخية

١٩	ترجمة حياة الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> من ولادته ...
٣٤	الدلالات:
٣٦	أخوة الباقر <small>عليه السلام</small> :
٣٩	زوجاته وأولاده <small>عليهم السلام</small> :
٥٠	الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> والقرآن الكريم في المجتمع:
٥١	في قضايا القرآن:
٦٥	قصائد الكميت بمحضر الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> :
٦٥	١ - في (الهاشميات):
٦٦	٢ - الميمية من (الهاشميات):
٦٧	٣ - فيها حلّ بأهل البيت <small>عليهم السلام</small> :
٦٨	٤ - العينية من (الهاشميات):
٧٨	الدلالات:
٨٠	الدلالات:
٨١	النقود: في اللغة
٨١	النقود: في الإصطلاح
٨٥	الدلالات:
٩٠	الدلالات:
٩٢	الدلالات:
٩٣	تشجيعه المؤمنين على طلب العلم:
١٠٠	الدلالات:
١٠١	من قلدح في أعلميته:
١٠٢	الدلالات:

الفصل الثاني / الخصائص الشخصية

١١٣	(١) خصائص العصمة
-----	------------------

- ١١٥ خصائص العصمة
- ١٢٠ قضية الأفضلية:
- ١٢٣ الإمامة: الدليل العقلي
- ١٣٥ الإمامة: الدليل الشرعي
- ١٣٦ النص على إمامة محمد الباقر عليه السلام:
- ١٣٦ أ - المروي عن النبي صلى الله عليه وآله:
- ١٣٨ ب - المروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:
- ١٣٨ ج - المروي عن الإمام السجاد عليه السلام:
- ١٤٠ الدلالات:
- ١٤٨ الإمامة والعلم:
- ١٤٩ آلية المعرفة عند الإمام عليه السلام:
- ١٥٨ خصائص علم الإمام الباقر عليه السلام:
- ١٦٥ مصاديق علم الإمام عليه السلام:
- ١٦٩ الدلالات:
- ١٧١ التقوى في اللغة:
- ١٧٢ التقوى في القرآن الكريم:
- ١٧٤ الخوف من الله تعالى: المبدأ
- ١٧٥ الخوف من الله تعالى: الخصائص
- ١٧٩ الخوف من الله تعالى: بين النفس والعقل
- ١٨٢ مصاديق تقوى الإمام عليه السلام:
- ١٨٥ حول التقوى:
- ١٨٦ الدلالات:

الفصل الثالث / الخصائص الشخصية

- ١٨٩ (٢) الخصائص العامة
- ١٩١ الخصائص العامة
- ١٩١ العبادة: الدليل العقلي
- ١٩٣ العبادة: الدليل القرآني
- ١٩٤ العبادة: المصاديق العملية

١٩٦	في خطبة صلاة الجمعة:
١٩٩	الدلالات:
٢٠٠	نماذج من دعائه ﷺ:
٢٠٧	الدلالات:
٢١٥	من مصاديق حِلْم الإمام ﷺ:
٢١٨	الصبر في القرآن الكريم:
٢٢٠	الصبر: الدليل العقلي
٢٢١	ما بين الصبر والانتظار:
٢٢٣	الصبر والزمن:
٢٢٤	الجزء:
٢٢٥	النتيجة:
٢٢٦	من مصاديق صبره ﷺ:
٢٢٧	الدلالات:
٢٢٩	الكرم والجود في اللغة:
٢٣٠	الكرم في القرآن الكريم:
٢٣١	الكرم والجود: الدليل العقلي
٢٣٢	شروط الكرم عند الإمام ﷺ:
٢٣٥	مصاديق كرم الإمام ﷺ:
٢٤٢	جِنْبَةُ البلاغة عند الإمام ﷺ:
٢٤٦	الدلالات:
٢٥٢	الدلالات:
٢٥٧	البلاغة: الدليل العقلي
٢٦٤	البلاغة في تقديم الفكر الديني:
٢٦٦	المادة والشكل في البلاغة:
٢٧٠	خاتمة:

الفصل الرابع / المنهج العلمي عند الإمام الباقر ﷺ

٢٧٣	المنهج العلمي عند الإمام الباقر ﷺ
٢٧٤	عناصر المنهج العلمي:

- ٢٧٨ مقدمة:
- ٢٧٨ معالم المنهج العلمي:
- ٢٨١ مقدار العلم في جملة (لا أدري):
- ٢٨٦ طرق المنهج العلمي عند الإمام عليه السلام:
- ٢٩١ أ - منهج الإمام الباقر عليه السلام في التفسير:
- ٢٩٩ ب - منهج الإمام عليه السلام في الأخذ بالحديث:
- ٢٩٩ أولاً: القواعد الفقهية:
- ٣٠١ ثانياً: القواعد العلاجية:
- ٣٠٥ الطريق الأول: الاستدلال المباشر بالقرآن الكريم:
- ٣٠٥ بيان:
- ٣٠٧ بيان:
- ٣٠٨ الطريق الثاني: الاستدلال بالكتاب والسنة معاً:
- ٣٠٩ بيان:
- ٣١٣ الطريق الثالث: تفسير القرآن الكريم:
- ٣١٦ الطريق الرابع: النهي عن التفسير بالرأي:
- ٣١٩ تفسير القرآن الكريم
- ٣١٩ في التوحيد:
- ٣٢١ النبوة:
- ٣٢١ في الإمامة والولاية:
- ٣٢٥ في الناس:
- ٣٢٥ اللجنة:
- ٣٢٦ دلالات تفسير الإمام الباقر عليه السلام:
- ٣٢٩ الحديث الشريف
- ٣٣٠ ما رواه الإمام الباقر عليه السلام:
- ٣٣٢ الدلالات:
- ٣٣٣ الاعتقادات
- ٣٣٤ أ - في التوحيد:
- ٣٣٦ ب - في الإمامة:

الفصل الخامس / أصول المناظرة والاحتجاج عند الإمام الباقر عليه السلام

٣٤٥	أصول المناظرة والاحتجاج عند الإمام الباقر <small>عليه السلام</small>
٣٤٦	المناظرة:
٣٤٧	الجدل:
٣٤٨	الدليل: في المناظرة:
٣٤٨	البرهان: في اللغة والقرآن والمنطق:
٣٤٩	أ- البرهان: في اللغة
٣٤٩	ب- البرهان: في القرآن الكريم
٣٥١	ج- البرهان: في المنطق
٣٥٢	القرآن الكريم وأهل البيت <small>عليهم السلام</small> :
٣٥٤	نماذج المناظرات في القرآن الكريم:
٣٥٤	١ - مناظرة النبي إبراهيم <small>عليه السلام</small> مع النمرود:
٣٥٥	مبنى المناظرة:
٣٥٦	٢ - مناظرة النبي موسى <small>عليه السلام</small> مع فرعون:
٣٥٨	٣ - مناظرة النبي محمد <small>عليه السلام</small> مع نصارى نجران:
٣٦١	طرق المناظرة عند الإمام <small>عليه السلام</small> :
٣٦١	النظرية الأولى: المناظرة بأسلوب الوسائط:
٣٦٢	وسائط المناظرة:
٣٦٣	من مصاديقها:
٣٦٦	الاستنتاج:
٣٦٦	النظرية الثانية: إعادة التوجيه والاستدلال:
٣٧١	بيان:
٣٧٢	الاستنتاج:
٣٧٢	النظرية الثالثة: أسلوب الإجابة السريعة الخاطفة
٣٧٥	بيان:
٣٧٧	بيان:
٣٧٩	بيان:

- ٣٨٠ الاستنتاج:
 النظرية الرابعة: المناظرة بالاستدلال التفصيلي:
 ٣٨٠ بيان:
 ٣٨٢ بيان:
 ٣٨٧ بيان:
 ٣٨٩ بيان:
 ٣٩٠ بيان:
 ٣٩٠ الاستنتاج:
 ٣٩٥ الاستنتاج:
 ٣٩٨ في البرهان التحليلي غير المباشر:

الفصل السادس المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام

- ٤٠٣ المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام
 ٤٠٣ بين المدرستين الفكرية والفقهية
 ٤٠٤ المدرسة الفقهية:
 ٤٠٥ مباني المدرسة الفقهية عند الإمام الباقر عليه السلام:
 ٤١٧ خصائص المدرسة الفقهية:
 ٤٢٣ المدرسة الفقهية وأهل البيت عليهم السلام:
 ٤٢٤ أهل البيت عليهم السلام والمسلمون:
 ٤٢٤ ١ - من هم أئمة أهل البيت عليهم السلام?
 ٤٢٦ ٢ - من نحن الذين أمرنا الله تعالى باتباعهم?
 ٤٢٧ ٣ - ما هي طبيعة التكاليف التي أمرنا أن يوصلوها إلينا?
 ٤٢٩ ٤ - ما هي طبيعة المكلفين الذين وجب عليهم الأخذ بالتكاليف?
 ٤٣٠ مزايا المدرسة الفقهية للإمام عليه السلام:
 ٤٣٤ الدقة في المدرسة الفقهية:
 ٤٣٩ النظام المعرفي الفقهي:
 ٤٤٠ عناصر النظام المعرفي الفقهي:
 ٤٤٦ مصاديق فقه الإمام الباقر عليه السلام:
 ٤٤٧ كتاب الطهارة:
 ٤٥٥ كتاب الصلاة:

٤٧٩	كتاب الصوم:
٤٨٤	كتاب الزكاة والخمس:
٤٩١	كتاب الحج:
٤٩٣	كتاب المعيشة:
٤٩٦	كتاب النكاح:
٤٩٨	كتاب الطلاق:
٥٠١	كتاب الأولاد:

الفصل السابع / الفكر المضاد

٥٠٧	الفكر المضاد
٥١١	أقسام القياس:
٥١٢	موقف أئمة أهل البيت <small>عليهم السلام</small> من القياس:
٥١٤	الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> مع أبي حنيفة:
٥١٥	الدلالات:
٥١٨	الصراع بين المفوضة والمجبرة:
٥٢١	الاستدلال والاستدلال المضاد:
٥٢٣	موقف أئمة أهل البيت <small>عليهم السلام</small> وبالخصوص الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> :
٥٢٧	اعتقادات المرجئة:
٥٢٨	الرّد على المرجئة:
٥٣٢	مصاديق الغلو:
٥٣٥	التعامل مع الغلو:
٥٤١	الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> والغلاة:
٥٤٣	من أثبت التجسيم:
٥٤٥	من نفى التجسيم:
٥٤٧	الآيات الرئيسية في التجسيم:
٥٥٠	الإمام الباقر <small>عليه السلام</small> يردُّ على فكرة التجسيم:

الفصل الثامن / المعالم الاجتماعية

٥٦٦	التجارة والاقتصاد:
-----	--------------------

- ٥٦٨ القضاء:
- ٥٦٩ بيت المال:
- ٥٧٠ السياسة:
- ٥٧٣ تزوير الحقائق التاريخية:
- ٥٧٤ محور الوضع في الرواية:
- ٥٧٦ الدلالات:
- ٥٧٨ حسابات الدرهم الإسلامي:
- ٥٨٢ ١ - مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ):
- ٥٨٣ ٢ - عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ):
- ٥٨٤ الحجاج بن يوسف (ت ٩٥هـ):
- ٥٨٧ خطبة الحجاج في الكوفة:
- ٥٨٩ ٣ - الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ):
- ٥٩٠ ٤ - سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ):
- ٥٩١ ٥ - عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ):
- ٥٩٢ ٦ - يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ):
- ٥٩٣ ٧ - هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ):

الفصل التاسع / نصوصٌ منتقاةٌ

- ٥٩٩ نصوصٌ منتقاةٌ
- ٦١٣ المصادر والفهرست
- ٦١٤ المصادر